عصر اسماعيل

بقلم

عبد الرحمن الرافعي بك

الجزء الأول

الطبعة الثانية

١٣٦٧ هـ - ١٩٤٨ م

محتويات الكتاب

(الجزء الأول) يشتمل على عهد عباس وسعيد وأوائل عهد اسماعيل

(الجزء الثاني) وفيه ختام الكلام عن عصر اسماعيل

ثمن الجزء الأول
٣٠ قرشاً

ملتزم الطبع والنشر

مكتبة النهضة المصرية

٩ ش عدلي باشا - ت ٥١٣٩٤ - القاهرة

مطبعة دار الفكرة ش منشأة الفاضل

عصر اسمعيل

بقلم

عبد الرحمن الرافعي بك

الجزء الأول

الطبعة الثانية

١٣٦٧ هـ — ١٩٤٨ م

محتويات الكتاب

(الجزء الأول) يشتمل على عهد عباس وسعيد وأوائل عهد اسماعيل

(الجزء الثانى) وفيه ختام الكلام عن عصر اسماعيل

ثمن الجزء الأول
٣٠ قرشاً

ملتزم الطبع والنشر

مكتبة النهضة المصرية

٩ ش عدلى باشا — ت ٥١٣٩٤ — القاهرة

مطبعة دار الفكرة ش منشاة الفاضل

مقدمة الطبعة الثانية

ظهرت الطبعة الأولى لهذا الكتاب فى ديسمبر سنة ١٩٣٢ ، وشغلتُ بعدها بإخراج الحلقات التالية من هذه المجموعة ، وقد أفدت من الانتظار هذه السنين قبل إخراج الطبعة الثانية ، إذ تسنى لى أن أطلع على ماظهر خلالها من كتب وتراجم ، ومؤلفات ووثائق ، عن عصر اسماعيل ، يتفق بعضها مع وجهة نظرى فى الكتابة عنه ، وبعضها يعارضها ، وقد يكون رداً عليها ، ثم أمعنت النظر أيضاً فى البحوث والمقالات والخطب التى ألقيت سنة ١٩٤٥ فى دار الأوبرا الملكية ، وفى غيرها من المحافل والمعاهد ، لمناسبة مرور خمسين عاما على وفاة الخديو اسماعيل ، وأعدت النظر فيما كتبت عنه سنة ١٩٣٢ ، لعلى أكون قد أخطأت فى موضع من المواضع ، فأصحح خطئى ، أو انحرفت عن الرأى الصواب ، فأعدل عن رأيى ، ولا غضاضة على الإنسان فى أن يعدل عن رأيه إذا تبين له خطؤه فالحقيقة بنت البحث ، والعصمة لله وحده ، على أنى بعد أن استكملت هذه الدراسة ازددت اطمئنانا إلى صحة ما كتبتُ ودوّنتُ عن عصر اسماعيل ، واعتقدت أكثر مما كنت أعتقد أنى لم أتجاوز الحقيقة فيما ذكرت له أو عليه ، وهذا هو واجب المؤرخ فى التراجم ، فعليه أن يذكر ما للمترجم وما عليه ، أما أن يذكر الحسنات دون السيئات ، أو يقتصر على هذه ويغفل الحسنات ، فهذا ليس من التاريخ الصحيح ، وما لا ينبغى أن يكون أساس البحث والتدوين ، والتاريخ الصحيح يقتضى ذكر الحقائق بأكملها ، لتكون الصور التى يعرضها المؤرخ عن الحوادث والشخصيات صوراً صحيحة ، لاتشويه فيها ولا إبهام

وعلى ذلك فإنى أعيد طبع هذا الكتاب ، دون أن أغير أو أنقص منه شيئاً

فالطبعة الثانية هى ذات الطبعة الأولى . لاتغيير فيها ولاتبديل ، ولم أزد عليها سوى إضافات يسيرة بالجزء الثانى ، لاتتجاوز ثلاثاً ، وقد حرصتُ على أن أجعلها فى هامش الكتاب ، لكى يبقى الأصل كما أخرجته أول مرة ، وأضفت إلى الوثائق التاريخية النص

الكامل للائحة تأسيس مجلس شورى النواب ولائحته النظامية ، وكنت قد لخصت أحكامهما في الطبعة الأولى ، فأبقيت التلخيص كما هو ، وأضفت إليه نصوص اللائحتين ، وأردت من نشرها استكمال الوثائق التاريخية الهامة عن هذا العصر ، ولم أزد على ذلك شيئاً

والله أسأل أن يلهمنا قول الحق ، ويجنّبنا مواطن الزلل ، ويهدينا سواء السبيل ؟

اكتوبر سنة ١٩٤٨ — عبد الرحمن الرافعي

مقدمة الطبعة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

بهذا الكتاب ندخل فى غمار العصر الحديث من تاريخ الحركة القومية ، إذ كان عهد الخديو اسماعيل أكثر العهود صلة بعصرنا الحاضر ، وأقربها منا أثراً

أخرجنا قبل الآن ثلاثة أجزاء من هذا التاريخ ، بسطنا فى الأول منها منشأ الحركة القومية فى تاريخ مصر الحديث ، وكشفنا عن الدور الأول من أدوارها وهو عصر المقاومة الأهلية التى اعترضت الحملة الفرنسية فى مصر ، واشتمل الثانى على تتمة المقاومة الشعبية ووقائعها إلى انتهاء الحملة الفرنسية ، وتطور الحياة القومية من بعد ذلك إلى ارتقاء محمد على أريكة مصر بإرادة الشعب ، ثم أفردنا الجزء الثالث لعصر محمد على ، وفصلنا الكلام فيه عن ظهور الدولة المصرية الحديثة ، وتحقيق استقلالها ، وتأليف وحدتها القومية بفتح السودان وضمه إلى حظيرة الوطن ، وما تم فى ذلك من جلائل الأعمال

وكتابنا اليوم يتضمن الحديث عن خلفاء محمد على و « عصر اسماعيل » ، وقد جعلناه فى جزأين ، كتابا مستقلا ، لاشتماله على صفحة قائمة بذاتها فى تاريخ مصر القومى ، وسنحذو هذا الحذو فيما نخرجه بمشيئة الله من سلسلة تاريخ الحركة القومية فنجعل لكل عهد منها كتابا مجتمعا ، فالكتاب الآتى فى (الثورة العرابية والاحتلال الانجليزى) ، والذى يليه عن (مصطفى كامل) ، وهلم جرا

*
* *

إن الحقبة من الزمن التى تولى الحكم فيها عباس الأول ، ثم سعيد ، ثم اسماعيل ، هى صفحة هامة من تاريخ مصر القومى ، لأنها بمثابة دور الانتقال من عصر محمد على إلى الثورة العرابية

انقضى عصر محمد على وابراهيم بعد أن توطدت دعائم الدولة المصرية المستقلة ،

وتأسس الجيش المصرى ، والأسطول المصرى ، والثقافة المصرية ، ووضعت قواعد النهضة العلمية والاقتصادية فى البلاد

ثم جاء عهد عباس الأول ، ويصح اعتباره عهد الرجعية والنكسة ، لأن فيه وقفت حركة التقدم وفترت النهضة التى ظهرت على عهد محمد على

ثم كان عهد سعيد ، ويمتاز بظهور نهضة وطنية جديرة بأن تعد من أدوار الحركة القومية ، ترجع إلى نزعة سعيد الوطنية ، وميله إلى خير المصريين ورفاهيتهم ، والعمل على تحريرهم من نير المظالم ، وبث روح القومية فى نفوسهم ، والنهوض بهم للمناصب العالية فى الجيش والإدارة ، ولـكن إلى جانب هذه المحامد ، بدأت على عهده ثغرات التدخل الأجنبى فى شؤون مصر ، بإقراره إنشاء قناة السويس على يد شركة أوروبية ، مخالفا فى ذلك تعاليم أبيه العظيم ، وافتتاحه عهد القروض الأجنبية التى جرت الـكوارث على البلاد ، وكانت سلاسلها وأغلالها

ثم جاء عهد اسماعيل ، وهو عصر طويل ، يتمثل فيه تاريخ مصر القومى والسياسى فى إبان النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، ويعد عصراً هاماً ، له أثره النافع ، كما له أثره الضار ، فى تطور الحركة القومية ، ذلك لما تفتحت فيه من آمال ، وما قام فيه من نهضة ورقى وعمران ، ثم ما تخلله واقترن به من أخطاء وأرزاء أدت إلى التدخل الأجنبى ، وإذا كانت مصر تشعر إلى اليوم بنتائج النهضة التى قامت فى ذلك العهد ، وتجنى من ثمارها ، وتلمس آثارها بيديها ، فإنها أيضاً تعانى عواقب الأغلاط التى وقعت فيه ، وتدفع ثمنها غالياً ، من مالها وحقوقها ومرافقها ، هذا إلى أن معظم القيود والنظم التى تقررت فى ذلك العصر لاتزال قائمة إلى اليوم (١٩٣٢) ، فالتشريع المختلط ، وتغلغل الأجانب فى مرافق مصر والديون التى كبلت البلاد حـكومة وشعباً ، والتدخل الأجنبى فى شؤون مصر المالية والسياسية ، كل هذه القيود ترجع إلى عهد اسماعيل

⁂

كان هذا العهد عصر تقدم ونهضة ، إذ نال الخديو اسماعيل من تركيا أقصى ما يمكن من الحقوق والمزايا توصلا بمصر إلى الاستقلال التام ، وأكمل فتح السودان ، ومد

حدود الدولة المصرية إلى منابع النيل ، وشواطىء المحيط الهندى ، أى إلى تخومها الطبيعية ، فكان عمله من هذه الناحية عظيما مجيداً ، وعنى بتنظيم الجيش وترقية التعليم الحربى ، وإنهاض البحرية المصرية ، وإقامة أعمال العمران فى مختلف النواحى ، وبعث النهضة العلمية والفكرية من مرقدها ، بإنشاء المدارس والمعاهد ، وتأسيس الجمعيات العلمية ، وتشجيع التأليف والصحافة ، ورعاية العلوم والآداب والفنون ، وأسس نوعاً من الحياة النيابية بإنشائه مجلسا محدود السلطة يعرف بمجلس شورى النواب ، كان له الأثر البالغ فى تطور الحركة الوطنية

فنى عصر اسماعيل حدثت نهضة زاهرة ، يزدان بها تاريخه ، ولكن هذه النهضة قد تعثرت فى سيرها لما شابها من إسراف الخديو وبذخه ، وركونه إلى الأوروبيين ، وشديد ثقته بهم ، واعتماده عليهم ، فأدت هذه العوامل مجتمعة إلى تورطه فى القروض الباهظة التى نامت البلاد بحملها ، من حيث لم تكن فى حاجة إليها ، فكانت الذريعة التى توسلت بها الدول الاجنبية لتعبث بحقوق مصر الخالدة ، فوقع هذا العبث ، وتعددت مظاهره ، فمن إنشاء صندوق الدين ، إلى فرض الرقابة الثنائية على مالية مصر ، إلى تأليف لجنة تحقيق أجنبية لفحص شؤون الحكومة المالية ، إلى تعيين وزيرين أوروبيين فى الوزارة المصرية ، إلى تغلغل نفوذ الأجانب عامة فى مرافق البلاد ، فهذه الأحداث الجسام قد تصدع لها صرح الاستقلال الذى نالته مصر بجهودها وتضحياتها العظيمة من عهد محمد على

*

أثارت هذه الكوارث سخط الأحرار من ذوى الرأى والمكانة فى البلاد ، فظهرت فى صفوفهم حركة وطنية تردد صداها فى الصحف وفى مجلس شورى النواب ، واتجهت غايتها إلى إنقاذ مصر من التدخل الأجنبي ، وتقرير النظام الدستورى أساساً للحكم فيها ، وتبادل زعماؤها الرأى فى اجتماعات عقدوها بدار السيد على البكرى ومنزل اسماعيل راغب باشا ، واجتمعت كلمتهم فى (الجمعية الوطنية) على المطالبة بتأليف وزارة وطنية خالصة المصريين ، خالية من الوزراء الأوروبيين ، وتقرير مبدأ المسئولية الوزارية أمام مجلس شورى النواب ، فاستجاب الخديو اسماعيل لمطالب الأحرار ، وعهد إلى شريف

باشا الوزير المشهور تأليف الوزارة الوطنية ، على أن تكون خالية من العنصر الأوروبى ، مسئولة أمام مجلس الأمة (وثيقة ٧ ابريل سنة ١٨٧٩) ، فألف شريف باشا الوزارة على هذا الأساس ، فكانت أول وزارة مسئولة أنجبتها الحركة الوطنية فى تاريخ مصر الحديث ، وكان من أعظم أعمالها وأجلها شأنا أنها وضعت دستوراً على أحدث المبادئ العصرية وقدمته إلى مجلس شورى النواب لينال إقراره ، وخولت ذلك المجلس سلطة « جمعية تأسيسية » تملك حق إقرار الدستور وتعديله

على أن الدول الاستعمارية لم تنظر بعين الرضا إلى ظهور هذه الحركة واطرادها ، واشتداد ساعدها ، بجمع كلمة الأمة حولها ، ومناصرة الخديو لها ، فسعت لإحباطها ، وبدأت مؤامرتها بالاعتراض على أول مشروع مالى للوزارة الوطنية ، ثم عملت على أن تخلع الخديو ، وكانت تركيا من الضعف وسوء النية نحو مصر بحيث أجابت طلب الدول ، وأعلنت خلع اسماعيل وإسناد منصب الخديوية إلى توفيق باشا (يونيه سنة ١٨٧٩)

ثم استمرت المصادمة بين الحركة القومية والمطامع الأوروبية ، إلى أن بلغت طوراً جديداً ، هو المعروف بالثورة العرابية ، فالثورة من هذه الناحية تعد ردّ فعل للتدخل الأجنبي الذى وقع فى عهد اسماعيل ، ومطالبها الأساسية هى فى جوهرها المطالب التى اجتمعت عليها كلمة الأحرار فى (الجمعية الوطنية) ، والدستور الذى تمخضت عنه الثورة سنة ١٨٨٢ ، مقتبس من دستور سنة ١٨٧٩

⁂

فإلى عهد اسماعيل ترجع إذن مقدمات الثورة العرابية ، وهى تطور للحركة الوطنية التى ظهرت فى ذلك العهد ، وعندى أن هذه الحركة كانت أسلم عاقبة وأدعى إلى الإعجاب والتقدير من الثورة العرابية ، ذلك أن الحركة الأولى كان قوامها نهضة الأفكار والآراء ، ونضج العقول والقرائح ، وتبادل الرأى والمشورة ، على حين جاءت الحركة العرابية وقوامها الاعتداد بقوة الجيش وحسب ، فتضاءل العامل الفكرى والمعنوى ، فى طورها الأخير ، وخفت صوت الحكمة والتعقل ، إلى جانب صوت السيف والمدفع ، ومن ثم تنكبت الحركة سبيل الرشاد ، وركبت متن الشطط ، وانفسح المجال للدسائس الأجنبية تنصب أشراكها ،

والمطامع الاستعمارية تدبر مكايدها ، حتى انتهت الثورة بالاحتلال الانجليزى الذى مازلنا نعانيه إلى اليوم (سنة ١٩٣٢)

فلبيان التطورات التى تعاقبت على البلاد فى عهد خلفاء محمد على إلى انتهاء عصر اسماعيل ، قد خصصتُ هذا الكتاب ، جاعلا وجهتى السعى إلى استخلاص الحقائق والعظات ، من الحوادث وملابساتها ، لنتعرف الحاضر على ضوء الماضى ، ونصل الأسباب بمسبباتها ، والنتائج بمقدماتها ، عسى أن يكون لنا فى ذلك ماتسترشد به فى حياتنا القومية ، أو نستظهر به على مانحن بسبيله من جهاد فى سبيل الوطن

أسأل الله أن يعصمنا من الزلل ، ويلهمنا السداد فى القول والعمل ، ويوفقنا إلى ما فيه تحقق الأمل ، إنه نعم المولى ونعم المصير

للذكرى

اليومَ ختام العام الخامس لوفاة فقيد الوطن المرحوم أمين بك الرافعى

اليوم يطوى الزمان خمس سنوات على احتجابك عنا يا أمين ! ، وذكراك باقية فى النفوس ماثلة فى الأذهان ، يجددها مر الليالى وكر الأعوام

فالى روحك الطاهرة الثاوية فى دار الابدية ، أبعث بتحيات الذكرى ، يرسلها القلب وتفيض بها المشاعر ، ويحملها الرجاء الى عالم الأرواح .

وإلى بارىء تلك النفس الكريمة ، أتوجه بالدعاء ، أن يسبغ عليها آية السكينة والطمأنينة ، فيانفس أمين ! ، اسكنى إلى جوار ربك راضية مرضية ، وياروح أمين ! سلام ، وريحان ، وجنة ونعيم ؟

٢٩ ديسمبر سنة ١٩٣٢ — عبد الرحمن الرافعى

الفصل الأول

الرجعية فى عهد عباس باشا الاول

١٨٤٨ – ١٨٥٤

يصح اعتبار عصر عباس باشا الأول عهد رجعية ، ففيه وقفت حركة التقدم والنهضة التى ظهرت فى عهد محمد على

ولى عباس حلى الحكم بعد وفاة ابراهيم ، وفى حياة محمد على باشا ، وهو ابن طوسون بن محمد على ، لم يرث عن جده مواهبه وعبقريته ، ولم يشبه عمه ابراهيم فى عظمته وبطولته ، بل كان قبل ولايته الحكم وبعد أن تولاه خلواً من المزايا والصفات التى تجعل منه ملكا عظيما يضطلع بأعباء الحكم ويسلك بالبلاد سبيل التقدم والنهضة

نشأة عباس

بذل محمد على شيئا من العناية فى تعويد عباس ولاية الحكم إذ كان أكبر أفراد الأسرة العلوية سنا ، وبالتالى أحقهم بولاية الحكم بعد ابراهيم باشا ، فعهد اليه بالمناصب الادارية والحربيـــة ، فتقلد من المناصب الإدارية منصب مدير الغربية ، ثم منصب الكتخدائية التى كانت بمنزلة رآسة النظار ، ولم يكن فى إدارته مثالا للحاكم البار ، بل كان له من التصرفات ما ينم عن القسوة ، وكان يبلغ جده نبأ بعض هذه التصرفات ، فينهاه عنها ، ويحذره من مواقبها ، ولكن طبيعته كانت تتغلب على نصـــائح جده وأوامره

وأما من الوجهة الحربية فقد اشترك مع ابراهيم باشا فى الحرب السورية ، وقاد فيها أحد الفيالق ، ولكنه لم يتميز فيها بعمل يدل على البطولة أو الكفاءة الممتازة

وبالجملة فلم تكن له ميزة تلفت النظر ، سوى أنه حفيد رجل عظيم أسس ملكا

كبيراً ، فصار اليه هذا الملك ، دون أن تؤول اليه مواهب مؤسسه ، فكان شأنه شأن الوارث لتركة ضخمة جمعها مورثه بكفاءته وحسن تدبيره وتركها لمن هو خلو من المواهب والمزايا

وكان ابراهيم باشا لايرضيه من عباس سلوكه وميله إلى القسوة وكثيراً ما نقم عليه نزعته إلى إرهاق الأهلين ، حتى اضطره إلى الهجرة للحجاز ، وبقى هناك إلى أن داهم الموت عمه العظيم

ولايته الحكم

كان عباس باشا متغيبا بالحجاز لما عاجلت المنية ابراهيم باشا ، فاستدعى إلى مصر ليخلفه على دست الأحكام تنفيذاً لنظام التوارث القديم الذى يجعل ولاية الحكم للأرشد فالأرشد من نسل محمد على ، وتولى الحكم فى ٢٤ نوفمبر سنة ١٨٤٨ (٢٧ ذى الحجة سنة ١٢٦٤ هـ)

أخلاقه

بقى عباس فى الحكم خمس سنوات ونصفاً ، كان يبدو فى خلالها غريب الأطوار ، شاذاً فى حياته ، كثير التطير ، فيه ميل إلى القسوة ، سيء الظن بالناس ، ولهذا كان كثيراً ما يأوى إلى العزلة ، ويحتجب بين جدران قصوره ، وكان يتخير لبنائها الجهات الموغلة فى الصحراء ، أو البعيدة عن الإنس ، ففيما عدا سراى الخرنفش ، وسراى الحلمية بالقاهرة ، قد بنى قصراً فخماً بالعباسية (التى سميت من ذلك الحين باسمه) ، وكانت إذ ذاك فى جوف الصحراء ، وقد شاهد المسيو فرديناند دلسبس هذا القصر سنة ١٨٥٥ ، فراعته ضخامته ، وذكر أن نوافذه بلغت ٢٠٠٠ نافذة ، وهذا وحده يعطينا فكرة عن عظم القصر واتساعه ، فكأنه بنى لنفسه مدينة فى الصحراء ، وبنى قصراً آخر نائياً فى الدار البيضاء ، الواقعة بالجبل على طريق السويس المقفر ، ولا تزال آثاره باقية إلى اليوم ، وقصراً بالعطف (ذكره على باشا مبارك فى الخطط ج ٧ ص ٦٣) ، وقصراً فى بنها على ضفاف النيل ، بعيداً عن المدينة ، وهو الذى قتل فيه كما سيجيء بيانه

وقد أساء الظن بأفراد أسرته ، وبكثير من رجالات محمد على وابراهيم ، وخيل له الوهم أنهم يأتمرون به ، فأساء معاملتهم ، وخشى الكثير منهم على حياتهم ، فرحل بعضهم إلى الأستانة، والبعض إلى أوروبا، خوفامن بطشه، واشتد العداء بين الفريقين طول مدة حكمه ، وبلغ به حقده على من يستهدفون لغضبه أنه حاول قتل عمته الأميرة نازلى هانم، واشتدت العداوة بينهما حتى هاجرت إلى الاستانة خوفا من بطشه

وسعى فى أن يغير نظام وراثة العرش ليجعل إبنه إلهامى باشا خليفته فى الحكم ، بدلا من سعيد باشا ، ولكنه لم يفلح فى مسعاه ، ونقم على سعيد باشا الذى كان بحكم سنه ولى العهد ، واتهمه بالتآمر عليه ، واشتدت بينهما العداوة حتى اضطره أن يلزم الاسكندرية ، وأقام هناك بسرايه (بالقبارى)

وانتشرت الجاسوسية فى عهده انتشاراً مخيفا ، فصار الرجل لا يأمن على نفسه من صاحبه وصديقه ، ومن يغضب عليه ينفيه إلى السودان ويصادر أملاكه ، وكان نفى المغضوب عليهم إلى أقاصى السودان من الأمور المألوفة فى ذلك العصر

وكان عباس مولعا بركوب الخيل والهجن ، يقطع بها المسافات البعيدة فى الصحراء ، وله ولع شديد باقتناء الجياد الكريمة ، يجلبها من مختلف البلاد ، ويعنى بتربيتها عناية كبرى ، ويبنى لها الاصطبلات الضخمة ، وينفق عليها بسخاء ، شأن هواة الخيل

اعمـاله

سياسته العامة

يختلف عهد عباس عن عصر محمد على ، فان حركة النهضة والتقدم والنشاط التى امتاز بها هذا العصر قد تراجعت كما قلنا فى عهد عباس ، وهناك ظاهرة أخرى للفرق بين العهدين ؛ ذلك أن محمد على كان يستعين بذوى العلم والخبرة من الفرنسيين فى معظم مشاريع الإصلاح ، لكن « عباس » لكونه لم يفكر فى تعهد هذه الاصلاحات أقصى معظم هؤلاء الخبراء واستغنى عنهم، وقد تضاءل النفوذ الفرنسى فى عهده ، ولم يعد إلى الظهور إلا فى عهد سعيد باشا ، ومن هنا نعرف سببا لتحامل كثير من المؤرخين والمؤلفين الفرنسيين على عباس ، فانه وإن كانت أعماله لا تدعو إلى الإطراء ، لكنا

نعتقد أن أحكام الفرنسيين عليه لاتخلو من التحامل ، لتأثرهم من تضاؤل النفوذ الفرنسى فى عهده ، والفرنسيون لما اتصفوا به من الوطنية يكرهون كل ملك أو أمير يقترن عهده بتضاؤل النفوذ الفرنسى فى بلاده ، من أجل ذلك نراهم يكيلون المدح جزافا لسعيد باشا ، ونعتقد أن هذا راجع إلى ميوله الفرنسية وعودة النفوذ الفرنسى إلى مصر فى عهده ، على يد المسيو فردينان دلسبس وأمثاله ممن اتخذهم سعيد بطانته وأولياءه

فعباس إذن قد أقصى عنه الخبراء من كبار الموظفين الفرنسيين ، فلم يعد لهم نفوذ لديه ، بل لم يكن يعاملهم معاملة عطف واحترام ، واستغنى عن خدمة بعضهم

وعلى العكس ، بدأ النفوذ الانجليزى يظهر فى عهده على يد المستر (مرى) القنصل البريطانى فى مصر وقتئذ ، فقد كان له عليه تأثير كبير ، وله عنده كلمة مسموعة

ولا يعرف السبب الحقيقى لهذه المنزلة ، سوى أنها نتيجة المصادفة ، فإن الملوك والأمراء المستبدين ليس لهم قاعدة مستقرة ، ولا تصدر أعمالهم عن برنامج أو تفكير ، بل يتبعون الهوى فى كثير من أعمالهم ، وقد يكون لكفاءة المستر مرى دخل فيما ناله عند عباس ، من النفوذ ، وقيل إنه كان يستعين به فى السعى لدى حكومة الاستانة بوساطة سفير إنكلترا لتغيير نظام وراثة العرش ، كى يؤول إلى إبنه إلهامى ، وفى رواية أخرى إنه كان يستعين به وبالحكومة الانجليزية ليمنع تدخل حكومة الاستانة فى شؤون مصر إذ كانت تبغى تطبيق القانون الأساسى المعروف بالتنظيمات على مصر .

إصلاح الطريق بين القاهرة والسويس

ومهما يكن من السبب فالمستر مرى كان له أثر ظاهر فى اتجاه أفكار عباس ، ويتبين هذا النفوذ من أن أول أعماله بعد ولايته الحكم هو إصلاح طريق القاهرة إلى السويس ورصفه بالحجارة ، لجعله معبدا ، تسير فيه العربات بسهولة ، فهذه الفكرة وإن كانت فى ذاتها فكرة عمرانية سديدة إلا أن الموعز بها هو المستر مرى ، وغرضه منها تسهيل سبيل المواصلات البرية إلى الهند عن طريق مصر ؛ وسرعة نقل البريد البريطانى والسياح بين الهند وانجلترا

وكانت السياسة الانجليزية ترمي إلى تعبيد طريق المواصلات بين انجلترا والهند فى

مصر بواسطة انشاء سكة حديدية ، تصل الاسكندرية بالقاهرة ، ومنها إلى السويس ، وكانت تعارض فى أن تنشأ بمصر طريق بحرية للمواصلات ، ولذلك عارضت فى شق القناة البحرية فى برزخ السويس ؛ وحبذت مد السكة الحديدية بين الاسكندرية والسويس ، وحجتها أن شق القناة يسهل على الدول البحرية المنافسة لها فى الاستعمار طريق الوصول بسفنها الحربية إلى البحر الأحمر ؛ ثم إلى الهند ، فيتعرض سلطانها هناك للخطر ، أما فرنسا فكانت على العكس تحبذ فتح القناة ، وتعارض فى مشروع السكة الحديدية ؛ لأنه مشروع انجليزى

السكة الحديدية بين الاسكندرية والقاهرة

ولقد فازت السياسة الانجليزية بضم عباس إلى وجهة نظرها ، فتم على يده إصلاح طريق السويس ، ثم شرع فى مد السكة الحديدية من الاسكندرية إلى القاهرة سنة ١٨٥٢ ، وعهد بتخطيط العمل إلى المهندس الانجليزى الشهير روبرت ستفنسن Stephenson ، يعاونه مهندسون مصريون ، لكن المهندسين المصريين هم الذين تم على أيديهم انشاء الخط كما يقول المسيو مريو [1] Meruau ، ومنهم من صار لهم فيما بعد شأن كبير وتقلدوا كبرى المناصب ، مثل سلامة باشا ابراهيم ، وثاقب باشا ، ومظهر باشا . وبهجت باشا ، واستخدم عباس فى تعبيد الطريق وتركيب القضبان الجنود والبحارة المصريين ، وانشىء من سكة الحديد فى عهده الخط الواصل بين الاسكندرية وكفر الزيات (سنة ١٨٥٤) ؛ وتم الخط بأكمله فى عهد سعيد ، ويئس المسيو فرديناند دلسبس من نجاح مشروع شق القناة ، ولم يعاوده الأمل إلا بعد أن تولى سعيد باشا الحكم كما سيجىء بيانه

وإذا نحن صرفنا النظر عن التزاحم السياسى بين انجلترا وفرنسا ، فما لا شك فيه ، من وجهة النظر المصرية ، أن مشروع السكة الحديدية بين الاسكندرية والقاهرة وبين هذه والسويس أنفع للبلاد ، وأبعد عن الضرر من مشروع القناة ، فان مصر لم تستفد شيئا من فتح قناة السويس ، بل كانت القناة شؤما عليها كما سنفصله فى موضعه ، ولأن

---

(١) فى كتابه (مصر الحديثة) ص ١٠٢ ، والمسيو مريو معاصر لعباس وسعيد واسماعيل



عباس باشا الأول والى مصر

من سنة ١٨٤٨ الى سنة ١٨٥٤

السكة الحديدية قد نهضت بعمران البلاد التي مرت بها ، بخلاف القناة

فإصلاح طريق السويس، والشروع في مد السكة الحديدية بين الاسكندرية والقاهرة، هما من أول ما فكر فيه عباس ، وهما من المشاريع الجليلة ، ولعل هذا هو العمل الوحيد الإنشائي الذي يذكر لعباس ، لأنه لا يخفى أن السكك الحديدية هي من أعظم دعائم العمران والتقدم ، وكانت هذه السكة أول خط حديدي أنشيء في مصر ، بل في الشرق قاطبة ، فمصر قد سبقت دول الشرق في أعمال العمران ، ولا يخفى أن تركيا وهي أقوى دول الشرق وقتئذ تأخرت عن مصر في مد السكك الحديدية واستخدام القطارات البخارية، وإنك لتلمح تقدم مصر وسبقها تركيا في ميادين العمران حينما زار السلطان عبد العزيز مصر سنة ١٨٦٣ ، فانه لما ركب القطار من الاسكندرية إلى القاهرة تملكه العجب ، لأنه لم يكن رأى القطارات البخارية في حياته من قبل (١)

ضبط الأمن

وعُنى عباس باستتباب الأمن ، فضرب على أيدى الأشقياء وقطاع الطرق، وطاردهم وعاملهم بالقسوة ، فخشوا بأسه ، وانقطع دابرهم ، وأمن الناس شرورهم ، فاستتب الأمن في عهده ، وهذا من خير أعماله

المدارس والمصانع

أما المدارس ، فقد ساءت حالتها في عهده ، فألغى معظمها (بعد الذى عطل منها في أواخر عهد محمد علي) ، واقفلت أبوابها ، بين عالية وثانوية وابتدائية ، ولم يبق منها إلا النزر اليسير ، وكأنما كان عباس يكره العلم والتعليم ، فانه لم يكتف بإغلاق معظم المدارس ، بل أنفذ الى السودان طائفة من كبار علماء مصر في ذلك العهد ، مثل رفاعة بك رافع . ومحمد بيومي أفندي ، ودقلة أفندي ؛ بحجة انشاء مدرسة ابتدائية بالخرطوم؛ والسبب الحقيقي هو إبعادهم ونفيهم من مصر ، وقد ساءت حالتهم كما بينا ذلك تفصيلا

---

(١) أنظر كتاب « سياحة السلطان عبد العزيز من الاستانة إلى القاهرة » للمسيو جاردي ص ٤٩ و٥٣ و٦٠

فى ترجمة رفاعة بك رافع [١] ، ومات منهم هناك محمد بيومى كبير أساتذة الهندسة والرياضيات فى مدرسة المهندسخانة

وانتقى من تلاميذ المدارس التى ألغاها عدداً منهم أدخلهم مدرسة أنشأها سنة ١٨٤٩ ، ودعاها «المفروزة» اشارة الى أنه أفرز تلاميذها من بين طلبة المدارس ، وكانت هذه المدرسة بمثابة مدرسة تجهيزية حربية

وأقفل ما بقى من المعامل والمصانع التى أنشأها جده بحجة الاقتصاد فى النفقات

البعثات

وأرسل إلى أوروبا ١٩ طالبا من تلاميذ المدارس المصرية لإتمام دروسهم بالمدارس الأوروبية ، على أنه استدعى معظم أعضاء البعثات الذين كانوا يتلقون العلم فى فرنسا منذ عهد محمد على

السودان

لم يعن عباس بالسودان عناية جده به ، ولم يفكر يوما فى زيارة ذلك الإقليم العظيم الذى يعد الجزء المكمل لمصر ، ليشاهد بنفسه شؤون البلاد وأهلها ، ويتعرف أحوالها كما فعل محمد على الذى لم تمنعه شيخوخته ومشاغله العديدة من أن يجوب السودان باحثا مستطلعاً .

الجيش والبحرية

أنفذ عباس بعض الإصلاحات الحربية التى فكر فيها ابراهيم باشا قبل وفاته ، كتجديد الإستحكامات ، وانشاء الطرق الحربية ، وفيما عدا ذلك فان الجيش فى الجملة لم يكن موضع عنايته ، وقد تسرب الى إدارته الخلل وسوء النظام ، بعد أن كان مضرب الأمثال فى النظام والكفاية على عهد محمد على ، وزاد فى اضمحلاله أنه أدمج فيه نحو ستة آلاف من الأرناءود ، جعلهم خاصة جنده ، وسلحهم بالمسدسات ، فكانت لهم فى عهده الصولة

---

(١) راجع « عصر محمد على » ص ٤٨٨ (من الطبعة الأولى)

والسطوة ، وشمخوا بأنوفهم على المصريين ، جنوداوأفراداً ، وجرد عباس الأهلين من السلاح ؛ وحظر عليهم حمله ، فعاث الأرناءود فى الأرض فساداً ، بما اشتهر عنهم من الظلم والعسف والإرهاق ، وبقى هؤلاء الاخلاط قوام الجيش فى عهده

وظل سليمان باشا الفرنساوى القائد العام للجيش المصرى ، ولـكن يده غلت عن النهوض به واصلاح شؤونه

وساءت حالة البحرية بعد أن كانت زاهرة ، وأخذت فى الاضمحلال . ويرجع ذلك الى إهمال عباس أعمال العمران عامة ، ثم الى سبب خاص، وهو كراهيته لعمه سعيد باشا، ومعلوم أن سعيد كانت نشأته فى البحرية ، وكان قائدا عاما للأسطول فى عهد محمد على ، فلما تولى عباس الحكم حقد على البحرية جملة واحدة ، لحقده على سعيد باشا . ! فأهمل شأنها ، وتعطلت أعمال الترسانة ، ووقف إصلاح السفن ، فسرى اليها العطب والتلف

اشتراك مصر فى حرب القرم

بقى الجيش المصرى رغم ما أصابه من الخلل قوة لا يستهان بها ، وظهرت بسالته فى حرب القرم ، وهى الحرب الوحيدة التى خاضت مصر غمارها فى عهد عباس

شبت نار القتال بين تركيا والروسيا سنة ١٨٥٣ ، فطلب السلطان عبد المجيد الى عباس باشا أن يمده بالجند والأساطيل ، فلبى عباس الطلب ، وكانت دار الصناعة (الترسانة) فى ذلك الحين معطلة كما قدمنا ، فعاد اليها النشاط والعمل ، واستدعى اليها العمال الذين كانوا مصروفين عنها ، وجهز الأسطول المصرى ، وعهد بقيادته الى الأميرالحسن باشا الاسكندرانى ، أحد خريجى البعثات فى عهد محمد على[1]

وأعد حملةمؤلفة فى بدء الحرب من نحو ٢٠٫٠٠٠ مقاتل بقيادة سليم باشا فتحى أحد القواد الذين حاربوا تحت لواء ابراهيم باشا فى حروب سوريا والأناضول ، فأقلعت الحملة على ظهر العمارة المصرية ووصلت الى الاستانة ، ومضت الى ميدان القتال على نهر الدانوب ، ورابط معظم الجيش المصرى فى (ساستريا) وكان الروس يهاجمونها ، فأبلى

---

(١) ترجمنا له فى الجزء الثالث من تاريخ الحركة القومية (عصر محمد على ص ٥٣١ من الطبعه الأولى)

المصريون بلاء حسنا فى المدافعة عنها ، وأقاموا بها حصنا عرف بطابية العرب ، كان له فضل كبير فى الدفاع ، فاستطاع الجيش المصرى أن يكسر هجمات الروس سنة ١٨٥٤ ، واستمرت الحرب الى عهد سعيد باشا كما سيجىء بيانه

وقد ساهم الأسطول المصرى فى الحرب البحرية ، فسار قسم منه الى شواطىء الأناضول الشمالية بالبحر الأسود ، ولكن السفن الروسية أوقعت به ، واشتركت بقية السفن فى نقل القوات الحربية الى ثغور البحر الأسود ، وبقيت تؤدى واجبها الى انتهاء الحملة

مقتل عباس

اتفقت الروايات على أن عباس مات مقتولا فى قصره ببنها ، وهذا أمر مقطوع بصحته ، ولكن الخلاف فى رواية مقتله ، وليس عجيبا أن يختلف الرواة فى ذلك ، فان قتل عباس كان نتيجة مؤامرة من مؤامرات القصور ، وهذه المؤامرات لا يسهل اكتشاف حقيقتها ، أو الاتفاق على روايتها ؛ لما يكتنفها من الأسرار ، ولأنها تقع فى جنح الظلام ؛ بعيدة عن الأنظار ، فلا يعرف الناس عنها الا ما تتناقله الألسنة بعد وقوعها ؛ ومن هنا ينشأ الاختلاف فى الرواية ؛ ولدينا عن مقتل عباس روايتان ، إحداهما ذكرها اسماعيل باشا سرهنك فى كتابه (حقائق الأخبار عن دول البحار ج ٢ ص ٢٦٥) والأخرى ذكرتها مدام أولمب ادوار كما سمعتها بمصر فى أوائل عهد اسماعيل ودونتها فى كتابها (كشف الستار عن أسرار مصر ص ١٤٣)

ويؤخذ من رواية اسماعيل باشا سرهنك ، أن (عباس) كانت له حاشية من المماليك يقربهم اليه ويصطفيهم ، ويتخذ منهم خواص خدمه ، ولهم عنده من المنزلة ماجعله يغدق عليهم الرتب العسكرية العالية ، على غير كفاءة يستحقونها ، حتى حاز أكثرهم رتبة قائممقام وكان لهم كبير من خاصة غلمانه ، يسمى خليل درويش بك ، وعرف فيما بعد بحسين بك الصغير ؛ وقد أساء هذا الرئيس معاملة أولئك المماليك ، فاستطالوا عليه بالغمز واللمز ، وخاصة لأنه كان صغير السن . فاتخذوا من حداثته مغمزا للأقاويل ، فسخط عليهم ، وشكاهم الى مولاه ، فأمر بجلدهم ، فجلدوا ؛ وجردوا من ثيابهم العسكرية .

وألبسهم خشن اللباس. وأرسلهم الى الاصطبلات لخدمة الخيل، فعز ذلك على مصطفى باشا، أمين خزانة عباس. لانهم كانوا من اتباعه المقربين اليه. فسعى جهده لدى سيده ليعفو عنهم. فلم ينل بادىء الأمر بغيته، فلما ذهب عباس باشا الى قصره ببنها يصحبه احمد باشا يكن وابراهيم باشا الالفى محافظ العاصمة، رجاهما مصطفى باشا أن يطلبا العفو عنهم، فطلبا ذلك الى عباس. فأجاب ملتمسهما. وأصدر أمرا بالعفو عنهم. وردهم الى مناصبهم. فجاءوا الى بنها ليرفعوا واجب الشكر للأمير. ولكنهم أضمروا الفتك به انتقاما لما أوقع بهم. فائتمروا به مع غلامين من خدمة السراى. يدعى أحدهما عمر وصفى والآخر شاكر حسين. واتفق الجميع على قتله. وكان من عادة عباس عند نومه أن يقوم على حراسته غلامان من مماليكه. ففى ليلة ١٨ شوال سنة ١٢٧٠ (١٤ يوليه سنة ١٨٥٤ م) كان الغلامان المذكوران يتوليان حراسته، فجاء المؤتمرون فى غسق الليل على اتفاق معهما. وفتحا لهم الباب، فدخلوا غرفة الأمير، وهو نائم، ولما أرادوا الفتك به استيقظ وحاول النجاة، فصده عمر وصفى، وتكاثر عليه المؤتمرون، وقتلوه، ثم أوعزوا الى الغلامين بالهرب فهربا، وكتم المتآمرون الخبر الى اليوم التالى ولما لم يستيقظ الأمير فى موعده دخل عليه احمد باشا يكن وابراهيم باشا الألفى فوجداه مقتولا، فذعرا لهذه الفاجعة، واتفقا على اخفاء الخبر حتى نقل الأمير القتيل الى القاهرة فى عربة، ووصلا به الى قصره بالحلمية، وهناك ذاع خبر قتله

وأراد جماعة من أنصار عباس، وعلى رأسهم ابراهيم باشا الألفى أن يجعلوا الحكم من بعده لنجله ابراهيم إلهامى باشا الذى كان وقتئذ بأوروبا، فاتفقوا على استدعائه ليولوه الحكم، ويمنعوا عنه عمه سعيد باشا أكبر أنجال محمد على وأحق الأمراء بالولاية طبقا للنظام القديم. وكان سعيد باشا وقتئذ بالاسكندرية، يقيم بسرايه بالقبارى. فكتبوا سراً الى محافظ الاسكندرية اسماعيل سليم باشا. وأبلغوه بما اتفقوا عليه. وطلبوا اليه القيام على الثغر حتى يحضر إلهامى باشا. فلما تلا الرسالة لم يشاطرهم رأيهم. لعلمه أن الحكم من حق سعيد باشا، فقصد اليه من فوره. وأنهى اليه فحوى الرسالة. فشكره سعيد باشا على إخلاصه. وذهب صحبته الى سراى رأس التين. وأعلن اعتلاءه العرش. وأجريت حفلة الجلوس. وأطلقوا المدافع. ثم سافر سعيد باشا الى القاهرة يصحبه أمراء الأسرة الحاكمة الذين كانوا مبتعدين عن العاصمة لما بينهم وبين عباس من العداء

والنفور ، فلما وصلوا الى القاهرة ذهب سعيد الى القلعة وتولى زمام الحكم

تلك خلاصة رواية اسماعيل باشا سرهنك

أما رواية مدام أولمب ادوار فخلاصتها ، أن الأميرة نازلى هانم عمة عباس هى التى ائتمرت به وهى فى الاستانة ، وأنفذت مملوكين من أتباعها لقتله ، واتفقت واياهما ، على أن يعرضا أنفسهما فى سوق الرقيق بالقاهرة ؛ كى يشتريهما عباس ويدخلهما فى خدمته ، وكان المملوكان على جانب من الجمال ، مما يرغب وكيل الأمير فى شرائهما ، فجاءا القاهرة فعلا ، ونزلا سوق الرقيق ، الى أن رآهما يوما وكيل الأمير ، فراقه جمالهما ، فاشتراهما وأدخلهما سراى مولاه ببنها ؛ فأعجب بهما عباس ، وعهد اليهما بحراسته ليلا ، قالت مادام اولمب ادوار ، فلما كانت الليلة الأولى لم يجرؤ المملوكان على ارتكاب القتل ، لأنهما خشيا بأس عباس ، إذ كان قوى البنية ، شديد البطش ، و خافا أن يقاومهما وينجو من فتكهما ، فينكل بهما شر تنكيل ، ويوردهما موارد الهلاك المحتوم ، فانقضت الليلة الأولى بسلام ، ومرت أيام عدة وهما يستجمعان قوتهما لانفاذ القتل عند سنوح الفرصة ، حتى جاءتهما النوبة ثانية لحراسة مولاهما ، فاعتزما أن يكونا أكثر شجاعة من قبل ، فلم يكد يستغرق عباس فى النوم حتى انقضا عليه وقتلاه ، ولم يدعا له الوقت ليصيح أو يقاوم ، ولما ارتكبا الجريمة نزلا اصطبلات الخيل الملحقة بالسراى ، وطلبا إلى السائس أن يجهز لهما فوراً جوادين بحجة أن الباشا يطلب حاجة له من قصره بالعباسية ، فلم يشك الخادم فى الأمر ، وجهز لهما الجوادين فسارا بهما عدواً إلى القاهرة ، ومن هناك فرا إلى الاستانة ، حيث نقدتهما الأميرة نازلى هانم مكافأة سخية على إنفاذ المؤامرة

وتقول مدام أولمب أدوار إن إلهامى باشا تعقب المملوكين القاتلين ليثأر لأبيه ، فالتقى بأحدهما فى الاستانة ، فقتله رميا برصاص مسدسه ، ولم يستطع اللحاق بالثانى ولم يعثر له على مكان ، وقيل أنه أوى إلى بلاد الأرناءود فراراً من القتل (١)

فالروايتان ، مع اختلافهما فى بيان المحرضين على القتل وطريقة ارتكاب الجريمة متفقتان كما ترى فى أن عباس مات مقتولا إثر مؤامرة دبرت لقتله وأنفذت فى قصره ببنها

---

(١) كشف الستار عن أسرار مصر لمدام أولمب ادوار .

Les mysteres de Egypte devoiles par Mme olympe Audouar

ميزة عباس

كان عهد عباس كما ترى خلوا من أعمال النهضة والعمران ، اللهم ما كان من إنشاء سكة الحديد بين القاهرة والاسكندرية ، وإصلاح سكة السويس الحجرية

على أن لعباس ميزة يجب أن يذكرها له التاريخ ، وهى أنه لم يفتح على مصر أبواب التدخل الأجنبي ، فلم يمكن للاجانب فى البلاد ، ولم يمد يده الى الاستدانة منهم ، بل ترك خزانة مصر حرة من أثقال الديون الأجنبية التى كبلها بها خلفاؤه من بعده ، وكان يجتهد دائما فى سد عجز الميزانية ، دون أن يلجأ إلى القروض ، ولم يكن يميل إلى منح الأوروبيين امتيازات باستثمار مرافق البلاد ، فهذه ميزة يجب أن تذكر له بالخير ، ويمتاز (من هذه الناحية) على سعيد واسماعيل ، فخطأ سعيد باشا انه منح المسيو فرديناn دلسبس امتياز حفر قناة السويس ، وافتتح عهد الاقتراض من الخارج ، وخطأ اسماعيل أنه كبل مصر بالديون الجسيمة التى اقترضها من البيوت الأوروبية

الفصل الثانى

النهضة الوطنية فى عهد سعيد باشا

١٨٥٤ — ١٨٦٣

من النهضات الوطنية ما يصدر عن الشعب وزعمائه ، ومنها ما يكون مصدره الملوك والحكام ، ويمتاز عصر سعيد باشا بظهور نهضة وطنيه جديرة بان تعد دورا من أدوار الحركة القومية فى تاريخ مصر الحديث

وترجع هذه النهضة الى ميول سعيد باشا ذاته ؛ فقد كان ذا نزعة وطنية ممدوحة ، نشأت فيه قبل أن يتولى الحكم ، ولازمته بعد أن تولاه ، وظهرت آثارها فى كثير من اصلاحاته وأعماله، وقوام هذه النزعة أنه كان يميل بجوارحه الى خير المصريين ورفاهيتهم ويعمل على تحريرهم من نير المظالم التى أصابتهم ؛ ويخفف عنهم عبء الضرائب التى ينوءون بها ؛ ويبث فيهم روح الوطنية . ويشجعهم على تقلد المناصب العالية فى الجيش والادارة ، بعد أن كانت من قبل وقفا على الترك والشراكسة

نشأته

هو ابن محمد على الكبير . ولد سنة ١٨٢٢ ، ونشأ فى حجر أبيه . محوطا بعطفه ورعايته . وكان أبوه يعزه ويعنى بتربيته وتثقيفه ، وتنشئته النشأة الحسنة . واختار له السلك البحرى فدربه على فنون البحرية وجعل شأنه شأن تلاميذها . ولعل هذه النشأة مما حبب الى نفسه مبادىء الديمقراطية . فقد كان أثناء دراسته ومرانه زميلا لطائفة من التلاميذ . ممن خصصهم أبوه لدراسة الفنون البحرية . يعيش عيشتهم . ويسير على نهجهم . وينظر اليهم كما ينظر الطالب الى أقرانه وأصدقائه . ولما أتم دراسته انتظم فى خدمة الأسطول قومندانا لإحدى البوارج التى كانت ترفع علم مصر فوق ظهر البحار . واعتاد النظام الذى هو أساس الحياة العسكرية . فكان يحترم رؤساءه . ويتساوى فى ذلك وزملاؤه ضباط

الاسطول ، ومما يذكر عنه أنه لما نال حظا من الفنون البحرية ، وكان وقتئذ « سعيدبك » جعله أبوه معاونا لمطرش باشا ناظر البحرية وقومندان الاسطول ، وأصدر أمره اليه بأن يمتثل لأوامره ، ويؤدى اليه التعظيم العسكرى ، بوصف كونه رئيسا له ، وكان ذلك من سداد رأى محمد على ، إذ عود ابنه ، احترام النظام ، وارتقى سعيد فى المراتب البحرية حتى وصل فى أواخر عهد أبيه الى منصب « سر عسكر الدوننمة » أى القائد العام للأسطول

فهذه النشأة كان لها أثرها فى إيلافه المبادىء الديموقراطية ، مما جعله عند ما تولى العرش يميل الى المصريين ، ويعمل على ترقيتهم وتقدمهم ورفاهيتهم

أخلاق سعيد

أهم الصفات البارزة فى أخلاق سعيد ، طيبة قلبه . وسلامة قصده وكرمه . وشجاعته وصراحته . وميله للخير . وتسامحه . وحبه للعدل . ونفوره من الظلم والإرهاق

ولكنه الى جانب ذلك . كان ضعيف الارادة كثير التردد ، لا يستقر على رأى واحد . ومن هنا جاءت تقلباته فى الخطط والبرامج والأعمال . وانصياعه لآراء خلطائه من الأوروبيين. وسرعة تأثره بما يسمعه . ثم سرعة غضبه . ورجوعه عن غضبه لأوهى الأسباب . وكانت نقطة الضعف فيه إسرافه . والتجاءه الى الاستدانة من البيوت المالية الأوروبية . وحسن ظنه بالأوروبيين . وشدة ركونه اليهم . وميوله الفرنسية التى جعلته يسترسل فى الإصغاء لتأثيرات المسيو فردينان دلسبس وأضرابه . وفى عهده أخذ الاجانب يبسطون أيديهم على مرافق البلاد ، ويستطيلون على سلطة الحكومة وسيادتها . ويشمخون بأنوفهم . وصار للقناصل نفوذ لم يكن لهم من قبل فى عهد محمد على وابراهيم وعباس

إصلاحاته الزراعية

واللائحة السعيدية

بذل سعيد باشا جهوداً موفقة لإصلاح حالة الفلاحين والترفيه عنهم ، فخولهم حق

الملكية العقارية للأراضى الزراعية ، وسن لهذا الغرض قانونه المشهور باللائحةالسعيدية الصادرة فى ٥ اغسطس سنة ١٨٥٨ (٢٤ ذى الحجة سنة ١٢٧٤هـ)[١]، وهى من أعظم إصلاحاته ، لأنها أساس التشريع الخاص بملكية الأطيان فى القطر المصرى ، وهى من آثاره الخالدة التى تذكر له بالخير ، لأن الملكية هى من الدعائم الأساسية للهيئةالاجتماعية ، وكان الفلاح محروماً حق التملك فى عهد محمد على

وألغى أيضاً نظام احتكار الحاصلات الزراعية ، ذلك النظام الذى كان معمولا به فى عهد أبيه ، وأخذ فى الاضمحلال فى عهد عباس ، وصار للفلاح حرية التصرف فى حاصلاته ، وحرية اختيار أنواع الزراعة التى يبتغيها

وخفف عن الأهالى عبء الضرائب ، فقد كان عليهم متأخرات من السنين الماضية تجاوز عنها جملة واحدة ، ولم تكن هذه المتأخرات بالشىء اليسير ، فقد بلغ مقدارها كما يقول المسيو مريو[٢] ٨٠٠,٠٠٠ جنيه ؛ وهو مبلغ ضخم إذا قيس بثروة ذلك العصر ، فاستراح الفلاحون من اعباء المتأخرات القديمة التى كان عمال الجباية يرهقونهم للحصول عليها ، ويستولون على حاصلاتهم الزراعية ليستوفوا ما تأخر عليهم منها

ورغب إلى الأهلين سداد الضريبة نقداً لا عيناً ، وهذا التعديل متفرع عن إلغاء نظام احتكار الحاصلات الزراعية ، فبعد أن كانت الحكومة تضع يدها على الحاصلات وتتصرف فيها وتحاسب الفلاح على السعر الذى تقرره هى بمطلق إرادتها ، صار للفلاحين حق امتلاك حاصلاتهم ، والتصرف فيها بالبيع بالسعر الذى يرتضونه ، وأداء الضريبة نقداً ، وبذلك نالوا حق الملكية العقارية وملكية الحاصلات ، وحرية التصرف فيها ، وحيازة ثمنها ، وصار للفلاح وجود اقتصادى مستقل عن الحكومة ، بعد أن كان مستعبداً لها ، فكان هذا الإصلاح من أسباب نهضة الفلاح من الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية

---

(١) منشورة فى القاموس العام للادارة والقضاء لفيليب جلاد ج ١ ص ١١٨ وفى كتاب الأطيان والضرائب لجرجس بك حنين ص ٣٨٨

(٢) فى كتابه (مصر الحديثة) ص ٦٤

واقترن تنفيذ هذا الإصلاح بمصاعب جمة ، لأن الفلاحين لسبق استيلاء الحكومة كل سنة على حاصلاتهم ، لم يكن بأيديهم النقد الذى يستطيعون أن يؤدوا منه الضريبة بحسب النظام الجديد ، فقرر سعيد إمهالهم فى الدفع ، حتى يتسنى لهم بيع حاصلاتهم الجديدة وأداء الضريبة من ثمنها ، فشعر الفلاحون بالراحة والطمأنينة والرخاء وحسن المعاملة ، ووقف تيار الهجرة من القرى

وقد ألغى أيضاً ضريبة الدخولية التى كانت تجبى على الحاصلات والمتاجر مما تتبادله المدن والقرى فى داخلية البلاد ، وهذه الضريبة مصدر إعنات وإرهاق للأهالى ، كما أنها عقبة تحول دون حرية التجارة الداخلية ، إذ كانت الحكومة تقتضى على المتاجر ١٢ فى المائة من قيمتها عند دخولها أى مدينة أو قرية ، وهـذا يؤدى إلى ارتفاع الأسعار واشتداد الغلاء ، ويضعف حركة المعاملات ، كما أن طريقة تحصيل هـذه الضريبة تنطوى على نوع آخر من الإرهاق ، إذ كانت جبايتها موكولة إلى ملتزمين يبتزون الأهالى أكثر من قيمتها ، فالغاؤها فيه تخفيف عن الأهلين وتحرير للتجارة الداخلية مما كان يعترضها من العقبات والعراقيل

لائحة المعاشات

ومن أعماله الاجتماعية سنه لائحة المعاشات للموظفين المتقاعدين ، وهى الأساس الذى بنى عليه نظام المعاشات المتبع فى مصر لموظفى الحكومة

أعمال العمران

تطهير ترعة المحمودية

عنى سعيد باشا بتطهير ترعة المحمودية ، ذلك انها منذ إنشائها فى عهد محمد على لم تعن الحكومة بتطهيرها ، وانقضى عهد عباس دون أن يفكر فى أمرها ، فلما تولى سعيد كاد الطمى المتراكم على مدى السنين يطمرها ويفسد استعمالها ، فلا تعود صالحة لمرور السفن ، ولا تجرى فيها مياه الرى بالمقادير التى يتطلبها العمران

فاعتزم سعيد باشا أن يطهرها ، ويكاد تطهيرها فى هذه الظروف يشبه أن يكون

احتفاراً لها من جديد ، لأن الطمى كان قد سد قاعها ، وقد استشار المسيو موجيل بك كبير المهندسين فيما يلزم من العمال والجهود لاجراء هذا العمل العظيم ، فحسب مقدار ما يجب رفعه من الأتربة من قاعها ، فبلغ ثلاثة ملايين متر مكعب ، على طول الترعة الذى يبلغ ثمانين كيلو متراً ، وقدر أن العامل يرفع مترا ونصف متر فى اليوم ، فالعمل يقتضى سبعة وستين الف عامل ، وبذلك يتم تطهير الترعة على أيديهم فى ثلاثين يوما

فأصدر سعيد أمره إلى المديريات بإرسال هذا العدد من الفلاحين ، ولم تكتف المديريات بإرسال العدد المطلوب ، بل ضاعفت الهمة ، وأرسلت ١١٥ الف عامل ، فوزع هذا العدد على طول الترعة ، ووزعت عليهم الفؤوس ، بمعدل فأس لكل خمسة من العمال ، وأحد منهم يحفر الأرض بفأسه ، والثانى يملأ الغلقان من الردم ، والثلاثة الآخرون يحملونها إلى جانب الترعة ، حيث أمر سعيد باشا بانشاء طريق زراعى معبد ، عرضه عشرة أمتار ، وقد سار العمل على هذه الوتيرة ، وعنى سعيد باشا بالسهر على صحة العمال ، فأحضر أطباء يلاحظون حالتهم الصحية طول مدة العمل ، وتم تطهير الترعة وإنشاء الطريق فى اثنين وعشرين يوما ، دون أن يموت أحد من العمال ، بخلاف ما وقع حين إنشائها فى عهد محمد على ، ولم يزد عدد المرضى الذين أعياهم العمل عن خمسة فى الألف (١)

فكان هذا العمل الضخم وإتمامه فى هذه المدة القصيرة مدعاة للاعجاب ، لما تجلى فيه من مقدرة الفلاح المصرى على إنشاء أعمال العمران التى تنوء بها الجماعات من الشعوب الأخرى

وقد كان نجاح هذا المشروع مما شجع المسيو فردينان دلسبس على إغراء سعيد باشا بتسخير الآلاف من الفلاحين فى احتفار قناة السويس ، فرضى بتأثير هذا الإغراء أن يسخر الألوف المؤلفة منهم فى عمل عاد بالضرر الوبيل على مصر والمصريين

السكك الحديدية والتلغرافات

توفى عباس قبل إتمام الخط الحديدى بين القاهرة والاسكندرية ، فأتمه سعيد باشا سنة ١٨٥٦ وسار الخط عن طريق كفر الزيات وبنها حتى وصل إلى العاصمة ، ولم تكن

---

(١) مريو ، مصر الحديثة ص ١٢٣

« الكبارى » بنيت على النيل ، فكان القطار عند اجتيازه الفرعين ينقل على مراكب خاصة تسير به من بر الى آخر

وأنشأ خطوطا تلغرافية على الطريقة الحديثة من الاسكندرية والقاهرة والسويس بعد أن كان الموجود منها فى عهد محمد على على طريقة (شاب) القديمة

ومد الخط الحديدى بين القاهرة والسويس . كتتمة لخط الاسكندرية والقاهرة ، وفتح للمواصلات سنة ١٨٥٨ ، فعاد على ميناء السويس وعمرانها بالفوائد الجمة، لأنه كان سببا فى زيادة ورود السفن التجارية الى هذا الثغر لنقل متاجرها وركابها الى القاهرة ثم الى الاسكندرية بطريق السكة الحديدية ، فنشطت حركة العمران والتجارة فيها ، ولما كثر توارد السفن اليها شرع سعيد باشا فى إصلاح مينائها

ومن أعماله فى العمران الاحتفاظ بالآثار المصرية وجمعها فى مخازن أعدت لها فى بولاق ، وعهد بهذه المهمة إلى العالم الأثرى ماريت (باشا) كما سيجىء بيانه ، وعهد إلى العلامة محمود بك (باشا) الفلكى الرحلة الى دنقلة لرصد كسوف الشمس بها ، فقام بهذه المهمة واغتنم هذه الرحلة لتحقيق ٤٢ موقعاً من المواقع الفلكية بين أسوان ودنقلة

وبعد عودته كلفه سعيد باشا وضع خريطة مفصلة للقطر المصرى ؛ فقام بهذا العمل خير قيام ، واشترك معه فى أدائه طائفة من المهندسين المصريين

إصلاحاته الحربية

وبثه الروح القومية فى الجيش

اشتهر سعيد باشا بميله إلى الجيش ، ولعل نشأته الأولى على ظهر الأسطول حببت اليه الحياة الحربية ، برية كانت أم بحرية ، فعنى بعد أن ولى الحكم بترقية شؤون الجند ، وكثيراً ما كان يصرف أيامه فى معسكر الجيش ، وتعرض عليه شؤون الحكومة وهو وسط جنوده ، ويطيب له أن يسير بهم متنقلا فى أنحاء البلاد

ولقد بذل جهداً كبيراً فى سبيل ترقية الجيش من الوجهتين المادية والمعنوية ، وصبغه بالصبغة الوطنية ، وذلك أن الجيش كان قد اضمحل فى عهد عباس الأول ، كما تقدم بيانه ، وفقد الروح التى كانت تفيض عليه صفات العظمة والبطولة فى عهد محمد علي

وابراهيم ، فعمل سعيد على ن يرد إلى الجيش صبغته الوطنية ، وبذل جهداً كبيراً فى إصلاح حالته

فقرر تقصير مدة الخدمة العسكرية ، وجعلها فى الوقت نفسه إجبارية للجميع ، وكان لهذا الإصلاح أثر حسن فى ترغيب الانتظام فى سلك الجندية إلى الأهلين ، لأن التجنيد بحسب النظام القديم كان مقصوراً على الطبقات الفقيرة (وهو الآن كذلك مع الأسف) ، فوقر فى أذهان الناس أن الخدمة العسكرية سخرة تبتلى بها تلك الطبقات ، ومما زاد فى نفور الأهلين منها طول مدة التجنيد ، فكان المجندون تطول غيبتهم عن أهلهم ، وكثير منهم كانوا يلقون حتفهم فى الحروب المتواصلة التى حدثت فى عصر محمد على ، فيجهل أقرباؤهم مصيرهم

فلإصلاح هذه العيوب قصر سعيد باشا مدة الخدمة العسكرية ، ثم عممها على جميع الشبان ، على اختلاف طبقاتهم ، فجعل متوسط الخدمة سنة واحدة ، وبذلك أدخل فى نفوس الناس الطمأنينة على مصير أبنائهم المجندين ، وأخذوا يشعرون بأنهم سيعودون قريباً الى قراهم وعائلاتهم ، وأمر أن تعمم الخدمة العسكرية ، بحيث يقترع أبناء المشايخ والعمد وأقاربهم كسائر الفلاحين ، ولا شك أن هذه الوسيلة من شأنها أن تنهض بمستوى الجندية ، وترغب الشبان فى الخدمة العسكرية ، لأن العمد والمشايخ هم فى الجملة خلاصة أعيان البلاد ، فدخول أبنائهم فى سلك الجيش تكريم للجندية ، وتقويم لنفوس الشبان إذ يشعرون أن التجنيد واجب عام ، يشترك فيه الأغنياء والفقراء على السواء

وعلاوة على ما تقدم ، فان سعيد باشا عنى بترقية حالة الجنود والترفيه عليهم من جهة الغذاء والمسكن والملبس وحسن المعاملة ، حتى أخذوا يشعرون أنهم تحت لواء الجيش أحسن حالا مما كانوا عليه فى قراهم ، طعاماً ، ومسكناً ، وملبساً ومظهراً

وكان لهذا الإصلاح أثره فى إيلاف الأهالى الخدمة العسكرية ، وفى تقدم حالة البلاد الاجتماعية ، لأن المجندين إذ يعودون الى القرى بعد انتهاء مدة خدمتهم كانوا ينقلون اليها مبادىء النظام والتقدم والنظافة التى تعودوها فى ظل الجندية

ولو استمر العمل بهذا النظام طويلا لألفت الأمة الخدمة العسكرية ، ولاعتادها الشبان من مختلف الطبقات

وكان لسعيد باشا ميلا الى ترقية الضباط المصريين واعطائهم حقهم فى التقدم ، وفى عهده ارتقى كثير منهم الى المراتب العسكرية العالية ، بعد أن كانت منحصرة فى الترك والشراكسة ، وقد نقل عنه عرابى باشا خطبة ألقاها فى مأدبة بقصر النيل ، تدل على عواطف وطنية شريفة ، قال مخاطباً الحاضرين من العلماء والرؤساء الروحانيين وأفراد الأسرة الحاكمة ، وكبار رجال الحكومة الملكيين والعسكريين :

« أيها الاخوان، انى نظرت فى أحوال هذا الشعب المصرى من حيث التاريخ ، فوجدته مظلوماً مستعبداً لغيره من أمم الأرض ، فقد توالت عليه دول ظالمة له كثيرة ، كالعرب الرعاة (الهكسوس) والأشوريين ، والفرس ، حتى أهل ليبيا والسودان واليونان ، والرومان ، وهذا قبل الإسلام ، وبعده تغلب على هذه البلاد كثير من الدول الفاتحة ، كالأمويين ، والعباسيين ، والفاطميين من العرب ، والترك ، والأكراد ، والشركس ؛ وكثيراً ما أغارت فرنسا عليها حتى احتلتها فى أوائل هذا القرن فى زمن (بونابرت) ؛ وحيث أنى أعتبر نفسى مصريا ؛ فوجب على أن أربى أبناء هذا الشعب ، وأهذبه تهذيباً ، حتى أجعله صالحاً لأن يخدم بلاده خدمة صحيحة نافعة ، ويستغنى بنفسه عن الأجانب ، وقد وطدت نفسى على إبراز هذا الرأى من الفكر الى العمل »[1]

ويقول عرابى باشا فى مذكراته تعليقا على هذه الخطبة ، إنه لما انتهى سعيد باشا من القائها خرج المدعوون من الأمراء والعظماء غاضبين ، حانقين ، مدهوشين مما سمعوا ، وأما المصريون فخرجوا ووجوههم تتهلل فرحاً واستبشاراً ، ويقول إنه اعتبر هذه الخطبة أول حجر فى أساس مبدأ (مصر للمصريين) . قال : « وعلى هذا يكون المرحوم سعيد باشا هو واضع أساس هذه النهضة الوطنية الشريفة فى قلوب الأمة المصرية الكريمة »

هذا ما يقوله عرابى باشا ، وهو قول لاغبار عليه ، ونضيف اليه أنه لو بقيت هذه الروح سائدة فى عهد خلفاء سعيد باشا لما كانت البلاد فى حاجة الى شبوب الثورة العرابية ، لأن هذه الثورة قامت لتحقيق المبدأ الذى اتبعه سعيد باشا ، فلو سار خلفاؤه على هذا المبدأ لتم الغرض الذى دعا اليه العرابيون فى سكينة وسلام ، ولكانت البلاد فى غنى عن قيام تلك الثورة ، التى مهما قيل لها أو عليها ، فلا نستطيع أن نغفل تلك الحقيقة المؤلمة ، وهى أنها أفضت

---

(١) مذكرات عرابى (كشف الستار عن سر الأسرار) ص ١٦

بالبلاد الى الاحتلال الانجليزى، وليس يخفى أن الاستقلال والاحتلال ضدان لا يجتمعان

ومن أعماله الحربية إنشاء (القلعة السعيدية) بالقناطر الخيرية . وكان يقيم بها أحياناً. وجعلها بحيث تستطيع صد هجمات الأعداء عن القاهرة إذا جاءوا من طريق النيل

على أن سعيد باشا كان لا يستقر على وتيرة واحدة فى اهتمامه بشؤون الجيش . ومرجع ذلك الى ضعف إرادته . وقلة حزمه . وتقلبه فى الرأى . وقد كان هذا الخلق من مواضع ضعفه . فكثيراً ما لوحظ عليه أنه يرى فى يومه نقيض ما رآه بالأمس . ولا يثبت على رأى واحد . فبينما هو يعنى بزيادة عدد الجيش إذا به يصرفه . فلا يبقى منه إلا النزر اليسير

ففى سنة ١٨٥٦ صرف معظم الجيش . ولم يبق منه إلا ست أورط من المشاة . وثلاثة بلوكات من الفرسان . وبلوكين من المدفعية . ولما سافر فى رحلة الى السودان أواخر سنة ١٨٥٦ اصطحب اورطتين من الجيش وأبقى الاورط الاربع الاخرى بالقاهرة والاسكندرية وبنى سويف . ثم جمع الضباط وجعل منهم مدرسة بالقلعة السعيدية بالقناطر الخيرية . وذلك لخوفه من أن يقوم الجيش بثورة فى البلاد أثناء غيابه بالسودان

وفى سنة ١٨٦٠ أعاد الجيش ثانياً . وأعاد اليه الضباط . ونظم فيالقه . وكان غرضه الاستعداد للقتال حينما توترت العلاقات بينه وبين تركيا . بسبب مسألة قناة السويس . وقاد بنفسه هذا الجيش وعسكر به فى مريوط . وأقام هناك ثلاثة أشهر . كان لا ينفك خلالها يجرى المناورات الحربية . وكان عدد الجيش وقتئذ ٦٤٫٠٠٠ مقاتل كما أحصاه اسماعيل باشا سرهنك فى كتابه (ج ٢ ص ٢٧٥) ثم صرف معظم هذا الجيش بعد أن عادت العلاقات الودية بينه وبين تركيا

وفى سنة ١٨٦٢ أعاد تنظيم بعض الفرق ، وكان لا يقر له قرار إلا بين جنده ويلازمهم فى معظم أوقاته

وذكر عنه المسيو فرديناند دلسبس أنه نقص الجيش من ستين ألفاً الى ثمانية آلاف أو عشرة آلاف مقاتل. وذلك لكى يخصص أكبر عدد من المقترعين لأعمال الحفر فى قناة السويس [١] ومن هذا يتبين لك أن القناة . علاوة على ما جلبته لمصر من المضار كما سيجىء بيانه ، كانت من أسباب اضمحلال الجيش المصرى

(١) وثائق عن تاريخ القناة للمسيو فرديناند دلسبس ج ٤ ص ٣٣٣

البحرية

قلنا ان سعيد باشا نشأ نشأة بحرية ، وانتظم فى سلك الأسطول قبل أن يتولى الحكم ، فكان ميالا بطبيعة نشأته إلى إحياء البحرية المصرية ، بعد ما أصابها من الاضمحلال والإهمال فى عهد عباس

وقد وجه عنايته فعلا إلى ترقية شأن الأسطول ، فلما عادت السفن الحربية المصرية أن حرب القرم أمر بإصلاحها وإنشاء سفن أخرى جديدة ، ولكن انجلترا خشيت من تعود إلى مصر قوتها البحرية ، التى كانت لها فى عهد محمد على ، فأوعزت إلى الحكومة التركية أن تمنع سعيد باشا من تجديد الأسطول ، وزينت للسلطان هذا العمل موهمة إياه أن الأسطول اذا قوى شأنه يصبح خطراً يتهدد تركيا كما كان فى عهد محمد على ، فاستمع السلطان لدسائس انجلترا ، وأصدر أمره إلى سعيد باشا بالكف عن إصلاح سفن الأسطول وإنشاء سفن جديدة إلا بأمره ، فكان ذلك سبباً لاضمحلال قوة مصر البحرية، وقد ذكر اسماعيل باشا سرهنك فى كتابه حقائق الأخبار (ج ٢ ص ٢٧١) أن سعيد باشا إذ رأى أن معظم السفن الراسية أمام دار الصناعة بالاسكندرية لا تصلح للقتال إلا بعد إصلاح جسيم وانها إذا تركت وشأنها أصابها التلف ، أمر بتكسيرها وبيع أخشابها وإحراق ما لا يصلح منها ، وسرح معظم ضباطها ، وأدخل الكثيرين منهم فى الوظائف الملكية ، وخاصة فى مطابخه الواسعة ، ولما أنشأ إدارة للملاحة النيلية ، وهى التى دعيت مصلحة (الانجرارية) ابتاع لها كثيراً من البواخر النيلية ، واستخدم فيها بعض أولئك الضباط والجنود ، وهناك سبب آخر لاضمحلال البحرية فى عهد سعيد ، ذلك أن الدول الأوروبية أخذت تستبدل بالسفن الحربية الشراعية السفن الجديدة البخارية التى صارت الأساطيل الحربية تتألف منها ، ولكن مصر قصرت عن مجاراة الأساطيل الأوروبية فى هــذا المضمار ، ومن هنا أمعنت البحرية المصرية فى الضعف وآلت حالتها إلى الاضمحلال

ولو كان سعيد باشا على شيء من العزيمة التى امتاز بها أبوه العظيم لما ترك الأسطول الضخم الذى بذلت مصر فى سبيل إنشائه ما بذلت من الجهود يتبدد ويتكسر ، ولما صدع بأوامر السلطان في هذا الصدد ، بل كان عليه أن يتعهد الأسطول ، فيصلح ما يعطب من

سفينة ، ويجدده بانشاءالسفن الحربية البخارية بدلا من السفن الشراعية ، لكنه لم يفعل شيئاً من ذلك ، وهو الذى كان يجدر به أن يقدر قيمة الأسطول إذ نشأ فى البحرية ومارس فنونها وعرف مبلغها من الجلال وخطر الشأن

أهمل إذن سعيد شأن البحرية الحربية ، على أنه عنى بالملاحة التجارية الداخلية والخارجية ، فأنشأ شركتين للملاحة ، إحداهما بحرية ، والأخرى نيلية

شركة الملاحة النيلية

فالشركة الأولى للملاحة النيلية . أسست سنة ١٨٥٤ . والغرض منها نقل الحاصلات والمسافرين بطريق النيل على البواخر

والسبب الذى دعا سعيد باشا إلى تأسيس هذه الشركة أن المراكب الشراعية التى تنقل الغلال والمتاجر من داخلية البلاد إلى الاسكندرية عن طريق النيل وترعة المحمودية كانت تتأخر فى سيرها ، لمعاكسة الريح . فكانت تقطع المسافة بين القاهرة والاسكندرية فى خمسة عشر يوما . فى حين أن البواخر تقطعها فى ست وثلاثين ساعة . ولما كانت الاسكندرية تستمد أقواتها ومواد الغذاء من الداخل . فتأخر السفن الشراعية يؤدى إلى أزمة فى الأقوات . وخاصة بعد أن زاد عدد سكانها . هذا إلى ما فى استخدام المراكب الشراعية من تعطيل المواصلات التجارية عامة . فأسس سعيد باشا هذه الشركة لتسهيل سبل المواصلات النيلية

غير أن عيب هذه الشركة أنها شركة أجنبية ، مؤسسوها من الأوروبيين ، ومعظم رءوس أموالها أجنبية ، ولعل هذه أول شركة أجنبية أسست فى عهد سعيد باشا

ولم يكن من أعضائها من المصريين سوى رئيسها الفخرى (الذى لم يكن له عمل ما) وهو ذو الفقار باشا وزير المالية ، أما أصحاب الامتياز فهم ، فيما عدا ذو الفقار باشا جماعة من الماليين الأجانب من مختلف الأجناس ، وهم المسيو رويسنر Ruyssenaers قنصل هولندا العام فى مصر ، والمسيو بوبولانى popolani ، وكونيج بك Koenig Bey سكرتير سعيد باشا الأوروبى ، وموجيل بك Mougel Bey كبير مهندسى الرى ، وأيدى Aide وليونيداس ليغونس Lyghounes ، ومدة امتياز هذه الشركة ١٥ سنة ، ومن شروط

عقد تأسيسها ، أنه عند وقوع خـــلاف بينها وبين الحـكومة فلا يرفع الخلاف إلى القنصليات بل يحسم بواسطة التحكيم ، وأن بواخر الشركة ترفع العلم المصرى باعتبارها تابعة لشركة مصرية

سميت هذه الشركة (الشركة المصرية للملاحة البخارية) , ولم تـكن مصرية إلا بالاسم وكان فى إمكان الحـكومة أن تشترى البواخر من مالها بدلا من الالتجاء إلى رءوس الأموال الأجنبية ، وقد سوغ أنصار سعيد باشا إعطاء هذا الامتياز لشركة أوروبية بقولهم ان الحـكومة عهدت إلى الشركة بالقيام ببعض أعمال الإصلاح فى ترعة المحمودية دون تكليف الخزانة المصرية نفقاتها ، كتوسيع مأخذ الترعة من النيل ، وتوسيع مصبها فى البحر الأبيض المتوسط ، وتطهيرها ، وإنشاء طلمبات عند العطف لتغذيتها

شركة الملاحة البحرية (الشركة المجيدية)

أما الشركة الثانية فهى شركة مساهمة للملاحة البحرية ، أسست سنة ١٨٥٧ رئيسها الأمير مصطفى فاضل بن ابراهيم باشا . ومجلس إدارتها خليط من الوطنيين والأجانب . وهم نوبار باشا (وكان لم يزل بك) نائبا للرئيس . وله فى غيبته أن يقوم بأعمال الرآسة . وعبدالله بك ، والمسيو دمريكر Dumreicher وحسن كامل بك . واسماعيل فوزى بك . والمسيو ليفى . ومختار بك . والمسيو باسترى Pastre ، والمسيو رويسنر . وسعيدافندى ، وهوج توربرن Huge Thurburn والمسيو زكالى zaccali

وسميت (القومبانية المجيدية) . نسبة إلى إسم السلطان عبد المجيد الذى كان يتولى عرش السلطنة العثمانية وقتئذ . والغرض منها تسيير البواخر فى البحر الأحمر . ومنه إلى المحيط الهندى ثم الخليج الفارسى . وفى البحر الأبيض المتوســـط ، وكانت تقوم بالملاحة بين السويس وثغور الحجاز واليمن والقصير وسواكن ومصوع وتنقل الحجاج ذهابا وإيابا إلى ثغور الحجاز . ولها بواخر أخرى بالبحر الأبيض المتوســط . ومدة امتيازها ثلاثون سنة . وبواخرها ترفع الراية المصرية . ومنازعاتها لا ترفع أمام محاكم القنصليات بل أمام المحاكم التجارية المصرية . ولها مستودعات ومحطات فى السويس والقصير ومصوع

ولكن هذه الشركة قد سرى اليها الاضمحلال فى أواخر عهد سعيد . لفساد ادارتها، فحلتها الحكومة . وتولت تصفيتها على عهد اسماعيل وأعادت الاسهم الى أصحابها مقسطة على عشر سنوات فبلغت مع فوائدها ٣٤٠٫٠٠٠ جنيه . وحلت محلها الشركة العزيزية التى أنشأها اسماعيل كما سيجىء بيانه . .

إصلاح ميناء السويس

نشطت حركة التجارة والعمران فى السويس بعد انشاء السكة الحديدية التى تصلها بالقاهرة . وبعد انشاء الشركة المجيدية للبواخر . واتخاذ السويس ميناء لخطوط الملاحة فى البحر الأحمر . فعزم سعيد باشا على إصلاح مرفئها وتوسيعه ، وعهد بذلك إلى شركة فرنسية تعرف بشركة (ديسو) Dussau . وتعاقد واياها على انشاء حوض عائم بالميناء لاصلاح السفن . ثم على توسيع الميناء . وقد كملت أعمال الاصلاح فى عهد الخديوى اسماعيل

حروب مصر فى عهد سعيد باشا

اشتركت مصر على عهد سعيد باشا فى حربين ، الأولى حرب القرم ، والثانية حرب المكسيك

(١) حرب القرم

تقدم الكلام عن اشتراك مصر فى هذه الحرب على عهد عباس باشا ، وحسن بلاء الجيش المصرى فى الدفاع عن (سلستريا)

وقد استمرت الحرب بعد وفاة عباس ، وأرسل سعيد باشا نجدة إلى الجيش المصرى فيها

ومما يذكر عن هذه الحرب أن المصريين عانوا فيها الشدائد والأهوال ، إذ كانوا يقاتلون فى شدة البرد خلال شتاء عامى ١٨٥٤ و ١٨٥٥ ، ولقى الكثير منهم منيتهم فى ميادين القتال ، أو من فتك الأمراض ، وقد دافعوا دفاعا مجيدا عن (اياتوريا) ، وهى

مدينة من ثغور شبه جزيرة القرم ، احتلها الحلفاء لمهاجمة مواقع الروس الحصينة فى شبه الجزيرة

واستشهد سليم باشا (فتحى) القائد العام للجيش المصرى فى حصار (ايباتوريا) ، ذلك أن الروس هاجموا المدينة بغتة ، وكان سليم باشا يتولى قيادة المصريين فيها ، فبينما هو قائم باعباء القيادة أصابته رصاصة فى جبهته أردته قتيلا ، ومع أن الروس ارتدوا عن المدينة ، لكن مقتل سليم باشا كان خسارة كبرى أصابت الجيش ، ووقعت وقعا أليما فى نفوس الجند والضباط

ذكر المسيو (فانترينيه) Vingtrinier نبأ مقتله فى كتابه (سليمان باشا) . قال : « إن مصر شعرت بالألم الشديد لوفاته ، إذ فقدت فيه قائداً فذاً فى الكفاءة الحربية ، ورجلا نزيها محبا للخير ، اكتسب بشجاعته اعجاب رؤسائه ومحبة زملائه »

ولما قتل سليم باشا فتحى ، جعل سعيد باشا على القيادة العامة أحمد باشا المنكلى ، والأمير الاى على بك مبارك (باشا) من أركان حربه ، وكان وقتئذ ناظرا المدرسة المهندسخانة . واشترك فى الحرب كما تراه فى ترجمته بالفصل التاسع

ونال الجيش المصرى فى حرب القرم ثناء مستطابا ممن شهدوا حسن بلائه فى القتال

نقل المسيو فانترينيه فى كتابه (سليمان باشا) ما ذكرته فى هذا الصدد جريدة المونيتور الفرنسية . قالت:

« أثبت المصريون أنهم خير الجنود الذين دافعوا عن ايباتوريا . ونالوا هذه المكانة ذاتها فى حرب الدانوب . واحتملوا وحدهم معظم العبء فى الدفاع عن سلستريا »

وقالت فى موطن آخر : « ان المصريين يعرفون فى الجيش التركى وفى البلاد التركية بالعرب . وطريقتهم فى القتال تشبه طريقة تلك الشعوب الحربية التى تجمع الى الشجاعة والاقدام . الذكاء والنظام »[١]

وشهد الجنرال اسمونت Osmont أحد قواد الجيش الفرنسى فى حرب القرم شهادة قيمة للجيش المصرى . قال (ص ٥٧٤ من الكتاب المتقدم ذكره) : «لقد اشترك قسم

---

(١) سليمان باشا للسيو فانترينيه ص ٥٧٢

من الجيش المصرى معنا فى حرب القرم ، وحينما كنت محافظا لاباتوريا شاهدت فرقة من ذلك الجيش يبلغ عددها ١٢ الف جندى ، يؤلفون جزءا من جيش عمر باشا ، ورأيت هذه الفرقة فى المناورات الحربية ، كما رأيتها وهى تخوض غمار الحرب ، بجانب فرقتين من الترك ، وأشهد إنها كانت تفوق الفرقتين التركتين فى كل المزايا »

وقال المسيو مريو فى كتابه مصر الحديثة يصف الجيش المصرى فى عهد سعيد باشا لمناسبة حرب القرم :

« إن كفاءة الفلاح المصرى فى فهم النظام الحربى ، واتباعه اياه ، وما اشتهر به من الثبات والشجاعة فى مواجهة الأعداء ، كل هذه المزايا قامت عليها البينات ، لا فى ميادين القتال بجزيرة العرب وسوريا فى عصر محمد على فحسب ، بل بحسن دفاع الجيش المصرى عن سلستريا وابياتوريا فى حرب القرم الأخيرة »[1]

وقد غرق الأميرال حسن باشا الاسكندرانى قائد الاسطول المصرى فى تلك الحرب ، وذلك أنه كان عائدا باسطوله الى الاستانة لإصلاح بعض السفن ، فهبت على الأسطول ريح عاصفة ، وتكاثر عليه الضباب ، فحال دون اجتيازه بوغاز البوسفور بسلام ، واشتدت العاصفة عند مدخل البوغاز ، فاصطدمت السفينتان (مفتاح جهاد) (والبحيرة) ، فانكسرتا ، وغرق من بهما من الجنود والضباط . وعددهم ١٩٢٠ مقاتل . لم ينج منهم سوى ١٣٠ ، وكان من الغرقى حسن باشا الاسكندرانى وسنان بك من قواد الاسطول المصرى

وانتهت حرب القرم بفوز تركيا وحلفائها على الروس وسقوط قلعة سباستبول ؛ وأبرم الصلح سنة ١٨٥٦ فى مؤتمر باريس الذى سلمت فيه الروسيا بمطالب الحلفاء

(٢) حرب المكسيك

والحرب الثانية هى حرب المكسيك ، وقد تأخذك الدهشة من اشتراك مصر فى حرب المكسيك بأمريكا ، إذ لا ناقة لها فيها ولا جمل ، ولكن كذلك شاءت ميول سعيد

---

(١) مصر الحديثة للمسيو مريوص ٤٢

نحو نابليون الثالث امبراطور فرنسا فى ذلك العهد وصداقته له أن يلبي دعوته حينما طاب اليه أن يمده بقوة حربية مصرية تعاون الجيش الفرنسى بها

كانت المكسيك جمهورية تتخللها الفتن والثورات ، كما هو شأنها الى اليوم ، وكان يتولى رآسة جمهوريتها سنة ١٨٦١ المسيو جوارز Juarez ، فقامت بالبلاد فتنة بقصد إسقاطه وانتزاع السلطة من يده ، فصادفت هذه الحركة هوى فى نفس الامبراطور نابليون الثالث ، واعتزم أن يعضدها ليبسط نفوذه على المكسيك ويؤسس بها امبراطورية تحت رعايته . وتذرع بما لحق الرعايا الأوروبيين فى الحرب الأهلية من المضار ، فطالب الحكومة المكسيكية بتعويض هذه الخسائر ، فلما رفضت ألب عليها انجلترا وأسبانيا ، ثم ما لبثت هاتان الدولتان أن نفضتا أيديهما من المسألة ، أما نابليون فقد جرد على المكسيك جيشاً كان مصيره الى الهزيمة ، واستنجد فى خلال الحرب بصديقه سعيد باشا فسرعان ما أمده بكتيبة من الجنود السودانيين عددهم ١٢٠٠ مقاتل ، يقودهم البكباشى جبرة الله محمد السودانى ، والصاغ محمد افندى ألماس ، فأبحرت هذه القوة الى المكسيك سنة ١٨٦٢ ، وأبلت فى الحرب هناك بلاء حسناً ، وشهد لها المارشال فورى Forey قائد الجيش الفرنسى بالشجاعة إذ قال عن جنودها : « إن هؤلاء ليسوا من الجنود ، بل هم أسود »[1] واستمرت الحرب سجالا بين الجيش الفرنسى وقوات الثورة ، وأعلنت الامبراطورية فى عاصمة المكسيك فترة من الزمن ، واعتلى عرشها الأرشيدوق مكسميليان النمسوى سنة ١٨٦٤ ، ثم كانت الغلبة لقوات الثورة ، فجلا الفرنسيون عن البلاد ، وقتل الامبراطور مكسميليان رمياً بالرصاص سنة ١٨٦٧ ، وفى غضون ذلك ظلت الكتيبة المصرية تكافح فى تلك البلاد السحيقة نيفاً وأربع سنوات ، قتل فى خلالها البكباشى جبرة الله ، فخلفه ألماس افندى ، وفنى معظم رجالها ، ولم يبق منهم بعد انتهاء الحرب سوى بقية من ضباطها ، ونحو ثلثمائة من جنودها ، ولما جلا الجيش الفرنسى عن المكسيك عادت الكتيبة إلى فرنسا ، فاستعرضها الأمبراطور نابليون الثالث ، يصحبه القائد

---

(١) راجع تاريخ هذه الكتيبة فى البحث المسهب المنشور فى مجلة مصر Revue d'Egypte بالسنة الأولى (١٨٩٤) ص ١٠٤ وما بعدها ، وما ذكره اسماعيل باشا سرهنك فى كتابه حقائق الأخبار ج ٢ ص ٢٧٦

المصرى شاهين باشا ، الذى كان يزور باريس وقتئذ ، فهنأ الأمبراطور ألماس افندى على شجاعة الكتيبة وحسن نظامها ، ووزع الأوسمة على بعض المميزين من رجالها ، ورجعت إلى مصر فى مايو سنة ١٨٦٧ ، فاستعرضها الخديوى اسماعيل بسراى رأس التين بالاسكندرية ، وأمر بترقية طائفة منها ، وأقام لطيف باشا وزير البحرية مأدبة لضباطها تكريماً لهم ولسائر رجال الكتيبة

السودان

مر عهد عباس الأول دون أن ينال السودان منه التفاتا ما . ولم يحدث فى عهده مما يسترعى النظر سوى إنشاء المدرسة الابتدائية بالخرطوم ، وقد فصلنا الكلام عنها فى كتاب « عصر محمد على » (ص٤٨٨)

وتولى منصب الحاكم العام للسودان فى عهد عباس خالد باشا الذى كان يشغله من عهد محمد على ، ثم عبد اللطيف باشا الذى أنشئت فى عهده مدرسة الخرطوم الابتدائية . ثم رستم باشا وقد مات بالخرطوم ، ثم اسماعيل باشا أبو جبل ، ثم سليم باشا ، ثم على باشا سرى

ولما توفى عباس الأول وخلفه سعيد باشا نال السودان نصيباً من اهتمامه ، فقد اقتبس من أبيه فضيلة العناية بهذا الإقليم العظيم المتمم لمصر ، وفى أول عهده جعل على باشا شركس حكمداراً للسودان ، وأوفد أخاه الأمير عبد الحليم باشا للتفتيش على إدارته ، وإصلاح شؤونه ، ولكن الأمير لم يطل البقاء فيه ، لظهور وباء جعله يعجل بالعودة إلى مصر

ثم اعتزم سعيد أن يزور السودان بنفسه ليتفقد أحواله كما فعل أبوه من قبل ، فذهب إليه يصحبه طائفة من خاصة رجاله وأصدقائه ، مثل راغب باشا ، وذو الفقار باشا ، وإبراهيم بك النبراوى ، والمسيو فرديناند دلسبس ، والدكتور أباته باشا ، وأراكيل بك أخى نوبار باشا وغيرهم ، ووصل إلى الخرطوم فى ١٦ يناير سنة ١٨٥٧ والتقى بأعيان الأهلين ، فقدموا له عرائض يشكون فيها من فداحة الضرائب ، ومظالم الحكام ، فاستمع لشكاياتهم ، وتألم لحالتهم ، وساورته يوما فكرة إخلاء السودان ، ولكن أعيان البلاد ومشايخها توسلوا اليه أن يعدل عن رأيه ، محتجين بأن إخلاء السودان يؤدى لا محالة إلى تفاقم الحالة فيه ،

إذ تعمه الفوضى ، فعدل سعيد عن رأيه ، واعتزم إصلاح حالته ، فأمر بإعفاء الأهالى من المتأخر عليهم من الأموال ، وخفض الضرائب تخفيضاً عظيما ووضع قاعدة ثابتة لتقدير قيمتها بأن جعلها تتبع عدد السواقى فى الأطيان ، لأن السواقى تبين مبلغ خصب الأرض ، ودرجة إنتاجها ، فجعل على مجموع الأرض التى تروى من ساقية واحدة ٢٠٠ قرش ، وأما الأطيان التى تروى من غير حاجة إلى السواقى فجعل على الفدان الواحد منها ضريبة تتراوح بين ٢٠ و ٢٥ قرشا

وقرر عزل الموظفين الترك الذين كان الأهالى يشكون من سوء معاملتهم ، واعتزم تعويد الأهلين حكم أنفسهم بانشاء مجالس محلية مؤلفة من أعضاء يختارون من رؤساء العشائر والعائلات[١] ، ورفع المظالم عن الأهلين ، وفك اسار الكثيرين منهم ، ورسم بالغاء السخرة ، وأمر مديرى الأقاليم السودانية بأن يحسنوا معاملة الأهلين ، وألا يرهقونهم فى جباية الضرائب ، وقضى أن لا يعهد إلى الجنود فى تحصيل الضرائب لما اشتهر عنهم من القسوة

ومن إصلاحاته بالسودان أنه أنشأ محطات فى صحراء (كروسكو) ، لتسهيل نقل البريد والمسافرين بين مصر والسودان ، ونظم البريد بين مختلف أنحاء السودان ، وأنشأ نقطة عسكرية على نهر سوباط لمنع تجارة الرقيق ومطاردة النخاسين

ولما عاد الى مصر عهد الى موجيل بك كبير المهندسين تسهيل سبيل المواصلات بين وادى حلفا والخرطوم ، فرأى موجيل بك أن خير وسيلة لإدراك هذا الغرض إنشاء سكة حديد ووضع مشروعاً لذلك ، ولكنه لم ينفذ لكثرة ما يقتضيه من النفقات ، وقد أبطل منصب الحاكم العام (حكمدار السودان) ، وجعل من السودان خمس مديريات مستقلة فى ادارتها بعضها عن بعض ، ترجع كل منها فى شؤونها الى وزارة الداخلية ، شأن مديريات القطر المصرى ، وجعل من الخرطوم وسنار مديرية واحدة ، وعين أراكيل بك نوبار مديراً لها ، لكى يشرف على الإصلاحات التى قررها ، وقد بقى يتولى منصبه إلى أن توفى سنة ١٨٥٩ ، ثم خلفه حسن بك سلامة حتى عزل ، وخلفه محمد بك راسخ

---

(١) ذكر ذلك المسيو فردينان دلسبس فى كتابه (ذكريات أربعين سنة) ج ٢ ص ٤٨٨

ثم رأى سعيد باشا أن استقلال مديرى الأقاليم جعلهم يجنحون إلى الاستبداد والظلم ، ويسيئون الى الأهلين ، فألغى استقلالهم ، وأعاد منصب حكمدار السودان ، وقلد موسى باشا حمدى هذا المنصب ، فكان من أعظم ولاة السودان شأناً ، وله فيه إصلاحات جمة ، منها أنه عين من الأهلين نظار أقسام (مأمورى مراكز) ، ومعاونين ، وعقد ورؤساءهم مجلساً ، وسن قوانين جديدة لتنظيم الضرائب ، وتسهيل جبايتها

وقد عضد سعيد الرحلات والاكتشافات الجغرافية فى أنحاء السودان ، فكثر عدد المكتشفين فى عهده ، ولكنه لم يحذ حذو أبيه فى ايفاد بعثات مصرية كالبعثة التى أنفذها محمد على الى السودان بقيادة البكباشى سليم بك قبطان أحد ضباط البحرية المصرية ، بل ترك أمر هذه الرحلات للمكتشفين الاجانب ، وهى ناحية ضعف وقع فيها هو واسماعيل من بعده

رحلة سعيد باشا إلى الحجاز

قصد سعيد باشا الى الحجاز فى أوائل سنة ١٨٦١ ، وتدل ملابسات هذه الرحلة على أن لها غرضا سياسيا ، فانه لم يذهب الى الحجاز فى موسم الحج واقتصر على زيارة المدينة المنورة ، وكانت الرحلة أشبه بتجريدة عسكرية ، إذ كان يصحبه من الجند والحاشية نحو الفى رجل من مشاة وفرسان ومدفعية واتباع ، واختلفت الآراء فى الباعث لسعيد على هذه الرحلة ، ويؤخذ من رواية محمد بك صادق (باشا)[١] الذى رافق الامير فى رحلته ان لها سببا سياسيا ، وهو استدعاء الحكومة التركية اياه للحضور الى الاستانة ، فرفض الذهاب اليها ، واعتزم زيارة المدينة لكى يتمحل الاعذار ويجد مسوغا للرفض ، وبدأ سعيد باشا رحلته فى ١١ رجب سنة ١٢٧٧ هـ (٢٣ يناير سنة ١٨٦١) فقصد من القاهرة فإلى السويس ، ومنها الى (الوجه) من ثغور الحجاز ، ثم سارت الحملة برا الى المدينة المنورة ، وصلتها فى أول شعبان (١٢ فبراير) ، وبعد أن زار سعيد باشا قبر المصطفى غادر المدينة فى اليوم السادس منه ، وسار الى ينبع ، ومنها استقل الباخرة (نجد) الى السويس فوصل اليها فى ١٧ منه (٢٨ فبراير)

---

(١) فى بحثه المنشور بمجلة الجمعية الجغرافية عدد مايو سنة ١٨٨٠ ص ١٩ تحت عنوان المدينة منذ عشرين عاما Medine il y a vingt ans

التعليم

لم يوجه سعيد باشا عنايته إلى إحياء النهضة العلمية ، واستمر الجمود الذى أصابها فى عهد عباس ، وهذا موضع نقد شديد فى تاريخه

وقد حاول المسيو (مريو) ، وهو من المعجبين بسعيد ، أن يتلمس مسوغاً لهذا التقصير المعيب ، فلم يجد ما ينهض بدفاعه ، قال فى كتابه (مصر الحديثة):

« لا يخفى أن المدارس قد أهملها عباس ، فاصابها الاضمحلال والتدهور ، وبلغت حين تولى سعيد الحكم درجة من التقهقر والفوضى جعل الباشا يرى من الحكمة إقفالها نهائياً ، بدلا من السعى فى تنظيمها . إذ كان السعى عبثاً لا يجدى » [1]

وهذا دفاع كما ترى لا يسوغ عمل سعيد ، إذ ليس من المعقول ولا مما يقبله المنطق أن يعالج التقهقر فى المدارس بإقفالها ، بل العلاج المشروع هو تنظيمها وإصلاحها ، وإذا كانت عزيمة محمد على قد أوجدت المدارس من العدم ، فأسهل من ذلك إصلاح ما اختل من شؤونها

تولى سعيد الحكم وليس بالقطر المصرى من المدارس التى أنشئت فى عهد محمد على سوى النزر اليسير ، فلم يعمل على إحياء ما اندثر منها . بل ظهر عدم اكترائه بشؤون التعليم بالغاء ديوان المدارس (وزارة المعارف) وكان يديره وقتئذ عبدى شكري باشا وألغى أيضاً مدرسة المهندسخانه ببولاق سنة ١٨٥٤ ، وكان يتولى نظارتها العلامة على بك مبارك (باشا) فأنفذه سعيد ضمن الحملة التى أرسلها لمساعدة تركيا فى حرب القرم واغتنم هذه الفرصة لإقفال المدرسة ، وألغى أيضا مدرسة (المفروزة) سنة ١٨٥٥

وأنشأ مدرسة حربية بالقلعة عهد بنظارتها الى العلامة رفاعة بك رافع وسميت مدرسة أركان حرب

ثم أعاد سعيد فتح مدرسة المهندسخانة سنة ١٨٥٨ وجعلها مدرسة حربية نقلها الى القلعة السعيدية بالقناطر الخيرية وسميت "المدرسة الحربية ، وأعاد فتح المدرسة البحرية

---

(١) مصر الحديثة . للمسيو مريوص ٨٢



سعيد باشا والى مصر

من سنة ١٨٥٤ الى ١٨٦٣

بالاسكندرية، وفى عهده أقفلت مدرسة الطب بقصر العينى، ثم أعاد فتحها سنة ١٨٥٦ وأنشأ بها مدرسة للقابلات عهد بنظارتها والتدريس فيها الى السيدة جليلة برهان التى تلقت علومها الطبية فى مدرسة القابلات القديمة المنشأة على عهد محمد على والملغاة فى عهد عباس

وفترت حركة البعثات العلمية فلم يرسل الى أوروبا سوى ١٤ طالباً

ومع جمود حركة التعليم الى هذا الحد فانه لم يبخل على البعثات الأجنبية الدينية بمساعداته كى تفتح مدارسها، فمنح إعانات سنوية لراهبات البون باستور « Bon Pasteur » (الراعى الصالح) وكانت لهن مدرستان بمصر والاسكندرية، ولراهبات الصدقة بالاسكندرية، ووهب للبعثة الامريكية بناء بمصر لتتخذه مدرسة لها، وأعطى أول مدرسة إيطالية أنشأتها الحكومة الايطالية بالاسكندرية إعانة قدرها ٢٤٫٠٠٠ جنيه، ووهب لها قطعة أرض فى أجود جهات الاسكندرية لتنشىء بها المدرسة، فكانت عنايته بنشر التعليم الأجنبى أكبر من عنايته بنشر التعليم الأهلى، وهذا من متناقضاته

نظام الحكم فى عهد عباس وسعيد

النظام السياسى

بقى الحكم فى عهد عباس وسعيد حكما مطلقا يتولاه ولى الأمر إذ كان يجمع فى يده السلطة التشريعيه والتنفيذية والقضائية، فهو المرجع فى كليات الأمور وجزئياتها

وأهمل (مجلس المشورة) الذى أسسه محمد على وانعقد على عهده حينا وكان نواة لنظام شورى (راجع كتاب «عصر محمد على» ص ٥٧٢) فلم يظهر له أثر فى عهد عباس وسعيد

المجلس الخصوصى

ذكرنا فى كتاب عصر محمد على، (ص ٥٧٩) ان محمد على أنشأ سنة ١٨٤٧ مجلسا دعاه (المجلس الخصوصى)، واختصاصه النظر فى شؤون الحكومة الكبرى، وسن اللوائح والقوانين، وإصدار التعليمات لجميع مصالح الحكومة، وكان يرأسه ابراهيم باشا

وقد أعيد تأليف هذا المجلس فى عهد عباس الأول بمقتضى لائحة صدرت فى ٨ ربيع الآخر سنة ١٢٦٥ (١٨٤٩) وتولى رآسته الكتخدا باشاوهو أكبر موظف بالحكومة ، وأعضاؤه من كبار الذوات والعلماء ، واختص بنظر المسائل العامة للحكومة وسن اللوائح والقوانين وترتيب النظم العمومية وتنصيب رؤساءالمصالح الكبرى، فكان بمنزلة مجلس النظار ، وتولى السلطة التشريعية ، وشاركه فيها مجلس الأحكام ، وقد بقى هذا المجلس قائما الى أن خلفه مجلس النظار فى عهد اسماعيل

الوزارات

وفى سنة ١٨٥٧ أعاد سعيد باشا تنظيم الدواوين فجعل منها أربع وزارات وهى الداخليه ، وقد عهد بها الى الأميراحمد رفعت ، والمالية وعهد بها الى الأمير مصطفى فاضل والحربية وتولاها الأمير محمد عبد الحليم ، والخارجية وتقلدها اسطفان بك أحدخريجى البعثات فى عهد محمد على

النظام القضائى

مجلس الأحكام

وكان فى البلاد منذ عهد محمد على هيئة قضائية عليا تسمى (جمعية الحقانية) انشئت سنة ١٨٤٢ وقد سميت هذه الهيئة منذ سنة ١٨٤٩ مجلس الأحكام ، وهو المجلس الذى كان له شأن كبير فى عهد سعيد واسماعيل ، وكان بمثابة الهيئة الاستئنافية العليا فى البلاد ، ويتألف من تسعة أعضاء من الكبراء ومن عالمين أحدهما حنفى والآخر شافعى ، وكان أيضا يشارك (المجلس الخصوصى) فى السلطة التشريعية

مجالس أو محاكم الأقاليم

بقيت المحاكم الشرعية كما كانت فى عهد محمد على ، وبقى لها اختصاصها فى المسائل المتعلقة بالأحوال الشخصية وانتقال الملكية ، غير أنه انشئت محاكم أو « مجالس » جديدة للفصل فى المسائل المدنية والتجارية سميت (مجالس الأقاليم) ، بلغ عددها خمسة

فى بداءة تأسيسها ، وهى (مجلس طنطا) ويختص بنظر قضايا الغربية والمنوفية والبحيرة، و (مجلس سمنود) ويختص بنظر قضايا الدقهلية والشرقية والقليوبية ، و (مجلس الفشن) ويختص بنظر قضايا الجيزة والمنيا وبنى مزار وبنى سويف والفيوم ، و (مجلس جرجا) ويختص بنظر قضايا أسيوط واسنا وقنا ، و (مجلس الخرطوم) ويختص بنظر قضايا السودان

وكان كل مجلس يتألف من رئيس وأربعة أعضاء ، وأربعة كتاب عدا (مجلس سمنود) فإنه يتألف من رئيس وعضوين

وعين لكل مجلس اثنان من العلماء بوظائف مفتين أحدهما حنفى والآخر شافعى

وكان (المجلس الخصوصى) و (مجلس الأحكام) يصدران اللوائح والقوانين لهذه المجالس ، فكان بمثابة الهيئتين التشريعيتين فى البلاد ، ويتبين من ذلك أن مجلس الأحكام فوق كونه هيئة قضائية عليا كان أيضا هيئة تشريعية

ولاية القضاء

ان أهم إصلاح قضائى تم فى عهد سعيد أنه نال من السلطان حق اختيار القضاة بعد أن كان العمل جارياً على أن قاضى القضاة المولى من قبل السلطان هو الذى يعينهم[1]

وهذا الإصلاح فضلا عما فيه من تحقيق الإستقلال القضائى لمصر فانه منع مصدراً من مصادر الفساد فى النظام القضائى ، فان قاضى القضاة كان يعين القضاة حسبما تملى عليه أهواؤه ، وكثيراً ما يجعل تعيينهم مقابل جعل من المال ، وفى ذلك من إفساد القضاء مالا يخفى عن الأذهان

إلغاء مجلس الأحكام ثم إعادته

وفى سنة ١٨٥٥ غضب سعيد باشا على مجلس الأحكام ، فأصدر أمراً بالغائه ، وقيل أن سبب هذا الالغاء اعتقاد سعيد باشا أن أعضاءه لم ينهجوا طريق الاستقامة، وقد أمر باحالة الدعاوى التى كانت من خصائص المجلس على الأمير اسماعيل باشا (الخديو)

---

(١) مصر الحديثة للمسيو مريوص ١

وكلفه عرض ما يلزم عرضه على سعيد باشا ذاته ، أى أنه لم ينشىء هيئة أخرى مكان مجلس الأحكام المذكور ، ولكنه رجع وأمر بإعادة تأليف مجلس الأحكام وأسند رآسته الى الأمير اسماعيل باشا سنة ١٨٥٦ ، وألفه من عشرين عضواً منهم أحد عشر عضواً من الأعيان وتسعة من الذوات

ولم يمض عامان على تأليف هذا المجلس حتى عاد سعيد باشا وغضب عليه ، وكان سعيد مشهوراً بكثرة تقلبه فى الآراء والميول ، وسبب غضبه أنه انتهى اليه أن أعضاءه ارتكبوا الرشوة فى قضية عرضت عليهم ، فارتأى الغاءه سنة ١٨٦٠ ، وألغى كذلك (مجالس الأقاليم)

على أنه عاد بعد ذلك سنة ١٨٦١ وأمر باعادة مجلس الأحكام وعين محمد شريف باشا (الذى صار فيما بعد الوزير المشهور) رئيساً له ، وكان من قبل ناظراً للخارجية ، وأعاد كذلك مجالس الاقاليم ، ولكنه اقتصر منها على مجلسين ، أحدهما بطنطا ، ويختص بنظر قضايا الوجه البحرى ، والثانى بأسيوط ، ويختص بنظر قضايا الوجه القبلى

وكان العمل أمام (مجلس الاحكام) ومجالس الاقاليم يجرى طبقا للقانون العثمانى والقوانين التى أصدرها سعيد باشا

وكان مجلسا طنطا وأسيوط يحكمان ابتدائياً فى المنازعات ، ومجلس الاحكام ينظر فيها بصفة استئنافية ، ولما تولى الخديو اسماعيل أعاد تأليف مجالس الأقاليم بأن عممها فى المديريات كما سيجىء بيانه

قضاء الأجانب

بقيت محاكم التجارة التى أنشئت فى عهد محمد على قائمة الى عهد سعيد واسماعيل وهى المسماة (مجالس التجار) فى الاسكندرية ومصر ، وكانت المحافظات والضبطيات تنظر فى المشاكل الخاصة بالاجانب ، ولكن كثرة نزوح الاجانب الى مصر وما استتبعه من ازدياد هذه المشاكل جعل جهات الادارة لاتستطيع التفرغ لحسمها ، فانشىء سنة ١٨٦١ مجلس خاص باسم (قومسيون مصر) أو مجلس القومسيون ، يتألف من رئيس مصرى وعضوين مصريين ، وعضو أوروبى ، وآخر يونانى ، وعضو اسرائيلى ، وآخر أرمنى [1]

---

(١) انظر كتاب المحاماة لفتحى باشا زغلول ص ٨٥ ملحقات

ويختص بنظر القضايا التى ترفع من الاجانب على الرعايا المحليين ، وللقنصليات أن ترسل مندوبا من قبلها لحضور الجلسات ، وأحكامه تستأنف أمام (مجلس الأحكام) ولم يكن من اختصاصه النظر فى المسائل المتعلقة بالعقار ، بل كان النظر فيها من اختصاص المحاكم الشرعية باعتبارها وقتئذ المحاكم العادية فى البلاد

ثغرات التدخل الأجنبي

اجتمع فى سعيد باشا عيبان جوهريان ، الأول ضعف إرادته وقلة حظه من الحزم والعزم ، والثانى وهو أكبر خطراً وأسوأ أثراً من الأول ، ونعنى به ثقته بالأجانب ثقة مطلقة ، بحيث لم يكن يقوى على أن يخالف لهم رأياً ، أو يرد لهم طلباً ، وقد اتخذ منهم بطانته وموضع سره ، فانفتحت فى كيان مصر ثغرات التدخل الأجنبي ، وأهم هذه الثغرات منح امتياز قناة السويس ، والاستدانة من البيوت المالية الأجنبية

(ا) امتياز قناة السويس

نظرة عامة

يعد مؤرخو أوروبا ، والفرنسيون منهم خاصة ، مشروع قناة السويس مفخرة سعيد باشا ، ويقولون انه بهذا العمل قد أدى أعظم خدمة للانسانية والحضارة ، وهم فيما يقولون إنما ينظرون إلى هذا العمل من وجهة النظر الأوروبية ، فلا شك أن قناة السويس قد أفادت التجارة الأوروبية فوائد كبرى ، بتقريبها طريق المواصلات بين أوروبا والشرق ، وأفادت أيضا الاستعمار الأوروبى ، لأنها مكنت الدول الاستعمارية من ارسال الحملات والتجاريد الحربية من طريق القناة الى آسيا وأفريقية لاخضاع ممالك الشرق وشعوبه ، ورفعت عن تلك الدول مشقات اجتياز طريق المحيط الاطلنطى ورأس الرجاء الصالح ، ذلك الطريق الطويل المحفوف بالمكاره والاخطار

فمن الوجهة الأوروبية لا جدال فى أن فتح قناة السويس عاد بأعظم الفوائد على التجارة الأوروبية والاستعمار الاوروبى

أما من وجهة النظر المصرية ، فالقناة كانت شؤما على البلاد واستقلالها ، لأنها

أطمعت فيها دول الاستعمار ، وجعلتها تسعى سعيا حثيثا للاستيلاء على مصر ، وتضاعف جهودها القديمة لتحقيق هذا الغرض ، ومن المحقق أن مساعى انجلترا خاصة فى احتلال مصر قد تضاعفت واشتدت بعد أن شقت القناة أرض مصر ، وحجتها فى ذلك أنها أرادت الاطمئنان على هذا الطريق الجديد الواصل الى الهند، وتستأثر بوضع يدها عليه، وهى حجة لا أساس لها من الحق والإنصاف ولكنها الامر الواقع الذى توحى به مطامع الفتح والاستعمار، فانجلترا بعد فتح القناة صارت أكثر تطلعا وأقوى تحفزا الى احتلال مصر ، فلا عجب أن كانت مصر ضحية قناة السويس ، تلك حقيقة واقعة ، كان يجب أن لا تفوت سعيد باشا عندما منح امتياز القناة ، وأن يفطن اليها اسماعيل باشا عندما بذل تأييده للمشروع بعد اعتلائه العرش حتى وصل به الى غايته

وإذا كان المؤرخون الافرنج يعدون مشروع القناة أكبر مفخرة لسعيد باشا ، فاننا نعده بالعكس أكبر غلطة له فى تاريخه ، لانه بعمله هذا قد فتح باب التدخل الاستعمارى فى مصر على مصراعيه ، وجعلها هدفا للمطامع الاوروبية

ويزيد فى تبعته أنه كان عالما برأى أبيه العظيم محمد على ومعارضته فى فتح القناة ، ويعلم عندما منح امتيازه أنه خالف وصايا أبيه الذى كان يعد القناة بوسفورا ثانيا يجعل مصر واستقلالها عرضة للخطر

إن المسألة المصرية قد دخلت دوراً جديداً بعد فتح القناة ، إذ صار ينظر اليها كأنها هى مسألة قناة السويس ، فكأنها اندمجت فيها ، وتبدلت أوضاعها تبعاً لهذا الاندماج ، وصار النظر اليها من ناحية الدول الاستعمارية مرتبطا بوجهة نظرها فى مسألة القناة ، ومعلوم أن انجلترا جعلت خطتها فى مسألة القناة أن تسعى جهدها فى وضع يدها عليها وعلى الأرض التى تجتازها ، وأن يكون بيدها مفاتيح القناة ، ولذلك وضعت نصب عينيها أن تحتل مصر بعد أن تم فتح هذا الطريق البحرية الخطيرة الواصلة إلى مستعمراتها فى الشرق

ففتح القناة يعادل فى تأثيره الاستعمارى بالنسبة للمسألة المصرية غزوة نابليون بونابرت ، فكما أن الحملة الفرنسية جعلت انجلترا تتطلع إلى احتلال مصر ، كذلك كان شأن قناة السويس ، الفارق بين الحادثين أن انجلترا قد أخفقت فى تحقيق مطامعها التى

أثارتها الحملة الفرنسية ، وارتدت عن الكنانة دون أن تنال منها منالا ، وسويت المسألة المصرية فى عصر محمد على طبقا لمعاهدة لندن سنة ١٨٤٠ ، تلك المعاهدة التى كفلت لمصر استقلالها الداخلى التام ، وبقيت المسألة المصرية سائرة على منهاج تلك المعاهدة إلى أن تم فتح القناة ، ومن ثم تغيرت أوضاعها ، وسعت انجلترا من جديد فى تحقيق أطماعها القديمة التى أخفقت خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر ، فلا جرم أن كان فتح القناة مقدمة دور جديد للمسألة المصرية ، ولقد كان هذا الدور شؤما على البلاد ، إذ اجتمعت فيه الظروف السيئة التى مكنت انجلترا من تحقيق أطماعها فى مصر ، فان فتح القناة فى ذاته ، وبيع اسماعيل أسهم مصر فيها إلى الحكومة الإنجليزية ، قد هيأ لانجلترا أن تخطو أول خطوة نحو الاحتلال

فسعيد باشا لم ينظر إلى القناة كعمل حيوى لمصر ، وأغلب الظن انه لم يوازن بين مزاياها ، ومضارها ، بل نظر إلى فائدتها للانسانية فحسب ، ولقد زينت له نصائح المسيو فردينان دلسبس أنه بهذا العمل يعد من أكبر خدام الحضارة ، وبديهى أن النظر إلى القناة من وجهة فائدتها للانسانية هو وهم لا يليق بالأمم التى تقدر معنى الوجود والحياة ، لأن حياة الأمة واستقلالها مقدمان على كل خدمة عامة للانسانية ، وليس فى تاريخ الشعوب قديماً وحديثاً أمة رضيت أن تضحى بأية مصلحة لها مهما ضؤلت ، بله استقلالها ، فى سبيل خدمة الانسانية ، فالحق أن هذه أوهام لا تجوز إلا على الأمم المستضعفة ، فاننا على العكس نرى الأمم التى نتخذها مثالا للتقدم والعظمة تهزأ بتلك الأوهام ، وتضحى بمصالح الأمم والانسانية جمعاء تحقيقا لأطماعها الاستعمارية بل تستبيح كل الوسائل فى سبيل السيطرة على العالم ، واستعباد الشعوب

فمن أضعف النظريات وأبعدها عن العقل والمنطق أن يقال ان سعيد واسماعيل يستحقان الإعجاب لانهما خدما الانسانية بانفاذ مشروع القناة ، والحقيقة المؤلمة انهما بعملهما هذا قد مهدا السبيل لاحتلال انجلترا مصر

والآن ننتقل من الإجمال إلى التفصيل فنقول ، إن سعيد باشا بمنحه المسيو دلسبس امتياز القناة قد جلب على البلاد مضار جسيمة نذكرها فيما يلى :

أولا — ان القناة عرضت استقلال مصر للخطر ، ولم يكن هذا الخطر ليخفى على ذى بصيرة فى الأمور ، فلقد أدركه السياسيون الأوروبيون من يوم البدء فى المشروع

ومما يذكر فى هذا الصدد أنه لما تم منح الامتياز كتب المستر بروس Bruce قنصل انجلترا فى مصر وقتئذ إلى حكومته ينبئها بالخبر ، ويقول فى ختام رسالته : « إن فتح القناة سيؤدى إلى ازدياد المواصلات التجارية بين أوروبا والبلاد الواقعة على البحر الأحمر ، وستنشأ طبعا مراكز للدول الأجنبية فى هذه البلاد ، ومن المنتظر أن تحدث منازعات بينها وبين تلك الشعوب ، فتتخذ ذريعة إلى التدخل المسلح فى شؤونها ، وهذا التدخل يفضى إلى الاحتلال الدائم ، ويتوقع أن تحدث هذه النتائج فى مصر ذاتها »

فهذا التنبؤ الذى أدركه القنصل الانجليزى سنة ١٨٥٤ هو ما كان يجب أن يتوقعه كل من عنده قليل من بعد النظر فى السياسة ؛ وهو ما وقع على مر السنين ، فان انجلترا بعد أن تم فتح القناة سعت سعيها فى احتلال مصر ، وتم لها ذلك سنة ١٨٨٢ أى بعد اثنى عشر عاماً من افتتاح القناة للملاحة ، إذ كان افتتاحها سنة ١٨٦٩ . ومن مصادفات القدر أنه عند ما فتحت القناة كان المستر غلادستون على رأس الوزارة الانجليزية ، وعند ما احتلت انجلترا مصر سنة ١٨٨٢ كان هو أيضا يشغل هذا المنصب

ويدخل فى هذا السياق ، أنه لما اشتدت معارضة انجلترا فى فتح القناة ، وجرت مفاوضات بشأن إقناعها بالعدول عن معارضتها ، كان مما اشترطته الحكومة الانجليزية لموافقتها على المشروع احتلالها السويس ، وحمايتها للقناة ، فيتبين من ذلك أن انجلترا لم تكن تخفى نياتها الاستعمارية نحو مصر عند إنشاء القناة ، ولم يكن خافياً أن هذا المشروع يجعل استقلال مصر هدفاً لمطامعها الاستعمارية

وفى هذا الصدد يقول مؤلف (تاريخ مصر المالى) وهو من الكتاب الأوروبيين المشهود لهم بالاعتدال وإصالة الرأى : « إن منح امتياز القناة الى المسيو دلسبس قد فتح أبواب الدلتا على مصراعيها للأوروبيين »[1]

ويقول المسيو كوشرى Cocheris : « إن بدء الارتباكات المالية والتدخل الأوروبى

---

(١) تاريخ مصر المالى ص ٣ لمؤلف لم يعلن اسمه (ولعله المسيو بابونو Paponot) ويعد كتابه من أهم المراجع فى بيان حالة مصر المالية على عهد سعيد وإسماعيل

المشؤوم فى شؤون مصر يرجع فى الحقيقة الى سنة ١٨٥٤ وهى السنة التى منح فيها امتياز قناة السويس الى المسيو دلسبس »[١]

(ثانيا) ان سعيد باشا بقبوله انشاء القناة على يد شركة أجنبية فتح ثغرة ثانية للتدخل الأجنبي ، وكان الضرر أخف وطأة لو فتحتها مصر بنفسها ولحسابها

(ثالثا) أنه أسرف فى منح الشركة امتيازات وحقوقا جعلتها شريكة مصر فى سيادتها وجعلت منها حكومة داخل الحكومة كما سيجىء بيانه

(رابعا) لم تستفد مصر من الوجهة الاقتصادية فائدة ما من القناه ، بل على العكس أضرتها اقتصاديا ، لأن طريق التجارة بين أوروبا والشرق تحولت من داخل مصر إلى القناة المائية التى أصبحت ملكا لشركة أوروبية ، فخسرت مصر الأرباح التى كانت تعود عليها من مرور المتاجر فى وسط الدلتا ، بطريق النيل أو السكك الحديدية المصرية ، وانتقلت هذه الأرباح إلى شركة القناة ، وهذا من غير شك خسران كبير

(خامساً) على الرغم من مضار المشروع لمصر فإنها انفقت عليه من مالها نيفا وستة عشر مليون جنيه ، بذلت فى أسهم اكتتبت فيها ، وأملاك تنازلت عنها ، وأعمال قامت بها، وتعويضات أدتها للشركة، وقد خسرت هذه الملايين فى وقت كانت أحوج ماتكون إليها ، ولإنفاذ مشروع كان شؤما عليها من كل الوجوه

ولئن عادت القناة يوما إلى مصر فلا يمكن أن ننسى أن مصر خسرت فيها ثمنا باهظا وتضحيات جسيمة ، ويكفى أنها بذلت لها ستة عشر مليون جنيه من أموالها ، ثم حرمت ماهو أعز من المال ، وهو الاستقلال ،وعندماتسترد مصر استقلالها تامافستكون قد حرمت استقلالها بسبب القناة ردحا طويلا من الزمن ، وهو حرمان لا يعوض بمال

نبذة وجيزة فى تاريخ المشروع

لم يسبق لحكومة مصرية قديمة أو حديثة أن وصلت البحرين الأبيض والأحمر بقناة ملحة تخترق برزخ السويس

---

(١) المركز الدولى لمصر والسودان للمسيو كوشرى ص ٦٧

فى عهد الفراعنة والفتح الإسلامى

وإنما وقع الاتصال عن طريق النيل ، فكانت ترعة الفراعنة القديمة تخرج من فرع النيل البيلوزى القديم ، وتسير بمحاذاة وادى الطميلات ، ثم تنثنى جنوبا فتخترق البحيرات المرة ، ثم تصب فى البحر الأحمر

وفى عهد الفتح الإسلامى أنشأ عمرو بن العاص « الخليج » المعروف بخليج أمير المؤمنين ، بأمر الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه سنة ٢٣ هجرية ، وكان يصل النيل بالبحر الأحمر ، ويبدأ من مصر القديمة ، حيث يبتدىء خليج مصر اليوم حتى القاهرة ، ومنها إلى المطرية ، ومنها الى العباسة ، ثم يتبع آثار ترعة الفراعنة القديمة

فى عهد الحملة الفرنسية

وفى عهد الحملة الفرنسية فكر نابليون كما أسلفنا فى الجزء الأول من تاريخ الحركة القومية (ص ١٢٤) فى وصل البحر الأحمر بالبحر الأبيض المتوسط ، وعهد بدرس هذا المشروع الى المسيو (لوبير) كبير مهندسى الرى والطرق والجسور ، فقضى عامين فى درسه وفحصه ، وعاونه فيه بعض مهندسى الحملة ، وقدم تقريرا الى نابليون بعد مغادرته مصر ، وكان تصميم المشروع كما وضعه المسيو لوبير أن تحفر قناة من السويس الى البحيرات المرة ، ويعاد حفر خليج أمير المؤمنين الى أن يتلاقى مع بحر مويس بقرب بوباسط (الزقازيق) ، ومن بحر مويس الى فرع دمياط . ومنه الى ترعة الفرعونية ، ومنها الى فرع رشيد ، ومنه الى الاسكندرية بواسطة ترعة الاسكندرية ، وحبذ المسيو لوبير أيضاً فكرة وصل البحرين رأساً بواسطة ترعة أخرى تخترق برزخ السويس ، فيما بين بيلوز (الطينة) على البحر الأبيض المتوسط ، ومدينة السويس على البحر الأحمر ، غير أنه اعتقد خطأ أن البحر الأحمر يعلو عن سطح البحر الأبيض بنحو تسعة أمتار ، وقد نشر لوبير مشروعه فى كتاب (تخطيط مصر) بالجزء الحادى عشر ، وفيه بحث مستفيض عن تخطيط ترعة الفراعنة القديمة ، وخليج أمير المؤمنين ، وتخطيط الجهات التى ينفذ فيها المشروع ، ونفقات إنفاذه ، ويقع هذا البحث فى أكثر من ثلثمائة صفحة ، وهو من أجل الأبحاث التى وضعها علماء الحملة الفرنسية

فى عهد محمد على

جاء المسيو فرديناند دلسبس الى مصر لأول مرة سنة ١٨٣١ ، على عهد محمد على باشا ، متوليا منصب مساعد للقنصل الفرنسى ، فأبدى الباشا نحوه عطفا كبيراً لما كان بينه وبين أبيه الكونت ماتيو دلسبس Mathieu Delesseps من صلات الصداقة القديمة منذ كان قنصلا لفرنسا فى مصر سنة ١٨٠٣ ، واتصل فرديناند دلسبس بالأمير محمد سعيد ، إذ عهد اليه أبوه أن يعنى بتربيته الرياضية ، فتعلم الأمير على يده أنواع الرياضة والمهارة فى ركوب الخيل ، ومن هنا نشأت صلات الود بينهما ، واستمرت صداقتهما طول حياة سعيد باشا

وقد وقع فى يد المسيو دلسبس وهو فى الاسكندرية بحث المسيو لوبير عن وصل البحر الأبيض بالبحر الأحمر ، وأكب على هذا البحث يدرسه درسا عميقا ، فلم يلبث أن اتجهت نفسه الى تحقيق مشروع الاتصال بين البحرين بقناة بحرية ، ثم انتقل من منصبه بالقطر المصرى ، وطوحت به المناصب السياسية الى مختلف الأقطار ، على أنه كان لا يفتأ يفكر فى أمر هذا المشروع

لجنة سنة ١٨٤٦

وكان مشروع وصل البحرين بقناة ملحة موضع البحث والتفكير فى أوروبا بين مختلف المهندسين من يوم أن وضع المسيو لوبير تقريره عنه فى عهد نابليون ، وكان الخطأ الذى وقع فيه المسيو لوبير إذ ظن أن البحر الأحمر يعلو عن سطح البحر الأبيض بنحو تسعة أمتار عقبة يراها رجال الفن حائلة دون إمكان وصل البحرين عن طريق برزخ السويس

على أنه فى سنة ١٨٤٦ تألفت من بعض المهندسين من مختلف الأمم لجنة فنية لدرس مشروع حفر القناة ، وجاء أعضاؤها الى مصر لفحص المشروع فى أواخر عهد محمد على ، واستمروا على عهد عباس ، وعاونتهم الحكومة فى إجراء تلك المباحث ، وعهدت بتخطيط المواقع الى بعض كبار المهندسين مثل لينان بك (باشا) وسلامه افندى ابراهيم (باشا) وإبراهيم بك رمضان وطائل افندى وغيرهم ، وانتهت اللجنة الى أن فرق مستوى البحرين ليس أمراً ذا بال ، ورأت الوصل بينهما بشق ترعة تجتاز الدلتا

وكان محمد على منذ البداية معرضاً عن مشروع القناة ، غير راغب فيه ، لما يتوقعه إذا تم من العواقب الوخيمة ، فلم يستجب لدعوة المهندسين والماليين الأوروبيين الذين زينوا له المشروع ، بل كان يردهم بلطف وحكمة ، ويعدهم ويمنيهم ، وفى الوقت نفسه يضمر الإعراض عن هذا المشروع حتى انتهى حكمه

وقد بلغ به بعد النظر أنه لم يقبل أن يعهد إلى شركة انجليزية مد سكة حديد بين القاهرة والسويس ، حتى لا تكون هذه السكة ذريعة الى التدخل الأجنبي ؛ وكذلك أعرض عباس باشا الأول عن مشروع القناة ، وضرب صفحا عن أبحاث اللجنة ، وحاول المسيو فرديناند دلسبس أن يقنعه بفائدة المشروع ، وأرسل تقريراً عنه الى المسيو رويسنر Ruyssanaers قنصل هولندا العام فى مصر ليعرضه على عباس ، ولكن الفكرة لم تلق من الأمير قبولا ، واتجه فكره الى تسهيل سبيل المواصلات بطريق البر بين الاسكندرية والسويس ، بدلا من شق ترعة ملحة بين البحرين ، فأصلح الطريق بين مصر والسويس وجعله صالحا لمرور العربات من غير عناء ولا مشقة ، ثم شرع فى انشاء سكة الحديد بين الاسكندرية والقاهرة كما تقدم بيانه ، ويئس المسيو دلسبس من نجاح مشروعه على يد عباس الأول

فى عهد سعيد

فلما مات عباس وتولى الحكم سعيد باشا استبشر المسيو فرديناند دلسبس خيرا بنجاح فكرته ، على يد صديقه القديم ، فأرسل اليه يهنئه بارتقاء العرش ، ويبلغه عزمه على الحضور ليقدم له فروض التهانى ، فأجابه سعيد على تهنئته ، واستدعاه الى مصر ، فسرعان ما جاء الاسكندرية (فى نوفمبر سنة ١٨٥٤) ، وقابله الباشا بحفاوة كبيرة ، ذاكراً صداقته القديمة ، ثم اصطحبه فى رحلة من رحلاته الحربية التى كان يسير فيها على رأس جنده ، وسار معه من الاسكندرية الى مصر عن طريق الصحراء الغربية ، وكان الأمير يقود فى هذه الرحلة جيشاً مؤلفاً من عشرة آلاف مقاتل

فاغتنم المسيو دلسبس هذه الفرصة ليفاتح سعيد باشا فى أمر المشروع ، وكان لمهارته فى ركوب الخيل أثر فى تمهيد السبيل لنجاح مسعاه ، ذلك أنه امتطى صهوة جواد أهداه له الأمير ، فوثب به يوماً عن حاجز من الأحجار ، على مرأى من قواد الجند من حاشية

سعيد ، فأعجبو به وبمهارته وفروسيته ، وفى مقدمة المعجبين به ذو الفقار باشا وزير المالية الذى كانت له منزلة كبيرة لدى سعيد باشا

ففى اليوم التالى ، فاتح المسيو دلسبس سعيد باشا فى أمر المشروع ، وزين له أنه إذا وفق اليه خلد ذكره واكتسب ثناء العالم بأسره[١] ، وبالرغم من أن سعيد باشا كان يصرح بأنه لا يخالف وصايا أبيه فى الإعراض عن فتح القناة ، فانه ضعف أمام إغراء المسيو دلسبس ، وقبل المشروع ، ووعده بمساعدته ، وتأييده فى تحقيقه، واستدعى قواد جنده ، وعرض عليهم الفكرة ، وكانوا متأثرين إعجابا بفروسية المسيو دلسبس ، فسارعوا إلى استحسان المشروع ، دون أن يبحثوه ، أو يوازنوا بين مضاره ومزاياه ، فكانوا هم وسعيد فى قصر النظر سواء

فانظر الى ما صارت اليه شؤون الدولة فى عهد سعيد ، وكيف كانت عظائم الأمور يبت فيها من غير بحث أو روية ، ولا نظر فى العواقب ، وهذا من أسباب الضعف الذى أصاب مصر فى عهد خلفاء محمد على ، وإنه لما يدعو الى الدهشة والألم معاً ، أن مشروعاً خطيراً كقناة السويس يقرر فى رحلة صحراوية ، من غير تمحيص ولا تفكير ، وأن مجرد إعجاب « رجال الدولة » بفروسية المسيو دلسبس ومهارته فى ركوب الخيل كان كافياً لإقرار المشروع . . !

ولم يفت المسيو دلسبس ملاحظة هذه الحقيقة المؤلمة ، فقد أشار اليها ، فى شىء من التهكم والسخرية ، قال فى هذا الصدد: « جمع سعيد باشا قواد جنده ، وشاورهم فى الأمر، ولما كانوا على استعداد لتقدير من يجيد ركوب الخيل ويقفز بجواده على الحواجز والخنادق أكثر من تقديرهم للرجل العالم المثقف ، انحازوا الى جانبى، ولما عرض عليهم الباشا تقريرى عن المشروع ، بادروا إلى القول بأنه لا يصح أن يرفض طلب صديقه ، وكانت النتيجة أن منحنى الباشا ذلك الامتياز العظيم »[٢]

وقال فى موضع آخر : « بعد أن قبل سعيد باشا المشروع استدعى قواد جنده، ودعاهم

---

(١) مراسلات ويوميات ووثائق عند قناة السويس للمسيو دلسبس ج ١ ص ٤

(٢) أصول قناة السويس ص ١٥

الى الجلوس أمامه ، وقص عليهم الحديث الذى دار بيننا ، وطلب اليهم أن يبدوا رأيهم فى مشروع « صديقه » . فلم يكن من هؤلاء المستشارين ، وقد فوجئوا بهذا الاقتراح وهم أقدر على إبداء الرأى فى مناورات الخيل منهم فى التكلم عن مشروع عظيم لا يستطيعون فهم مراميه ، إلا أن نظروا إلىّ بملء أعينهم ، كأنما يريدون إفهامى أن صديق مولاهم الذى رأوه يقفز على الحائط راكبا جواده بتلك المهارة ، لا يمكن أن يدلى إلا بآراء صائبة ، وكانوا أثناء الحديث يرفعون أيديهم الى رءوسهم بين آونة وأخرى علامة على الموافقة» [1]

وذكر عن سعيد باشا ذاته (ص ٥٧) أنه قال له بعد أن منحه الامتياز : « أعترف لك بأنى لم أفكر طويلا فى الموضوع ، وإنما هى مسألة شعور ، وليس من عادتى أن أقلد الناس فى ما يتبعون ويعملون »

منح امتياز القناة

٣٠ نوفمبر سنة ١٨٥٤

ولما بلغ سعيد باشا القاهرة أنزل المسيو دلسبس ضيفا عنده ، محفوفا بالاكرام والرعاية ، ولم تمض أيام معدودات حتى منحه بمقتضى العقد المؤرخ ٣٠ نوفمبر سنة ١٨٥٤ امتياز تأسيس شركة عامة لحفر قناة السويس ، واستثمارها لمدة ٩٩ سنة ابتداء من تاريخ فتح القناة للملاحة [2] . وهكذا نال دلسبس بغيته التى كان يسعى لها منذ ثلاث وعشرين سنة

وهذا العقد هو المعروف بعقد الامتياز الأول : تمييزا له عن عقد الامتياز الثانى المؤرخ ٥ يناير سنة ١٨٥٦ الذى سيرد الكلام عنه

وقد عهد سعيد باشا الى مهندسيه لينان بك ، وموجيل بك ، أن يرافقا المسيو دلسبس الى برزخ السويس ، لدرس المشروع وتطبيقه على طبيعة الأرض ، ورفع تقرير اليه عن نتيجة مباحثهم ، وكان رأيهما من قبل فى جانب المشروع

---

(١) أصول قناة السويس ص ٤٠

(٢) فتحت القناة للملاحة يوم ١٧ نوفمبر سنة ١٨٦٩ أى أن مدة الامتياز تنتهى فى ١٦ نوفمبر سنة ١٩٦٨ وتصبح القناة بعدها ملكا لمصر

فقام المهندسان الفرنسيان والمسيو دلسبس بهذه المهمة ، وانتهى بهم البحث الى الاتفاق على طريقة تنفيذ المشروع ، وهى أن تنشأ القناة مستقيمة فى أضيق نقطة فى البرزخ : بين موقع بيلوزه (بورسعيد الآن) على البحر الأبيض المتوسط والسويس على البحر الأحمر

حصص التأسيس

ثم جمع المسيو دلسبس من بعض الماليين حصص التأسيس لشركة القناة التى أزمع تأليفها ، وجعل قيمة الحصة خمسة آلاف فرنك (٢٠٠ جنيه) وخصص قيمة هذه الحصص لنفقات المشروع الأولى ، على أن تحول قيمة الحصص الى أسهم خاصة فى الشركة عند ما يتم تأليفها

لجنة دولية لدرس المشروع

وانتخب المسيو دلسبس باتفاقه مع سعيد باشا (فى نوفمبر سنة ١٨٥٥) لجنة دولية من المهندسين الفنيين لدراسة المشروع ثانية، بعد اطلاعها على تقرير لينان بك وموجيل بك ، لتبدى رأيها فى صلاح المشروع وامكان تنفيذه ، وذلك حتى يطمئن الناس إلى نجاحه ، فيقبلون على الاكتتاب فى أسهم الشركة عند تأليفها

فذهب أعضاء اللجنة إلى برزخ السويس ، وأجروا مباحثهم الهندسية ، ووافقوا على المشروع كما وضعه لينان وموجيل ، بعد أن ثبت لهم أن سطح البحرين واحد ، وأن الأرض صالحة لاجتياز القناة الملحة

شروط الامتياز

٥ يناير سنة ١٨٥٦

ولما أتمت اللجنة مباحثها عرض المسيو دلسبس نتيجة هذه المباحث على سعيد باشا ، فأصدر له عقد الامتياز الثانى بتاريخ ٥ يناير سنة ١٨٥٦ م — (٢٦ ربيع الآخر سنة ١٢٧٢ هـ) ، صدق فيه على الامتياز السابق منحه إلى المسيو دلسبس ، وضمّنه شروط الامتياز التى خولها الشركة ، وكانت شروطا فادحة ، لا ترضى بها حكومة رشيدة ساهرة على مصالح البلاد ، وهاك خلاصتها

(١) منحت الحكومة الشركة امتياز إنشاء قناة السويس بين خليج الطينة على البحر الأبيض المتوسط والسويس على البحر الأحمر . وإنشاء ترعة للمياه العذبة صالحة للملاحة النيليه تستق من النيل ، وتصب فى القناة الملحة ، وإنشاء فرعين للرى والشرب يستمدان مياههما من الترعة المذكورة ، ويصلان إلى السويس والطينة (بور سعيد) (مادة ١ من عقد الامتياز)

(٢) تنازلت الحكومة للشركة مجانا عن جميع الأراضى المملوكة لها والمطلوبة لانشاء القناة الملحة وترعة المياه العذبة وتوابعها ، وهى مساحات شاسعة على طول القناة والترع المزمع انشاؤها ، بعرض كيلو مترين من الجانبين[1]، تنازلت عنها الحكومة بلامقابل، مع إعفائها على الدوام من الضرائب ، وتنازلت أيضا عن جميع الاراضى القابلة للزراعة لتستصلحها الشركة وترويها وتزرعها، مع إعفاء هذه الأطيان من الضرائب مدة عشر سنوات من تاريخ استثمارها (مادة ١٠)

(٣) خولت الشركة (عدا ما تقدم) حق انتزاع الأراضى المملوكة للأفراد مما ترى لزومها لاجراء الأعمال والانتفاع بالامتياز ، فى مقابل أن تدفع الشركة لاصحابها تعويضات « عادلة » (مادة ١٢) ، ومعنى ذلك نزع ملكية الأفراد لمصلحة الشركة

(٤) على أصحاب الأطيان الواقعة أملاكهم على ضفاف الترع التى تنشئها الشركة إذا أرادوا رى أراضيهم بمياهها أن يحصلوا على ترخيص بذلك من الشركة فى مقابل تعويض يؤدونه لها (مادة ٨)

(٥) منحت الحكومة الشركة طول مدة الامتياز الحق فى أن تستخرج من المناجم والمحاجر الأميرية كل المواد اللازمة لأعمال المبانى وصيانتها وملحقات المشروع ، دون دفع أى رسم أو ضريبة أو تعويض ، وتعفى الحكومه الشركة من الرسوم الجمركية ، والعوايد عن جميع الآلات والمواد التى تستوردها من الخارج (مادة ١٣)

(٦) حدد أجل الامتياز بمدة ٩٩ سنة من افتتاح القناة البحرية للملاحة ، وبعد انتهاء هذه المدة تؤول القناة إلى الحكومة المصرية (مادة ١٦)

---

(١) مراسلات ويوميات ووثائق عن القناة للمسيو دلسبس ج ٢ ص ٣٥٦

ولكن هذه المادة قيدت هذا الحق بشرط قد يؤدى إلى تعطيله ، أو يفتح بابا للمشاكل ، وهو وجوب أخذ الحكومة فى هذه الحالة جميع المهمات والمعدات المخصصة لاعمال المشروع البحرية Materiel et approvisionnements ، وأن تدفع للشركة قيمتها التى تقدر سواء بالتراضى أو بناء على تقدير الخبراء

وليس مايمنع الشركة أن تبالغ فى تقويم المعدات التى خصصتها أو تخصصها فى المستقبل للمشروع ، أو أن تتعمد الإسراف فيها لتعجيز الحكومة ، ولكى تخلق العقبات التى تعترض حق مصر فى استرداد القناة

ثم ان المادة ١٦ لم تذكر شيئا عن المنشآت التابعة للقناة ، كالمبانى ، وقد كان العقد الأول (مادة ١٠) ينص على أن شأنها شأن القناة فى رجوعها للحكومة . دون مقابل ، فالعقد الثانى كما ترى صيغ فى أسلوب يجحف بحقوق مصر كل الإجحاف ، وهذا يدلك على الروح التى أملت شروطه ، وأغلب الظن أن سعيد باشا ترك تحريره الى « صديقه » المسيو دلسيبس (كما يصفه فى العقد) ولم يراجعه فى شىء من نصوصه

(٧) خُولت الشركة حق فرض ما تشاء من الرسوم على السفن التى تمر فى القناة البحرية أو الترع والثغور التابعة لها على شرط أن لا تزيد فى النهاية العظمى عن عشرة فرنكات عن كل طن وكل شخص من المسافرين (مادة ١٧)

(٨) فى مقابل الأراضى والامتيازات الممنوحة للشركة تحصل الحكومة المصرية على حصة قدرها ١٥ فى المائة من صافى الأرباح السنوية (مادة ١٨)

وقد خسرت مصر هذه الحصة سنة ١٨٧٩ ، وذلك أنه لما ارتبكت أحوالها المالية بسبب إسراف اسماعيل باعت هذا النصيب إلى البنك العقارى بفرنسا مقابل ٢٢ مليون فرنك

(٩) يكون أربعة أخماس العمال من المصريين (مادة ٢) ، وتعهدت الحكومة ببذل مساعداتها للشركة وتكليف جميع موظفيها وعمالها فى جميع دوائر المصالح أن يمدوا الشركة بمساعداتهم لها (مادة ٢٢) ، وقد فسرت الشركة هذه النصوص على أنها تعهد من الحكومة بتسخير أربعة أخماس العدد الذى تطلبة الشركة من العمال ، وأن يكونوا من الفعلة والفلاحين المصريين لإجراء أعمال الحفر والانشاء ووضعهم تحت تصرف الشركة لتشغيلهم فيما تريده من الأعمال مقابل دفع أجورهم

وكان عقد الامتياز الأول (مادة ٢) يخول الحكومة حق تعيين مديرى الشركة ، ولكن هذا الحق لم يظهر له أثر فى عقد الامتياز الثانى، وهذا العقد يقضى بالغاء النصوص الواردة فى العقد الأول بما يخالف أحكام العقد الثانى ، واقتصرت المادة (٢٠) من العقد الثانى على أنه « يرأس الشركة ويديرها صديقنا ووكيلنا المسيو فردينان دلسبس بصفته المؤسس لها طوال المدة التى تستغرقها الأعمال ، ثم لمدة أخرى قدرها عشر سنوات تبتدئ من تاريخ استغلال الامتياز » ، ومعنى ذلك أن الحكومة المصرية خسرت فى عقد الامتياز الثانى حق تعيين مديرى الشركة، وحفظ لها فقط حق تعيين « مندوب » عنها لدى الشركة يمثل حقوق الحكومة ومصالحها فى تنفيذ العقد

وكان العقد الأول ينص (بالمادة ٤) على أن الحصون التى ترى الحكومة لزوم انشائها فى منطقة القناة لا تكلف بها الشركة ، وقد أغفل هـذا النص فى العقد الثانى ، وفسر إغفاله بأن لا حق للحكومة فى إقامة الحصون فى هذه المنطقة

وإنك لترى فى هذه الشروط روح التساهل والإسراف التى تعاقد بها سعيد باشا مع الشركة ، فانه خولها مزايا جعلها تشارك الحكومة المصرية فى حقوق ملكيتها العامة وسيادتها، وملكها مرافق ومنافع عامة ليس للأفراد من أهل البلاد حق تملكها، وهكذا جعل منها دولة داخل الدولة المصرية ، وليس من عجب أن يحوى عقد الامتياز تلك الشروط الفادحة فان المسيو دلسبس هو الذى تولى تحرير العقد ووضع فيه ما شاء من النصوص والأحكام

مقاومة انجلترا للمشروع

اشترط سعيد باشا لصحة الامتياز أن يصدق عليه السلطان العثمانى ، على أنه كان معتزما تنفيذه بصرف النظر عن هذا التصديق ، وأعطى المسيو دلسبس العهود والمواثيق أن لا ينظر الى هذا التصديق إلا كمظهر شكلى ليس بذى بال ، وفى الواقع إن ما نالته مصر من حقوق الاستقلال الداخلى طبقا لمعاهدة لندن لا يجعل مثل هذا التصديق ضروريا لصحة الامتياز ، ولكن دلسبس أراد زيادة الاطمئنان على مشروعه، فذهب الى الاستانة يلتمس فرمان التصديق ، فألفى مناهضة للمشروع من السفير البريطانى بايعاز من اللورد بالمرستون وزير خارجية انجلترا فى ذلك الحين

وكانت السياسة الانجليزية ترمى حينذاك الى عرقلة المشروع خشية امتداد النفوذ الفرنسى فى مصر، وخوفا على طريق المرور الى الهند أن يصبح تحت سيطرة دولة سواها

فقاومت المشروع من طريق الحكومة التركية ، إذ حرضتها على رفض التصديق ، ثم من طريق الأسواق المالية إذ ألقت فى روع الماليين أن المشروع خيالى لايمكن تحقيقه

معاضدة سعيد للمشروع

على أن سعيد باشاقابل هذه المقاومة بمعاضدة المسيو دلسبس فى مشروعه ، وكانت صداقته لدلسبس تدفعه الى تذليل العقبات لإنجاح المشروع، فبذل له أولا المبالغ المتوفرة فى خزانة الحكومة وقتئذ وقدرها ١٠٠ الف جنيه ليستعين بها على العمل

تأليف الشركة

وفى ٥ نوفمبر سنة ١٨٥٨ عرض دلسبس أسهم الشركة للاكتتاب العام بفرنسا وغيرها من البلدان ، فلقيت إقبالا عظيما،وغطيت أسهم الاكتتاب عدة مرات ،وتألفت الشركة فى ديسمبر سنة ١٨٥٨

وجعل رأس مالها ٢٠٠ مليون فرنك (٨٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه تقريبا) موزعة على ٤٠٠٠٠٠ سهم، قيمة السهم خمسمائة فرنك (٢٠ جنيها)، ثم قسم السهم الى نصفين فصار عدد الأسهم ٨٠٠٠٠٠ سهم ، وقد صارت قيمة السهم الأصلى الآن (سنة ١٩٣٢) حوالى ١٥٠٠٠ فرنك بعد أن كانت ٥٠٠ فرنك

واكتتب سعيد باشا بـ ١٧٧٫٦٤٢ سهماً[1] أى بما يقرب من نصف مجموع الأسهم، ودفع جزءا من ثمنها وقسط الباقى على سنوات

البدء فى حفر القناة

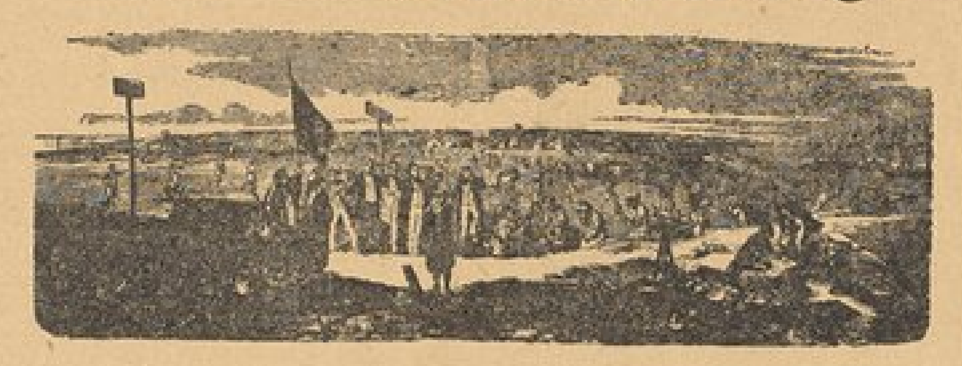
٢٥ ابريل سنة ١٨٥٩

وفى ٢٥ ابريل سنة ١٨٥٩ ذهب المسيو دلسبس يصحبه أعضاء مجلس إدارة الشركة الى شاطىء البحر الأبيض ، فى الموقع الذى انشئت فيه بعد ذلك مدينة بور سعيد، وأقيم

(١) مراسلات ويوميات ووثائق عن القناة ج ٤ ص ١٣٣

هناك احتفال حافل ضرب فيـــه دلسبس أول معول فى أرض القنـاة ، واقتدى به الحاضرون، فكانت تلك الضربة إيذانا بالشروع فى العمل ، وكانت فى الواقع أول ضربة فى صرح استقلال مصر

ثم أخـذ العمال يعملون فى حفر الأرض ، ولم يـكن قد صـدر الفرمان العثمانى بالتصديق على الامتياز ، ولـكن سعيد أراد أن يضع تركيا وانجلترا أمام الأمر الواقع ، ويعضد المشروع بكل ما لديه من حول وقوة ومال



ابتداء العمل فى حفر القناة (٢٥ ابريل سنة ١٨٥٩)
وترى فى الصورة المسيو دلسبس ممسكا بيده معولا للحفر وحوله العمال المصريون يبدأون فى حفر القناة

وقد هـاج هذا العمل غضب الحـكومة الانجليزية ، فسعت سعيها لدى تركيا لوقف العمل ، ومرت ظروف ساعدت انجلترا فى مسعاها ، ففى مايو سنة ١٨٥٩ شبت الحرب فى ربوع ايطاليا بين فرنسا والنمسا ، فمالت فرنسا الى محاسنة انجلترا ، وتراخت فى تأييد المشروع ارضاءاً للحكومة الانجليزية ، وكادت انجلترا تنجح فى مسعاها لإحباط المشروع ودبرت مع الباب العالى خلع سعيد باشا ، وجاء الأسطول الانجليزى الى ثغر الاسكندرية فى يونيه سنة ١٨٥٩[١] ، ولـكن التدبير لم يتم ، وتردد سعيد فى الأمر ، وعهد إلى شريف باشا وزير الخارجية وقتئذ أن يرسل للمسيو دلسبس كتابا يطلب اليه فيه وقف العمل[٢] ،

---

(١) ورد ذكر الاسطول الانجليزى وحضوره الى الثغور المصرية فى كتاب « مراسلات ويوميات ووثائق عن القناة » ج ٣ ص ١٢٤

(٢) مراسلات ويوميات ووثائق عن القناة ج ٣ ص ١٢٣

على ان الحرب بين فرنسا والنمسا ما لبثت أن وضعت أوزارها ، وعقدت بين الدولتين الهدنة المعروفة بمصالحة (فيلا فرنكا) Villa Franca ، فنفذت كلمة فرنسا فى ميدان السياسة العامة ، وعادت إلى مناصرة المشروع وتأييده ، غير أن الحكومة الانجليزية ما فتئت تسعى لدى حكومة الاستانة حتى جعلتها تصدر أمرا إلى سعيد باشا بوقف أعمال الحفر فى برزخ السويس ، وأوفدت مندوبا عنها يدعى مختار بك الى مصر يحمل هذا الأمر الى سعيد

فعاد نابليون الثالث يبذل نفوذه لدى تركيا لحملها على إبطال هذا الأمر ، وهكذا كان للسياسة الفرنسية اليد الطولى فى نجاح المشروع ، واطمأن سعيد باشا إلى رعايتها إياه ، وعاد إلى معاضدة المشروع بكل قواه ، وبلغ به تفانيه فى تعضيده أن سخر الفلاحين ليعملوا فى حفر القناة ، وكان يأمر بجلبهم من بلادهم وقراهم ، وبلغ عددهم نحو ٢٥٫٠٠٠ عامل ، كانو يقاسون الشدائد والأهوال فى عمل لم تنتفع منه مصر بأية فائدة ، بل عاد عليها بالوبال والخسران

وقد سار العمل فى إنفاذ المشروع وحفر القناة الملحة إن أن جرت فيها مياه البحر الأبيض حتى بحيرة التمساح ، وذلك فى ١٨ نوفبر سنة ١٨٦٢ [١]، والى هذه المرحلة وصلت القناة فى عهد سعيد باشا ، إذ أدركته الوفاة بعد ذلك بشهرين فى ١٨ يناير سنة ١٨٦٣ ، تاركاً لاسماعيل إتمام ما بدأ به ، والوصول بالمشروع إلى نهايته



بدء القروض الأجنبية

بدأ عهد القروض الأجنبية خلال حكم سعيد باشا ، فكانت هذه البداءة نذير الكوارث المالية والأحداث السياسية التى أصابت البلاد فى عهد اسماعيل وتوفيق

ولا ندرى ما الذى حمل « سعيد » على أن يوجه وجهته نحو الاقتراض ، ولم يكن

---

(١) مراسلات ويوميات ووثائق عن القناة ج ٥ ص ٦

ذلك من سنة أبيه ، كما أن الحكومة لم تكن فى حاجة مُلحّة الى الاستدانة من البيوت المالية ، فان سنوات سعيد كانت فى الجملة سنوات يُسْر ورخاء ، ولم تقع فى خلالها حروب طويلة تستنفذ موارد الحكومة المالية

يقولون إن نفقات الجيش زادت عن المقدر لها فى الميزانية ، فاضطر سعيد الى الاقتراض ، ولكن هذا السبب لا ينهض حجة لتسويغ عمله ، فان « سعيد » ذاته كان لا يستقر على وتيرة واحدة فى تقوية الجيش وزيادة عدده ، بل كان — لأسباب غير مالية — يصرف أحياناً معظم قواته الحربية ، وقد كان أجدر به أن ينقص من ميزانية جيشه إذا وجد أن حالة الخزانة لا تسمح باستبقاء جيش عرمرم يكلف البلاد ما لا طاقة لها به من النفقات ، والواقع أن قصر النظر السياسى هو الذى دعاه إلى مد يد الاستدانة من الخارج ، ففتح على البلاد باب التدخل الأجنبى

وفى ذلك يقول مؤلف (تاريخ مصر المالى) : « الى سعيد باشا يرجع الفضل التعس فى عقد أول قرض اقترضته مصر من أوروبا »[1]

وقال فى معرض المقارنة بينه وبين محمد على وإبراهيم :

« لقد استطاع محمد على وابنه الأكبر ابراهيم أن ينهضا بالبلاد ويجاهدا فى سبيل ستقلالها ، ذلك الجهاد الذى كلل بالنصر ، دون أن يكون لديهما من الموارد المالية سوى اميزانية لا تتجاوز خمسين مليون فرنك »

ذلك ما يقوله أوروبى خبير ، لا يمكن أن يرمى بالتحامل على بلاده ، فهو يصارحنا فى كتابه بان الاستدانة من أوروبا كان عملا تعسا

عقد سعيد أول قرض ثابت سنة ١٨٦٢ ، ومقداره الاسمى ٣٫٢٤٢٫٨٠٠ جنيه انجليزى من بنك فروهلنج وجوشن بلندن بفائدة ٧ فى المائة ، أما قيمته الحقيقية فكانت ٢٫٤٠٠٫٠٠٠ جنيه تقريبا، أى ان مصر خسرت من رأس ماله ٨٠٠٫٠٠٠ جنيه وزيادة ، وتعهدت بوفاء هـذا الدين على ثلاثين سنة ، قيمة القسط السنوى من رأس مال وفوائد ٢٦٤٠٠٠ جنيه ، أى ان مجموع الأقساط ٧٫٩٢٠٫٠٠٠ جنيه ، فى حين ان أصل الدين

---

(١) تاريخ مصر المالى ص ١

٢٫٤٠٠٫٠٠٠ جنيه ، وعدا هذا القرض الثابت فانه ابتدع طريقة السندات على الخزانة وهى أن يستدين من المرابين ديونا سائرة بواسطة سندات يحررها على الخزانة بالقيمة المقترضة ، وتلك وسيلة خطرة على مالية البلاد ، لأنها استدانة لا ضابط لها ولا حساب، ولا رقابة عليها ، فاذا اندفعت الحكومة فى سبيلها تورطت فى الديون المعروفة بالديون السائرة ، دون أن تلتفت إلى الخطر الذى ينجم عن الاستزادة منها

وقد اختلفت الآراء فى إحصاء الدين السائر الذى استدانه سعيد باشا ، وكلها متفقة على انه كان متلافا للنقود ، لكثرة نفقاته على قصوره ، ومعيشته الخاصة ، وطمع المرابين فيه لما جبل عليه من السخاء وعدم التدقيق فى حسابه

وإذا أخذنا باحصاء مؤلف (تاريخ مصر المالى) الذى عرف عنه الاعتدال فى كتابته كان الدين العام الذى تركه سعيد حين وفاته ١١٫١٦٠٫٠٠٠ جنيه[1]، فاذا استبعدنا منه الدين الثابت بلغت الديون السائرة ٧٫٨٦٨٫٠٠٠ تقريبا ، وهو مبلغ فادح تنوء به مالية البلاد فى ذلك العصر

ولو سلم عهد سعيد من القروض الأجنبية ، ولم يمنح امتياز القناة ، لكان محتملا أن تتغير المصاير وتتبدل النتائج فى تاريخنا القومى

وفاة سعيد باشا

١٨ يناير سنه ١٨٦٣

ذهب سعيد باشا إلى أوروبا ليستشفى من مرض عضال أصابه ، ولم ينجع فيه دواء ، فرجع الى الاسكندرية فى أواخر سنة ١٨٦٢ ، والداء قد استعصى علاجه ، فما زال يشتد به ويهد من قواه حتى أدركته منيته فى صبيحة ١٨ يناير سنة ١٨٦٣ (٢٧ رجب سنة ١٢٧٩) وله من العمر ٤٢ سنة ، وكانت مدة حكمه ثمانى سنوات وتسعة أشهر وستة أيام[2]، ودفن بالاسكندرية بمسجد النبي دانيال ، ولا يزال قبره هناك

---

(١) تاريخ مصر المالى ص ١٢

(٢) عن التوفيقات الالهامية للواء المصرى محمد مختار باشا ص ٦٤ ، وهذا التاريخ (١٨ يناير) يوافق ما ذكره المسيو دلسبس فى وثائق القناة ج ٤ ص ٢٧٦

الفصل الثالث

عصر الخديوى اسماعيل

١٨٦٣ — ١٨٧٩

نظرة عامة

ان عصر الخديوى اسماعيل هو فى مجموعه صورة لتاريخ مصر القومى والسياسى والاقتصادى فى إبان النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، إلى مقدمات الثورة العرابية، واذا أردنا ان نصفه بكلمة عامة ، فهو كما قلنا فى مقدمة الكتاب عصر له أثره النافع كما له أثره الضار فى تطور الحركة القومية ، ذلك لما تفتحت فيه من آمال ، وما قام فيه من حضارة وعمران ، وما تخلله واقترن به من أخطاء وأرزاء أفضت إلى تدخل الدول الاجنبية فى شؤون مصر ، وتصدّع لها بناء الاستقلال المالى ثم السياسى

بهذه الكلمة الوجيزة ، يمكننا ان نلخص عصر اسماعيل ، فهو يمثل من ناحية عهد تقدم وعمران ، ويعد من ناحية أخرى عهد القروض المشؤومة والاغلاط المتلاحقة التى عصفت باستقلال البلاد

واذا كانت مصر تشعر إلى اليوم بنتائج النهضة التى قامت فى ذلك العصر ، وتلمس آثارها بيديها، فانها أيضا تعانى الى اليوم نتائج الأرزاء والأحداث التى وقعت فيه ، وتدفع ثمنها غاليا ، من مالها ، وحقوقها ، وحريتها ، واستقلالها

ويعد هذا العصر أقرب العصور صلة بالعصر الحاضر، لأن معظم القيود والنظم التى حاقت بمصر على عهده لا تزال قائمة إلى اليوم (١٩٣٢)، فالتشريع المختلط ، وتغلغل الأجانب فى مرافق البلاد، والديون التى كبّلت البلاد حكومة وشعباً ، والتدخل الأجنبي فى شؤون مصر المالية والسياسية ، كل هذه القيود ترجع الى عصر اسماعيل



اسماعيل باشا

خديو مصر

من سنة ١٨٦٣ إلى ١٨٧٩

نشأة اسماعيل

هو اسماعيل بن ابراهيم بن محمد على ، وهو ثانى أنجال ابراهيم باشا ، من والدة غير والدتى أخويه الأميرين احمد رفعت ومصطفى فاضل

ولد فى ٣١ ديسمبر سنة ١٨٣٠ ، فى قصر المسافرخانة بالقاهرة (بالجمالية) ، وعنى أبوه بتربيته ، فتعلم مبادىء العلوم ، واللغات العربية والتركية والفارسية ، وقليلا من الرياضيات والطبيعيات ، وأرسله أبوه إلى فينا عاصمة النمسا ، وهو بعد فى الرابعة عشرة من عمره ، ليعالج بها من رمد صديدى أصابه ، ولتكمل تربيته ، وقضى بها عامين ، ثم انتقل إلى باريس لينتظم فى سلك البعثة المصرية الخامسة ، فانضم إلى تلاميذها ، وكان من بينهم الأمير احمد رفعت أخوه ، والأميران عبد الحليم وحسين من انجال محمد على ، ونال فى باريس حظا من العلوم الهندسية والرياضية والطبيعية ، وأتقن اللغة الفرنسية كتابة وكلاما ، وبهرته باريس ومافيها من جمال وروعة ، وغواية وفتنة ، ومن هنا نشأت ميوله الباريسية ، التى لازمته طول حياته ، وجعلته بعد أن تولى الحكم يسعى فى أن يجعل القاهرة باريسا ثانية ، ولو كلفه ذلك أن يمد يده الى القروض التى ناءت بها البلاد ، وظاهر من مبلغ تعلمه أنه لم ينل من المعارف والثقافة فى باريس أو فى فينا حظا كبيراً ، بل اقتصر على مبادىء من العلوم ، ولم يستفد من مكثه بباريس إلا نصيباً قليلا من العلوم الهندسية والحربية ، وأتقن اللغة الفرنسية التى كان يتكلمها كأحد أبنائها ، وكان له فى ذكائه بعض العوض عما ينقصه من العلوم

عاد اسماعيل إلى مصر فى عهد ولاية أبيه ابراهيم باشا ، ولما مات ابراهيم خلفه فى الحكم عباس الأول ، وكان يحقد على عمه ويجفوه ، فلما تولى الحكم شعر اسماعيل وأخوته بكراهية عباس لهم ، ثم مات محمد على ، واشتد الخصام بين عباس وبقية الأمراء على تقسيم ميراث جده ، وارتحل اسماعيل وبعض الأمراء إلى الاستانة ، وعينه السلطان عبد المجيد عضواً بمجلس أحكام الدولة العثمانية ، وانعم عليه بالباشوية ؛ ولم يعد الى مصر إلا بعد مقتل عباس فى أثناء حكم سعيد ، ولما عاد من الاستانة لقى من عمه سعيد باشا عطفاً كبيراً ، وعهد اليه برآسة (مجلس الأحكام) الذى كان أكبر هيئة قضائية فى البلاد ، وأوفده سنة ١٨٥٥ فى مهمة سياسية لدى الامبراطور نابليون الثالث تتعلق بسعى سعيد لدى الدول فى توسيع نطاق استقلال مصر ، بعد اشتراكها مع الحلفاء فى حرب القرم ،

فأدى اسماعيل هذه المهمة بما امتاز به من ذكاء ولباقة ، ووعده نابليون الثالث بتأييد مقترحه فى مؤتمر الصلح بباريس ، ولكنه لم يحقق وعده ، وكذلك قابل البابا (بيو التاسع) فى رحلته موفداً من قبل سعيد ، فأكرم الحبر الرومانى مثواه ، ثم عاد الى مصر

ولم يكن اسماعيل يفكر أثناء حكم سعيد باشا فى أن يؤول اليه العرش من بعده ، إذ كان يحجبه عنه أخوه الأكبر الأمير احمد رفعت ، ولكن حادثا فجائيا ساقته الأقدار سنة ١٨٥٨ أزالت العقبة القائمة فى سبيله ليكون ولياً للعهد ، ذلك أن سعيد باشا أقام بالاسكندرية حفلة دعا اليها أمراء البيت العلوى ، فلبوا الدعوة ، ومن بينهم احمد رفعت ، أما اسماعيل فقد اعتذر عن اجابتها لوعك فى صحته ، وفيما كان الأميران عبد الحليم واحمد رفعت عائدين الى القاهرة بقطار خاص مع حاشيتهما ، سقطت العربة التى تقلهما فى النيل عند كفر الزيات ، فغرق احمد رفعت ، ونجا عبد الحليم ، فأصبح اسماعيل بعد غرق أخيه ولى عهد الأريكة المصرية بحكم نظام الوراثة القديم

وقد مرن اسماعيل على بعض مناصب الدولة ، وهو بعد ولى للعهد ، فاستخلفه سعيد مرتين ، وجعله نائباً عنه (قائمقام) أثناء غيبته عن مصر ، المرة الأولى حينما زار سوريا سنة ١٨٥٩ ، والمرة الثانية حينما ذهب الى الحجاز لزيارة المدينة المنورة فى أوائل سنة ١٨٦١

وكان سعيد يبدى لابن أخيه ارتياحه من الطريقة التى أدى بها أعمال النيابة عنه ، ولما عاد للمرة الثانية الى مصر جعله سرداراً للجيش المصرى ، وعهد اليه اخماد فتنة بعض القبائل فى السودان ، فاضطلع بهذه المهمة دون أن يسفك فيها قطرة من الدماء

ولما أدركت « سعيد » الوفاة خلفه على عرش مصر فى ١٨ يناير سنة ١٨٦٣

سياسة مصر الخارجية

فى عهد اسماعيل

نبدأ بالكلام عن سياسة مصر الخارجية ، لأنها كانت ذات الأثر الفعال فى شؤونها الداخلية ، ولعل ذلك ناشىء عن أن اسماعيل كان يضع السياسة الخارجية والخطط المرتبطة بها فى المكان الأول من الأهمية ، وتليها المسائل الداخلية

فلنبحث إذن عن سياسة مصر الخارجية ، ولهذه السياسة وجهان ، أولهما علاقة مصر بتركيا ، والثانى علاقتها بالدول الأوروبية

ففيما يتعلق بتركيا كانت الخطة التى رسمها اسماعيل هى توسيع نطاق استقلال مصر ، وكسب أكثر ما يمكن من الحقوق والمزايا من الحكومة العثمانية ، حتى يصل بالبلاد الى الاستقلال التام

ولا شك أن هذه نزعة ممدوحة ، تعد من مفاخر اسماعيل ، فان الوصول بالبلاد الى استقلالها التام هى الغاية التى ترمى اليها الحركة القومية

أما فيما يخص علاقات مصر بالدول الأوروبية ، فقد كان اسماعيل يصدر عن فكرة أخرى، تنافى فكرته فى علاقته بتركيا ، فبينما هو يعمل على تحرير البلاد من بقايا السيادة التركية ، إذ هو لا يفادى مصر من النير الاجنبى المالى والسياسى ، بل كان يتسبب فى تطويقها بسلاسل التدخل الاوروبى ، بحيث لم يوشك عهده أن يقارب نهايته ، حتى تصدع بناء الاستقلال المالى والسياسى الذى كسبته مصر فى عصر محمد على

ولو أنه بذل فى سبيل بقاء البلاد حرة من اخطار التدخل الاجنبى جزءا ولو يسيراً مما كان يبذله للانفصال عن تركيا ، لحقق مشروع الاستقلال التام لمصر والسودان ، ولاقترن اسمه فى التاريخ بهذا المشروع القومى العظيم ، ولكنه كان لا يحسب حسابا للتدخل الأوروبى ، وما ينطوى عليه من المطامع التى تهدم كيان الاستقلال ، وهذا الخطأ الجسيم ، فى سياسة اسماعيل الخارجية ، ناشىء عن نزعته الأوروبية ، فان هذه النزعة جعلته يثق بأوروبا ، والدول الأوروبية ، والجاليات الأوروبية ، ثقة عمياء، ويركن اليها، ويعتقد فيها حسن النية ، ولا يفطن لمطامعها الاستعمارية ، ففتح أبواب البلاد على مصراعيها للتدخل الأجنبى ، وسمح للأوروبيين أن يتغلغلوا فى مرافقها ، ويتولوا المناصب والمراكز الرفيعة فى حكومتها ، وبلغت به الثقة فى سلامة نيتهم حدا جعله يقترض القروض الجسيمة بلا حساب من المرابين والبيوت المالية الاجنبية ، حتى صار للاجانب فى عهده نفوذ مالى وسياسى لم يكن لهم من قبل ، وانقلب هذا النفوذ إلى حقوق ومزاعم ادعوها ، وما لبثوا أن نالوها ، بإنشاء صندوق الدين ، وفرض الرقابة الثنائية على مالية البلاد ، وتعيين وزيرين أجنبيين فى الوزارة المصرية ، كما سيجىء بيانه

فسياسة اسماعيل الخارجية حيال الدول الأوروبية كانت اذن سياسة خاطئة ، أوقعت مصر تحت النير الأجنبي المالى والسياسى ، بما نشعر بنتائجه السيئة الى اليوم (١٩٣٢)

هذه كلمة اجمالية عن سياسة اسماعيل الخارجية ، حيال تركيا والدول الأوروبية ، نمهد بها الى بيان هذه السياسة تفصيلا فيما يلى

(١) سياسة اسماعيل حيال تركيا

العلاقات الودية

جعل اسماعيل نصب عينيه تحرير مصر من قيود السيادة التركية التى فرضتها عليها معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ وفرمانات سنة ١٨٤١[1] ، أى أنه أكمل العمل الذى بدأه محمد على ، ولكن الفرق بينه وبين جده أن محمد على كسب لمصر حقوق الاستقلال بقوة الجيش المصرى ، أما اسماعيل فقد اعتمد على سلاح المال والرشوة يبذلها لرجال الاستانة ، ليحصل على الفرمانات التى وسع بها نطاق الاستقلال

وليس يخفى أن وسيلة محمد على هى صفحة مجيدة من تاريخ مصر الحديث ، تقرأ فيها الأجيال المتعاقبة مفاخر الجهاد القومى ، أما وسيلة اسماعيل فلا تستثير فى النفوس إحساس المجد والفخار ، هذا فضلا عن أنها من الأسباب التى دعت اسماعيل إلى الاستدانة من البيوت المالية الأجنبية ، فكانت من هذه الناحية ، من العوامل التى أدت إلى تصدع بناء الاستقلال الحقيقى ، وقد بذل اسماعيل تضحيات مالية جسيمة فى سبيل الحصول على الامتيازات التى نالها ، إذ لم تكن حكومة الاستانة تصدر فرمانا إلا فى مقابل الأموال الطائلة من الرشا والهدايا ، يقدمها اسماعيل لرجال الاستانة ، على اختلاف مراتبهم ، ولا يستثنى منهم السلطان ذاته ، والصدور العظام ، فبلغت هذه الأموال طوال حكمه نحو اثنى عشر مليوناً من الجنيهات

بدأ اسماعيل حكمه بالتودد إلى السلطان عبد العزيز ، ورجال حكومته ، فلما تولى

---

(١) راجع (عصر محمد على) ص ٣١٠ وما بعدها

الأريكة المصرية ذهب إلى الاستانة ليقدم له فروض الولاء ، وانتهز هذه الزيارة لإحكام روابط الود بينه وبين تركيا ، وتودد إلى السلطان عبد العزيز ، ودعاه إلى زيارة مصر ، فوعده بقبول الدعوة

زيارة السلطان عبد العزيز لمصر

ابريل سنة ١٨٦٣

بر عبدالعزيز بوعده ، فجاء مصر فى شهر ابريل سنة ١٨٦٣ م (شوال سنة ١٢٧٩ هـ) ، ونزل بالاسكندرية ، ثم ذهب إلى القاهرة ، وقضى فى ضيافة اسماعيل عشرة أيام ، لقى فيها من مظاهر الإكرام والحفاوة البالغة ماجعل لاسماعيل منزلة كبيرة عنده

ولا غرو فقد كان عبد العزيز هو السلطان العثمانى الوحيد الذى جاء مصر زائراً ، بعد السلطان سليم الذى دخلها فاتحا ، فكانت هذه الزيارة تكريما كبيراً لاسماعيل ، وتعظيما لشأنه

واغتنم هذه الفرصة ، فاستغل المنزلة التى نالها ليكسب من تركيا حقوقا ومزايا جديدة ، واستخدم إلى جانب ذلك المال يبذله بسخاء ، فغمر السلطان وحاشيته بالهدايا والتحف الفاخرة ، حتى ملأ بها سفينة بأكملها ، وزود الصدر الأعظم فؤاد باشا وحده بستين ألفا من الجنيهات رشوة ليتخذ منه عونا له فى مساعيه لدى الحكومة التركية ، وعاد عبد العزيز من زيارته مغتبطا بما لقيه من الإكرام ، ومهدت هذه الزيارة الطريق أمام اسماعيل لينال رغائبه

تغيير نظام توارث العرش

وفرمان ٢٧ مايو سنة ١٨٦٦

أول ماوجه إليه اسماعيل جهده ، هو العمل على تغيير نظام توارث العرش ، فقد كان النظام القديم الذى فرضه فرمان سنة ١٨٤١ يقضى بأن يؤول عرش مصر إلى أكبر أفراد الأسرة العلوية سنا ، كالنظام المتبع فى تركيا

فسعى اسماعيل جهده فى أن يؤول العرش إلى أكبر أنجاله ، ونجح فى مسعاه ، بفضل المثابرة ، والدأب على الطلب ، وبفضل الأموال الطائلة التى بذلها فى الاستانة ، وقد بلغت ثلاثة ملايين من الجنيهات ، فكان هذا السعى من الأسباب الأولى لديون اسماعيل ، وليس ثمة شك فى أن هذه التضحية المالية لاتوازيها الفائدة التى نالتها مصر من هذا التغيير ، لأن طريقة توارث العرش ليست مسألة جوهرية تهم البلاد حتى تبذل فى سبيلها هذه الملايين ، هذا إلى أنها كلفت مصر تضحية مالية أخرى ، ذلك أن تركيا اشترطت مقابل هذا التغيير زيادة الجزية السنوية من ٤٠٠ الف جنيه عثمانى ، إلى ٧٥٠ الف ، أى إلى مايقرب من الضعف ، وهى زيادة فادحة ، تحملتها مصر باستمرار من ذلك الحين إلى الوقت الحاضر ، فبلغت نيفا وخمسة عشر مليون جنيه مصرى لغاية سنة ١٩١٤ ، وهى السنة التى زالت فيها السيادة العثمانية عن مصر ، واحتملتها بعد زوال هذه السيادة ، لأن الحكومة الخديوية قبلت تحويل الجزية إلى دائنى تركيا ، وتعهدت بدفع أقساط ديونهم السنوية خصما من الجزية لغاية سنة ١٩٥٥ ، فإذا حسبنا خسارة مصر فى زيادة الجزية من سنة ١٨٦٦ لغاية سنة ١٩٥٥ ، ابلغت نيفا وخمسة وعشرين مليون جنيه مصرى ، عدا فوائدها ، وهى خسارة جسيمة لامبرر ولا مسوغ لها

ومن الإسراف فى القول مايزعمه بعض المؤرخين أن اسماعيل قصد بسعيه فى هذه المسألة مصلحة البلاد ، وأغلب الظن أن الباعث له على هذا التغيير هو ماكان بينه وبين أخيه من أبيه مصطفى فاضل وعمه عبد الحليم من الشقاق والشحناء ، ولم يكن اسماعيل يخفى كرهه لهما وحقده عليهما ، وكان الأميران أيضا لايكتمان من ناحيتهما كراهيتهما لاسماعيل ، ومن أجل ذلك سعى فى حرمانهما من وراثة العرش وجعلها فى ذريته من صلبه

وقد اغتنم حكام تركيا وذوو النفوذ فيها فرصة هذا التنافس ، ليبتزوا من أموال مصر ماتصل اليه أيديهم ، فقد بذل الأميران عبد الحليم ومصطفى فاضل أموالا طائلة فى الاستانة ، لإحباط مساعى اسماعيل ، فاستفادت من الناحيتين ، ولكن اسماعيل كان أكثر مالا ، وأعز جانبا ، فنجح فى مسعاه ، وهكذا كان للمال الأثر الفعال فى نفوس حكام الاستانة

وساعد اسماعيل فى نجاح مسعاه عامل آخر غير المال ، وهو أن عبد العزيز سلطان تركيا وقتئذ كان يميل أيضا الى تغيير نظام توارث العرش ، ويتمنى أن يؤول عرش تركيا من بعده الى ابنه يوسف عز الدين ، فأيد اسماعيل فى مسعاه ، كى يمهد السبيل لنفسه ، ولكنه لم يستطع أن يقدم على هذا التغيير ، لما فيه من الخروج على التقاليد الموروثة عن آل عثمان

كانت نتيجة مساعى اسماعيل صدور فرمان ٢٧ مايو سنة ١٨٦٦ (١٢ محرم سنة ١٢٨٣) القاضى بانتقال مسند ولاية مصر وملحقاتها وقائمقاميتى سواكن ومصوع الى أكبر أولاده ، ومن هذا الى اكبر ابنائه ، وهلم جرا

ونص فى هذا الفرمان على امكان زيادة الجيش المصرى الى ثلاثين الف جندى ، وكان فى الواقع يزيد على هذا العدد من قبل ، وإقرار حقها فى ضرب نقود مختلفة العيار عن نقود السلطنة العثمانية ، ومنح الرتب المدنية لغاية الرتبة الثانية[1]

واستتبع هذا الفرمان صدور فرمان آخر فى ٢ صفر سنة ١٢٨٣ (١٥ يونيه سنة ١٨٦٦)[2]، بترتيب نظام للوصاية على من يتقلد مسند الولاية اذا كان قاصرا

وقد أبلغ الباب العالى الفرمان السابق الى الدول العظمى التى اشتركت فى إبرام معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ ، مما جعل له صفة المعاهدة التى تربط تركيا دوليا إزاء مصر ، بحيث لا تملك تعديله الا بموافقة مصر ، وخاصة لانه صدر مقابل زيادة فى الجزية

قلنا إن هـذا التغيير فى نظام التوارث لا يعد مكسباً كبيراً لمصر ، حتى تبذل من أجله تلك التضحيات المالية الباهظة ، ولقد برهنت الحوادث على صحة هذا القول ، لأن النتيجة الأولى للنظام الجديد كانت أيلولة العرش الى الخديو توفيق ، أكبر أنجال اسماعيل ، ومعلوم أن توفيق باشا لم تكن ولايته خيراً على البلاد ، وهو الذى اعتلى العرش حينما خلع أبوه ، ولم يظهر نحوه من الوفاء ما كان ينتظره الأب من ولده ، ومضى

---

(١) قاموس الادارة والقضاء لفيليب جلاد ج ٦ ص ٧٣٠

(٢) الوثائق الدولية للسلطنة العثمانية (لنور ادنجيان افندى ج ٣ ص ٢٥٥ . وقاموس جلاد ج ٦ ص ٧٣١

اسماعيل سنوات النفى ، واحتمل غصصه وآلامه ، دون أن يلقى من ابنه عطفاً عليه فى محنته ، وإذا اغضينا النظر عن هذه الاعتبارات العائلية ، فلا يمكننا أن ننسى انه فى عهد توفيق رزئت البلاد بالاحتلال الانجليزى ، وكان عليه جانب كبير من تبعة وقوعه ، فلو لم يتقرر نظام التوارث الجديد، لكان جائزاً ان يخلف اسماعيل على العرش أمير أنفع للبلاد وأخلص لها من توفيق باشا

وقد كان صدور الفرمان بهذا التغيير سبباً لاتساع هوة الخلاف والنفور بين اسماعيل وأخيه مصطفى فاضل ، الذى كان وليا للعهد طبقا لنظام الوراثة القديم ، واستمر العداء بينهما طول الحياة ، وكذلك اشتدت الكراهية بينه وبين عمه الأمير عبد الحليم بن محمد على ، فانه كان يتطلع إلى الأريكة المصرية ، فجاء هذا الفرمان قاضياً على آماله

وأدت هذه الحالة الى اشتداد الدسائس بين الفريقين ، مما شغل اسماعيل وجعله يبذل جهوداً كبيرة وأموالا طائلة فى سبيل إضعاف مركز منافسيه ، ولو بذلت هذه الجهود والأموال فى سبيل مصلحة البلاد لكان ذلك خيراً وأولى

وأفضت هــذه الكراهية ، وما استتبعها من الوشايات والمؤامرات ، الى رحيل الأميرين المذكورين واسرتيهما من مصر ، واتخاذهما الاستانة وأوروبا مقرا لهما ، ونقم الأمير مصطفى فاضل على حكومة السلطان عبد العزيز لتغييرها نظام توارث الأريكة المصرية ، وعلم بما بذله اسماعيل فى هـذا السبيل من الأموال الطائلة ، فانضم الى أحرار تركيا الناقمين على الحكم الاستبدادى فيها ، والذين كانوا يعملون على قلب نظام الحكم والتخلص من استبداد السلاطين ، وعاونهم بنفوذه وماله ، ومن هنا جاءت تسميته بأبى الاحرار فى تركيا

أما عبد الحليم ، فقد نفاه اسماعيل من مصر إثر اكتشاف مكيدة لاغتياله ، قيل ان الأمير دبرها ، فاتخذ اسماعيل هذه الرواية ذريعة للتخلص منه ، فقرر نفيه

فرمان ٨ يونيه سنة ١٨٦٧

والحصول على لقب خديو

واستمرت العلاقات الودية بين مصر وتركيا ، وظل اسماعيل يبذل المال بسخاء على

ضفاف البوسفور ، فحصل فى ٨ يونيه سنة ١٨٦٧ (٥ صفر سنة ١٢٨٤) على فرمان جديد ، يخوله وخلفاءه لقب (خديو) ، بعد ان كان (واليا) ، فارتقى صاحب العرش بهذا اللقب السامى الى مرتبة تقرب من مراتب الملوك والسلاطين ، وأقر هذا الفرمان حق الحكومة المصرية واستقلالها فى ادارة شؤونها الداخلية والمالية ، وحقها فى عقد المعاهدات الخاصة بالبريد والجمارك ومرور البضائع والركاب فى داخلية البلاد ، وشؤون الضبط للجاليات الأجنبية [1]

فتور العلاقات ثم الجفاء

بين مصر وتركيا

على أن علاقة مصر بتركيا ما لبثت ان اعتراها الفتور والجفاء ، ثم الخصام والعداء ، ويرجع السبب الجوهرى فى هذا التحول الى رغبة اسماعيل فى الانفصال عن تركيا ، والظهور بمظهر العاهل المستقل

ذكر محمود باشا فهمى فى كتابه (البحر الزاخر ج ١ ص ١٩٩) انه فى خلال حملة كريت (التى سيرد الكلام عنها) طلب اسماعيل من الباب العالى ان يخوله حق تعيين سفراء لمصر لدى الدول الاجنبية ، فرأى الباب العالى ان مقصده الاستقلال والانفصال عن تركيا ، فرفض طلبه ، وكان من نتائج الرفض ان غضب اسماعيل ، وتهدد الحكومة التركية بسحب جنوده من جزيرة كريت ، أو يستحوذ على الجزيرة اذا لم تجب طلباته

وذكر اسماعيل باشا سرهنك فى كتابه (حقائق الأخبار ج ٢ ص ٣٤١) ما يدل على اشتداد الجفاء بين اسماعيل وتركيا خلال حملة كريت ، مما يؤيد رواية محمود باشا فهمى ، وكلاهما معاصر لهذه الحوادث ، قال انه لما وقع هذا الخلاف أوعز الخديو إلى شاهين باشا قائد الجيش المصرى فى حملة كريت أن يعمل على ترغيب سكان الجزيرة فى الانضمام لمصر ، فأخذ هذا يتودد إلى زعماء الجزيرة ، ويجتذبهم بالمال والهدايا ، فلما علمت الحكومة التركية بذلك طلبت إلى الخديو عزل شاهين باشا من قيادة الجيش المصرى

---

(١) قاموس جلاد ج ٦ ص ٧٣٢

فى كريت ، فاضطر إلى استدعائه ، وجعل مكانه قائدا آخر هو الفريق اسماعيل سليم باشا وزير الحربية وقتئذ

وقد تعددت الحوادث والمظاهر التى تدل على سعى اسماعيل للانفصال عن تركيا فمن ذلك مفاوضته الدول الأوروبية رأساً فى صدد إنشاء النظام القضائى المختلط ، دون وساطة الباب العالى ، واشتراكه فى معرض باريس العام سنة ١٨٦٧ ، وظهوره فيه بمظهر الملك المستقل ، وإقامته به قسما خاصاً لمصر جمع فيه صنوف البهجة والعظمة ليكون جديراً بتمثيل مملكة مستقلة ، ثم توصيته المعامل الفرنسية على صنع ثلاث بوارج حربية مصفحة ، وعدة آلاف من البنادق الحديثة الطراز ، لتسليح الجيش المصرى ، مما جعل الحكومة التركية تتوجس خيفة من مقاصد اسماعيل ، وتتوقع أن يستعد ويتأهب لإعلان الاستقلال التام

واستفاضت الأنباء بأن تركيا عازمة على إرسال جيوشها إلى مصر بعد إخماد ثورة كريت ، وخشى اسماعيل أن تنفذ تركيا يوما وعيدها ، فاستعد للدفاع والحرب ، وأنشأ حصونا جديدة بين الاسكندرية وبور سعيد ، ورمم الحصون القديمة ، وابتاع من معمل ارمسترنج بانجلترا نحو مائتى مدفع من المدافع الضخمة ، سلح بها تلك القلاع ، ويلاحظ أن كثيرا من هذه المدافع باقية إلى اليوم فى حصون الاسكندرية وأبو قير ودمياط ورأس البر ، وقد علاها الصدأ من الإهمال وتوالى السنين ، وعلى أكثرها تاريخ السنة التى أنشئت فيها وهى سنة ١٨٦٩ ، أى السنة التى اشتد فيها الخلاف بين مصر وتركيا

وازدادت العلاقات فتوراً بين البلدين لدعوة اسماعيل ملوك أوروبا ورؤساء حكوماتها إلى حضور حفلات افتتاح قناة السويس سنة ١٨٦٩ ، دون وساطة تركيا ، فاعتبر السلطان هذه الدعوة إغفالا لواجب الولاء نحوه ، واحتج لدى الدول على مسلك الخديو ، فلم يكترث اسماعيل لهذا الاحتجاج ، واستمر ماضيا فى دعوته ، وأقام حفلات القناة برآسته ، وحضرها ملوك أوروبا وأمراؤها

وكان معتزما إعلان استقلال مصر التام فى تلك الحفلات ، ولكن الحكومات الأوروبية لم تسايره فى غرضه ، ونصحته أن يعدل عن عزمه ، وانتهت حفلات القناة والجفاء مستحكم بين اسماعيل والباب العالى

فرمان ٢٩ نوفمبر سنة ١٨٦٩

وما فيه من القيود

كان من نتائج هذا الجفاء صدور فرمان ٢٩ نوفمبر سنة ١٨٦٩ (٢٤ شعبان سنة ١٢٨٦)، حمله رسول من الباب العالى إلى مصر عقب انفضاض حفلات القناة ، فجاء صدمة لآمال اسماعيل ، إذ بينما هو يأمل لمناسبة تلك الحفلات أن يصل إلى الاستقلال التام ، كانت النتيجة صدور فرمان ينتقص من سلطته

قيد السلطان بهذا الفرمان حقوق الخديو ، فنص فيه على أنه لايجوز له أن يقترض قروضا جديدة دون أن يبين وجه الحاجة اليها ، ويحصل على إذن من السلطان بعقدها[1]، وكان السبب الظاهر لهذا التقييد غيرة الباب العالى على مصالح مصر ، واستياءه من تورط اسماعيل فى الديون الباهظة التى استدانها

وفى الحق أن اسماعيل كان فى حاجة الى من يغل يده عن الإسراف فى الاستدانة ، ويقيده فى تصرفاته المالية ، وحبذا لو أن هذا القيد جاء من ناحيـة الأمة ، أو بعبارة أخرى من ناحية مجلس شورى النواب ، الذى كان ينعقد كل عام ، على أننا لانعتقد أن الباب العالى كان يقصد الى مصلحة مصر فى تقييد اسماعيل بهذا القيد ، بل أغلب الظن أنه كان يرمى الى استرداد حقوق جديدة لـكى يكيد للخديو ويسىء اليه

وقد استاء الخديو من هذا الفرمان ، ولم يعقد احتفالا حافلا لتلاوته بالأبهة المعتادة ، بل قرىء فى قصر النيل دون جلبة ولا إعلان

تحسين العلاقات

فرمان سبتمبر سنة ١٨٧٢

على أن اسماعيل أخذ يسعى فى تحسين علاقته بتركيا ، لما رأى أنه فى حاجة الى

---

(١) راجع نص الفرمان فى القاموس العام للادارة والقضاء لفيليب جلاد ج ٦ ص ٧٣٣

عضدها ، بعد أن خذلته الدول الأوروبية ، واشتدت ورطته المالية ، فقصد الى الاستانة فى صيف سنة ١٨٧٢ يصحبه اسماعيل صديق باشا وزير المالية ، ونوبار باشا وزير الخارجيه ، ليسعوا فى إعادة المياه الى مجاريها ، وبذلوا هناك مابذلوا من مظاهر الولاء ، ومن المال والرشا والهدايا ، حتى عادت علاقات الود بين الخديو والحكومة التركية

فنال فى سنة واحدة فرمانا فى ١٠ سبتمبر سنة ١٨٧٢ (٧ رجب سنة ١٢٨٩) يثبت الامتيازات السابق منحه اياها ، وينسخ القيود الواردة فى فرمان سنة ١٨٦٩ ، وخطاً شريفاً فى ٢٥ سبتمبر سنة ١٨٧٢ (٢٢ رجب سنة ١٢٨٩) يؤكد فيه مزايا فرمان ١٠ سبتمبر ، ويخوله صراحة حق الاستدانة من الخارج دون شرط ولا قيد

وقد ابتهج الخديو ابتهاجا عظيما لورود الفرمان والخط الشريف الى مصر يحملهما كبير كتاب المابين ، وعقد لتلاوتهما احتفالا فخما فى ديوان الغورى بالقلعة وقرئا بحضور المدعوين ، وأطلقت المدافع ايذانا بهذا النصر المبين ، ونشر نصهما فى الجريدة الرسمية [1]

وكان من نتائج صدور الفرمان والخط الشريف المذكورين عقد قرض سنة ١٨٧٣ ذلك القرض المشؤوم الذى كان طامة كبرى على البلاد كما سنبينه فيما يلى

الفرمان الجامع (٨ يونيه سنة ١٨٧٣)

لم يكتف الخديو اسماعيل بهذا الفرمان ، بل أراد أن يحصل على فرمان جامع للمزايا التى نالتها مصر منذ تولية محمد على حكم مصر بطريق التوارث الى ذلك العهد ، فقصد الى الاستانة فى صيف سنة ١٨٧٣ متذرعا بالأموال يرشو بها رجال الحكومة التركية ، وصحبه فى رحلته جمع من أركان حكومته وبطانته كنوبار باشا وزير الخارجية ، واسماعيل صديق وزير الداخلية ، ورياض باشا مستشار مجلس الوزراء (المجلس الخصوصى العالى) وغيرهم ، وما زال يسعى حتى نال الفرمان المؤرخ ٨ يونيه سنة ١٨٧٣ (١٣ ربيع الثانى سنة ١٢٩٠)[2] ، وهو الفرمان الجامع الذى ثبت المزايا الواردة فى الفرمانات القديمة والحديثة ، وتتلخص هذه المزايا فى الحقوق الآتية :

---

(١) الوقائع المصرية عدد ٤٨٠ الصادر فى ٢٩ اكتوبر سنة ١٨٧٢

(٢) الوثائق الدولية للسلطنة العثمانية لنور ادنجيان افندى ج ٣ ص ٢٤٧

(١) توارث عرش مصر فى أكبر انجال الخديو ، ومن بعده إلى اكبر أولاد هذا الأكبر وهلم جرا

(٢) تشمل أملاك الخديوية المصرية مصر وملحقاتها (السودان) الجارية إدارتها بمعرفتها مع ماصار إلحاقه بها من قائممقاميتى سواكن ومصوع وملحقاتهما

(٣) حق الحكومة المصرية فى سن القوانين والنظامات الداخلية على اختلاف أنواعها

(٤) حق عقد الاتفاقات الجركية والمعاهدات التجارية

(٥) حق الاقتراض من الخارج من غير استئذان من الحكومة التركية

(٦) زيادة الجيش إلى أى عدد يبتغيه الخديو

(٧) حق بناء السفن الحربية ماعدا المدرعات التى يجب لانشائها استئذان الحكومة التركية

وصفوة القول أن هذا الفرمان الجامع قد ثبت لمصر حقوقها الكاملة فى الاستقلال التام ، فيما عدا دفع الجزية السنوية ، وقدرها ٧٥٠ الف جنيه عثمانى ، وعدم عقد المعاهدات السياسية ، وحق التمثيل الخارجى ، وعدم صنع المدرعات الحربية

وقد نشر هذا الفرمان فى العدد ٥١٧ من (الوقائع المصرية) الصادر فى ١٧ يوليه سنة ١٨٧٣

عود الجفاء

على أن هذه الفرمانات لم تصل إلى إحلال الوئام بين مصر وتركيا محل الجفاء والخصام ، بل على الرغم من الظواهر ، فان تركيا كانت لاتخلص النية نحو مصر ، كما أن اسماعيل كان يسىء بها الظن ويعتقد بحق أنها لا تتردد فى استرداد الامتيازات التى نالتها مصر إذا استطاعت إلى ذلك سبيلا

وبدا سوء نية تركيا نحو مصر من ممالأتها الدول الأوروبية فى خلافها مع الخديو اسماعيل ، ذلك الخلاف الذى أدى إلى خلعه ، كما سنبينه فى موضعه ، فان مطالب الحكومات الأوروبية فى هذا الخلاف كانت مطالب جائرة لايقرها عدل ، ولا يسيغها منطق ، وظهر فيها الافتيات الصارخ على حقوق مصر ، وانتهاز الدول الارتباك المالى لتحقيق أطماعها الاستعمارية ، وبالرغم من ذلك لم يتردد الباب العالى فى الانضمام إلى

الدول الأوروبية ، والنزول على إرادتها ، ولم يكد يتبين رغبتها فى التخلص من اسماعيل حتى بادره برسالته التلغرافية القاضية بخلعه من منصب الخديوية ، وتعيين نجله توفيق باشا خلفا له ، ولم يكن هذا العمل لصالح مصر ، ولا لصالح تركيا أيضا ، بل كان تمكينا للنفوذ الأجنبي فى مصر ، ولكن تخبط السياسة التركية وسوء نيتها نحو مصر جعلها تستجيب لمطالب الدول ، وتلك أول مرة خلع فيها ولى الأمر فى مصر على عهد الأسرة العلوية برغبة الحكومات الأوروبية ، وممالأة الحكومة التركية ، وفى ذلك أعظم افتيات على حقوق مصر واستقلالها

(٢)

سياسة اسماعيل حيال الدول الأوروبية

كانت القاعدة العامة لسياسة اسماعيل الخارجية الركون إلى الدول الاوروبية ، وحسن الظن بها ، والعمل على كسب رضاها ، وهذا من غلطاته السياسية ، لأنه من المعلوم أن الدول والجاليات الأوروبية على اختلاف أجناسها ، إنما ترمى إلى تحقيق أطماعها الاستعمارية فى بلاد الشرق قاطبة ، ومصر فى طليعتها

وتلك لعمرى حقيقة يعترف بها الاوروبيون المنصفون ، فقد كتب المسيو (فان بملن) Van Bemlen وهو قاض هولندى تولى القضاء فى المحاكم المختلطة على عهد اسماعيل يقول فى هذا الصدد :

« إن علاقات الحكومات الاوروبية بمصر لم تقم إلا على قاعدة تحقيق مصالحها ومصالح رعاياها ، وان سياستها المبنية على الأثرة والأنانية لم يتخللها أى شعور بالعطف أو بالرأفة أو بالواجب نحو مصر ، ومعظم الاوروبيين الذين جاءوا إلى هذه البلاد كانوا من أحط الطبقات ، ولم يكن همهم إلا الإثراء على حساب البلاد »[1]

هـذا ما يقوله قاض أوروبى عادل مثقف سبر غور الأمور فى مصر ، وتلك هى الحقيقة التى يطالعنا بها فى كتابه ، ولكن الخديو اسماعيل لم يفطن الى تلك الحقائق

---

(١) مصر وأوروبا . للقاضى المختلط فان بملن ج ١ ص ١١٦

وهنا يبدو الفرق جلياً بين محمد على واسماعيل ، فمحمد على كان يقتبس من التمدن الأوروبى وسائل النهضة والقوة والتقدم ، ويستعين بخبرة علماء أوروبا ومهندسيها ، ولكنه فى الوقت نفسه يحذر تدخل الأوروبيين حكومات وجاليات فى شؤون البلاد . ولا يطمئن اليهم ، ولذلك بقيت البلاد فى عهده سليمة من تدخل النفوذ الأوروبى، سواء من الوجهة السياسية أو من الوجهة المالية والاقتصادية ، ويكفيك دليلا على بعد نظره وحكمته أنه لم يقبل إنفاذ مشروع قناة السويس ، رغم إلحاح الماليين والسياسيين الأجانب عليه ، وكذلك لم يقبل أن يعهد الى شركة مالية انجليزية إنشاء الخط الحديدى بين مصر والسويس ، ولم يمد يده الى الاقتراض من البيوت المالية الأجنبية ، كل ذلك لكى يصون البلاد من أخطار التدخل الأجنبى

لكن اسماعيل ، لنزعته الأوروبية ، لم يحسب حسابا لهذا التدخل ، ولعله كان يتوهم حسن نية الدول الأوروبية نحوه ونحو مصر ، فما زال الوهم متسلطا عليه حتى أدرك خطأه فى آخر عهده ، إذ رأى الدول والجاليات الأوروبية ، التى طالما تودد اليها ، ومكن لها من مرافق البلاد ، تضطره إلى بيع أملاكه وأملاك عائلته وفاء لديونه ، ورأى النفوذ الأوروبى يشل سلطته ، فحاول عبثا أن يقاومه أو يضع له حداً ، ولكن هذا النفوذ كان قد طغى واستفحل، فلم يستطع له دفعا ، وانتهى الأمر بأن اقتلعته إرادة الدول الأوروبية عن الأريكة الخديوية

والآن نتكلم عن سياسة اسماعيل نحو الدولتين اللتين تنافستا على النفوذ والسلطة فى مصر ، وهما فرنسا وانجلترا

فرنســا

كانت السنوات الأولى من حكم اسماعيل هى الفترة التى أخذ فيها النفوذ الاجنبى يتغلغل فى البلاد ، ماليا واقتصاديا ثم انقلب هذا النفوذ فى أواخر عهده إلى سيطرة مالية وسياسية شديدة الوطأة

وكان لفرنسا بادىء الأمر نفوذ أدبى كبير على اسماعيل ، وهذا يرجع أولا ، إلى تربيته الفرنسية ، والسنوات التى قضاها فى باريس، ومعاشرته الطويلة للفرنسيين ، واتصاله

بهم ، وإتقانه لغتهم ، وميله الى تقليدهم فى معيشتهم ، واقتباسه أساليبهم وعوائدهم ، فيما خلا فضيلة التدبير والاقتصاد التى اشتهروا بها ، والتى تعد من أعظم فضائلهم القومية

وهناك عامل آخر ساعد على امتداد النفوذ الفرنسى ، وهو صلة الخديو اسماعيل بالأمبراطور نابليون الثالث ، وصداقته له وإعجابه به ، ومحاكاته إياه فى مظاهر الأبهة والعظمة ، وسعيه فى كسب ثقته وتوثيق روابط الود بينهما

ويتجلى لك مبلغ النفوذ الفرنسى ، فى أنه لما قام الخلاف بين اسماعيل وشركة قناة السويس فى أوائل عهده بالحكم ، ارتضى تدخل الأمبراطور نابليون الثالث لحسم الخلاف ، ورضى أن يجعله حكما بينه وبين الشركة ، مع أنه يعلم بالبداهة ان امبراطور الفرنسيين لا يمكن أن يكون حكما عادلا فى مثل هـذا الخلاف ، وان حكمه لا يمكن أن يخلو من المحاباة للشركة الفرنسية ، وقد أصدر نابليون الثالث فعلا حكمه بإلزام الحكومة المصرية بتعويضات باهظة للشركة تبلغ عدة ملايين من الجنيهات

ويبدو هذا النفوذ أيضا فى استخدام اسماعيل لطائفة من الفرنسيين فى كثير من معاملاته المالية وقروضه ، وإسناد كثير من مشروعات العمران إلى إخصائيين من الفرنسيين

وقد بلغ هذا النفوذ أقصى مداه فى حفلات افتتاح القناة سنة ١٨٦٩ ، فالقناة فى ذاتها عمل فرنسى ، وفاتحها فردينان دلسيبس يمثل كفاءة فرنسا المالية والهندسية ، وكانت أوجينى امبراطورة الفرنسيين تمثل الدولة الفرنسية فى إبان مجدها وأوج عزها ، وهى التى رأست حفلات الافتتاح ، متقدمة ملوك أوروبا وأمراءها وأقطابها فى السياسة والعلوم والفنون ، فكانت هذه الحفلات الفخمة إيذانا بما بلغه النفوذ الفرنسى فى مصر من القوة وسمو المنزلة

على أن هذا النفوذ أخذ فى الاضمحلال عقب الحرب السبعينية سنة ١٨٧٠-١٨٧١ ، فان انتصار الألمان فى هذه الحرب زلزل سيطرة فرنسا السياسية فى أوروبا والشرق ، وثل عرش الامبراطورية ، وكان من أولى نتائجها سقوط نابليون الثالث صديق اسماعيل الذى كان يعتمد عليه فى مهمات الأمور ، ومن ثم أخذ النفوذ الفرنسى يتضاءل فى مصر ، مخلياً الطريق للنفوذ الانجليزى

انجلترا

لا يخفى أن انتصار ألمانيا فى الحرب السبعينية كان له تأثير سيء فى المسألة المصرية ، لأن إضعاف نفوذ فرنسا قد مهّد لانجلترا السبيل لتكون صاحبة الصوت الأعلى فى هذه المسألة ، ومكنها من الانفراد بالتدخل فى شؤون مصر ، حتى انتهى إلى الاحتلال الانجليزى سنة ١٨٨٢ ، فلا يغيبنّ عنك أنه كان ثمة تنافس بين الدولتين على كسب النفوذ فى مصر ، وقد اشتد هذا التنافس من عهد إنشـــاء قناة السويس ، وكان التعادل بين قوتيهما يحول دون سيطرة إحداهما على مصير البلاد ، ولـكن صوت فرنسا فى المسألة المصرية أخذ يضعف من نهاية سنة ١٨٧٠ ، فاغتنمت انجلترا هذه الفرصة لإنفاذ إرادتها فى وادى النيل ، اعتبرْ ذلك فيما وقع حين قامت الحوادث العرابية سنة ١٨٨١ ، واعتزمت انجلترا احتلال مصر ، فقد كان هذا المشروع مهدداً بالإخفاق لو اشتركت فرنسا معها فى العمل ، ولـكن فرنسا تركت انجلترا تحتل البلاد وحدها ، وهذا يرجع إلى أسباب عدة لا محل لبسطها الآن ، وسنتكلم عنها فى موضعها ، ولـكن لاشك أن من بين هذه الأسباب ضعف فرنسا بعد هزيمتها فى الحرب السبعينية ، وخوفها من الخطر الذى يتهددها من ناحية ألمانيا

ولو بقيت فرنسا على قوتها ونفوذها قبل الحرب السبعينية لـكان من تنافسها هى وانجلترا فى المسألة المصرية ما يكفل لمصر التخلص من مطامع الدولتين ، ولـكن التوازن بينهما قد اختل بعد هزيمة فرنسا سنة ١٨٧٠ ، فأخذت كفة انجلترا ترجح فى شؤون مصر ، وأخذ اسماعيل من ناحيته ينصرف عن فرنسا لما أصابها من الضعف ، ويتجه ببصره تلقاء انجلترا ، ويتودد اليها

على أن انجلترا منذ افتتاح قناة السويس سنة ١٨٦٩ بدأت فعلا فى العمل على تثبيت مركزها فى مصر تمهيدا لاحتلالها ، وأخذت فى الوقت نفسه تتطلع إلى السودان ، وتمد أصبعها اليه تمهيدا لفصله عن مصر ، يدلك على ذلك سلسلة من الأعمال ترمى إلى تحقيق تلك المطامع ، فمنها أنها أوعزت إلى الخديو اسماعيل أن يعين السير صمويل بيكر الرحالة الانجليزى الشهير حاكما لمديرية خط الاستواء ، ولما انتهت مدته

عملت على أن يخلفه فى هذا المنصب انجليزى آخر وهو الكولونل غردون (باشا) ، وسعت لتخويله سلطة كبرى لارقابة عليه فيها للحاكم المصرى العام كما سيجىء بيانه

وفى سنة ١٨٧٠ عهد الخديو إلى شركة انجليزية تدعى شركة جرنفلد إنفاذ مشروع توسيع ميناء الاسكندرية والقيام بأعمال الإصلاح فيها مقابل عدة ملايين من الجنيهات

وانتهزت انجلترا فرصة ارتباك اسماعيل المالى لكى تزيد فى ورطته ، وتجلت هذه النية واضحة فى شرائها أسهم مصر فى قناة السويس سنة ١٨٧٥ ، فإن هذه الصفقة كانت أول ضربة صوبتها انجلترا إلى صرح الاستقلال المصرى

وفى سنة ١٨٧٧ أوعزت إلى الخديو أن يعين غردون باشا حكمدارا (حاكما عاما) للسودان ، وهو منصب من أكبر مناصب الدولة وأعظمها خطرا ، وتلك أول مرة فى تاريخ مصر أسند فيها هذا المنصب السامى إلى أجنبى

فهذه الحوادث لم تقع عبثاً ، بل هى مظاهر لامتداد النفوذ الانجليزى فى بلاط الخديو منذ سنة ١٨٧٠

وقد توثقت العلاقات الودية فى هذه الحقبة من الزمن بين الخديو وانجلترا ، وتعددت مظاهرها ، فعقدت انجلترا ومصر فى ١٨ مايو سنة ١٨٧٣ معاهدة لتسهيل تبادل البريد

وعقدتا فى ١٤ أغسطس سنة ١٨٧٧ معاهدة للتعاون على ابطال الرقيق

ويظهر لك مبلغ حرص اسماعيل على كسب رضا انجلترا ، وتجنب مجافاتها ، أنه لما جرد سنة ١٨٧٥ حملة إلى شواطىء السومال الواقعة على المحيط الهندى لبسط نفوذ مصر فى شرق أفريقية والوصول من هذه الجهة إلى أملاكها فى خط الاستواء ، استاءت انجلترا من هذه الحملة ، وأرسلت إلى اسماعيل تعترض على إنفاذها ، فبادر الخديو إلى الاستجابة لاحتجاجها ، واسترجع الحملة إلى مصر استبقاء لعلاقات الود بينهما

وفى ٧ سبتمبر سنة ١٨٧٧ عقد وإياها معاهدة اعترفت فيها انجلترا بسلطة مصر فى بلاد السومال الشمالية ، فكانت هذه المعاهدة مظهرا من مظاهر العلاقات الودية بين مصر وانجلترا

على أن هذا « الود » لم يمنع انجلترا من أن تضمر الشر لمصر ، وتعمل على إخضاعها للرقابة الأجنبية ، ولما اشتد الخلاف بين الخديو والدائنين سعت سعيها فى خلعه ونجحت فى مسعاها سنة ١٨٧٩ ، فكان هذا ختام « السياسة الودية » التى اتبعها اسماعيل حيالها

الفصل الرابع

قناة السويس

إن مسألة قناة السويس من أولى المسائل السياسية التي واجهت اسماعيل في أوائل عهده بالحكم ، إذ كانت أنظار الأوروبيين متطلعة إلى ما يؤول اليه مصير القناة بعد وفاة سعيد الذي عرف عنه أنه سند المشروع وقوامه ، فلما مات قلق المسيو فردينان دلسبس على مشروعه ، وخشي أن يكون نصيبه الإخفاق ، ولكن اسماعيل باشا بادر في أول اجتماع له بوكلاء الدول وأفضى اليهم بعزمه على تأييد المشروع

فقناة السويس يرجع إتمامها إلى تعضيد إسماعيل ورعايته ، لأن سعيد باشا لم يكد يتولى المشروع في خطواته الأولى ، حتى عاجلته المنية ، فلولا اتجاه إرادة اسماعيل إلى تعضيد المشروع وإنفاذه ، لكان مصيره الحبوط لا محالة ، ولعجز المسيو دلسبس عن المضي فيه ، ولعل اسماعيل أراد كما أراد سلفه أن يكسب رضا الأوروبيين من أنصار المشروع ، وينال إطراءهم وثناءهم ، ويستحق في نظرهم لقب « فاتح القناة » ، فعضد المشروع بكل قوته ، واحتمل تبعة إتمامه ، كما احتمل سعيد تبعة البدء فيه والتصميم على إنفاذه

سعي اسماعيل في تخفيف شروط الامتياز

على أنه من الحق أن نقرر أن اسماعيل باشا قد هالته فداحة المزايا التي نالتها الشركة في عقد الامتياز ، فسعى جهده في تخفيفها ، وكان من هذه الوجهة أكثر مراعاة لمصلحة مصر من عمه سعيد

ومما يؤثر عنه أنه قال يوماً : « إني أريد أن تكون القناة لمصر ، لا أن تكون مصر للقناة » ، وقيل إنه فكر يوما في أن يتولى بنفسه تنفيذ المشروع ، ولو حقق هذه الفكرة

لجعل القناة حقيقة مالـكا لمصر ، ولـكنه لم يفعل ، واكتفى بالاعتراض على أوجه أربعة من شروط الامتياز وسعى فى إبطالها وهى : —

(١) تعهد الحـكومة بتقديم العمال الذين تحتـاج اليهم الشركة لغاية عشرين الفا باستمرار [١] ، وزعم الشركة أن لها مطالبة الحـكومة بتعويض فى حال تقصيرها أو عجزها عن تقديم هذا العدد

(٢) ملـكية الشركة لترعة المياة العذبة التى كلفت بمقتضى العقد إنشاءها واستغلال رى الأطيان المملوكة للافراد على جانبها مقابل أجر تقتضيه منهم حسب تقديرها

(٣) ملـكية الشركة لجميع الأراضى التى ترى أنها فى حاجة اليها لحفر القناة وانشاء الترعة العذبة ، واعفاؤها على الدوام من دفع الأموال الأميرية عنها ، وملـكيتها لجميع الأراضى التى تستصلحها وتزرعها ، واعفاؤها من دفع أموالها مدة عشر سنوات

(٤) اضطرار الحـكومة إلى نزع ملـكية الأطيان المملوكة للأفراد إذا احتاجت اليها الشركة لاستغلال امتيازها

وقد فاوض اسماعيل الشركة لإلغاء هذه الشروط ، واعتمد فى مفاوضاته على وزيره نوبار باشا ، وقدم حججا وأسانيد قوية تأييدا لطلباته ، وكانت حجته فى إلغاء الشرط الأول رغبته فى إلغاء السخرة ، لأن هذا الشرط هو إقرار فعلى لتسخير العمال والفلاحين فى العمل لفتح القناة ، وهذا مالا يتفق ومبادىء الانسانية

وحجته بالنسبة للشرط الثانى والثالث أن قوانين الدولة العثمانية الخاصة بالملـكية العقارية والتى كانت متبعة فى مصر وقتئذ لا تجيز التنازل للاجانب عن ملـكية الأراضى والعقارات

وكانت أولى خطواته فى تخفيف الشروط أن أبرم اتفاقا مع الشركة فى ١٨ مارس سنة ١٨٦٣ [٢] يقضى بأن تتولى الحـكومة إنشاء الترعة فى القسم الممتد بين النيل ووادى

---

(١) بلغ هذا العدد ٢٢ الفا فى أواخر عهد سعيد (ج ٤ ص ٣٣٤ من وثائق القنـاة للمسيو دلسبس)

(٢) وثائق القناة المسيو دلسبس ج ٤ ص ٢٩٠

الطميلات ، ووصلها بالجزء الذى أنشأته الشركة من ترعة الوادى إلى القناة ، وقد عرفت هذه الترعة من منبعها إلى مصبها بالترعة الاسماعيلية ، وغرض الخديو من هذا الاتفاق تجنب المنازعات الخاصة بتملك الشركة للترعة ، وانتزاعها ملكية الأفراد من الأطيان التى يقتضيها انشاؤها ، وكان عمله فى هذا قرين الحكمة والسداد

وأوفد اسماعيل وزيره نوبار باشا إلى الاستانة ، ثم إلى فرنسا ، للسعى فى تخفيف شروط الامتياز ، وأوضح مطالبه فى رسالة بعث بها نوبار الى الشركة [1] وتلخص فيما يلى:

(١) انقاص عدد العمال الذين تلتزم الحكومة بتقديمهم للشركة إلى ستة آلاف لأن تسخير العدد الحالى (٢٠ الفا) يضر بالبلاد وبالزراعة

(٢) زيادة أجورهم ، وجعلها فرنكين لكل عامل فى اليوم . لكى يعوض الفلاح مايخسره من ترك بلده وأرضه وما يبذله من الجهد للعمل فى حفر القناة

(٣) الغاء امتياز ملكية الشركة للأراضى ، وفى مقابل ذلك تأخذ الحكومة المصرية على عهدتها إتمام الترعة العذبة ، وأن تعوض الشركة قيمة النفقات التى بذلتها فى القسم الذى أنشأته منها

وقد عارضت الشركة فى هذه المطالب ، بحجة أن انقاص عدد العمال من عشرين الفاً إلى ستة آلاف يعطل إتمام المشروع ، ويطيل مدة العمل من ثلاث سنوات إلى عشر ، مما يكبد الشركة خسائر جسيمة ، وأن تملكها للأراضى القابلة للاستصلاح ، وللترعة من رأس الوادى إلى القناة ، من المسائل الجوهرية ، التى لا تتنازل عنها

تحكيم نابليون الثالث

وقد اشتد الجدل حول مطالب اسماعيل ، وهبّت الصحف والدوائر السياسية والمالية فى فرنسا للدفاع عن شروط العقد ، والمعارضة فى إبطالها ، وارتضى الخديو أخيراً تحكيم الامبراطور نابليون الثالث امبراطور الفرنسيس ، للفصل فى النزاع ، فكان هو الخصم والحكم ، لما كان معروفا عنه من تأييده للشركة ، وعطفه على المسيو فردينان

---

(١) بتاريخ ١٢ أكتوبر سنة ١٨٦٣ - وثائق القناة للمسيو دلسبس ج ٤ ص ٣٥٠

دلسبس ، ويرجع هـــذا العطف الى أن المشروع فى ذاته عظيم النفع لفرنسا ، والى أن دلسبس يمت الى الامبراطورة أوجينى بصلة قرابة بعيدة

الحكم فى النزاع

أصدر نابليون الثالث حكمه فى ٦ يوليه سنة ١٨٦٤ وهو يقضى بما يأتى : —

(١) إبطال حق الشركة مطالبة الحكومة بتقديم العمال المصريين ، وإلزام الحكومة فى مقابل ذلك بتعويض مالى تدفعه للشركة ومقداره ٠٠٠ر٠٠٠ر٣٨ فرنك

(٢) تنازل الشركة للحكومة عن كل حق فى ترعة المياه العذبة ، والتزام الحكومة باتمامها مع احتفاظ الشركة بحق الانتفاع بها ، وإلزام الحكومة مقابل هذا التنازل بأن تدفع للشركة تعويضا قدره ٠٠٠ر٠٠٠ر١٦ فرنك

(٣) جعل الأراضى المملوكة للشركة واللازمة للمشروع ٠٠٠ر٢٣ هكتار تقريباً[١]، منها ٢٦٤ر١٠ هكتاراً على جانبى القناة البحرية وملحقاتها ، و ٦٠٠ر٩ هكتار للترعة العذبة، وثلاثة آلاف هكتار لمبانى الشركة

(٤) إعادة الأراضى الأخرى التى اتضح عدم لزومها للمشروع ومساحتها ٠٠٠ر٦٠ هكتار ، مقابل تعويض تدفعه الحكومة وقدره ٠٠٠ر٠٠٠ر٣٠ فرنك[٢]

فداحة التعويضات

فكان مجموع ما ألزمت به الحكومة من التعويضات للشركة طبقاً لحكم الامبراطور نابليون الثالث ٠٠٠ر٠٠٠ر٨٤ فرنك = (٠٠٠ر٣٦٠ر٣ جنيه) ، وبيانها كما يأتى بالجنيهات :

---

(١) الهكتار عشرة آلاف متر أى أكثر من فدانين

(٢) رسائل ويوميات ووثائق عن القناة للمسيو دلسبس ج ٤ ص ٤٧٦

جنيه	
١٫٥٢٠٫٠٠٠	مقابل إعفاء الحكومة من تقديم العمال المصريين لحفر القناة
٦٤٠٫٠٠٠	مقابل تنازل الشركة عن حق إنشاء الترعة العذبة
١٫٢٠٠٫٠٠٠	مقابل تنازل الشركة عن دعواها فى ملكية الأراضى
٣٫٣٦٠٫٠٠٠	مجموع التعويضات

وإذا علمتَ أن رأس مال الشركة هو ثمانية ملايين جنيه ، أمكنك أن تقدر فداحة التعويضات التى حكم على مصر بأدائها ، وانها تبلغ على وجه التقريب نصف رأس مال الشركة

ويُعد هذا الحكم من الأحكام الجائرة فى التاريخ ، لأنه بنى على أسباب لا يسيغها عدل ولا منطق ، فقد ألزم الامبراطور نابليون الثالث الحكومة المصرية بتعويض عن أمور ثلاثة وهى :

(الأول) اعفاؤها من تقديم العمال المصريين ، وبنى هذا التعويض على أنها ملتزمة أصلا بتقديم هؤلاء العمال للشركة ، وان إخلالها بهذا الالتزام سيضطر الشركة الى جلب عمال من أوروبا ، فتدفع لهم فروقا فى الاجرة ، والى استحضار آلات تغنى عن الايدى العاملة ، وتكلفها نفقات طائلة ، وأن الحكومة المصرية مسؤولة عن هذه الفروق والنفقات ، وقد قدرها بهذا المبلغ الضخم (١٫٥٢٠٫٠٠٠ جنيه)

ولا مراء فى ان هذا السبب ظاهر فيه التعسف والهوى ، لانه من التأمل فى شروط الامتياز يتبين أنها لا تتضمن « التزاما » من الحكومة بتقديم أى عدد من العمال ، بل كل ما ورد فى انعقدان أربعة أخماس العمال يكونون من المصريين (مادة ٢) ، وأن الحكومة تعهدت ببذل مساعدتها للشركة (مادة ٢٢) ، فليس فى العقد « التزام » بالمعنى القانونى يؤدى الى الحكم بتعويضات فيما اذا لم تسخر الحكومة العدد الذى تبتغيه الشركة من العمال ، بل كان على الشركة أن ترغب العمال فى العمل بالاجور التى تعرضها عليهم ، أما جعل العمل اجباريا بواسطة سلطة الحكومة ، فأمر لم تلتزم به الحكومة أصلا فى عقد الامتياز

(الثانى) تنازل الشركة للحكومة عن إتمام ترعة المياه العذبة ، وعن الجزء الذى أنشأته فيها ، وقد رتب الحكم على هذا التنازل إلزام الحكومة بتعويض للشركة مقابل النفقات التى بذلتها فى الجزء الذى أنشأته وحرمانها من الأرباح التى كانت تنالها من استغلال الترعة بعد تمامها ، وقدر هذا التعويض بمبلغ ١٦٫٠٠٠٫٠٠٠ فرنك (٦٤٠٫٠٠٠ جنيه) ، وكانت العدالة تقضى بأن لا تلزم الحكومة إلا بما أنفقته الشركة فعلا على الجزء الذى أنشأته ، مادامت قد تنازلت عنه للحكومة ، وهذا ما كان اسماعيل باشا مستعدا لادائه ، ومقداره باعتراف الشركة ٧٫٥٠٠٫٠٠٠ فرنك (٣٠٠٫٠٠٠ جنيه) ، ولكن التحيز والهوى جعلا نابليون الثالث يكيل المال جزافا للشركة

(الثالث) تنازل الشركة عن ملكية الأراضى التى تبين من الحكم عدم لزومها لإنفاذ المشروع ، وقد قدرت فى الحكم بـ ٦٠٫٠٠٠ هكتار ، وهنا أيضا ظهر الغرض والتحيز للشركة ، لأن هذه الأراضى هى جهات صحراوية جرداء ، لم تكن الشركة قد استصلحتها بعد ، واتضح أن انفاذ المشروع لا يقتضيها ، وبالرغم من ذلك قدر نابليون الثالث ثمنا لها على اعتبار ما سيؤول اليه أمرها فى المستقبل !! فجعل لكل هكتار (فدانين تقريبا) خمسمائة فرنك (٢٠ جنيها) ، وحكم على مصر بأن تدفع للشركة فى هذا الباب وحده ثلاثين مليون فرنك (١٫٢٠٠٫٠٠٠ جنيه) ، وهكذا قضت « عدالة » نابليون الثالث أن تدفع مصر هذا الثمن الباهظ لبقاء ملكها فى حوزتها ، وهذا من أغرب ما سمع فى معرض الظلم والجور

والخلاصة أن مصر خرجت من هذا التحكيم بصفقة المغبون ، وعدت الشركة حكم الامبراطور فوزاً مبيناً كفل لها اتمام المشروع على حساب مصر ، فلا غرو أن وصفه المسيو فردينان دلسبس بأنه « السند الأساسى للشركة ووثيقة الكفالة والاطمئنان لها »[1] ، وكذلك كانت مراحل المشروع منذ البدء فيه إلى ما بعد إتمامه شؤما ووبالا على البلاد .

وغنىّ عن البيان أن الحكمة كانت تقضى بأن لا يتورط الخديو اسماعيل فى مثل هذا التحكيم ، الذى جر على مصر هذه الخسائر الجسيمة ، ولو أنه استمسك بشروطه

---

(١) وثائق القناة للمسيو دلسبس ج ٥ ص ٢١٨

ولم يقبل تحكيما لما استطاعت الشركة أن تخطو خطوة فى العمل ، إذ كان كل شىء معلقا على الأيدى العاملة المصرية ، ولولا تلك الأيدى النشيطة القوية ، لوقف المشروع وقضى عليه بالحبوط ، دون أن تحرك مصر ساكناً ، ولكن شاء جدّ مصر العاثر أن يركن اسماعيل الى « العدالة الأوروبية » ، فوقع على يدها ما رأيت من الظلم والاعتساف

اتفاق ٣٠ يناير سنة ١٨٦٦

وعقد اسماعيل والشركة اتفاقا فى ٣٠ يناير سنة ١٨٦٦ لتسوية النزاع بينهما مع مراعاة حكم نابليون الثالث ، وهذا الاتفاق يقضى بما يأتى :

(١) تحديد مواعيد الأقساط المقدرة لأداء قيمة التعويضات المحكوم بها للشركة

(٢) استعمال الأراضى المخصصة للشركة بصفة ملحقات للقناة الملحة

(٣) التنازل للحكومة عن ترعة المياه العذبة مع الأراضى والمبانى والأعمال الفنية التابعة لها ، على أن تدفع لها الحكومة ثمن هذه المبانى

(٤) مبيع أراضى تفتيش الوادى [١] للحكومة بثمن قدره عشرة ملايين فرنك (٤٠٠ الف جنيه)

(٥) حق الحكومة فى احتلال أى جهة فى الأراضى المعتبرة حَرماً للقناة وأى موقع حربى لازم للدفاع عن البلاد على شرط أن لا يكون ذلك الاحتلال عائقا للملاحة

(٦) شغل الحكومة ما تراه من تلك الأراضى بمبان تنشئها لمصلحتها كالبريد والثكنات والجمارك وغيرها ، على شرط أن تراعى كل ما تقضى به ضرورة الانتفاع بالقناة ، وأن تدفع للشركة المبالغ التى تكون قد صرفتها على تلك الأمكنة

ثم أبرم فى ٢٢ فبراير سنة ١٨٦٦ اتفاقا كاملا مع الشركة يتضمن الشروط الواردة

---

(١) هى أطيان تبلغ ٢٣٫٧٨٠ فدان سبق للشركة أن اشترتها من تركة الهامى باشا بثمن بخس قدره ١٫٧٠٠٫٠٠٠ فرنك (نحو ٦٨٫٠٠٠ جنيه) ولم تدخل فى التحكيم لانها ملك خاص للشركة

فى عقد الامتياز الأصلى مع التعديلات الطارئة عليه [١]

تصديق السلطان — واتفاق ٢٣ ابريل سنة ١٨٦٩

وفى ١٩ مارس سنة ١٨٦٦ صدر فرمان السلطان بالتصديق على اتفاق ٢٢ فبراير سنة ١٨٦٦ [٢]

وعقد اسماعيل والشركة اتفاقا آخر فى ٢٣ ابريل سنة ١٨٦٩ ، الغى فيه الشرط الخاص باعفاء مستوردات الشركة من الخارج من الرسوم الجمركية ، وأعطاها مقابل ذلك تعويضا قدره عشرون مليون فرنك ، وتنازلت الشركة للحكومة عن بعض المبانى والمستشفيات مقابل عشرة ملايين فرنك [٣]

انتهاء العمل وافتتاح القناة (نوفمبر سنة ١٨٦٩)

وانتهى العمل فى حفر القناة واتصلت مياه البحر الأبيض المتوسط بالبحر الاحمر فى نوفمبر سنة ١٨٦٩ ، فكأن العمل قد استمر عشر سنوات ، وبلغ طول القناة ١٦٤ كيلومترا ، وأنشئت على شاطئها مدينة بور سعيد ومدينة الاسماعيلية ، وافتتحت القناة للملاحة يوم ١٧ نوفمبر سنة ١٨٦٩

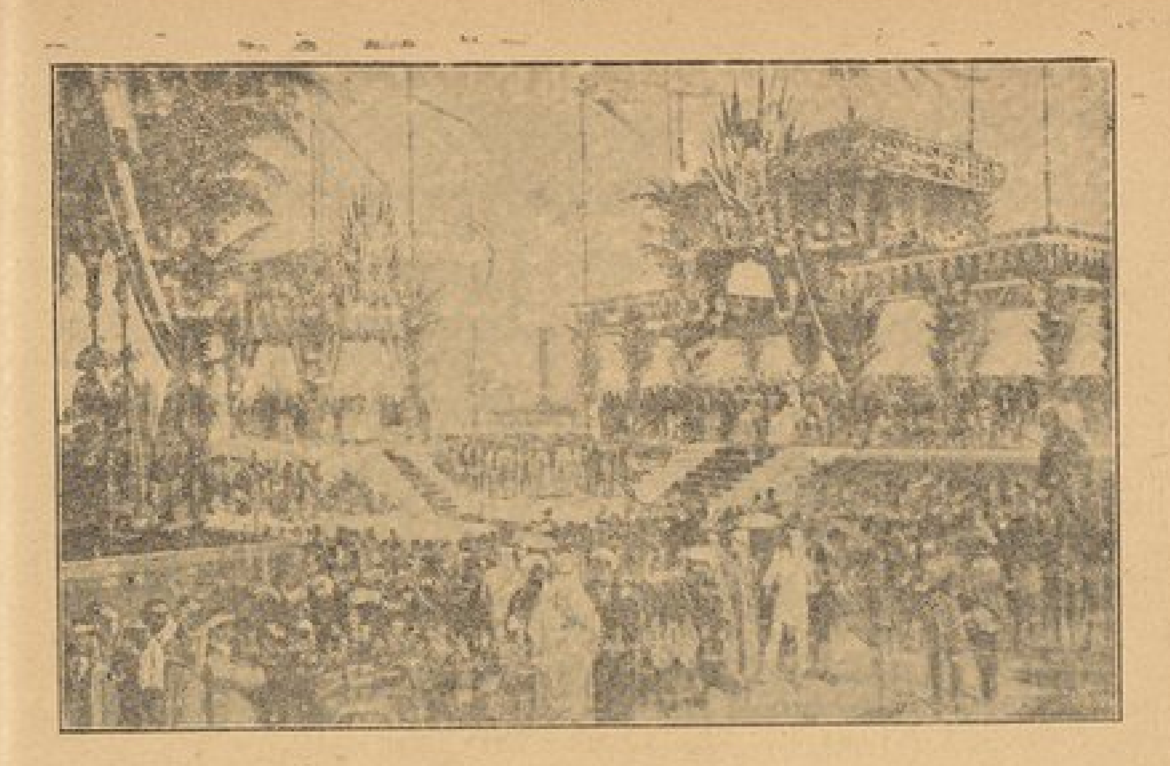
وأقام اسماعيل لمناسبة افتتاح القناة تلك الحفلات الفخمة التى لم يعرف التاريخ احتفالا يدانيها فى الإسراف والتبذير

ويكفيك دليلا على مبلغ ذلك الإسراف أن تعرف نفقات الحفلات ، فقد بلغت على أصح تقدير ١٫٤٠٠٫٠٠٠ جنيه ، ولا توجد حكومة رشيدة تكلف خزانتها هذا المبلغ الضخم يضيع فى حفلات لا طائل لها فى الوقت الذى استهدفت فيه الحكومة والبلاد لأشد ضروب الضيق المالى

---

(١) و (٢) وثائق القناة ج ٥ ص ٢٣١ و ٢٦٥

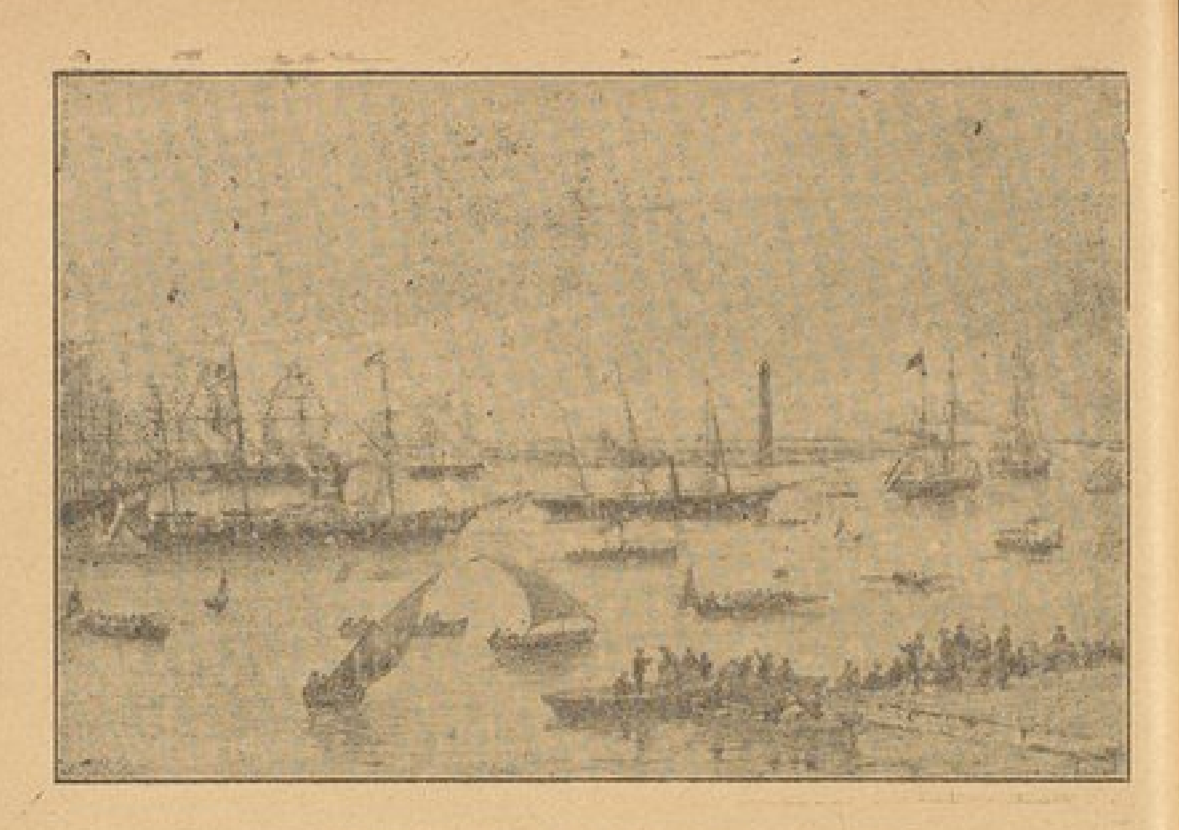
(٣) كتاب « برزخ وقناة السويس» للمسيو شارل رو Roux ج ١ ص ٥٠١



حفلة افتتاح قناة السويس ببور سعيد
يوم ١٦ نوفمبر سنة ١٨٦٩

وقد أقيمت فى هذه الحفلة ثلاث منصات ، خصصت المنصة الكبرى للملوك والأمراء وكبار المدعوين ، والثانية لرجال الدين الاسلامى ، والثالثة لرجال الأكليروس ، وجلس فى المنصة الكبرى:الخديو اسماعيل . أوجينى امبراطورة الفرنسيين . فرنسوا جوزيف امبراطور النمسا وملك المجر . الأمير فردريك ويلهلم ولى عهد بروسيا . الأمير هنرى أخو ملك هولندا والأميرة قرينته . السير هنرى إليوت سفير انجلترا بالاستانة وعقيلته الليدى إليوت . الأمير مورا . الأمير محمد توفيق باشا ولى العهد . الأمير هوهنلوه . الجنرال اجناتيف سفير الروسيا فى الاستانة ومدام اجناتيف . الأمير طوسون باشا ابن محمد سعيد باشا . شريف باشا وزير الداخلية ورئيس المجلس الخصوصى العالى « مجلس الوزراء » . نوبار باشا وزير الخارجية . شاهين باشا وزير الحربية والبحرية. رياض باشا خازندار الخديو . المسيو فردينان دلسبس. الأمير عبد القادر الجزائرى . المسيو دوبست والكونت اندراسى من وزراء النمسا . البارون بروكتش سفير النمسا فى الاستانة الخ الخ ...

وقد القى الشيخ ابراهيم السقا فى هذا الاحتفـــال كلمة تبريك باللغة العربية . ثم تلاه المونسنيور « بوير » واعظ نابليون الثالث الذى جاء خصيصا من فرنسا لحضور الاحتفال والقى خطبة تبريك باللغة الفرنسية

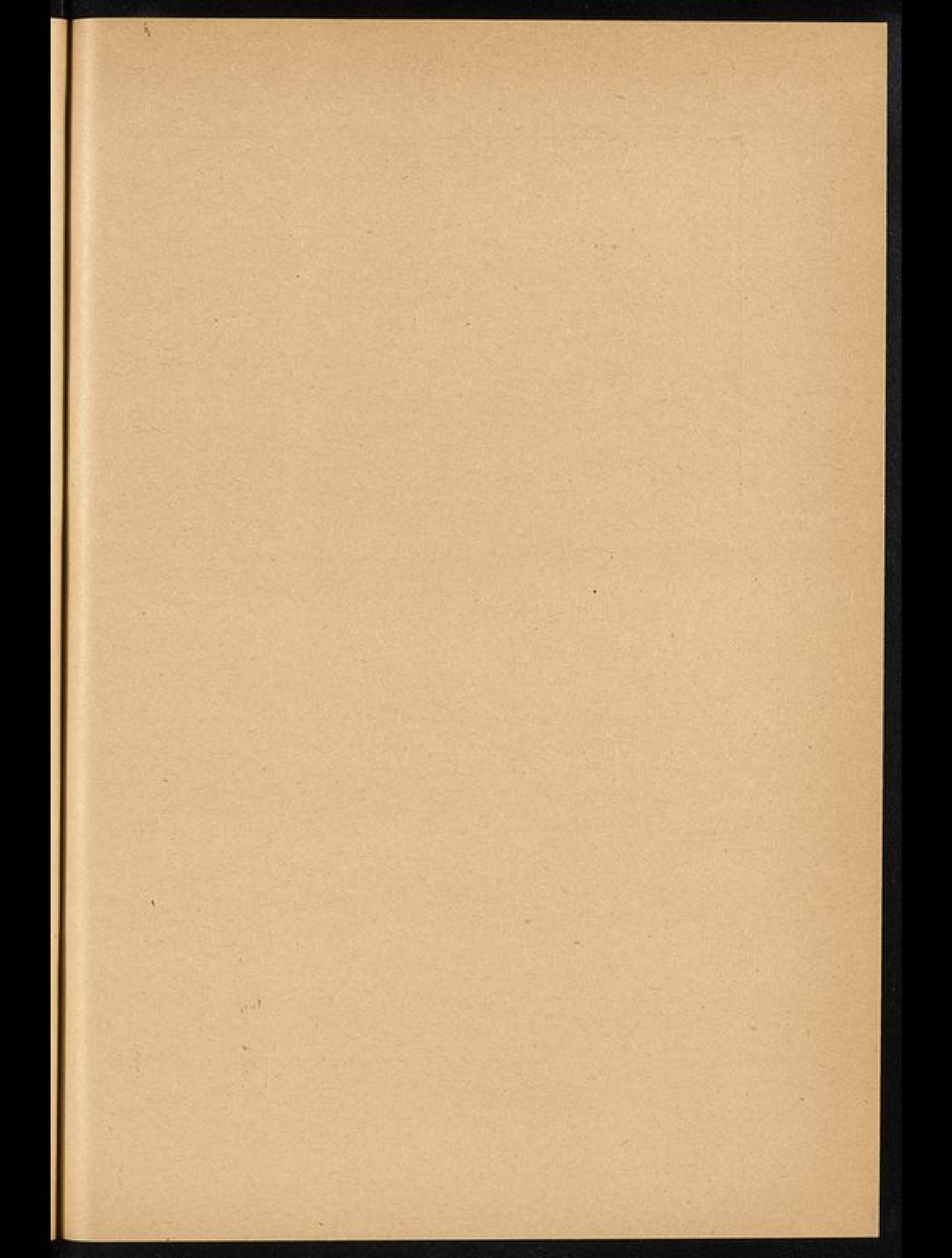


دخول البواخر المقلة للملوك والأمراء قناة السويس

فى صبيحة ١٧ نوفمبر سنة ١٨٦٩

ايذاناً بافتتاح القناة للملاحة

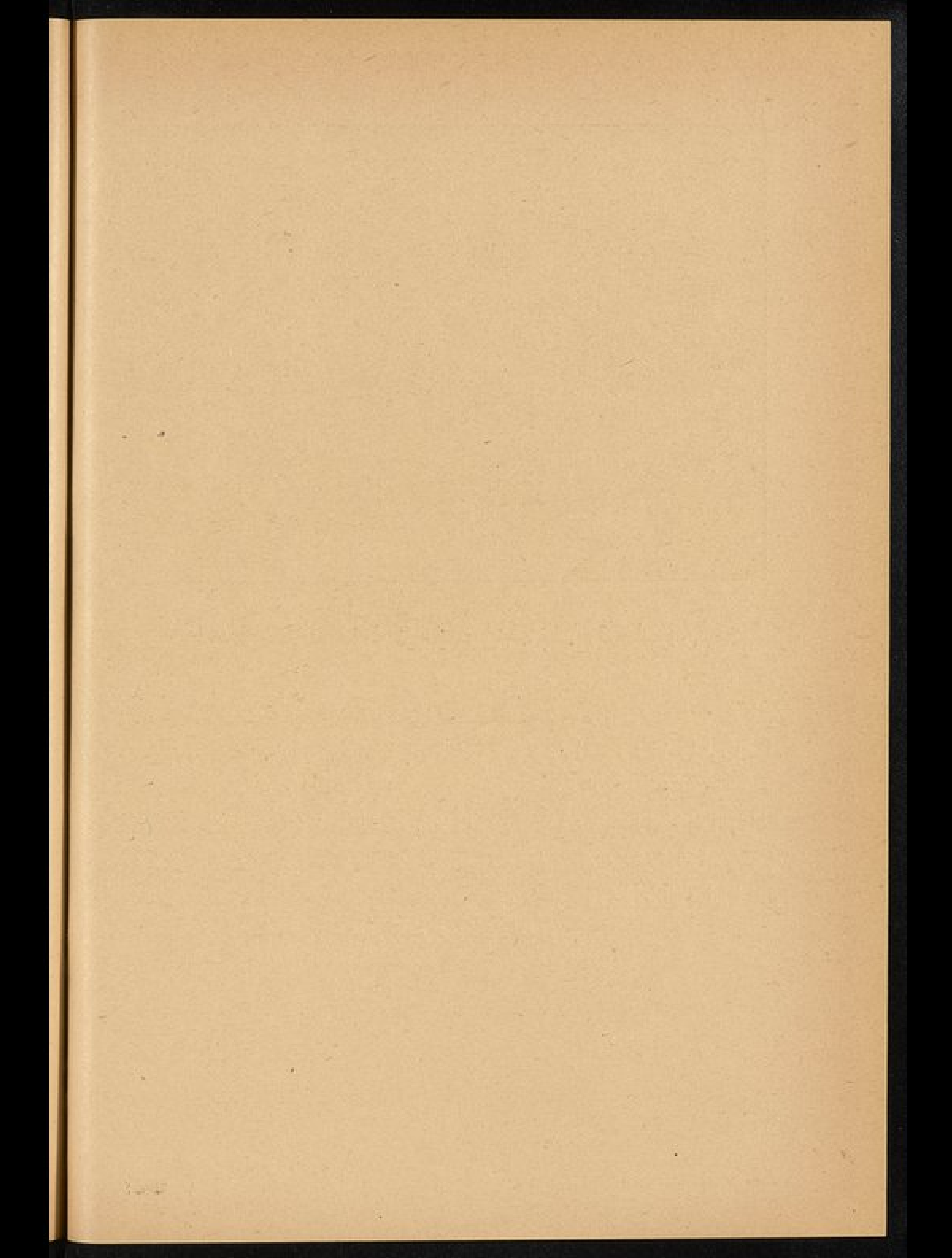
وترى فى مقدمة البواخر السفينة (ليجل) L'Aigle تقل الامبراطورة اوجينى

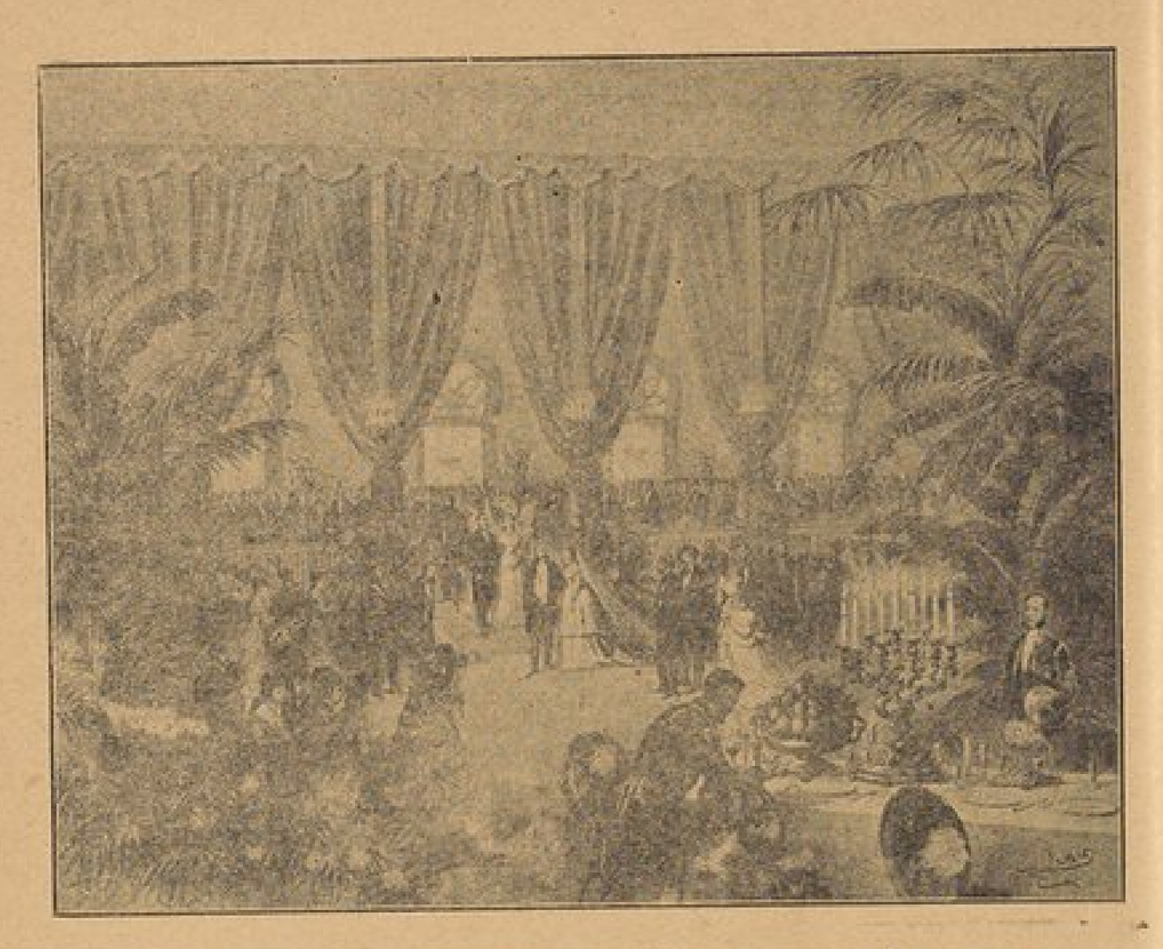




احدى الحفلات الفخمة التى أقيمت ابتهاجا بافتتاح قناة السويس

وليمة العشاء التى أعدها الخديو اسماعيل لضيوفه فى قصره بمدينة الاسماعلية ليلة ١٨ نوفمبر سنة ١٨٦٩، وقد مدت الموائد فى هذه الحفلة لآلاف المدعوين، وترى فى صدر المائدة الرئيسية الامبراطورة أوجينى امبراطورة الفرنسيين، وعن يمينها فرنسوا جوزيف امبراطور النمسا، وعن يسارها الامير فردريك ويلهلم ولىعهد بروسيا، والى يمين الامبراطور فرانسواجوزيف عقيلة السير اليوت سفير انجلترا بالاستانة، ثم الجنرال اجناتيف سفير الروسيا فى االاستانة، والى يسار ولى عهد بروسيا عقيلة سفيرالروسيا، ثم السير هنرى اليوت سفيرانجلترا بالاستانة، وأمامهم الخديو اسماعيل، والى يمينه أميرة هولندا، فالامير مورا، والى يسار الخديو أمير هولندا، ثم مدامدى بواز، ثم المسيو فردينان دلسبس





(البالو) أوحفلة الرقص التى أقامها الخديو اسماعيل فى قصره بالاسماعيلية
ليلة ١٨ نوفمبر سنة ١٨٦٩ ابتهاجا بافتتاح قناة السويس

(اقتبسنا هذه الصورة والصور الثلاث السابقة من كتاب افتتاح قناة السويس Inauguisation du Canal de Suez للمسيو نيكول Nicole ، وهذا الكتاب وضع خصيصا لوصف حفلات القناة ، والصور التى فيه للرسام ريو Riou)

خسائر مصر المالية فى إنشاء القناة

يقدر مؤلف « تاريخ مصر المالى » ماخسرته مصر فى إنشاء القناة ، من ثمن أسهمها فى الشركة ، ومابذلته لهامن التعويضات ، وما دفعته فى إنشاء ترعة الاسماعيلية ، واسترداد أطيان الوادى ، ونفقات حفلات القناة بمبلغ ١٦٫٨٠٠٫٠٠٠ جنيه [١]

وهذا التقدير هو أقرب الاحصاءات للواقع ، وهو قريب من البيان الذى قدمته الحكومة لمجلس شورى النواب بجلسة ٢٠ رجب سنة ١٢٩٣ هـ عن ديون الحكومة وإراداتها ومصروفاتها ، فقد جاء فيه أن مجموع مادفعته فى قناة السويس ١٦٫٠٧٥٫١١٩ جنيه مصرى ، وهذا الإحصاء يقل عن إحصاء المستر ادوين دى ليون Edwin de Leon قنصل الولايات المتحدة العام فى مصر على عهد اسماعيل ، فانه قدره بمبلغ ١٧٫٤٢٣٫١٧٨ جنيه انجليزى [٢]

ومن هذه المقارنة يتضح أن إحصاء مؤلف تاريخ مصر المالى هو الرقم الوسط الذى يصح الاعتماد عليه ، وسنجتهد هنا فى أن نضع مفردات لهذا الإحصاء طبقا للبيانات التى أوردناها

جنيــه	
٣٫٤٢٦٫٠٠٠	قيمة أسهم مصر فى القناة
٣٫٣٦٠٫٠٠٠	قيمة التعويضات المحكوم بها للشركة
٠٫٤٠٠٫٠٠٠	ثمن أراضى تفتيش الوادى
١٫٢٠٠٫٠٠٠	تعويض مدفوع للشركة بمقتضى اتفاق ٢٣ ابريل سنة ١٨٦٩
١٫٢٠٠٫٠٠٠	نفقات الترعة العذبة
١٫٤٠٠٫٠٠٠	نفقات حفلات القناة
١٠٫٩٨٦٫٠٠٠	

(١) تاريخ مصر المالى ص ١٣٢ ، ولم يذكر المؤلف مفردات هذا الإحصاء

(٢) فى كتابه (مصر الخديوى) The Khedives Egypt طبع سنة ١٦٧٧ ص ٤١٧

٥٫٨١٤٫٠٠٠ فوائد وسمسرة ونفقات التحكيم وما إلى ذلك

١٦٫٨٠٠٫٠٠٠ المجموع بالجنيهات

ولا تحسبنّ أن فى رقم الفوائد وما اليها مبالغة ، فان المستر إدوين دى ليون يقدرها فى إحصائه بمبلغ ٦٫٦٦٣٫٠٠٠ جنيه (ص ٤١٧ من كتابه)

وإذا علمتَ أن نفقات إنشاء القناة بأكملها بلغت بحسب احصاءات الشركة ٤٥١٫٦٥٦٫٦٦٠ فرنك ، أى نحو ١٨٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه ، أدركت أن مصر احتملت وحدها معظم هذه النفقات ، وإذا بحثنا عما نال مصر من بذل هذه المبالغ الجسيمة التى كانت من أسباب ارتباكها المالى ، كان الجواب أنها لم تنل من القناة أية فائدة ، بل عادت عليها بالوبال والخسران ، إذكانت مقدمة الاحتلال الانجليزى ، وفى ذلك يقول المرحوم محمد بك فريد : « يمكننا القول بأنه لولا نقود مصر وفلاح مصر الذى مازال يجبر على الاشتغال قهراً بأجرة زهيدة لما أمكن دى لسبس أن يتم هذا المشروع الذى كان سبباً فيما نحن فيه من الاحتلال الأجنبى ، وما سنراه نحن وأولادنا إن لم تساعدنا المقادير » [1]

بيع أسهم مصر فى القناة

كان لمصر من أسهم شركة القناة ١٧٦٫٦٠٢ [2] سهما ، وهو مقدار عظيم يكاد يساوى نصف أسهم الشركة ، لأن مجموع الاسهم ٤٠٠ الف سهم

وقد اكتتب فيها سعيد باشا واشتراها بمبلغ ٣٫٤٢٦٫٠٠٠ جنيها ، ولا ريب ان امتلاك هذا المقدار من الأسهم كان من شأنه أن يجعل لمصر شيئا من الهيمنة على الشركة وادارتها ، ويخولها حق التدخل فى شؤونها ، كما أنها مورد أرباح وفيرة تعود على الخزانة المصرية بأنفع الثمرات ، وخاصة بعد تقدم أعمال الشركة وارتفاع أسهمها بدرجة فاقت كل تقدير

(١) تاريخ الدولة العثمانية ص ٣١٧ للمرحوم محمد بك فريد

(٢) عددها فى الأصل ١٧٧٫٦٤٢ ، باعت منها الحكومة من قبل ١٠٤٠ سهما فصار الباقى ١٧٦٫٦٠٢

ولكن إسراف اسماعيل أبى إلا أن يحرم مصر هذه الثروة الضخمة ، فى سنة ١٨٧٥ أخذ معين المال ينضب بين يديه ، بعد القروض الباهظة التى أستدانها ، والأعباء الجسيمة التى ناءت بها الخزانة ، ففكر فى بيع أسهم مصر فى القناة ، وعرضها فعلا للبيع

وقد بدأ بعرضها على فرنسا ، فترددت فى الأمر ، ولكن الحكومة الانجليزية مالبثت ان علمت بالمسألة حتى بادرت بشرائها ، لأنها وجدت فى هذه الصفقة فرصة سانحة لوضع يدها على القناة

فاشترت هذه الأسهم بثمن بخس اربعة ملايين من الجنيهات الانجليزية ، وبهذه الصفقة أضاع اسماعيل على مصر الميزة التى بقيت لها من مشروع القناة

خسائر فادحة

وقد بلغت قيمة هذه الأسهم (فى سنة ١٩٢٩) ٧٢ مليون جنيه ، وربحت منها الخزانة البريطانية (إلى أواخر سنة ١٩٢٩) ٣٨٫٦٠٠٫٠٠٠ جنيه ، ومجموع ذلك نيف ومائة مليون جنيه وعشرة ملايين من الجنيهات ، أى أن خسارة مصر من هذه الناحية بلغت إلى تلك السنة :

١١٠٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه — ٤٫٠٠٠٫٠٠٠ = ١٠٦٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه

وثمة خسارة أخرى أصابت مصر إذ تنازلت عن ١٥ فى المائة من أرباح القناة التى كانت تؤول لها بمقتضى عقد الامتياز ، تنازلت عن هذه الحصة بسبب قروض اسماعيل مقابل ٢٢ مليون فرنك أى ٨٨٠٫٠٠٠ جنيه ، وقد بلغت قيمة هذا النصيب الآن نحو ٢٠ مليون جنيه ، وهو يغل إيرادا لا يقل عن ٨٦٩٫٠٠٠ جنيه فى السنة

وهذه الأرقام تدلك على مبلغ ما أصاب مصر فى الصفقتين من الخسران المبين



خريطة قناة السويس

قناة السويس

وتواريخها الهامة

— ٣٠ نوفمبر سنة ١٨٥٤ —

منح سعيد باشا امتياز القناة الى المسيو دلسبس

— ٥ يناير سنة ١٨٥٦ —

شروط الامتياز

— ٢٥ ابريل سنة ١٨٥٩ —

ابتداء العمل فى حفر القناة

— ٦ يوليوسنة ١٨٦٤ —

حكم الامبراطور نابليون الثالث

— ١٧ نوفمبر سنة ١٨٦٩ —

افتتاح القناة للملاحة

— ٢٥ نوفمبر سنة ١٨٧٥ —

بيع أسهم مصر فى القناة الى انجلترا

— ٧ ابريل سنة ١٩١٠ —

رفض الجمعية العمومية المصرية تجديد الامتياز

— ١٦ نوفمبر سنة ١٩٦٨ —

انتهاء الامتياز وعودة القناة الى مصر

الفصل الخامس

السودان في عهد اسماعيل

من مآثر الخديو اسماعيل التي تخلد ذكره في تاريخ مصر القومي انه وجه عنايته وهمته إلى إتمام فتح السودان ، والوصول الى حدود مصر الطبيعية ، ومعلوم ، أن هذه الحدود تشمل وادي النيل وملحقاته ، من البحر الأبيض المتوسط شمالا ، الى منابع النيل والاقيانوس الهندي جنوباً ، ومن البحر الأحمر شرقاً ، الى صحراء ليبيا (لوبيه) غرباً

ولقد أكمل اسماعيل من هذه الناحية العمل الذي بدأ به محمد علي ، فوسع نطاق السودان ، وبسط الحكم المصري في أنحائه ، ومدّ رواق الحضارة والعمران على ربوعه

توسيع نطاق السودان

بينا في كتاب « عصر محمد علي » (ص ١٩٢) مدى فتوح مصر في السودان على عهد محمد علي ، وذكرنا أن حدود السودان المصري وصلت شرقاً الى البحر الأحمر ، وضمت إقليم التاكا (كسلا) الواقع شرقي نهر عطبره ، ووصلت من جهة الحبشة الى القضارف والقلابات ، ودخلت سواكن ومصوع في نطاقها ، وبلغت الحملات والتجاريد جنوباً الى جزيرة (جونكر) تجاه غندكرو الواقعة على النيل الأبيض

فلنذكر الآن الفتوح المصرية في الأقطار السودانية على عهد اسماعيل ، وخلاصتها أن مصر فتحت مديرية فاشودة ، وضمت محافظتي مصوع وسواكن نهائيّاً الى أملاكها ، وفتحت إقليم خط الاستواء ومملكة (أونيورو) وبسطت حمايتها على مملكة (أوغنده) ، وفتحت إقليم بحر الغزال ، ثم سلطنة دارفور ، واتسعت أملاك مصر بين الحبشة والبحر الأحمر بفتح سَنْهيت ، وبلاد البوغوس ، وامتدت سلطتها الى سواحل البحر الأحمر حتى بوغاز باب المندب ، وضَمت محافظتي زيلع وبربره الواقعتين على خليج عدن ، فيما

يلى بوغاز باب المندب ، وفتحت سلطنة (هرر) الواقعة فى الجنوب الشرقى من الحبشة ، ودخلت سواحل السومال الشمالية فى أملاك مصر حتى رأس جردفون (جردفوى) على المحيط الهندى ، ثم الى رأس (حفون) ، وبذلك كله انفسحت رقعة الفتوح المصرية ، فوصلت جنوباً الى بحيرة ألبرت وبحيرة فكتوريا ، وشرقاً الى البحر الأحمر وخليج عدن ، وغرباً الى حدود (واداى)

وسنذكر فيما يلى هذه الفتوح تفصيلا

فتح فاشودة

سنة ١٨٦٥

فى سنة ١٨٦٥ احتلت الجنود المصرية فاشودة احتلالا رسميا ، وذلك على عهد جعفر صادق باشا حكمدار السودان ، واتخذت الحكومة بها نقطة حربية دائمة لمنع تجارة الرقيق فسدت الطريق أمام النخاسين الذين كانوا يجلبون الأرقاء بطريق النيل من أقاليم بحر الغزال وخط الاستواء ، وصارت فاشودة عاصمة المديرية المسماة باسمها

ولفاشوده أهمية كبرى ، نالتها من موقعها الجغرافى والحربى ، فانها تعد مفتاح النيل الأعلى ؛ لوقوعها على ملتقى الطرق المختلفة الواصلة من الخرطوم والحبشة الى جنوبى السودان ، وعلى مقربة من ملتقى روافد النيل كنهر سوباط وبحر الغزال والنيل الأبيض وبحر الزراف ، وهى نقطة الاتصال بين السودان وجهات خط الاستواء ، ومن يمالكها يضمن النفوذ فى شمالى السودان وفى الجهات الجنوبية منه الى البحيرات الاستوائية ، فلا غرو أن يكون لها مكانة كبيرة من الوجهتين السياسية والاقتصادية

ولا يخفى أن فاشودة هذه هى التى قامت بشأنها تلك الأزمة السياسية المشهورة بين انكلترا وفرنسا ومصر سنة ١٨٩٨ ، حين احتلتها كتيبة من الجنود الفرنسية بقيادة الكولونل مرشان Marchanod ، فاحتجت الحكومة الانجليزية على هذا الاحتلال ، وارتكنت على أنها من الأراضى المصرية ، ثم انتهى النزاع بانسحاب الفرنسيين منها وبقائها من أراضى مصر ، وقد اكتسبت شهرة ذائعة بسبب هذا النزاع الذى دار حولها

وقد غير الانجليز اسمها ، وسموها الآن (كودوك) ، وغيروا اسم مديرية فاشودة ،

فجعلوها مديرية (النيل الأعلى) ، وذلك لكى يمحوا من الأذهان اسم فاشودة وما يثيره من ذكرى الخلاف السياسى الذى قام بشانها سنة ١٨٩٨ ، والذى كانت حجة انجلترا فيه أن هذا البلد من املاك مصر

فليذكر المصريون على الدوام اسم (فاشودة) ، فإنه من الأعلام التاريخية التى تسجل فى وجه الغاصب حق مصر الخالد فى السودان

ضم سواكن ومصوع

قلنا فى الجزء الثالث من تاريخ الحركة القومية (عصر محمد على) ص ١٩٣ إن سواكن ومصوع دخلتا فى حدود السودان المصرى على عهد محمد على ، لأنه إذ رأى ضرورتهما للسودان ، وأنهما منفذاه على البحر الأحمر ، وخاصة لاقليم التاكا (كسلا) ، استأجرهما من السلطان (وكانتا من أملاك السلطنة العثمانية) مقابل ايجار سنوى قدره ٢٥,٠٠٠ جنيه ، وبذلك دخلتا فى ظل الحكم المصرى

على أن اسماعيل رأى إلحاقهما بصفة نهائية الى أملاك مصر ، فاستصدر فى سنة ١٨٦٥ فرماناً من السلطان باحالة قائمقاميتى سواكن ومصوع الى عهدته ، وجعلهما فرمان ٢٧ مايو سنة ١٨٦٦ الذى تكلمنا عنه (ص ٧٣) من ملحقات مصر ، وصارت كل منهما محافظة قائمة بذاتها. فحافظة سواكن تمتد على البحر الأحمر من رأس عابه الى رأس قصار (راجع الخريطة الملحقة بهذا الفصل) ، ومحافظة مصوع امتدت من رأس قصار حيث تنتهى محافظة سواكن الى حلة (زهيطة) عند بوغاز باب المندب

وقد عمرت مصوع وسواكن فى ظل الحكم المصرى ، ذلك أن مدينة مصوع كانت قائمة على جزيرة بالبحر ، فوصل بينها وبين اليابسة بجسر طوله ١٨٠٠ متر وعرضه عشرة أمتار ، وتم إنشاؤه سنة ١٨٧٢ ، فعمرت المدينة واتسعت ، وبُنى فيها ديوان المحافظة ، وآخر للجمرك ، ومساكن للموظفين ، وشيدت بها قلعة منيعة ، وأنشئت ترعة صغيرة لتوصيل المياة العذبة إلى سواكن ، وهذه الترعة تستمد الماء من خزان أقيم لجمع مياه الأمطار فى سفح جبل قريب من المدينة [١]

---

(١) الوقائع المصرية العدد ٣٥١

وظلت المحافظتان ملكا لمصر إلى شبوب الثورة المهدية ، فلما اضطرت انجلترا الخديو توفيق إلى القرار بإخلاء السودان سنة ١٨٨٤ ، وصار فى نظر الدول الاستعمارية نهباً مقسما ، انتهزت إيطاليا هذه الفرصة بتواطئها مع الانجليز ، واحتلت محافظة مصوع سنة ١٨٨٥ ، وما زالت تحتلها إلى اليوم ، (١٩٣٢) وتسمى هى وملحقاتها مستعمرة (الأريترية) ، أما سواكن فقد جُعلت بعد اتفاقية سنة ١٨٩٩ الباطلة محافظة تابعة لحكومة السودان

فتح إقليم خط الاستواء

والوصول إلى منابع النيل

أسلفنا القول أن الحملات والتجاريد المصرية التى قادها البكباشى سليم بك قبطان فى عهد محمد على بلغت جزيرة جونكر تجاه غندكرو (راجع عصر محمد على ص ١٩٠) ، ولكن هذا الفتح لم يكن إلا وقتياً ، بمعنى أنه لم يقترن بوضع حاميات عسكرية دائمة فى تلك الجهات تقر سلطة الحكومة فيها ، فاعتزم اسماعيل أن يبسط نفوذ مصر بصفة دائمة فى تلك الأصقاع ، وما يليها جنوبا حتى منابع النيل ، ولكنه لم يحذ حذو جده فى أن يعهد بهذه المهمة القومية إلى ضباط الجيش المصرى ، بل عهد بها إلى جماعة من الانجليز ، وهذا موطن ضعف فى سياسته أدى إلى عواقب وخيمة سنذكرها فيما يلى

مهمة السير صمويل بيكر Samuel Baker

فناط بالسير صمويل بيكر الرحالة الانجليزى المشهور الزحف إلى الجهات الجنوبية لغاية منابع النيل وضمها إلى أملاك مصر

رحلته فى عهد سعيد باشا

بدأت رحلات السير صمويل بيكر فى السودان على عهد سعيد باشا ، فقد قصد من تلقاء نفسه إلى تلك الأقطار ، لاكتشاف منابع النيل الأبيض ، وكان الرحالتان

اسبيك Speke وجرانت Grant قد سبقاه إلى تحقيق هذا الغرض ، موفدين من قبل الجمعية الجغرافية الانجليزية ، فجاءا بطريق زنجبار ، واكتشفا بحيرة (اكروى) ومنبع النيل منها ، وكان ذلك فى ٢٨ يوليه سنة ١٨٦٢ ، وسمياها باسم الملكة فكتوريا ، ملكة انجلترا فى ذلك الحين ، فصارت تعرف من ذلك الحين باسم بحيرة (فكتوريا)

أما السير بيكر فآثر أن يسلك فى اكتشافه طريق الخرطوم ، وصعد جنوبا فى النيل فبلغ فى ٢ فبراير سنة ١٨٦٣ غندكرو التى وصلت اليها حملات البكباشى سليم بك قبطان فى عهد محمد على سنة ١٨٤٠ ، وأخذ يتأهب لمتابعة سيره ، وإذا بالرحالتان اسبيك وجرانت قد التقيا به ، وأبلغاه اكتشاف بحيرة فكتوريا ، وأنهيا اليه أن هناك بحيرة أخرى أخبرهما بها الأهلون ، لم يتم اكتشافها بعد ، فتابع سيره حتى اكتشفها فى ١٤ مارس سنة ١٨٦٤ ، وسماها بحيرة (ألبرت) باسم الأمير ألبرت زوج ملكة انجلترا

ثم عاد إلى غندكرو ، وسار منها إلى الخرطوم فبلغها فى ٣ مايو سنة ١٨٦٥ ، وعاد من هناك إلى بربر فسواكن ، وأقلع إلى انجلترا ، وقد صحبته امرأته النبيلة ، فى هذه الرحلة الطويلة ، وقاسمته مخاطرها ومتاعبها ، وكان لها الفضل الكبير فى نجاحه فى مهمته التى رفعته الى مستوى كبار المكتشفين ، ولا غرو فان اسمه يقرن دائما باكتشاف بحيرة ألبرت إحدى منابع النيل الكبرى

مهمته فى عهد اسماعيل

١٨٧١ — ١٨٧٣

انقضت خمس سنوات تقريبا على رحلة صمويل بيكر الأولى ، ثم جاء مصر سنة ١٨٦٩ يصحب الأمير إدوارد ولى عهد انجلترا لحضور حفلات افتتاح قناة السويس ، فرغب الأمير الى الخديو اسماعيل أن يعهد اليه بمطاردة الاتجار بالرقيق فى السودان نيابة عن الحكومة المصرية ، فلم يتردد اسماعيل فى قبول الطلب ، اذ كان يبغى التودد الى الحكومة الانجليزية

لم يكن الغرض من هذه المهمة خدمة الانسانية ، بل كانت الحكومة الانجليزية ترمى الى تمهيد السبيل لتحقق أطماعها الاستعمارية فى وادى النيل ، وبيان ذلك أن انجلترا بعد

إنفاذ مشروع قناة السويس أخذت تتطلع الى احتلال مصر ، وترمق أملاكها فى السودان ، وتعمل على استطلاع أحواله ، والتدخل فى شؤونه ، لكى تخلف مصر يوماً ما فيه ، وما إرسالها السير صمويل بيكر ، ثم الكولونل غردون من بعده ، إلا تمهيداً لهذه الغاية الاستعمارية

ولو كان الخديو اسماعيل بعيد النظر ، بمقدار ما كان عليه من الذكاء ، لما ارتضى أن يبسط نفوذ مصر فى السودان على ايدى بيكر وغردون وأضرابهما ، من دعاة الاستعمار الانجليزى ، لأن هؤلاء لا يمكنهم أن يخلصوا لمصر ، بل هم يعملون على خدمة السياسة الانجليزية التى كانت ولا تزال ترمى الى إقصاء النفوذ المصرى عن السودان

قبل اسماعيل إذن ما عرضه عليه ولى عهد انجلترا ، وأصدر مرسوما الى السير صمويل بيكر عهد اليه فيه ببسط نفوذ مصر فى الأصقاع الكائنة جنوبى غندكرو ، وتنظيمها ونشر التجارة بها ، ومطاردة الاتجار بالرقيق وإنشاء المحطات الحربية فيها ، وجعله قائداً لحملة جردها لهذا الغرض مؤلفة من ١٧٠٠ مقاتل ، وأنعم عليه برتبة فريق فصار يعرف ببيكر باشا ، وجعله حاكما على مديرية خط الاستواء لمدة أربع سنوات ، تبتدىء من أول ابريل سنة ١٨٦٩ براتب قدره ١٠,٠٠٠ جنيه فى السنة

وقد صحبته فى هـــذه الحملة زوجته النبيلة كما صحبته فى رحلته الأولى ، ورافقته فى الرحلات البعيدة التى قطعها ، وشهدت الوقائع التى خاضها ، فكانت له نعم العضد الصادق الأمين ، وامتدح بيكر صفاتها فى كتابه (الاسماعيلية) الذى أفرده لذكر هذه الحملة ، وأشاد بما بذلته من الجهود فى معالجة المرضى والجرحى ، وما كانت تبعثه فى النفوس من روح الصبر والشجاعة والإقدام ، وما أسدته من حسن التدبير لنجاح مهمته ، فكانت مضرب الأمثال فى ما تؤديه الزوجة لزوجها من جليل الخدمات ، ومشاركتها إياه فى المهام الجسام

جهزت الحكومة الخديوية معدات الحملة ، وأقلت السفن معظم مهماتها من القاهرة الى الخرطوم ، واقتضى نقلها متاعب جمة ، إذ لم يكن فى استطاعة البواخر اجتياز الشلالات ، فنقلت أجزاؤها مفككة على ظهور الإبل فى صحراء النوبة ، وكذلك

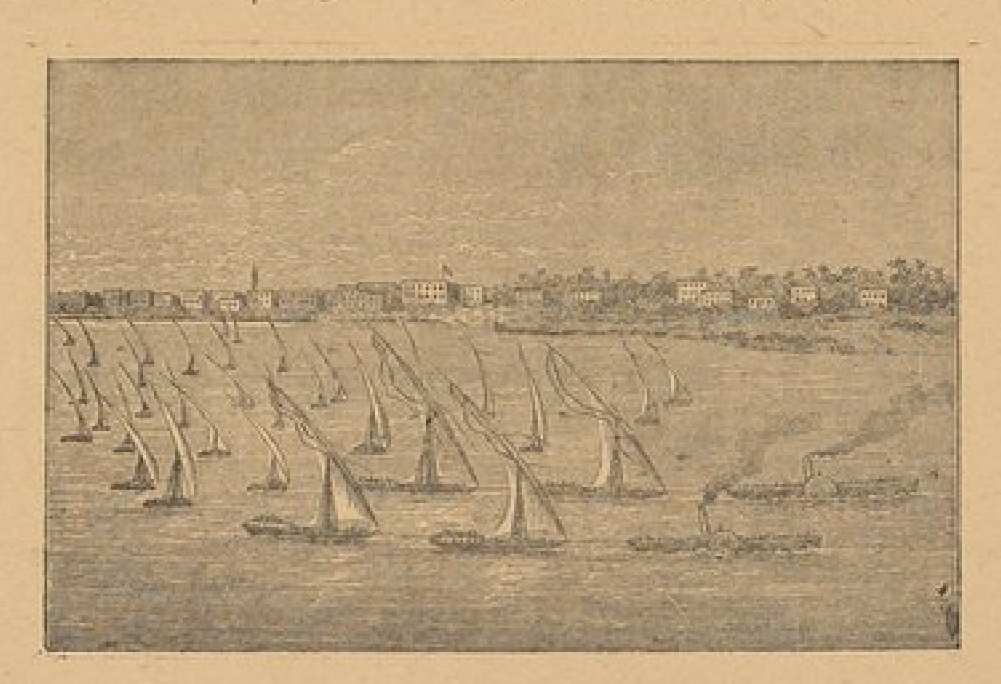
---

(١) الاسماعيلية للسير صمويل بيكر باشا ص ٢١

نقلت المهمات الثقيلة بهذه الوسيلة ، أما بيكر باشا فقدسار بحراً من السويس الى سواكن



نقل أجزاء البواخر النيلية على ظهور الإبل من مصر الى السودان
فى صحراء النوبة أواخر سنة ١٨٦٩ استعداداً لفتح اقاليم خط الاستواء



الاسطول النيلى الذى تحرك من الخرطوم يوم ٨ فبراير سنة ١٨٧٠
لفتح اقليم خط الاستواء وكان مؤلفا من ثلاثين سفينة شراعية وباخرتين

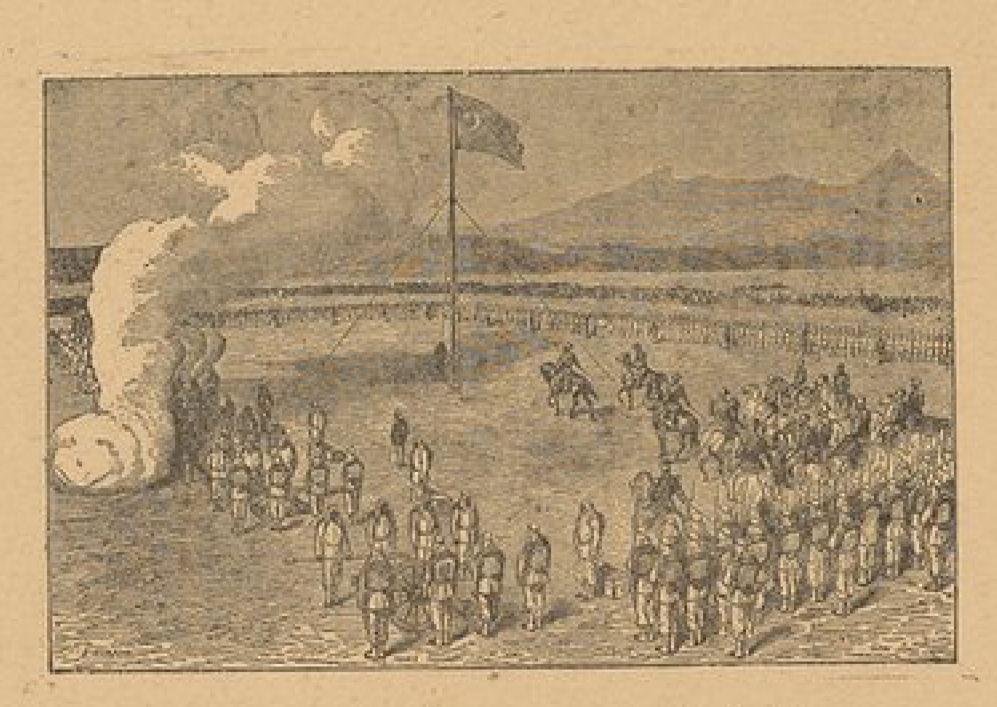
ومنها الى بربر على ظهور الإبل فقطع المسافة بينهما فى أربعه عشر يوما ، واستقل من بربر باخرة نيلية بلغ بها الخرطوم

وصل بيكر باشا الى الخرطوم ، فى عهد حكمدارية جعفر مظهر باشا ، ثم قام منها يوم ٨ فبراير سنة ١٨٧٠ (١) فى حملة تقلها ثلاثون سفينة وباخرتان قاصداً جهات خط الاستواء

فرسا بالقرب من ملتقى نهر السوباط بالنيل (جنوبى فاشودة)، وبنى هناك محطة اسماها (التوفيقية) باسم الأمير محمد توفيق ولى عهد الأريكة الخديوية فى ذلك العصر ، وأقام فى هـــذه المحطة عدة أشهر ، ثم سار جنوبا حتى بلغ غندكرو التى وصل اليها من قبل البكباشى سليم بك قبطان فى عهد محمد على

رفع العلم المصرى على غندكرو

بلغ بيكر غندكرو فى ١٥ ابريل سنة ١٨٧١ (٢) ، فرفع عليها العلم المصرى يوم ٢٦ مايو (٢) ، فى احتفال عسكرى مهيب ، أعلن فيه رسميا ضم هذه البلاد إلى أملاك مصر



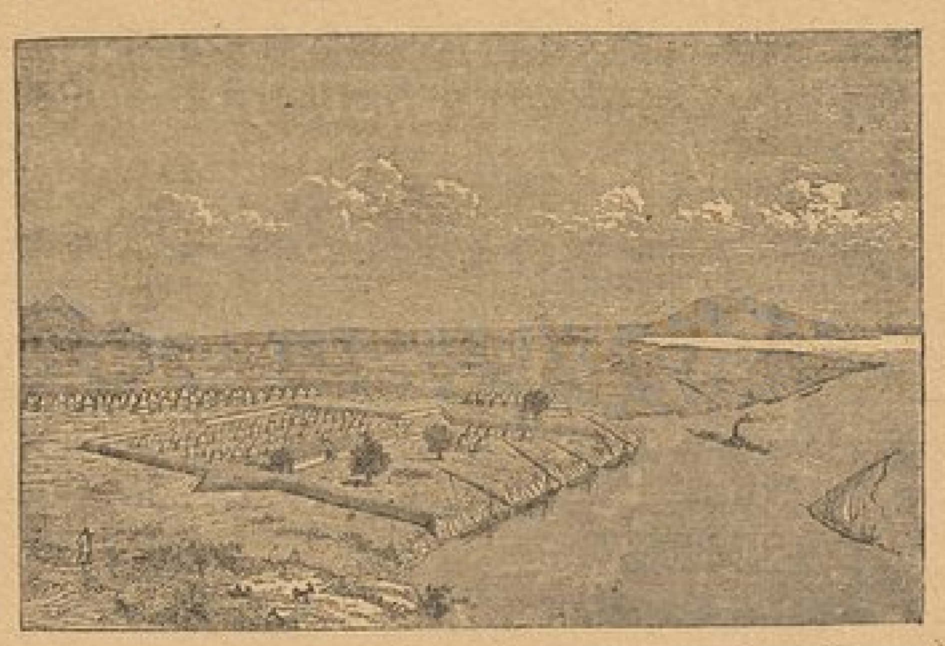
حفلة رفع العلم المصرى على غندكرو (الاسماعيلية)
اعلانا بضمها إلى أملاك مصر (٢٦ مايو سنة ١٨٧١)

(١) و (٢) الاسماعيلية للسير صموبل بيكر باشا ص ١٠١ و ١١٣

كان هذا اليوم يوما مشهوداً فى تاريخ السـودان ، إذ اصطفت الجنود المصرية بغندكرو فى صعيد واحد ، على أكمة تشرف على النيل ، وبلغ عدد الجند الذين حضروا الاحتفال ١٫٢٠٠ مقاتل ، وقفوا صفوفا يرتدون ملابسهم البيضاء الرسمية ، وعلى رؤوسهم الكوفيات المتدلية على أكتافهم ،وساروا تتقدمهم الموسيقى إلى مكان الاحتفال حيث نصبت سارية علوها ٢٥ مترا ؛ وهناك أخذوا أماكنهم فى نظام عسكرى بديع ، تصحبهم أسلحتهم ومدافعهم ، وشهد الاحتفال رؤساء العشائر الذين جاءوا من مختلف النواحى ، ووقف بيكر باشا تحت السارية ، وقرأ على الجيع الإعلان الرسمى الذى قرر فيه باسم الخديو ضم هذه الجهات إلى أملاك مصر ، وعند ما أتم تلاوة الإعلان رفع العلم المصرى على السارية الكبيرة ، فحياه الجند جميعا بالسلام العسكرى ، وأطلقت المدافع تحية واجلالا

وقد أسمى بيكر باشا غندكرو (الاسماعيلية) باسم الخديو اسماعيل ، وجعلها عاصمة مديرية خط الاستواء (أنظر الخريطة ص ١٢٥)

وفى ٢٢ يناير سنة ١٨٧٢ [١] استأنف السير فى النيل الأبيض [٢] ، فأسس نقطا



المعسكر المصرى فى غندكرو (الاسماعيلية) سنه ١٨٧٢

---

(١) الاسماعيلية للسير صموئيل بيكر ص ١٩٢

(٢) يطلق اسم النيل الأبيض على نهر النيــل من منابعه إلى الخرطوم ، ويسمى نيل فيكتوريا أو نهر السومرست من منبعه من بحيرة فيكتوريا إلى مصبه فى بحيرة ألبرت ، ومن

عسكرية وحصونا فى عدة بلاد بأعالى النيل ، منها (الابراهيمية) على بحر الجبل (بحر الرجاف) ، وقد سماها بهذا الاسم تذكارا لابراهيم باشا أبى الخديو اسماعيل ، وأنشأ حصونا أخرى فى (فاتيكو) ثم فى (فويرة) الواقعة على نيل فيكتوريا

فتح مملكة أونيورو (سنة ١٨٧٢ – ١٨٧٣)

وتقدمت الحملة فى زحفها ، ففتحت مملكة «أونيورو» المتاخمة لبحيرة ألبرت شرقا واحتلت عاصمتها «ماسندى» فى ابريل سنة ١٨٧٢ ، وكان بها ملك يدعى (كابريقه) ، فأظهر خضوعه لسلطة الحكومة المصرية وأعلن بيكر باشا باسم الخديو



ريونجا ملك أونيورو يصافح بيكر باشا ، والجنود المصرية مصطفة لاستقباله بقيادة القائمقام عبد القادر بك حلمى سنة ١٨٧٢

مخرجة من بحيرة ألبرت إلى التقائه ببحر الغزال ثم بنهر سوباط يسمى بحر الجبل «أو بحر الرجاف» ، ويتفرع عنه قبل التقائه ببحر الغزال فرع يسمى «بحر الزراف» ويسير البحران شمالا متفرعين على شكل دلتا إلى أن يبلغا النيل ، ويستمر باسم النيل الأبيض إلى أن يلتقى بالنيل الأزرق عند مدينة الخرطوم ، ويقصر بعض علماء الجغرافية اسم النيل الابيض على مجرى النهر من ملتقى السوباط بالنيل إلى الخرطوم

دخول هذه المملكة فى أملاك مصر (١٤ مايو سنة ١٨٧٢) ، وبنى فى ماسندى دارا للحكومة المصرية بالقرب من دار كابريقه ، وشيد حصنا لإقامة الحامية المصرية

على أن كابريقه ما لبث أن ظهرت خيانته ، فانقض على الحامية المصرية ، وقامت الحرب بينهما ، وانتهى القتال بهزيمته وفراره

ثم انسحبت الحامية المصرية من ماسندى إلى شاطىء نيل فيكتوريا ، لتأوى إلى مكان أمين

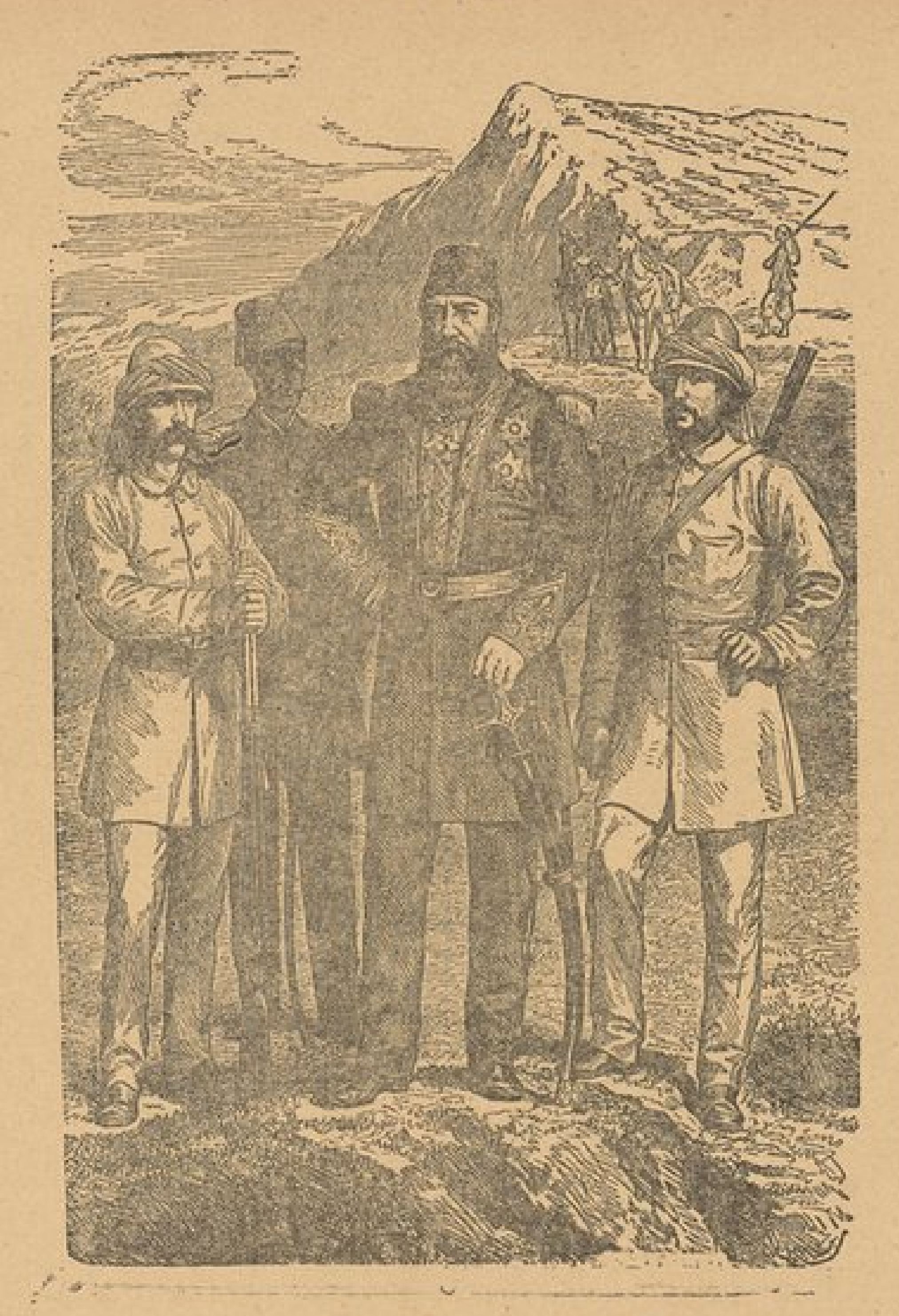
وأعلن بيكر باشا خلع الملك كابريقه ، وولى مكانه ملكا آخر من الأسرة الحاكمة ، يدعى (ريونجا) ، كان يزاحم كابريقه على عرش أونيورو ، منذ وفاة الملك السابق ، فتقبل هذا التنصيب بالإخلاص والابتهاج ، وبقى على ولائه لخديو مصر ، وجرد حملة على كابريقه غلبته على أمره

ولاء ملك أوغنده لمصر

وقد وفد على بيكر باشا رُسل من الملك (امتيسى) ملك أوغنده المجاورة لمملكة أونيورو ، والواقعة شمالى بحيرة فيكتوريا وغربيها ، وعرضوا إخلاص مليكهم لخديو مصر ، فأكرم بيكر وفادتهم ، وبادل مليكهم الرسائل والهدايا ، وبقى (امتيسى) موالياً لمصر ، ونقم على كابريقه خيانته ، وهاجمه من الجنوب جزاء انتقاضه ، وبفضل ولاء امتيسى لمصر انفتحت الطريق بين أعالى النيل وزنجبار على شاطىء المحيط الهندى

وعاد بيكر الى الاسماعيلية (غندكرو) فى ابريل سنة ١٨٧٣ إذ انتهت مدة خدمته ، فغادرها ، واستخلف فى قيادة الجند وإدارة المديرية رءوف بك أحد ضباط الجيش المصرى ، ورجع إلى الخرطوم ، ومنها إلى مصر عن طريق سواكن والبحر الأحمر ، وقابل الخديو بالقاهرة (أغسطس سنة ١٨٧٣) ، فأنعم عليه بالنيشان العثمانى ، وأنعم على القائمقام عبد القادر بك حلمى برتبة الميرلاى ، والملازم محمد افندى برتبة الصاغ مكافأة لهم على خدماتهم فى بسط سلطة مصر فى منطقة خط الاستواء

وقد بلغت نفقات هذه الحملة ٨٠٠,٠٠٠ جنيه ، تحملتها خزانة مصر فى وقت اشتد بها الضيق المالى ، فكان هذا المبلغ من تضحيات مصر فى سبيل نشر لواء الحضارة والتقدم فى ربوع السودان



صمويل بيكر باشا مدير خط الاستواء فى عهد اسماعيل
وحوله أركان حربه وهم القائممقام عبد القادر حلمى بك فالمهندس
هيجنبوتام Higgnboiham ، ثم الملازم بيكر

والميرلاى عبدالقادر بك هو من أركان حرب بيكر باشا ، وهو ضابط كفء شجاع ، كان له فضل كبير فى نجاح الحملة ، وقد امتدحه بيكر فى مواطن كثيرة ، وأشاد بصفاته فى كتابه (الاسماعيلية) ، وأثنى على شجاعته وإخلاصه [١] ، وترى رسمه فى الصور التى نقلناها عن هذا الكتاب

وعبدالقادر بك هو الذى صار فيما بعد عبد القادر باشا حلمى حكمدار السودان سنة ١٨٨٢ [٢] ، وله المواقف المحمودة فى المدافعة عن سلطة مصر فى السودان ، مما سيجىء بيانه فى موضعه

وكان يعاون السير بيكر فى مهمته جعفر مظهر باشا حكمدار السودان حينذاك ، (لغاية سنة ١٨٧١) ، على أن جعفر باشا رأى بثاقب نظره أن فى إسناد هذه المهمة الى أجنبى خطراً على مصالح مصر ، وكتب بذلك تقريراً أرسله إلى الخديو اسماعيل ينبهه فيه إلى ذلك الخطر ، وأشار بإسناد هذه المهمة الى ضباط أركان الحرب من الجيش المصرى ، ولكن اسماعيل لم يلتفت الى هذا الرأى الحكيم ، ولم يعمل به ، واستمر يحسن الظن برواد الاستعمار

تعيين الكولونل غردون (باشا)

مديراً لخط الاستواء (١٨٧٤ — ١٨٧٦)

لم يكد يمضى قليل من الزمن على انتهاء خدمة السير صمويل بيكر ، وخلو منصب مدير خط الاستواء ، حتى خلفه انجليزى آخر ، وهو الكولونل غردون الذى صار فيما بعد (غردون باشا)

ومن الغرابة بمكان أن يتعاقب على هذا المنصب الخطير انجليزيان لهما مقام معلوم فى نظر الجمهور البريطانى والحكومة الانجليزية ، ولم يكن ذلك من قبيل المصادفات ، بل إن اصبع السياسة الانجليزية كان لها دخل فى هذا التعيين ، فكما أن الحكومة الانجليزية

---

(١) الاسماعيلية للسير صمويل بيكر ص ٦٨ و ٤١٢

(٢) كوشرى . المركز الدولى لمصر السودان ص ٢٦٦

هى التى أوعزت الى الخديو اسماعيل بوساطة ولى عهد انجلترا أن يسند هذا المنصب الى السير بيكر ، فانها هى أيضا التى سعت لديه فى إسناده الى الكولونل غردون سنة ١٨٧٤

فالسياسة الانجليزية كانت تنفذ خطتها من التمهيد للتدخل فى شؤون السودان ، واختارت بداءة ذى بدء منطقة خط الاستواء ، لأنها المنطقة التى جعلتها المرحلة الأولى لبرنامجها ، إذ فيها منابع النيل ، فهى مفتاح السودان من جهة الجنوب ، كما أنها مصدر الحياة لمصر

وليس من المصادفات أن يقع اختيارها على الكولونل غردون بالذات ، فانه الرجل الذى كان قلبه يفيض وطنية وإخلاصاً لبلاده ، فلا جرم أن يبذل كل ما لديه من تضحية فى سبيل التوسع البريطانى ، وقد دلت خاتمته المحزنة على أنه كان أكبر ضحية قدمتها انجلترا لتضع يدها على السودان بعد شبوب الثورة المهدية

ويدلك على تدخل السياسة الانجليزية فى تعيينه أنها أقنعت الخديو بأن يجعل له من السلطة أكثر مما كان للسير صمويل بيكر باشا ، فقد كان هذا خاضعا لحكمدار عموم السودان ، لكن غردون عين حاكما لإقليم خط الاستواء ، على أن يكون مستقلا فى عمله ، وقصر الخديو سلطة حكمدار السودان على الجزء الشمالى لغاية فاشودة ، وجعل الأقاليم الاستوائية التى تمتد من جنوبى فاشوده[1] الى خط الاستواء تحت سلطة غردون ، وفى هذا من إطلاق يده فى الجزء الجنوبى من السودان وإضعاف سلطة الحاكم العام المصرى ما لا يغيب عن البال ، كل هذا بسعى السياسة الانجليزية وتدبيرها

جاء الكولونل غردون الى مصر سنة ١٨٧٤ ، وقابل الخديو وكلفه الرحلة الى السودان لتولى منصبه فيها ، وكان حكمدار السودان وقتئذ (اسماعيل باشا ايوب) ، فأرسل له الخديو أوامره فى هذا الصدد ، وأمره بتنفيذها والحفاوة بغردون عند قدومه ، وإجابته الى كل ما يطلبه ، فاضطر للعمل بهذه الأوامر على ما فيها من غضاضة

---

(١) لم توضع حدود دقيقة بين مديريتى فاشوده وخط الاستواء ، ويقول فوزى باشا ان جهات خط الاستواء تبدأ من ملتقى نهر سوباط بالنيل ، ويرى آخرون أنها تبدأ من (شامبه) على بحر الجبل (أنظر الخريطة ص ١٢٥)

وأنعم الخديو على الكولونل غردون سنة ١٨٧٥ برتبة الفريق ، فصار يعرف بغردون باشا ، وصارت رتبته العسكرية مساوية لرتبة حكمدار السودان ، مع أن منصبه الرسمى لم يزد عن كونه (مدير خط الاستواء)

توسيع نطاق الحكم المصرى فى مديرية خط الاستواء

مضى الكولونل غردون الى السودان عن طريق البحر الأحمر وسواكن ، ولما بلغ الخرطوم أعد حملة من الجيش المصرى ، صحبته الى مقر سلطته ، فتحركت الحملة جنوبا على ظهر البواخر المصرية ، وصحبه من الخرطوم إبراهيم افندى فوزى ، أحد ضباط الجيش المصرى الذى صار فيما بعد اللواء ابراهيم باشا فوزى ، وشهد وقائع السودان من سنة ١٨٧٤ الى شبوب الثورة المهدية ، وشهد معظم وقائع الثورة الى سقوط الخرطوم ومقتل غردون سنة ١٨٨٥ ، وحضر استرجاع السودان سنة ١٨٩٨ ، وله فى ذلك كله كتابه المشهور (السودان بين يدى غردون وكتشنر)

وصلت الحملة الى فاشوده ، بعد مسير سبعة أيام فى النيل ، فاستقبلها مديرها بالحفاوة اللائقة ، وشهد غردون وإبراهيم افندى فوزى « ماوصلت اليه البلاد وقتئذ من العمران والتقدم والحضارة بعناية الحكومة[1] »

وتابعت الحملة سيرها حتى وصلت الى محطة سوباط ، وهى الكائنة على ملتقى نهر سوباط بالنيل ، ثم سارت جنوبا حتى بلغت الاسماعيلية (غندكرو) حيث يقيم رءوف بك ، الذى استخلفه السير صمويل بيكر فى الحكم وقيادة الجند بمديرية خط الاستواء ، فقابل غردون بالحفاوة والتكريم ، وأطلعه على أحوال البلاد وشؤونها ، وقد أبقاه غردون قليلا ، ثم ما لبث ان أقاله من عمله وأمره بالعودة الى مصر

وقد رأى غردون أن مناخ الاسماعيلية ليس صحيا ، فنقل مركز الحكومة الى (اللادو) ، فصارت من ذلك العهد عاصمة مديرية خط الاستواء

وبعد أن تولى شؤون الحكومة فى تلك الجهات تابع السير جنوبا حتى بلغ بحيرة

---

(١) السودان بين يدى غردون وكتشنر ج ١ ص ٥

(ألبرت) ، واستولى على عشرة مراكب من سفن الاهلين ، استخدمها لاكتشاف شواطىء البحيرة ، واستقدم من الخرطوم العدد الكافى من البواخر النيلية ومن آلات الترسانة المصرية بالخرطوم وعمالها ، وأنشأ بالدفلاى شمالى بحيرة ألبرت (ترسانة) لتنظيم الملاحة فى أعالى النيل وفى البحيرة ، واستطاع عمال الترسانة أن يفكوا أجزاء بعض البواخر ،ويُركبوها ثانية فى البحيرة .ولما تم تركيب أول باخرة ، استقلها الكولونل غردون باشا وحاشيته وابراهيم فوزى (باشا) ، فساروا بها فى لجج البحيرة ، فكانت هذه أول مرة رأت فيها بحيرة ألبرت السفن البخارية ، وقد كان منظر الباخرة موضع دهشة الأهلين ، قال ابراهيم فوزى (باشا) فى هذا الصدد : « كان الأهالى يقفون على شواطىء البحيرة كلما اقتربنا منها صفوفا معجبين مندهشين من رؤية الوابور ، إذ لم يكونوا قد رأوا السفن البخارية من قبل ، وكان يزيد عجبهم كلما شاهدوا ضخامته ، ويحارون فى كيفية نقله مع جسامته الى البحيرة » .

وهكذا كان الفتح المصرى يحمل معه أينما سار أسباب الحضارة والعمران

وقد أنشأ الكولونل غردون باشا عدة نقط عسكرية حصينة على شاطىء النيل ، وحصن النقط التى أنشأها بيكر باشا من قبل ، فما أنشأه نقطة (سوباط) على ملتقى نهر سوباط بالنيل ، و (الناصر) على نهر سوباط ، و (شامبه) و (بور) و (اللادو) و (لابورى) و (الرجاف) و (الدفلاى) على النيل الأبيض (بحر الجبل) ، و (مكركه) جنوبى بحر الغزال ، و (مرولى) على نيل فيكتوريا ، و (مقانقو) الواقعة على مصب نيل فيكتوريا فى بحيرة البرت (أنظر مواقع هذه البلاد على الخريطة الملحقة بهذا الفصل ص ١٢٥)

وقد لقى الجنود المصريون فى هذه الحملات البعيدة المتاعب المضنية لبعد المسافات وصعوبة المواصلات ورداءة الطقس ، وكانت الأمطار تهطل عليهم ليل نهار كأفواه القرب ، واستهدفوا للمخاطرات والمفاجآت الجمة ، واحتملوا كل هذا العناء بصبر وثبات وشجاعة تسجل لهم فى أنصع صفحات تاريخنا القومى

بسط حماية مصر على مملكة أوغنده

سنة ١٨٧٤

بسطت مصر حمايتها على مملكة أوغنده سنة ١٨٧٤ ، على يد الكولونل شاي لونج بك Chaille Long bey ، وهو ضابط أمريكى ، دخل فى خدمة الجيش المصرى سنة ١٨٧٠ ، وعين سنة ١٨٧٤ رئيساً لأركان حرب غردون باشا حين ولايته على مديرية خط الاستواء ، وأخلص النية لمصر ، وخدمها بنزاهة وأمانة أثناء مقامه فى السودان ، ودافع بعد ذلك بقلمه ولسانه عن حقوق مصر الخالدة فى كتب قيمة ، تعد من أهم المراجع فى تاريخ السودان الحديث ، منها : كتاب (مصر ومديرياتها المفقودة) ، و (الانبياء الثلاثة غردون والمهدى وعرابى) ، و (أفريقية الوسطى) ، عدا ما نشره فى المجلات الكبرى دفاعا عن مصر واستنكاراً لمطامع الانجليز فى وادى النيل

ذكر شاي لونج بك فى كتابه (مصر ومديرياتها المفقودة) انه هو الذى انفذه غردون الى عاصمة الملك (امتيسى) ملك أوغنده ، وانه أدّى مهمته ، ووصل إلى عاصمة أوغنده ، وعقد مع ملكها سنة ١٨٧٤ ، معاهدة بمقتضاها قبل وضع مملكته تحت حماية مصر ، وقد أرسل المعاهدة الى الخديو اسماعيل ، وهذا أبلغ الدول أن مصر ضمت اليها جميع البلاد الواقعة حول بحيرة فيكتوريا وبحيرة البرت [١] ، وقال (ص ٢٥) إن هذه المعاهدة أودعت محفوظات وزارة الخارجية ، ولكنها فُقدت بعد ذلك ، وذكر أن أحد ضباط الجيش البريطانى أحرقها (بعد الاحتلال) ضمن وثائق أخرى نفيسة

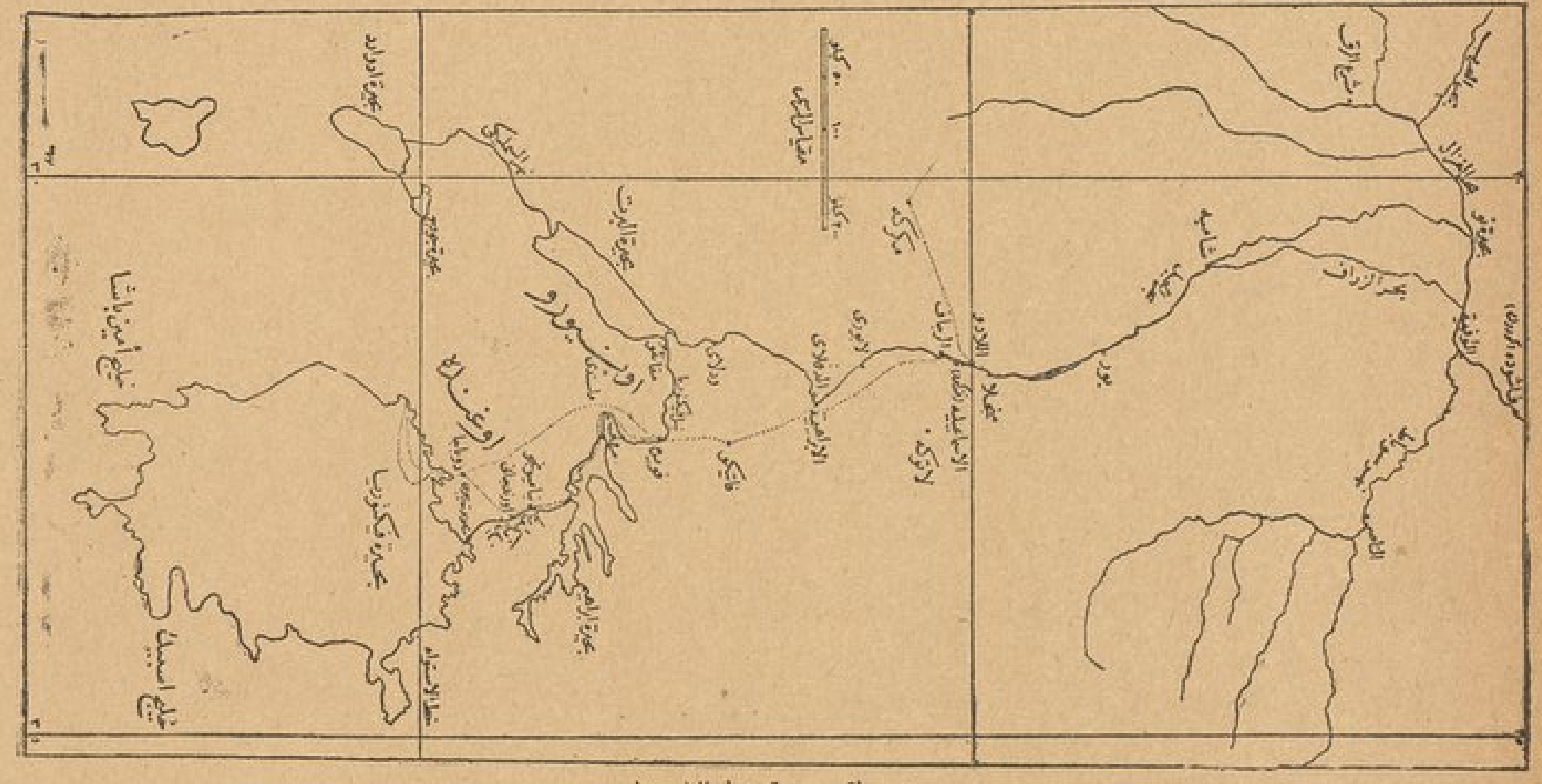
وقال فى موضع (آخر ص ٢٦) إنه لما وصلت البعثة الانجليزية الى أوغنده فى ابريل سنة ١٨٧٥ وجدت بحاشية الملك امتيسى ، ارنست لينان دى بلفون (ابن لينان باشا) الذى أرسله غردون بعد معاهده الحماية منـــدوبا عن الحكومة المصرية فى بلاط الملك [٢] ، وذكر أن نفوذ مصر قد امتد الى كل الأصقاع التى تحيط ببحيرة

---

(١) مصر ومديرياتها المفقودة ص ١٢ للكولونل شاي لونج بك

L'Egypte et ses Provinces Perdues par Chaille Long bey

(٢) وقد قتل فى عودته من أوغنده الى الرجاف فى اغسطس سنة ١٨٧٥



خريطة مديرية خط الاستواء

والخط المنقوط يمثل الطريق الذى سلكه الكولونل شايي لونج بك فى مسيره الى أوغنده حيث عقد مع ملكها سنة ١٨٧٤ المعاهدة التى قبل بمقتضاها حماية مصر على مملكته

فيكتوريا ، وخاصة بملكة أوغنده ، وان الملك امتيسى كان يفتخر بتبعيته لسلطان مصر [١]

مذكرة شريف باشا إلى الدول

عن امتلاك مصر منطقة البحيرات

وأورد فى كتابه (ص ٢٦) المذكرة التى أرسلها شريف باشا (الوزير المشهور) وزير خارجية مصر فى ذلك الحين إلى الدول خاصة بضم منطقة البحيرات إلى مصر ، وخلاصتها أن غردون استولى على منطقة (مرولى) الواقعة على نهر سومرست [٢] ، وأن الجنود المصرية أسسوا محطة فى (ماسندى) عاصمة مملكة (أونيورو) ومحطة أخرى فى (أورند جانى) على نهر السومرست ، بالقرب من بحيرة فيكتوريا ، وأخرى على بحيرة فيكتوريا ذاتها بالقرب من شلالات (ريبون [٣]) ، وأخرى فى كل من (ما قنقو) و (الدفلاوى) ، وعلى ذلك بسطت مصر سلطتها على جميع البلاد الواقعة حول بحيرة فيكتوريا ، وبحيرة البرت ، وسننشر نص هذه المذكرة فى قسم الوثائق التاريخية

ونشرت (الوقائع المصرية) البيان الآتى عن أوغنده : « ورد تلغراف إلى المعية السنية من سعادة غردون باشا فى ٢ أغسطس سنة ١٨٧٦ يتضمن أن الملك امتيسا طلب منى عساكر لأجل اقامتها فى بندر حكومته ، فأرسلت اليه مائة وخمسين عسكريا ، ورتبت ثلاثين عسكريا فى بلدة (أورندجانى) ، ومثلها فى بلدة (بكبتيشة) ، فكانت تلك الجهات والحالة هذه فى حوزة الحكومة المصرية ، وقد وصلنا إلى «مقانقو» فى ٢٧

---

(١) مصر ومديرياتها المفقودة للكولونل شابى لونج بك ص ٢٠٤

(٢) هو الاسم الذى أطلقه الرحالة اسيك على النيل بين منبعه من بحيرة فيكتوريا إلى مصبه فى بحيرة البرت ، ويسمى أيضا نيل فيكتوريا

(٣) حيث يخرج النيل من بحيرة فيكتوريا

جمادى الثانية (سنة ١٢٩٢) بعد سفر سبعة أيام من (روفلى)، والبحر هناك[١] جيد صالح لسير السفن فيه بسهولة، وشطوطه معمورة بكثرة الناس فيه، وأراضيه صالحة للزراعة.

«وبعد ثلاثة أيام نتوجه إلى (مرولى) و (أورند جانى) و (امتيسا) عاصمة أوغنده، ويمكننا الوصول إلى سائر تلك الجهات بغاية الراحة التامة والسهولة»[٢]

هذا ماذكرته «الوقائع المصرية»، وهى الجريدة الرسمية للحكومة، وفيها تأييد للحقائق التى أوردها شاى لونج بك، ومن كل ذلك يتبين انضمام أوغندة ومنطقة البحيرات إلى مصر فى عهد الخديو اسماعيل

— موقف غردون —

ذكر غردون فى رسائله إلى أخته أن شاى لونج بك، أرسل إلى الخديو اسماعيل تقريراً امتدح فيه ولاء امتيسى، فنال رضاء الخديوى وأرسل إلى لونج بك عربة جميلة هدية للملك[٣]

وظاهر من لهجة غردون فى رسائله إلى أخته أنه لم يكن مرتاحا إلى إحكام مصر روابطها بأوغندة وملكها، فقد ذكر[٤] أن الملك امتيسى أقسم يمين الولاء لمصر فى مارس سنة ١٨٧٦، وأنه (أى غردون) كان يبغى بقاء ملك أوغنده مستقلا، ولكنه هو الذى دعا الحامية المصرية التى كان غردون معتزما جعلها فى (أورندجانى) إلى الاستقرار فى عاصمة أوغنده (دوباجا)[٥] وقد استقرت بها فعلا فى أغسطس سنة ١٨٧٦[٦]

---

(١) يريد النيل

(٢) الوقائع المصرية عدد ٦٧٤ الصادر فى ٢٢ شعبان سنة ١٢٩٢ هـ (سبتمبر سنة ١٨٧٦م)

(٣) رسائل الكولونل غردون إلى أخته ص ١٤٢

(٤) رسائل الكولونل غردون إلى أخته ص ١٦٨

(٥) وتسمى أيضا امتيسى على اسم الملك

(٦) رسائل غردون إلى أخته ص ١٧٦

وغنى عن البيان أن غردون لم يكن يبغى من استقلال أوغنده دفاعا عن مصالحها ، بل كل ما يبغيه أن تكون بعيدة عن التبعية المصرية ، حتى تصير فيما بعد لقمة سائغة لانجلترا ، وقد بسطت فعلا حمايتها عليها بعد فصل السودان ، وهكذا يتبين لك أن غردون لم يكن خالص النية لمصر مثل شابى لونج بك ، بل كان يخدم السياسة الانجليزية أثناء تقلده منصب الحكم فى مديرية خط الاستواء ، وكذلك عند ولايته حاكما عاما للسودان سنة ١٨٧٧ كما سيجىء بيانه

اكتشاف بحيرة (ابراهيم)

سنة ١٨٧٤

اكتشف الكولونل شابي بك لونج ، سنة ١٨٧٤ ، بحيرة (ابراهيم) إحدى البحيرات التى ينبع منها النيل ، وهى الوقعة شمالى بحيرة فيكتوريا ، وقد سماها بحيرة (ابراهيم) باسم ابراهيم باشا أبى الخديو اسماعيل ، وكانت تسمى من قبل بحيرة (كيوجا) ، وقد غلب عليهم الاسم الأصلى فى مصورات الجغرافية (الأطالس) الحديثة وكتبها ، لأن معظم الجغرافيين من الإفرنج يأبون أن يطلقوا اسماً عربياً مصرياً على منابع النيل ، أما البحيرات الأخرى فيسبغون عليها أسماء أوروبية ويسمونها بحيرة (فيكتوريا) وبحيرة (ألبرت) ، وبحيرة (جورج) وبحيرة (إدوارد) ، أما بحيرة (ابراهيم) فلا يروق لهم تسميتها بمثل هذا الاسم المصرى فيبقون اسمها القديم (كيوجا) ، وهذا لعمرى ليس من الحق ولا من الانصاف فى شىء

ومن واجب مهندسى مصر وأساتذة الجغرافيا والتاريخ أن يعبروا عن هذه البحيرة باسم (بحيرة ابراهيم) ، ويتخذوه علماً لها فى مباحثهم ودروسهم ومؤلفاتهم وأطالسهم حتى يرسخ هذا الاسم فى أذهان النشء والجمهور ، وفى وثائق الحكومة وخرائطها ، ويذيع بين الناس فى مصر والشرق ، ثم فى أوروبا ، كما ذاعت أسماء بحيرة (فيكتوريا) وما إليها ، وإن اسم بحيرة (ابراهيم) أحق بالإذاعة من الأعلام الانجليزية التى أطلقت على البحيرات الاستوائية الأخرى ، فان اكتشاف هذه البحيرة تم على يد ضابط من ضباط الجيش المصرى ، باسم مصر ولحساب مصر ، فى عهد اسماعيل بن ابراهيم ، وبجهوده

ورعايته ، ومكتشفها قد اختار لها هذا الاسم تحقيقاً لرغبة الخديو اسماعيل ذاته ، فواجب الوفاء والمنطق يقضى باحترام هذه التسمية واتباعها (أنظر الخريطة ص ١٢١)

وقد ذكرها العلامة جورج شونفرت Schweinfurth فى خريطته التى وضعها لبيان خط سير إرنست لينان دى بلفون من الرجاف إلى بحيرة فيكتوريا سنة ١٨٧٥ ، وسماها باسمها الصحيح (بحيرة ابراهيم) ، وكتب بجانبها العبارة الآتية (اكتشفها لونج بك فى أغسطس سنة ١٨٧٤) ، وتجد هذه الخريطة ملحقة بالعدد الأول من السنة الأولى لمجلة الجمعية الجغرافية الخديوية (نوفمبر سنة ١٨٧٥ — فبراير سنة ١٨٧٦) ، وسماها غردون فى خريطته (بحيرة كيوجا أو بحيرة ابراهيم) ، وهى تشمل بحيرة كيوجا وبحيرة كوانيا المتصلة بها

وللكولونل شايى لونج بك رسالة منهبة فى مجلة الجمعية الجغرافية (مجموعة ٣ عدد ٧ سبتمبر سنة ١٨٩١ ص ٥٤٠) اعترض فيها على إغفال اسم بحيرة ابراهيم ، وذكر وثائق هامة عن اكتشافاته وخدماته لمصر فى مديرية خط الاستواء

وفى الحق ان الكولونل شايى لونج بك يجب أن يقترن اسمه بأسماء مكتشفى منابع النيل ، فالرحالتان (اسبيك) و (جرانت) اكتشفا بحيرة فيكتوريا ومنبع النيل منها ، والسير (صمويل بيكر) اكتشف بحيرة ألبرت ، و (شايى لونج بك) اكتشف بحيرة ابراهيم ، ومجرى النيل من أورندجانى الى مرولى ثم الى فويره

وقد ذكر فى كتابه «مصر ومديرياتها المفقودة» ص ١٤٨ أنه بعد أن اكتشف بحيرة (ابراهيم) قصد الى (ماسندى) عاصمة (اونيورو) ، فألفى ملكها القديم (كابريقه) يناصب الحكومة العداء ، وان كابريقه هذا هاجمه فى قوة من ٦٠٠ مقاتل ، فانسحب لونج بك الى (فويره) الواقعة على نيل فيكتوريا

وذكر غردون باشا [١] ان كابريقه اخلى (ماسندى) فى يناير سنة ١٨٧٦ وان المواصلات أعيدت الى هذه العاصمة

استعفاء غردون من منصبه سنة ١٨٧٦

بقى الكولونل غردون مديراً لعموم خط الاستواء الى أن استعفى من منصبه سنة

---

(١) فى رسائله الى أخته ص ١٦٥ — ١٧٦

١٨٧٦ ، وعاد الى القاهرة ، ومنها الى انجلترا ، ولعله رحل اليها ليطلع حكومته على أحوال المنطقة التي تولى حكمها ، وليتلقى تعليماتها الجديدة فيما تأمره به ، لأنه لم يلبث فى انجلترا ثلاث سنوات الا قليلا ، حتى تدخلت الحكومة الانجليزية لدى الخديو لتعيينه فى منصب أكبر من منصبه القديم ، إذ جعله حكمدار عموم السودان ، فصارت أقاليم السودان تحت مطلق سلطته كما سيجىء بيانه

مصير مديرية خط الاستواء

عندما غادر غردون باشا منصبه الأول سنة ١٨٧٦ استخلف فى خط الاستواء وكيله الكولونل « بروت » Prout ، وهو ضابط أمريكى التحق بخدمة الجيش المصرى وخدم تحت لواء غردون ، وفى عهد حكمدارية غردون باشا للسودان جعل ابراهيم بك فوزى مديراً لخط الاستواء ، ثم فصله وعين مكانه الدكتور إدوار شنتزر Eduard Schnitzer وهو طبيب ألمانى صحب غردون فى السودان واعتنق الاسلام ، وعرف بأمين بك ، وأخلص لمصر ، فبقى يتولى الحكم فى خط الاستواء الى شبوب الثورة المهدية ، ولم تستطع قوات المهدى أن تستولى على هذه المديرية وظل أمين بك يحكمها باسم الحكومة الخديوية ، ونقل عاصمتها من اللادو الى فرادلاى جنوباً ليكون بعيداً عن غزوات المهديين ، وبقى فى مركزه حتى اضطرت الحكومة المصرية بضغط الانجليز الى إخلاء السودان ، وأنعم عليه الخديو توفيق برتبة الباشوية جزاء إخلاصه لمصر ، فصار يعرف بأمين باشا ، وأرسل اليه نوبار باشا رئيس مجلس الوزراء وقتئذ يبلغه قرار الجلاء عن السودان وتركه وشأنه ، فآثر البقاء فى منصبه ، مخلصاً لمصر وحكومتها ، معتمداً على ولاء الضباط والجنود المصريين والسودانيين الذين تحت إمرته ، ولكن الانجليز أبوا عليهم البقاء ، فأرسلوا الرحالة استانلى بحجة « إنقاذ أمين باشا » ، والواقع لإجلائه عن مديرية خط الاستواء والقضاء على سلطة مصر فيها ، فاضطره استانلى سنة ١٨٨٩ الى الجلاء عنها ، وبانسحاب أمين باشا من مديريه خط الاستواء تقلص ظل السلطة المصرية عن هذا الإقليم ، وانتهزتها انجلترا فرصة فاحتلت أوغندة وجعلتها تحت حمايتها (سنة ١٨٩٣) وألحقت بها الجزء الجنوبى من مديرية خط الاستواء

ولما تم استرجاع السودان سنة ١٨٩٨ أكرهت مصر على توقيع اتفاقية سنة ١٨٩٩

الباطلة التى جعلت إدارة السودان مشتركة بين مصر وانجلترا ، وعدّلت حدوده طبقاً لأهواء الانجليز ، فبعد أن كانت حدود السودان المصرى تنتهى عند بحيرة فيكتوريا صارت بعد اتفاقية سنة ١٨٩٩ تنتهى عند (منجلا) شمالى غندكرو ، والآن تنتهى عند (نيمولى) — الابراهيمية — ، وبذلك اغتصبت انجلترا معظم مديرية خط الاستواء القديمة ، وخسرت مصر تلك المديرية الشاسعة بعد أن بذلت فى سبيل فتحها وتعميرها مابذلت من الجهود والأموال ، والضحايا والرجال

منع الاتجار بالرقيق

كان الاتجار بالرقيق ممنوعا من عهد محمد على ، لكن هذا المنع لم يكن إلا اسمياً ، وبقيت تجارة الرقيق فى السودان قائمة الى عهد سعيد باشا ، بعين الحكومة وبصرها ، وبتأييد موظفيها ، وكان يتولاها تجار أقوياء لهم بيوت تجارية كبيرة تتجر فى حاصلات السودان وفى الرقيق ، وتربح من كل ذلك الأرباح الطائلة ، وكان تجار الرقيق لما لهم من النفوذ والسطوة والمال يقيمون فى مختلف الجهات معاقل حصينة اتخذوها مراكز للتجارة واصطياد الرقيق

فلما تبوأ اسماعيل عرش مصر اعتزم أن ينضم الى حركة العاملين على تحرير الأرقاء فى أنحاء العالم ، وأن يكسب ثناء الانسانية فى مقاومة تجارة الرقيق ، وبذل جهوداً كبيرة فى هذا السبيل

فى سنة ١٨٦٣ أرسل الى موسى باشا حمدى حكمدار السودان وقتئذ يأمره بتعقب تجار الرقيق وحربهم ، فصدع الحكمدار بالأمر ، وضبط سبعين سفينة مشحونة بالأرقاء بين « كاكا » و « فاشوده » ، وأطلق سراحهم ، وأعادهم إلى بلادهم ، واعتقل التجار الذين جلبوهم ، ولم يفرج عنهم إلا بعد أن أعطوه العهود والمواثيق أن لايعودوا الى النخاسة

وكان لاحتلال فاشودة سنة ١٨٦٥ أثر كبير فى سدّ طريق النيل فى وجه تجار الرقيق الذين كانوا يقتنصون الأرقاء فى جهات بحر الغزال وخط الاستواء ويشحنونهم فى السفن وأصدر اسماعيل أمره بتحرير كل عبد أو جارية يثبت على سيدهما أنه أساء معاملتهما

وفى عهد حكمدارية جعفر مظهر باشا واسماعيل أيوب باشا بذلت الحكومة جهوداً

موفقة فى محاربة تجارة الرقيق ، وقد عهد الخديو أيضاً الى السير صمويل بيكر ثم الى غردون باشا من بعده العمل على تحقيق هذه الغاية كما تقدم بيان ذلك تفصيلا

فى الحق أن الخديو اسماعيل قام بعمل مجيد ، وأسدى الى الانسانية خدمة جليلة فى منع هذه التجارة الممقوتة

لكن من الحق أن نقول أيضا ان عمله كان فى حاجة الى شىء من الحكمة والروية ، فان تجارة الرقيق كان يقوم بها اناس أقوياء فى السودان ، لهم من أعيان البلاد أنصار وتتألف منهم طبقة كبيرة من الأهلين

كانت هذه التجارة مصدر ثروتهم ، فضلا عن ان الأيدى العاملة فى الزراعة ورعى الماشية وغير ذلك كان معظمها من الرقيق ، وقد ألف أعيان السودان والطبقة المتوسطة من أهله استخدام الارقاء كأتباع لهم وموال ، ونظموا حياتهم على هذا الأساس ، ففاجأة السودان بتحرير الارقاء دفعة واحدة كانت مجازفة لاتحمد عواقبها ، هذا الى أن الخديوى قد جعل على رأسة مقاومة الاتجار بالرقيق جماعة من الاجانب ، فاستثار وجودهم عواطف الاهلين الدينية ، وكراهيتهم للحكومة ، فاجتمعت هذه العوامل وكانت من أسباب قيام الثوره المهدية

فالأمر اذن كان فى حاجة الى التأنى والحكمة ، اعتبر ذلك فى أن الحكومة الانجليزية حينما قررت إبطال الرقيق فى أملاكها خصصت عدة ملايين من الجنيهات لتعويض موالى الارقاء المحررين

فكان من الواجب على اسماعيل باشا أن يأخذ فى مشروعه بالهوادة وبعد النظر ؛ وحسن السياسة ، لكنه لم يفعل ، واعتزم مقاومة تجارة الرقيق ومنع الاسترقاق لحسب فاستهدفت الحكومة لعداء طبقة كبيرة من أعيان السودان وتجاره ، مما ظهر أثره فى نجاح دعوة المهدى أوائل عهد توفيق باشا إذ انضم الى الثورة تجار الرقيق فى السودان

وفى هذا الصدد يقول المسيو «داريل» Daryl فى مقدمة «رسائل غردون الى أخته» ما يأتى : «عهد الخديو اسماعيل الى الكولونل غردون مطاردة تجار الرقيق فى السودان ولكن المجهودات العنيفة التى بذلها ذلك الضابط الانجليزى لم يكن لها من نتيجة عملية سوى إثارة الطبقة التى كانت مصر تعتمد عليها فى السودان»

وقد أبرم اسماعيل فى ٤ اغسطس سنة ١٨٧٧ معاهدة مع الحكومة الانجليزية [١] للتعاون على منع الاتجار بالرقيق ، احتوت نصوصا تمكن الانجليز من الافتيات على سيادة مصر ومصالحها ، اذ اباحت لهم الرقابة على السفن الحاملة للراية المصرية وتفتيشها وضبطها بحجة تعاطيها تجارة الرقيق ، فكانت معاهدة لا خير فيها ، ولا فائدة منها لمصر

ظهور الزبير باشا رحمت [٢]

كان الزبير أكبر تجار السودان ، وخاصة فى تجارة الرقيق، وله نفوذ واسع وسلطان كبير فى اقليم بحر الغزال

وقد شبت حرب بينه وبين أحد ملوك بحر الغزال انتهت بهزيمة هذا الملك ، فامتلك الزبير بلاده ، واتخذ عاصمته مقرا له ، وسماها (ديم الزبير) ، فصار فيها ملكا ، ودانت له جهات بحر الغزال ، وتقاطر الناس اليه للانتظام فى خدمته ، فجمع لنفسه جيشاً قويا لتأييد سلطته ، واقتناص الرقيق ، وفتح طريق التجارة من بحر الغزال الى كردفان

وفى سنة ١٨٦٩ جاء بحر الغزال رجل يدعى (البلالى) قادماً من الخرطوم ومعه نفر من الجند لاحتلال هذا الإقليم باسم الحكومة الخديوية ، ومعه فرمان بتسميته مديراً لبحر الغزال ، ولكن الزبير جمع جيشه ، وكمن أتباعه للبلالى فقتلوه ، ثم خشى الزبير عاقبة عدائه الحكومة المصرية ، فجنح الى مسالمتها ، وأظهر ولاءه لها واعترف بسلطة الخديو

واتسع سلطانه ، ففتح بلاد (شكا) الواقعة بين بحر الغزال ودارفور ، ووضع بين يدى الحكومة الخديوية الأقاليم التى دانت له لتنصب لها الحكام ، وجعل تقدمته لها دليلا على ولائه ، وقد أخلص فعلا لمصر وبقى على ولائه طول حياته

---

(١) مجموعة المعاهدات لدى مارتانس . سلسلة جديدة ، ج ٢ ص ٤٩٣

De Martens. Nouv. Recueil gen. des Traites 11 P. 493

وتجدد نصها العربى فى قاموس جلاد ج ٢ ص ٢٣٨ طبعه سنة ١٩٠٠

(٢) استخلصنا ما ذكرناه عن الزبير من ترجمة حياته بقلمه المنشور فى كتاب السودان لنعوم بك شقير ج ٢ ص ٦٧ ، وما ذكره ابراهيم باشا فوزى فى كتابه ج ١ ص ١٣٦

فشكره الخديو على إخلاصه ، وأنعم عليه برتبة بك ، وعهد اليه حكم البلاد التى فتحها باسم الحكومة الخديوية ، وهى بحر الغزال وشكا فصار مديراً لبحر الغزال ، وجعلت مدينة شكا عاصمة للمديرية

فتح سلطنة دارفور

سنة ١٨٧٤

رغب الزبير باشا الى حكمدار السودان « اسماعيل باشا أيوب » فتح دار فور ، وكانت الى ذلك العصر مملكة مستقلة ، ولئن أدخلتها الفرمانات الصادرة لمحمد على ضمن أملاك مصر (انظر عصر محمد على ص ٣٤٧) إلا أنها بقيت مستقلة فعلا عن الدولة المصرية الى ذلك الحين ، وكان عليها ملك يسمى السلطان ابراهيم يناوىء الزبير ويعمل على إجلائه عن « شكا » ، فأيدت الحكومة مشروع الزبير ، وعهد الخديو الى اسماعيل باشا أيوب فتح دارفور باشتراكه مع الزبير بك

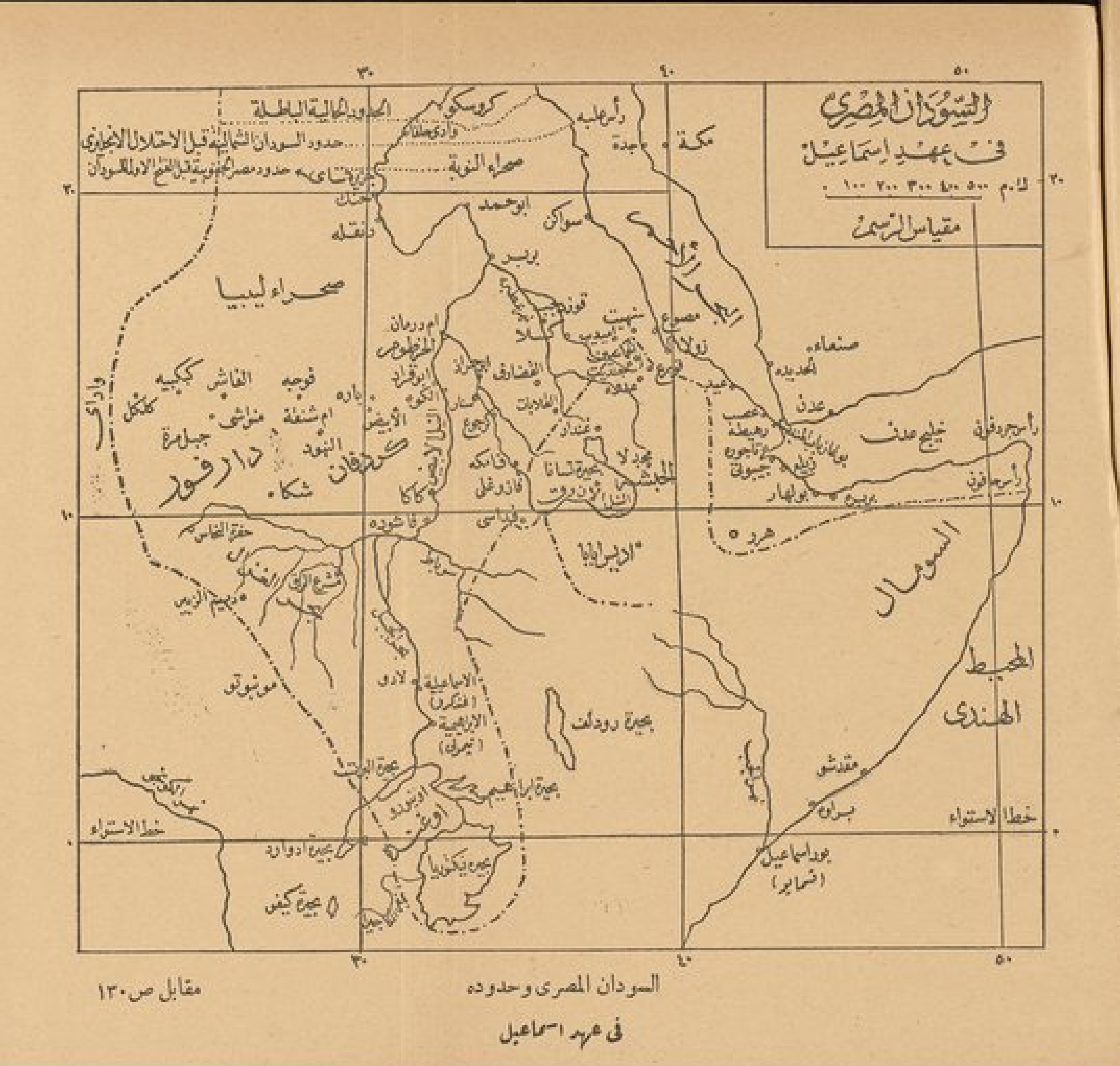
معركة منواشى (٢٥ اكتوبر سنة ١٨٧٤)

فجهز جيشا فى كرفان ، وعهد الى الزبير بك حشد جيشه فى بحر الغزال كى يحاط بدارفور من الشرق ومن الجنوب

فسار الزبير من الجنوب ، وتلاقى مع قوات سلطان دارفور ، وكانت تتألف من نحو عشرين الف مقاتل ، فهزمها الزبير غير مرة ، واشتبك الجمعان فى « منواشى » حيث نشبت بينهما فى ٢٥ اكتوبر سنة ١٨٧٤ معركة فاصلة ، انتهت بانتصار الزبير انتصاراً مبيناً ، وقتل السلطان ابراهيم وتشتت جيشه ، فدانت البلاد للحكم المصرى ، ودخل الزبير مدينة الفاشر عاصمة دارفور

ثم جاء اسماعيل باشا أيوب على رأس الفرقة الزاحفة من الشرق ، فدخل المدينة فى ١١ نوفمبر سنة ١٨٧٤ (٢٧ رمضان سنة ١٢٩١) ، وانتهت الحرب بضم سلطنة درافور الى املاك مصر

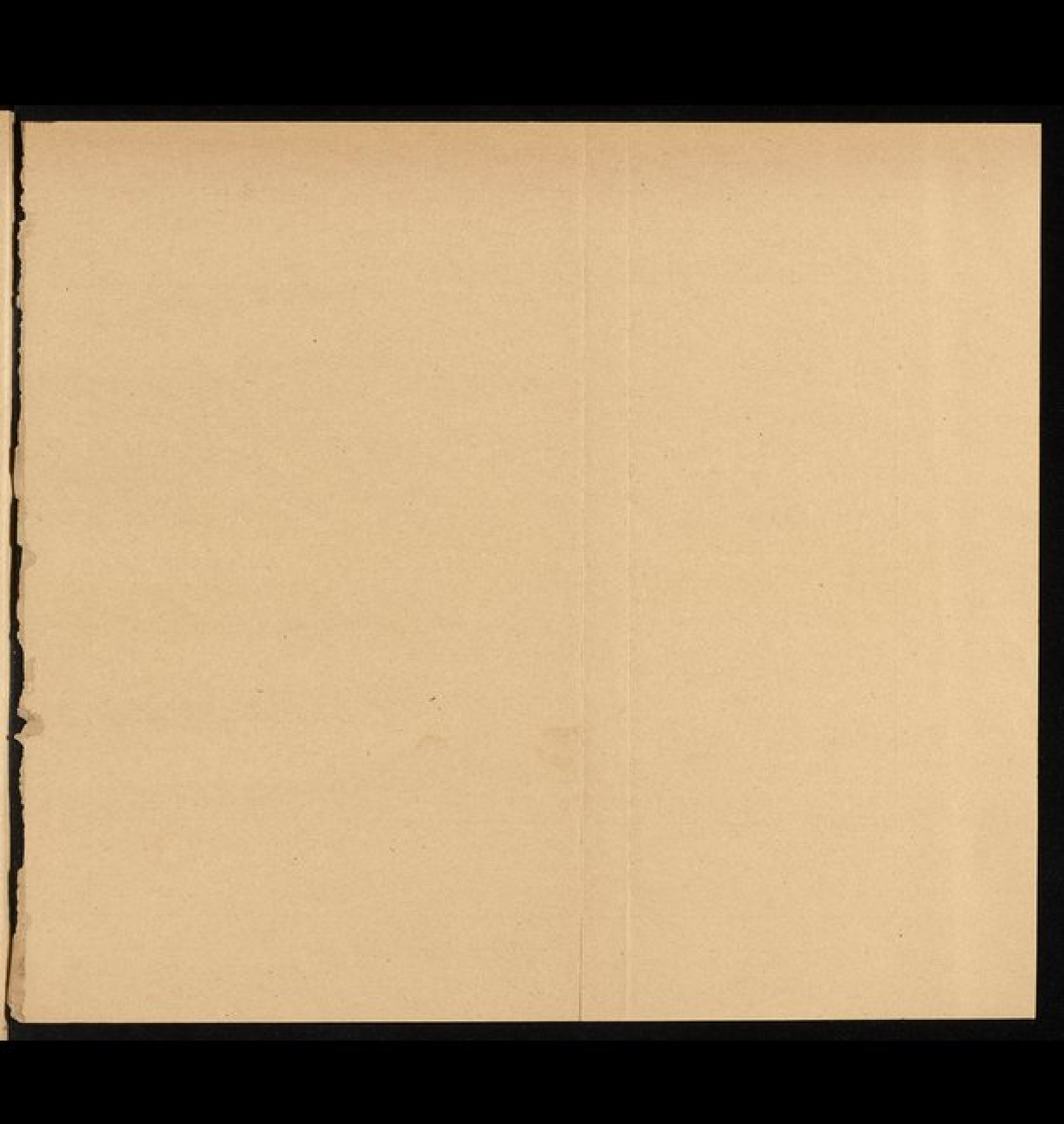
وأرسل الحكمدار يبشر الخديو باخبار الفتح ، فابتهج بهذا النصر المبين ، وانعم



السودان المصرى وحدوده

فى عهد اسماعيل

مقابل ص ١٣٠



على اسماعيل باشا أيوب حكمدار السودان برتبة الفريق ، وعلى الزبير برتبة اللواء فصار يعرف بالزبير باشا ، وعهد الى الحكمدار تبليغ أفراد الجيش الذى تولى هذا الفتح ثناءه وتحياته ، لما أبلوه فى فتح دارفور ، فلما تلقى الحكمدار هذه الرسالة جمع الجيش فى الفاشر ، وتلا عليهم تبليغ الخديو فى احتفال عسكرى مهيب ، وأطلقت المدافع ابتهاجا واجلالا [١]

وبفتح دارفور زاد عدد سكان الدولة المصرية نحو ثلاثة ملايين نسمة

وأقام اسماعيل باشا أيوب حصناً منيعاً فى الفاشر ، وبنى دارا للحكومة ، ومنزلا للحاكم ، وثكنة للجنود ، ووطد دعائم الأمن والطمأنينة ، وأقام فى المدينة سوقا عامرة للتجارة

على أن الزبير باشا شكا من فداحة الضرائب التى فرضها اسماعيل باشا أيوب على الأهلين ، فاستاء الحكمدار من هذه الشكوى ، ورفع الامر الى الخديو ، فأرسل يأمر الزبير باشا بعدم التعرض للحكمدار فى إدارة البلاد ، فطلب الزبير من الخديو أن يجىء إلى مصر ليعرض عليه حقيقة الحال ، ويفضى اليه بآرائه فى تنظيم الاقليم ، فأجابه الخديو إلى طلبه وأذن له بالحضور ، فسار الى مصر ، واستخلف ابنه سليمان فى قيادة جنده

ولما جاء مصر أكرم الخديو وفادته ، ولكنه لم يأذن له بالعودة الى السودان ، فأدرك أن المراد من ابقائه أن يكون رهينة لولائه للحكومة ، فأذعن للبقاء والاقامة فى مصر مشمولا بعطف الحكومة وإكرامها

ضم زيلع وبربره (سنة ١٨٧٥)

« زيلع » و « بربره » من بلاد السومال الشمالية الواقعة على خليج عدن ، ذكرهما ياقوت فى معجم البلدان ج ٢ ص ١٠٦ و ج ٤ ص ٤٢٥

وأهم مدنها ثغور « زيلع » و « بربره » و « بولهار » ، وتعد الأولى ميناء سلطنة هرر على خليج عدن ، وملتقى متاجر هذه البلاد من البن وسن الفيل والجلود وريش النعام

---

(١) عن الوقائع المصرية ، العدد ٥٨٥ الصادر فى ٣ ديسمبر سنة ١٨٧٤

والصمغ العربى والمر وغير ذلك ، ولهذه الثغور عامة أهمية بحرية ، لأن من يملكها يتسلط على الملاحة فى خليج عدن الى مدخل البحر الأحمر

ومن بلاد زيلع بلدة (جبرت) التى نشأ منها أجداد (الجبرتى) المؤرخ المصرى المشهور ، فقد ارتحل جده السابع (الشيخ عبد الرحمن) الى مصر فى أوائل القرن العاشر للهجرة ، واستوطنت أسرة الجبرتى مصر من ذلك العهد

كانت زيلع وبربره من أملاك تركيا ، تابعتين للواء (الحديدة) باليمن ، ففكر الخديو اسماعيل فى ضمهما الى أملاك مصر حينما اعتزم فتح سلطنة (هرر) لأن زيلع هى ميناء هرر كما قدمنا ، فسعى الى ذلك لدى الحكومة العثمانية ، ونجح فى مسعاه ، إذ صدر له فرمان من السلطان فى أول يوليه سنة ١٨٧٥ (٢٧ جمادى الأولى سنة ١٨٩٢) بالتنازل له عن (زيلع) وملحقاتها ، وذلك مقابل زيادة فى الجزية السنوية قدرها ١٥٫٠٠٠ جنيه عثمانى [1] (١٣٫٢٦٥ جنيه مصرى) ، ويدخل فى ملحقات زيلع ثغور « بربره » و (بولها) و (تاجوره)

وقد جعل الخديو من هذه البلاد محافظتين عرفتا بمحافظة « زيلع » ، ومحافظة « بربره » ، وأرسل الحاميات المصرية الى الثغرين المذكورين ، فجاءت زيلع كتيبة من الجند بقيادة محمد رءوف باشا الذى مر ذكره فى الكلام عن مديرية خط الاستواء ، وجُعل رءوف باشا محافظاً لزيلع ، والأميرال رضوان باشا محافظاً لبربره ، وكان هذا الأميرال يقود السفينة الحربية المصرية التى أقلت الحامية الى الميناء المذكور

وجُعل الأمير أبو بكر ابراهيم أمير زيلع السابق وكيلا لمحافظتها وملحقاتها ، وأنعم عليه بالرتبة الثالثة [2] ثم رقى الى منصب المحافظ [3]

وعين الحكام العسكريون والملكيون فى المحافظتين ، وعنوا بعمرانهما ، فأقاموا بهما عدة مبان للحكومة وللجمارك والشكنات العسكرية ، وأنشأوا مسجداً فى « بربره »

---

(١) الوقائع المصرية العدد ٦١٥ (١٥ يوليه سنة ١٨٧٥)

(٢) و (٣) الوقائع المصرية العدد ٦٢٨ — ٧ اكتوبر سنه ١٨٧٥ - والعدد ٦٣١ — ١٤ نوفمبر سنة ١٨٧٥

وصهريجاً لخزن المياه العذبة بها ، ومدوا أنابيب الماء فيها ، وأنشئت مكاتب للبريد فى كلا الثغرين ، قال غردون باشا فى رسائله « ص ٢٧ » إن المنشآت التى أقيمت فى بربره كلفت مصر سبعين ألف جنيه

وبضم زيلع وبربره امتدت سلطة مصر من سواحل البحر الأحمر الى سواحل خليج عدن الشمالية ، أى من سواكن الى مصوع ، فزولا ، فعيد ، فعصب ، فتاجوره ، فزيلع ، فبولهار ، فبربره ، ثم وصلت الى رأس جردفون (جردفوى) على المحيط الهندى

وقد بقيت محافظتا زيلع وبربره ملكا لمصر ، الى أن اغتصبهما الانجليز بعد شبوب الثورة المهدية ، إذ أكرهوا الحكومة المصرية على الجلاء عن السودان ، وشمل القرار هاتين المحافظتين ، فأخلتهما الحامية المصرية فى مايو سنة ١٨٨٥ ، واحتلها الانجليز من ذلك الحين ، وما زالوا يحتلونها الى اليوم ، ولكنه احتلال غير شرعى ، لأن مصر لم تتنازل عن حقوقها فى تلك البلاد ، ولم تقر الاحتلال الانجليزى بها

فتح هرر (سنة ١٨٧٥)

تقع سلطنة (هرر) شرقى الحبشة وغربى زيلع ، وهى إمارة إسلامية مستقلة ، يبلغ عدد سكانها نحو مليونى نسمة ، وأرضها زراعية ، تجود فيها زراعة البن والقمح والذرة والفول والعدس والموز والفاكهة والقصب ، ويزرع فيها أيضاً القطن وهو أقل مرتبة من القطن المصرى ، وتنسج منه أقمشة متينة ، وأهم حاصلاتها البن الذى لا يقل جودة عن البن اليمنى

وتتبادل هرر المتاجر مع الخارج ، فتصدر البن والصمغ وريش النعام والزعفران والمر والزبد والجلود على اختلاف أنواعها ، وتستورد الأقمشة والمنسوجات والنحاس والزجاج وما الى ذلك

وعاصمتها مدينة «هرر» الواقعة على بعد ٢٣٢ ميلا من زيلع وهى من المدن العامرة ، يسكنها ٣٥ ألف نسمة ، وهم على جانب من الحضارة ، ذكر عنهم اللواء محمد مختار باشا أن التعليم منتشر بينهم ، وفيهم الشعراء والأدباء ، وان جميع الصغار فيهم يتعلمون القراءة والكتابة والرياضيات والفقه على مذهب الإمام الشافعى ، وأن عادة تعدد الزوجات

معدومة بين أهلها ، والطلاق نادر فيهم ، قال : إنه قضى فى المدينة سنة كاملة (من أواخر سنة ١٨٧٥ الى ١٨٧٦) لم يشهد فيها إلا حادثة طلاق واحدة[١] ، وكان على هرر قبل الفتح المصرى أمير يدعى محمد عبد الشكور ، سار فى حكمه سيرة ظلم ، وإرهاق ، فنقم منه الأهلون اعتسافه وتمنوا أن يُدال منه

واعتزم اسماعيل فتح هذه السلطنة ، لما لموقعها من الأهمية ، ولأنها تعد من البلاد المكملة للسودان ، فأخذت الجنود المصرية المرابطة فى زيلع تستطلع أحوالها وتتعرف طرق الوصول اليها ، وبعد ان تم لها ذلك زحفت فرقة من الجيش المصرى بقيادة محمد رءوف باشا فى سبتمبر سنة ١٨٧٥ قاصدة الى « هرر » عاصمة الإمارة ، ورافق الحملة بعض ضباط أركان الحرب بقيادة البكباشى محمد مختار بك ، وهو الذى صار فيما بعد اللواء محمد مختار باشا صاحب الكتاب القيم « التوفيقات الالهامية فى مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الافرنجية والقبطية » ، وله المحاضرات النفيسة فى الجمعية الجغرافية

لم تلق الفرقة فى زحفها مقاومة تذكر ، اللهم إلا ما كان من بعض قبائل الجلا اذ اعترضوا زحفها ، واصطدموا بالحملة فى معركتين ، دامت احداهما سبع ساعات وانتهت بتسليم القبائل[٢] ، واستأنفت الحملة سيرها الى أن وصلت الى مدينة هرر ، وفتحتها فى ١١ اكتوبر سنة ١٨٧٥ ورفعت العلم المصرى على أبوابها وفوق قصر أميرها ، وبذلك ضمت تلك السلطنة الى أملاك مصر[٣]

---

(١) انظر مبحث اللواء محمد مختار باشا عن هرر — تلاه بالجمعية الجغرافية بجلسة ٢ فبراير سنة ١٨٧٧ ونشر بمجلة الجمعية مجموعة ١ عدد ٣ ص ٣٥١ و ٣٦٦

(٢) هرر فى ظل الحكم المصرى للاستاذ بوليتشكى Paulitschke مجلة الجمعية الجغرافية مجموعة نمرة ٢ عدد ١٠ - (مارس سنة ١٨٨٧) ص ٥٧٥ والمسيو بوليتشكى هذا هو عالم نمسوى جاء هذه البلاد فى بعثة علمية وشهد الحكم المصرى بها

(٣) الوقائع المصرية العدد ٦٣١ - ١٤ نوفمبر سنة ١٨٧٥



خريطة مدينة هرر سنة ١٨٧٦

مصغرة عن خريطة بالفرنسيه وضعها محمد مختار بك « باشا » وعبد الله بك فوزى « باشا » من ضباط أركان حرب الجيش المصرى فى حملة هرر ، وتجد بالخريطة المعالم الآتية :

١ سوق المدينة — ٢ ميدان ٣ و ٤ و ٥ و ٦ و ٧ — مساجد — ٨ و ٩ سور المدينة — ١٠ باب السلام (من أبواب المدينة) — ١١ باب الحاكم — ١٢ باب النصر — ١٣ باب الفتوح ١٤ باب الرحمة — ١٥ و ١٦ و ١٧ و ١٨ و ١٩ و ٢٠ حدائق — ٢١ مدافن — ٢٢ نهير هرر

ثم ظهرت بوادر الانتقاض بين بعض قبائل الجلا التى كانت لها الصولة والسطوة فى عهد الأمير محمد عبد الشكور ، فطلب رءوف باشا مددا من الجند على سبيل الاحتياط ، فجاءه المدد من السويس الى زيلع على ظهر الباخرة (المحروسة) ، ووصل الجند الى هرر فأذعنت القبائل ، واستتب الامن فى أنحاء البلاد ، وانتظمت الإدارة فيها

وجعل رءوف باشا حكمدارا (حاكما عاما) لهرر ، وعين أميرها السابق محمد عبد الشكور محافظا لمدينتها [1] واطمأن الأهلون الى الحكم المصرى

لكن رءوف باشا لم يلبث ان تنكر لأمير هرر وقتله ، بعد أن كان يثنى عليه فى تقاريره الى الحكومة ويمتدح ولاءه ، ولم يعرف السبب الذى دعاه الى قتله ، ولكن الآراء متفقة على أن قتله كان عملا لامبرر له ، ويقول غردون باشا فى رسائله [2] ان هذا العمل لم يكن له مسوغ ، وان ابن الأمير ذهب الى مصر ليشكو الحكمدار الى الخديو فغضب اسماعيل لهذا العمل ، لكنه لم يفعل شيئا

وقد رسم الضباط المصريون الذين شهدوا فتح هرر خريطة تلك البلاد ، ومن هؤلاء الضباط محمد مختار بك (باشا) وعبد الله فوزى بك (باشا) ، وخططوا المعالم والمواقع بين زيلع وهرر والجهات المجاورة

وفى عهد الحكم المصرى بنيت دار للحكومة ، وأقيم مسجد جديد ، وشيدت أربع ثكنات لإقامة الجند ، وعدة منازل للموظفين ، ولم يسخر أحد من الأهلين فى إقامة هذه المبانى ، بل تولى الجنود المصريون اقامتها

وبقى رءوف باشا يتولى الحكم الى أن أقاله غردون باشا حين عين حاكما عاما للسودان وأعاده الى مصر ، وعهد بالحكم الى رضوان باشا محافظ بربره ، ثم خلفه سنة ١٨٨٠ محمد نادى باشا ، فعنى بضبط الأمن وتحصين المدينة . وبقى يتولى الحكم الى أن شبت الثورة العرابية فى مصر ثم الثورة المهدية فى السودان ، فلم يضطرب حبل النظام بين الجند فى هرر . وفى سنة ١٨٨٢ عين على رضا باشا ، خلفا لنادى باشا ، وظل الحكم المصرى

---

(١) الوقائع المصرية العدد ٦٣١ — ١٤ نوفمبر سنة ١٨٧٥

(٢) رسائل غردون الى اخته ص ٢٧٤

مستقرا فى تلك البلاد ، الى أن اكرهت انجلترا حكومة مصر على إخلاء السودان وملحقاته ، فأرسلت تدعو القوات المصرية الى الجلاء عن هرر ، فصدعت بالأمر وانسحبت منها سنة ١٨٨٥ ، وكان عددها حين الجلاء ٣٤١١ جندى ، يصحبهم ١٦٠ من الموظفين ورجال البوليس والعمال ، و٥٠٠٠ من النساء والاطفال من عائلات الجند والموظفين ، فكان مجموع المصريين الذين انسحبوا من هرر ٨٥٧١ قصدوا الى زيلع ، وأقلعت بهم البواخر الى مصر

طوى العلم المصرى من تلك البلاد ، بعد أن ظل يخفق على ربوعها عشر سنوات سويا ، كان فى خلالها رمزا للنظام والحضارة ، فقد استتب فيها الامن ، وانتظمت الادارة ونشطت الزراعة والتجارة ، وعوّد المصريون الأهالى بعض الزراعات والفواكه المصرية كالعنب والخوخ واللوز والليمون ، وقصب السكر والبطاطس والخضر وما الى ذلك ، وازدادت عدد القوافل التى تنقل المتاجر من داخل البلاد الى السواحل ، فبينما كان عددها سبعين قافلة على عهد الامراء السابقين ، بلغت أربعمائة قافلة كل سنة فى عهد الحكم المصرى [١]

ولما جلا المصريون عن هرر تسلم سلطة الحكم فيها أمير من سلالة الامراء الذين كانوا يحكمونها قبل الفتح المصرى ، ثم أغار عليها ملك الحبشة وأخذها عنوة وضمها الى أملاكه ، وما زالت تابعة لها الى اليوم (١٩٣٢)

حملة السومال (سنة ١٨٧٥)

اعتزم الخديو اسماعيل فتح بقية بلاد السومال [٢] ، فجرد لهذا الغرض سنة ١٨٧٥ حملة ، مقصدها فتح بقية شواطىء السومال ، والوصول الى مصب نهر جوبا (الجب) [٣]

---

(١) بوليتشكى . المرجع السابق

(٢) تطلق بلاد السومال على الجهات الواقعة فى المثلث الذى تنتهى اليه افريقيه بين خليج عدن والمحيط الهندي

(٣) نهر ينبع جنوبى الحبشة ويصب فى الاقيانوس الهندى شمالى زنجبار

ثم فتح الطريق من هناك الى منطقة البحيرات ، لكى تتصل مصر بأملاكها فى هذه المنطقة ، من طريق البحر الأحمر والمحيط الهندى ، فضلا عن الطريق الطويل الذى يتبع مجرى النيل

ففى الوقت الذى أنفذ فيه حملة هرر ، جهز حملة السومال بقيادة الأميرال ماكيلوب باشا مدير الموانىء والمنارات المصرية ، وتولى قيادة جنود البر فى هذه الحملة الأميرالاى شايى لونج بك ، ذلك الضابط الشهم الذى تكلمنا عنه آنفاً ، وكان غردون باشا إذ ذاك حاكما لخط الاستواء ، فعهد اليه اسماعيل الاتصال بالحملة

أقلعت العمارة المصرية من السويس ، تقل الجنود المصرية ، فى فبراير سنة ١٨٧٥ ، واجتازت البحر الأحمر ، ثم بوغاز باب المندب ، فخليج عدن ، ورست فى ميناء بربره ، ريثما تستريح وتأخذ أهبتها ، وتستكمل معدلتها ، ثم أقلعت ثانية ، واتجهت الى المحيط الهندى ، فوصلت الى رأس (حفون) جنوبى رأس جردفون (جردفوى) ، وركز قائد الحملة العلم المصرى هناك ، ودعا رؤساء القبائل الى الدخول فى طاعة الحكومة المصرية ، فلبوا الطلب طائعين ، ثم أقلعت العمارة تخوض عُباب المحيط الهندى ، حتى وصلت الى بلدة (براوه) الواقعة شرقى نهر الجوبا (الجب) ، فأذعنت القبائل هناك للحكم المصرى ، وترك بها ماكيلوب باشا حامية من الجند ، وعين عليها محافظاً ، ثم اتجه الى بلدة « قسمايو » (١) ، الواقعة على مصب الجب ففتحها ، وسارت القوارب تحمل الجنود فى نهر الجوبا نحو ١٥٠ ميلا ، ولكن الملاحة تعذرت فيه ، فرجعوا الى بلدة قسمايو « بور اسماعيل » ، وتأهبت الحملة البرية للسير غرباً ، قاصدة بحيرة فيكتوريا ، وفقاً للخطة المرسومة لها من قبل ، ولكنها أبطأت فى الزحف من قسمايو ، ويقول شايى لونج بك إن من أسباب إخفاقها إغضاء غردون عن الاتصال بها رغم الأمر الصادر له من الخديو اسماعيل

وينسب لونج بك هذا الإغضاء الى احتمال وصول تعليمات من الحكومة الانجليزية

---

(١) جنوبى خط الاستواء ، وقد سميت فى الخريطة التى وضعها ضباط أركان حرب الجيش المصرى « بور اسماعيل »

الى غردون توجب عليه عدم التعاون مع هذه الحملة [١] ، وهذا يدلك على عدم إخلاص غردون لمصر ، وعدم ولائه للحكومة المصرية ، وقد اعترف غردون فى رسائله انه بالرغم من تكليف الخديو ماكيلوب باشا وشاني لونج بك انتظاره على نهر الجوبا « فان انتظاره سيكون على غير جدوى » [٢] ، فكأنه كان مُصِراً على إهمال العمل بأوامر الخديو

وكانت هذه الحملة قد أزعجت الانجليز ، نخابرت اسماعيل فى الكف عنها ، وأرسل وزير خارجية انجلترا الى الخديو مذكرة بهذا المعنى ، نخشى عواقب المشاكل بينه وبين الحكومة الانجليزية ، وكان فى الوقت نفسه يجهز الحملة على الحبشة ، فاستدعى ماكيلوب باشا ، وانسحبت الحملة من الجوبا فى يناير سنة ١٨٧٦ ، وعادت الى مصر [٣]

وهكذا أخفقت تلك الحملة ، ولم تصل الى تحقيق غايتها ، وهى بسط نفوذ مصر على شواطىء المحيط الهندى ، ومنها الى منابع النيل ، وذهبت الجهود التى بذلت فيها سدى ، ويرجع إخفاقها كما ترى الى تدخل السياسة الانجليزية ، ومعارضتها الخديو فى الاستمرار فيها ، وكان اسماعيل قد استغرق فى الديون ، وشعر بحاجته الى إرضاء الانجليز ومجاملتهم فاضطر تحت تأثير هذه الحاجة الى الإذعان للتدخل الانجليزى ، والعدول عن الحملة

اعتراف انجلترا بسلطة مصر فى السومال

على أن الحكومة الانجليزية اعترفت بامتلاك مصر بلاد السومال الشمالية الواقعة على خليج عدن ، ذلك انها عقدت وإياها معاهدة فى ٧ سبتمبر سنة ١٨٧٧ [٤] ، اعترفت فيها لمصر بامتلاكها سواحل بلاد السومال لغاية رأس جردفون « جردفوى » ثم رأس « حَفّون » الواقع جنوبيه على المحيط الهندى

وقد وقع على المعاهدة كل من شريف باشا وزير خارجية مصر بالنيابة عن الحكومة

---

(١) كتاب « مصر ومديرياتها المفقودة » للكولونل شاني لونج بك ص ١٢٤

(٢) رسائل غردون الى أخته ص ١٦٤

(٣) مصر ومديرياتها المفقودة للكولونل لونج بك ص ١٥١

(٤) منشورة فى قاموس الادارة والقضاء لفيليب جلاد (النسخة الفرنسية) ج٢ ص ٤٩٠

المصرية ، والمستر « فيفيان » قنصل انجلترا العام بالنيابة عن الحكومة الانجليزية

أقرت الحكومة الانجليزية فى هذه المعاهدة سلطة الحكومة المصرية فى سواحل السومال

وقبلت مصر أن تبقى « بربره » و « بولهار » ثغرين حرين ، وأن لاتعطى فيهما أى امتياز أو احتكار لأحد ما ، ولا تأذن بإجراء أى عمل يعطل حركة التجارة فيهما ، وأن لا تأخذ رسوما عن الواردات أكثر من خمسة فى المائة ، ولا تزيد الرسوم الجمركية عن واحد فى المائة فى موانىء « تاجوره » و « زيلع » وسائر سواحل بلاد السومال التابعة لها ، وأن تعامل مصر رعايا انجلترا وسفنها فى تلك الجهات معاملة دولة ممتازة ، وتعهد الخديو بأن لايعطى أى قطعة من هذه البلاد الى أية دولة أجنبية (بند ٢)

ورخصت مصر للحكومة الانجليزية تعيين مأمورى قنصليات فى جميع الثغور والبلاد الكائنة على سواحل البلاد المذكورة ، على أنه لا يجوز لها تعيين مأمورى قنصليات من أهالى البلاد أو من أهالى البلاد المجاورة لها

ففى هذه المعاهدة إقرار من انجلترا بسلطة مصر فى بلاد السومال الشمالية ، ومن تهكم القدر أن الدولة التى أقرت بذلك سنة ١٨٧٧ وأخذت على مصر عهداً بأن لاتتنازل لدولة أجنبية عن جزء من تلك البلاد ، هى ذاتها التى اغتصبتها بعد أن أكرهت مصر على إخلاء السودان ، فوضعت يدها على زيلع وبربره وملحقاتهما واخذتها من أسلاب مصر ، كما أخذت فرنسا تاجوره وملحقاتها ، وايطاليا رأس جردفون « جرفوى »

النزاع بين مصر والحبشة

للنزاع بين مصر والحبشة فى عهد اسماعيل صفحة طويلة ، خلاصتها أن العلائق بين البلدين لم تكن ودية طيلة مدة حكمه ، بل كان يشوبها الجفاء والخصام ، ثم الحرب والصدام

ويرجع الخلاف الى أن اسماعيل بعد أن ظفر بضم محافظتى سواكن ومصوع نهائياً الى مصر ، اعتزم أن يصل بين مصوع وكسله بخط حديدى ، يمر بسنهيت [1] ، ويسهل

---

(١) شمالى مصوع ، وتسمى أيضا « كرن » Keren ووردت بهذا الاسم فى معظم مصورات الجغرافية ، وهى عاصمة اقليم « البوغوس »

سبيل المواصلات بين السودان والبحر الاحمر ، ويبسط رواق العمران فى شرق السودان ، وكان يعد البلاد الواقعة بين البلدين وخاصة مدينة « سنهيت » أرضا مصرية منذ الفتح الاول « فى عهد محمد على »

ولكن النجاشى « تيودورس » ملك الحبشة عارض الخديو فى ذلك ، وادعى أن سنهيت أرض حبشية ، فوقع الجفاء بينهما

الحرب بين الانجليز والحبشة (سنة ١٨٦٧ — ١٨٦٨)

وظهر أثر هذا الجفاء فى موقف الخديو تجاه الحبشة حين قام الخلاف بينها وبين الانجليز سنة ١٨٦٧ ، فقد اعتقل الملك « تيودورس » بعض التجار الانجليز ومنهم المستر كامرون قنصل انجلترا ، فغضبت الحكومة الانجليزية من هذا العمل العدائى ، وطالبت باطلاق سراح المعتقلين ، فرفض النجاشى إجابة طلبها ، واشتد الخلاف بين الدولتين ، فانحاز الخديو الى جانب الانجليز وأرسل الى النجاشى كتابا [1] ، من انشاء عبد الله باشا فكرى ، يطلب اليه فيه أن يحسم الخلاف باطلاق سراح المعتقلين وارسالهم الى مصوع ، وحذره عواقب إصراره على اعتقالهم ، وتهدده بنشوب الحرب بينه وبين الانجليز ، وبأنه فى هذه الحالة لا يمانع الانجليز فى اجتياز الاراضى المصرية لمهاجمته

فأصر النجاشى على الرفض ، فجردت انجلترا على الحبشة سنة ١٨٦٧ حملة عسكرية بقيادة اللورد نابييه Napier ، وانتهز الخديو هذه الحرب فأمد الانجليز فيها بالمعونة والتأييد ، وأمر عبد القادر باشا الطوبجى محافظ مصوع وقتئذ بمعاونة الجيش الانجليزى فى نزوله الى البر ، ووضع الأسطول المصرى تحت تصرف الانجليز لينقل مهماتهم ومؤونتهم من السويس الى مصوع

وانتهت هذه الحرب بفوز الانجليز واحتلالهم مدينة « مجدلا » شمالى أديس أبابا ، وقتل النجاشى تيودورس سنة ١٨٦٨ ، ثم عاد الانجليز الى بلادهم

وآل عرش الحبشة إلى الملك « يوحنا » الذى كان يعاون الانجليز ضد الملك تيودورس

---

(١) بتاريخ جمادى الآخر سنة ١٢٨٤ (سبتمبر سنة ١٨٦٧)

والملك يوحنا هو من أعظم ملوك الحبشة شأناً ، وأشدهم بأساً ، وفى عهده وقعت الحرب بين مصر والحبشة كما سيجىء بيانه

فلما خلف يوحنا الملك تيودورس على عرش الحبشة اغتنم الخديو فرصة انصرافه إلى محاربة قبائل « الجلا » لتحقيق غرضه الأول وتوسيع أملاك مصر من ناحية الحبشة

منزنجر باشا Munzinger pacha

وقد استحثه على تحقيق هذا الغرض المسيو منزنجر قنصل فرنسا فى مصوع

ومنزنجر هذا له شأن كبير فى تاريخ العلاقات بين مصر والحبشة فى عهد اسماعيل ، وهو رجل سويسرى الجنس ، جاء مصر ، ثم جاب أنحاء السودان والحبشة ، وأقام فى مصوع منذ سنة ١٨٦٠ ، وتزوج بسيدة حبشية من أهالى البوغوس ، ثم شغل منصب قنصل فرنسا فى ذلك الثغر ، وعاون الانجليز فى حربهم مع الحبشة بما له من الدراية بأحوال البلاد ولغتها ومسالكها [١]

وفى سنة ١٨٧٠ عينه الخديو محافظا لمصوع ، ثم أسند اليه فيما بعد منصبا أعلى ، إذ جعله محافظا لسواحل البحر الأحمر ومديراً لشرقى السودان ، وأنعم عليه برتبة البكوية ، ثم الباشوية ، فصار يعرف بمنزنجر باشا ، وعين أراكيل بك نوبار من أقرباء نوبار باشا محافظا لمصوع تحت إمرته (وهو غير أراكيل بك الذى تكلمنا عنه ص ٤٠)

ومنزنجر باشا هو الذى زيّن للخديو اسماعيل فكرة فتح الحبشة ، وألقى فى روعه أنه لطول مكثه فى هذه الجهات قد سبر غورها ، وعرف أسرارها ، وأقنعه أن فتح الحبشة لا يكلف مصر عناء كبيرا ، لما كانت عليه من الضعف والفوضى والانقسام

فأعجب اسماعيل بالفكرة ، وشرع فى تحقيقها ، وعهد إلى منزنجر ذاته فتح أقليم (البوغوس) وعاصمته سنهيت

---

(١) عن ترجمة منزنجر باشا ، بقلم المسيو دوربك فى مجلة الجمعية الجغرافية ، العدد الاول من السنة الاولى « نوفمبر سنة ١٨٧٥ — فبراير سنة ١٨٧٦ » ص ١٢١

فتح سنهيت وضم إقليم البوغوس

فسار منزنجر باشا من مصوع فى قوة من الف وخمسمائة مقاتل ، وقصد إلى سنهيت وفتحها باسم مصر

ووسع نطاق مصر من هذه الناحية ، فتم على يده فتح بلاد البوغوس ، وضمها إلى مصر ، واشترى مقاطعة (إيلت) الواقعة بين مصوع والحماسين من حاكمها الذى كان على خلاف مع النجاشى ، وشملت سلطة منزنجر سواكن ومصوع وبلاد البوغوس ، والتاكا ، والقضارف ، والقلابات ، وأميديب ، وبركه ، أى السودان الشرقى فى أقصى حدوده

وقد نقم الملك يوحنا من مصر هذا التوسع ، وازدادت العلاقات بين البلدين توتراً ، وكادت الحرب تنشب بينهما ، لولا اشتغال الخديو بفتح هرر والحملة على السومال

حرب الحبشة

سنة ١٨٧٥ - ١٨٧٦

هى الحرب العقيم التى خاضتها مصر فى عهد اسماعيل ، والعقبة الكأداء التى اصطدمت بها فتوح مصر فى حوض النيل وملحقاته ، ومن أى ناحية نظرنا اليها نجد أن مصر لم تكن فى حاجة إليها , ولا مصلحة لها فى خوضها ، وإنما ساق اليها النزق ، وسوء التدبير ، فانتهت بالهزيمة والخسران

رأيتَ مما تقدم بيانه ، أن مصر قد ضمت الجهات الواقعة بين الحبشة والبحر الاحمر وفتحت (سنهيت) وبلاد (البوغوس) الواقعة شماليها ، و (هرر) المجاورة لها من الجنوب الشرقى ، فأحاطتها من الشمال والشرق والجنوب ، فضلا عن مجاورتها لها من الغرب منذ عهد محمد على

فهذه المواقع كان يكفى مصر أن تثبت سلطانها وتدعم نفوذها فيها ، وبذلك تبقى الحبشة مسالمة لها ، إذ تحتاج اليها للوصول إلى البحر الأحمر ، ولكن اسماعيل حدثته نفسه بفتح الحبشة ، واكتساحها من طريقه ، دون أن يقدر صعوبة هذه المهمة وعواقبها

الوخيمة . فالحبشة كما يعرفها الذين خبروها وسبروا غورها ، بلاد جبلية لا يسهل على دولة أجنبية أن تحتلها أو تجتاز جبالها الوعرة ومفاوزها الجرداء ، فضلا عن أن حربها لا تفيد مصر بحال من الأحوال ، بل تخلق لها من المشاكل وتكبدها من الخسائر والضحايا ماهي فى غنى عنه

لم يجاهر اسماعيل بنيته فى فتح الحبشة ، ولكن سياسته إزاءها كانت تنم عن هذه الغاية ، فقد تحرش بها ، وعمل على إثارة الحرب معها ، على غير جدوى ، ووقع القتال على غير استعداد من مصر ، فحلت الهزيمة بالجيش المصرى ، وأصابته الخسائر الفادحة ، وكبدت الحرب الخزانة المصرية الأموال الطائلة ، فى وقت ارتبكت فيه أحوالها ، واشتد بها الضيق ، فكانت حرب الحبشة عقيما من كل ناحية

اعتزم اسماعيل تجريد حملتين فى وقت واحد على بلاد الحبشة ، الأولى تهاجمها شمالا من طريق مصوع ، والأخرى جنوبا من طريق ميناء «تاجوره» الواقعة على خليج عدن ، وعهد بقيادة الأولى إلى الكولونل أرندروب بك Arendrupp [١] ، والثانية إلى منزنجر باشا

حملة أرندروب بك سنة ١٨٧٥

زحفت الحملة الأولى من مصوع ، وكانت مؤلفة من ٣٢٠٠ مقاتل [٢] مزودين ببطاريتين من المدافع ، واقتحمت حدود الحبشة ، واستولت على «الحماسين» الواقعة جنوبى سنهيت ، دون أن تلقى مقاومة تذكر ، وتقدمت قاصدة «جونديت» ، ولما علم الملك يوحنا بزحفها حشد جموعه ، وأعد جيشا من ثلاثين الف مقاتل ، سار به قاصداً مصادمة الجيش المصرى ، وأرسل أرندروب بك رسالة إلى الملك يوحنا يطلب اليه فيها

---

(١) هو من ضباط أركان الحرب ، أصله دانمركى ، ثم جاء مصر وتعرف إلى الجنرال استون باشا رئيس أركان الحرب ، فرغب اليه الخدمة فى الجيش المصرى فقبل ، ثم تولى قيادة الحملة كما ترى فى سياق الكلام

(٢) احصاء المسيو سوتزارا Suzzara قنصل النمسا العام فى مصر على عهد اسماعيل فى تقريره المسهب عن حرب الحبشة ، وقد نشر هذا التقرير فى مجلة مصر Revue d'Egypte للمسيو جليياردو بض عدد مارس وابريل ومايو سنة ١٨٩٦ ص ٦٢٦ و ٦٧٣ و ٧٣٧

جعل نهر الجاش حدا فاصلا بين الحبشة ومصر ، فلم يعبأ بالرسالة ، وسجن الرسولين اللذين أوفدهما اليه أرندروب بك ، فتقدم الجيش المصرى ليسبق الأحباش الى الهجوم

هزيمة جونديت (نوفمبر سنة ١٨٧٥)

فاشتبك الجيشان فى جونديت يوم ١١ نوفمبر سنة ١٨٧٥ ، وكان جيش الحبشة أكثر عدداً وأشد حماسة من الجيش المصرى ، فحمى وطيس القتال ، وانتهت المعركة بهزيمة الجيش المصرى ، وقتل معظم رجاله ، ولم ينج منهم إلا النزر اليسير ، وكان من بين القتلى أرندروب بك وإراكيل بك نوبار محافظ مصوع ، وارتدت فلول الحملة منهزمة الى مصوع

حملة منزنجر باشا

أما الحملة الأخرى فقد تولاها منزنجر باشا ، فأبحر من مصوع على رأس ثلاثة بلوكات من الجنود المصرية والسودانية ، ونزل فى « تاجوره » ليستكمل منها معدات الحملة من الإبل ، وترك معظم الجند فى تاجوره حتى يتم إعداد الحملة ، وأقلع هو فى قوة صغيرة من الجند يصحبه الرأس « بورو » الذى كان على خلاف مع الملك يوحنا ، ونزل فى رأس « جيلا جيفو » الذى يبعد عن تاجورة غرباً بخمسة عشر ميلا ، وقصد الى بحيرة « أوسا » Aoussa الواقعة فى الجنوب الشرقى من الحبشة ، ووصل اليها يوم ١٤ نوفمبر سنة ١٨٧٥ ، بعد مسيرة سبعة أيام

مقتل منزنجر باشا — نوفمبر سنة ١٨٧٥

قابل منزنجر باشا فى طريقه الى بحيرة «أوسا» ابن الشيخ محمد الحدة أمير ذلك الإقليم ، فتظاهر له بالولاء للحكومة المصرية ، ولكنه كان يضمر له السوء ، فاطمأن اليه منزنجر ، واتخذه مرشداً ونصيراً ، وسارت الحملة الى أن عسكرت بالقرب من شاطىء البحيرة ، ففيما كان الجنود نياما (ليلة ١٥ نوفمبر سنة ١٨٧٥) هجم عليهم رجال القبائل غيلة بقيادة الشيخ محمد الحدة ، وأعملوا فيهم السيف ، وفتكوا بهم فتكا ذريعا ، وشبت الواقعة فى جنح الظلام دون أن يأخذ المصريون عدتهم لها ، فأوقع بهم الأحباش ، وقتلوا منزنجر

وزوجته ومعظم رجاله . وارتدت فلول الحملة فى أسوأ حال الى « زيلع » بقيادة البكباشى محمد افندى عزت ، وكان عدد الباقين منهم ١٥٠ مقاتل

الحملة الكبيرة بقيادة راتب باشا

(سنة ١٨٧٦)

وصلت أنباء هذه الهزائم إلى مصر ، فقوبلت بالجزع والدهشة ، وتزلزلت لها هيبة الجيش المصرى ، وغضب اسماعيل لهذه الهزائم ، وخشى عواقبها المعنوية والسياسية ، فأراد أن يزيل تأثيرها بتجريد جيش جرار على الحبشة يغسل الإهانة التى لحقت مصر ، وفى الحق أن الموقف كان عصيباً ، لأن هزيمة مصر أمام الحبشة تسقط هيبتها فى وقت كانت تكتنفها المطامع الأوروبية ، لكن الخديو لم يأخذ فى أمره منذ البداية بالأناة وحسن الاستعداد وتقدير الموقف من كل وجوهه ، فلما جاءته أخبار الهزائم الأولى ، تعجل بإعداد حملة مبتسرة ، مؤلفة من نحو خمسة عشر ألف مقاتل ، دلت مقدماتها على أنها سائرة حتما إلى الهزيمة والخسران ، وأهم عيب فى تأليفها افتقارها إلى كفاءة القيادة وحسن النظام

فقد عقد الخديو لواءها للسردار راتب ، وهو ضابط خلو من الكفاءة وحسن التدبير

وجعل على رآسة أركان الحرب الجنرال لورنج باشا Lorinog من القواد الأمريكيين فى الجيش المصرى ، ولم يكن التفاهم سائداً بين القائد العام وهيئة أركان الحرب ، ففقد الجيش أهم عوامل النجاح ، وهى وحدة القيادة وكفايتها

وصحب الحملة الأمير حسن باشا أحد أنجال الخديو ، وكان قد عاد من ألمانيا بعد أن درس بها قليلا من الفنون الحربية ، ولم يكن له من الكفاءة والخبرة مايجعل منه قائداً يعتمد عليه فى مثل هذه الحرب

وقد تطوع فى القسم الطبي للحملة بعض كبار أطباء مصر فى ذلك العصر ، كالدكتور محمد على باشا البقلى ، الذى لقى مصرعه فيها [١] ، والدكتور محمد بك بدر

---

(١) راجع ترجمته فى « عصر محمد على » ص ٥١٢ (من الطبعة الأولى)

أبحرت الحملة من السويس تقلها بواخر الشركة الخديوية والسفن الحربية المصرية ، ونزلت فى ميناء (مصوع) ، وأخذ الجيش يزحف على الحبشة

هزيمة « قورع » (٧ مارس سنة ١٨٧٦)

أوغل المصريون فى مفاوز الحبشة ، دون أن يستطلعوا أحوالها ويتعرفوا قوات الأعداء ومواقعهم ، فوصل الجيش فى زحفه إلى بلدة « قورع »[1] التى تبعد عن مصوع نحو ٥٥ ميلا ، فعسكر فيها ، وأخذ يقيم فيها الاستحكامات ، فبنى حصناً بها ثم حصنين فى أول السهل الواصل اليها من (قياخور)

وقد أعد الملك يوحنا جيشاً كبيراً بلغ نحو أربعين الف مقاتل ، وسار لمهاجمة المصريين فى « قياخور » ، وكانت تحتلها قوة من الجيش المصرى ، وتحميها استحكامات منيعة لم يقو الأحباش على مهاجمتها

فقصدوا مهاجمة مركز الجيش المصرى فى (قورع) ، ونشبت بها يوم ٧ مارس سنة ١٨٧٦ معركة كبيرة ، انتهت بهزيمة الجيش المصرى ، وتشتت شمله ، وقتل معظم رجاله ، ولم يتمكن القائد العام والأمير حسن باشا وأركان حربهما من النجاة إلا بعد أن عاينوا الموت ، وكاد الأحباش يفتكون بهم ، وأسروا من المصريين نحو ٢٥٠ أسير

وقد خسر الأحباش فى هذه الواقعة خسائر فادحة لا تقل فى عددها عن خسائر المصريين ، ولكنهم فازوا بالنصر المبين

عقد الصلح

وكان ضمن الأسرى المصريين محمد بك رفعت رئيس القلم التركى بديوان الجهادية ، وقد رافق الحملة صحبة السردار ، فأخذ يسعى فى عقد الصلح مع الملك يوحنا ، على أن تنسحب الجنود المصرية من أرض الحبشة ، ويرد الملك الأسرى الى مصر ، ويفتح طريق التجارة بين مصوع والحبشة

---

(١) جاء اسمها هكذا فى الوقائع المصرية عدد ٦٤٩ وان كان معظم المؤلفين يكتبها «قرع» ، وهذا الوضع «قورع» يوافق النطق الفرنسى Goura

فأسفرت مساعى رفعت بك عن عقد الصلح وبقيت سنهيت فى أملاك مصر [١] ، وعاد هو وباقى الأسرى إلى مصوع ، وأبحرت فلول الحملة إلى السويس ، وبلغت خسائر مصر من الرجال فى الحملات الثلاث التى جردتها على الحبشة ٨٫٥٠٠ قتيل

نتائج حرب الحبشة

تكبدت مصر فى هذه الحرب العقيم خسائر فادحة فى الرجال والمال ، وتصدعت هيبتها لما أصابها من الهزائم المتوالية ، وكلفت الخزانة المصرية نحو ثلاثة ملايين من الجنيهات [٢] ، فى وقت كانت تنوء فيه بالديون الجسيمة ، وتعانى أشد ضروب الارتباك المالى

وليس يخفى أن هذه الحرب وقعت فى الوقت الذى تحفزت فيه الدول الاستعمارية ، وخاصة انجلترا ، للتدخل فى شؤون مصر المالية والسياسية ، فانهزام الجيش المصرى ، فى تلك الحرب ، قد ضاعف آمال انجلترا فى التطلع الى احتلال مصر ، ذلك أنها كانت تحسب حساباً كبيراً لقوة الجيش المصرى ، منذ تبينت مكانته وبسالته فى المعارك التى خاض غمارها تحت لواء ابراهيم باشا ، ولكن هزيمته فى الحرب الحبشية كشفت عن ضعفه ، وعن الفوضى الضاربة أطنابها فى نظامه ، ففقد المهابة التى كانت له من قبل

فالحرب الحبشية كانت تجربة مؤلمة ، أظهرت ضعف قوة مصر الحربية ، ولم يكن من سبيل إلى تجديد هذه القوة فى وقت أشرفت فيه الحكومة على العجز والعسر المالى ، فى أواخر عهد اسماعيل ، وليس ثمة شك فى أن هذه النتيجة كان من شأنها أن تغرى انجلترا بتحقيق أطماعها فى مصر ، فلا جرم أن تضاعفت مساعيها فى وضع يدها على البلاد ، وما زالت تدأب على تلك الخطة مدى خمس سنوات حتى وقعت الحوادث العرابية التى انتهت بالاحتلال الانجليزى

---

(١) أخذتها ايطاليا بعد اخلاء مصر للسودان وجعلتها جزءا من مستعمرة أريتريا

(٢) إحصاء المسيو سوتزارا قنصل النمسا فى مصر على عهد اسماعيل فى تقريره المسهب المؤرخ يوليه سنة ١٨٧٧ السابق ذكره

حكمدارو السودان فى عهد اسماعيل

انتهينا من بيان الحوادث الهامة فى السودان على عهد الخديو اسماعيل ، والآن نذكر نبذة عامة عن حكمدارى السودان على النحو الذى اتبعناه فى كلامنا عن عهد محمد على باشا (عصر محمد على ص ١٧٧ من الطبعة الأولى)

موسى باشا حمدى

كان على السودان حين تولى إسماعيل الحكم (موسى باشا حمدى) ذو الأعمال الجمة والمآثر الحسنة ، وقد سر الخديو من أعماله ، وأنعم عليه برتبة الفريق ، فذهب إلى مصر فى يوليه سنة ١٨٦٣ ليؤدى واجب الشكر ، وأطلع الخديو على أحوال البلاد التى يحكمها ، فلقى من اسماعيل باشا عطفاً كبيراً ، ثم عاد إلى مقر عمله بالخرطوم

وعنى بزيادة عدد الجند فوصل عددهم فى عهده إلى ثلاثين ألفا من الجنود النظاميين والباشبوزق ، وسار فى حكمه بهمة ودراية ، وبقى حكمداراً للسودان إلى أن توفى سنة ١٨٦٥ بالخرطوم ، ودفن بها

جعفر صادق باشا ١٨٦٥ — ١٨٦٦

ثم خلفه جعفر صادق باشا ، وفى عهده فتح الجنود المصريون فاشوده سنة ١٨٦٥ كما تقدم البيان

إخماد ثورة كسلا

وفى عهده أيضاً أخمدت ثورة شبت بين الجنود السودانيين المرابطين فى (كسلا) وعدتهم نحو أربعة آلاف جندى

ظهرت هذه الثورة فى أواخر عهد موسى باشا حمدى ، وترجع أسبابها إلى سوء إدارة الحكام ، وتأخير دفع رواتب الجند ثمانية عشر شهراً ، فثاروا وعصوا الأوامر وتمردوا على رؤسائهم ، وقتلوا بعض الضباط ، ونهبوا أموال الأهلين ، وخربوا بعض القرى ، فأخذتهم الحكومة بالحيلة تارة ، وبالعنف والقسوة تارة أخرى ، ولما بلغ الخديو

اسماعيل نبأ هذه الثورة اهتم بأمرها اهتماماً كبيراً ، وبعث بجعفر صادق باشا حكمداراً على السودان ، وأرسل أوامره إلى السلطات المحلية بإمداد قوات الحكومة فى كسلا لإخماد الفتنة

وقد كان الفضل فى إخمادها لضابط سودانى كبير يسمى (آدم بك) ، وهو من خيرة ضباط الجيش المصرى ، تلقى التعليم الحربى فى مصر على عهد محمد على باشا ، ورافق ابراهيم باشا فى حروبه بسوريا ، واشتهر بالبسالة والإقدام ، إلى المهارة والكفاءة ، وقد أرسل اليه الخديو خطاباً يدل على تقديره لشجاعته استحثه فيه على العمل لإخماد الفتنة وختمه بقوله :

« وإنى أعلم بسالتك وحسن سياستك ، منذ كنت مع المرحوم والدنا فى سوريا ، فحقق آمالنا بك ، وعند انتهاء الثورة احضر الى مصر والسلام » سبتمبر سنة ١٨٦٥ (١)

أدى آدم بك مهمته خير أداء ، وأخذ الثائرين بالحسنى ، ووعدهم بأن يحصل لهم على عفو من الخديو ، فأخلدوا إلى الطاعة ، ثم جاء حسن باشا القائد العام للجند ، وعقد مجلساً عسكريا للنظر فى أمر العصاة ، فقرر تجريدهم من السلاح ، واعتقالهم جميعاً حتى يرد أمر الخديو فى شأنهم ، فثارت ثائرتهم من جديد ، بسبب غطرسة بعض ضباط الباشبوزق فأطلق الجند الرصاص على الثائرين فقتل كثير منهم ، واعتقل الباقون

جعفر مظهر باشا ١٨٦٦ — ١٨٧١

ثم حضر جعفر مظهر باشا وكيل الحكمدار ، فحقق أسباب الثورة ، وأوقع العقاب بمن اشتركوا فيها ، وانتهى على يده إخمادها

وأنعم الخديو على آدم بك برتبة اللواء مكافأة له على مابذله من الهمة فى إخماد الثورة

وفى غضون ذلك مرض جعفر صادق باشا وعاد الى مصر ، فعين جعفر مظهر باشا حكمداراً للسودان ، فسار سيرة عدل وإصلاح ، وكان من خيرة حكام السودان،

---

(١) عن كتاب السودان لنعوم بك شقير ج ٢ ص ٤٢

ونظم الإدارة ، وأصلح دار صناعة الخرطوم ، وأنشأ بعض المدارس وفتح عدة محاكم للفصل فى منازعات الناس

وفى عهده عين آدم بك الضابط السودانى المتقدم ذكره قائداً عاما للجيش المصرى بالسودان ، وأنعم عليه بالباشوية ، فصار يعرف بآدم باشا ، وقد أظهر ولاء صادقا لمصر والحكم المصرى

وفى عهده أيضاً نشطت الحكومة المصرية فى مطاردة تجار الرقيق ، وزحف صمويل بيكر باشا بقوة من الجيش المصرى على إقليم خط الاستواء وضمه الى أملاك مصر كما أسلفنا ، وكان مظهر باشا يعاونه فى مهمته

واشتهر مظهر باشا بالعدل والنزاهة ، ولا غرو فهو أعظم ولاة السودان شأنا ، وأحسنهم سيرة ، وكان يقرب اليه علماء السودان ويكرمهم ، ذكر عنه ابراهيم باشا فوزى أنه فارق الخرطوم وعليه دين يربى على ألف جنيه ، وهذا من أقوى الدلائل على نزاهته ، وقال ان راتبه لم يكن يفى بحاجاته ، لكثرة ما كان ينفقه على الفقراء والمعوزين ، وما كان يقيمه من المآدب للعلماء وذوى الفضل ، قال ولا يزال السودانيون يذكرون له هذه الميزات ، وهم يجمعون على أن أيام ولايته كانت غرة فى جبين السودان (١)

وقد عين فى سبتمبر سنة ١٨٧١ عضواً بمجلس الأحكام بمصر (٢) ، فانفصل عن منصبه فى السودان ، وعين فى مكانه ممتاز باشا

ممتاز باشا ١٨٧١ — ١٨٧٣

هو من ضباط الفرسان فى الجيش المصرى ، وكان سيء السيرة ، مرتكبا للرشوة فشكاه الأهلون الى الخديو ، فأمر بالتحقيق معه ، وسجن بالخرطوم رهن التحقيق ، ومات بالسجن ، والأثر الوحيد الذى تركه انه علّم الأهلين زراعة القطن

---

(١) السودان بين يدى غردون وكتشنر ، ج ١ ص ٦٧

(٢) الوقائع المصرية العدد ٤٢٦ الصادر فى ٣٠ اكتوبر سنة ١٨٧١

اسماعيل باشا أيوب ١٨٧٣ — ١٨٧٧

فى عهده اتسعت فتوح مصر اتساعا عظيما ، ففتحت سلطنة دارفور على يد الزبير باشا رحمت ، وضمت زيلع وبربره ، وفتحت سلطنة هرر كما بيناه فى موضعه ، وله فضل كبير فى بسط رواق العمران فى السودان ، فقد أمّن السبل ، ووطد دعائم الأمن فى نواحيه ، ونشط الزراعة والتجارة والصناعة ، وعلى يده أنشئت محطات عسكرية بين الخرطوم ودارفور الى حدود واداى ، وبين بربر على النيل وسواكن على البحر الأحمر ، لتأمين سبل المواصلات ، مما كان له أثره فى تنشيط التجارة ، وعنى بتوسيع زراعة القطن وأنشأ معملين لحليج الأقطان ونسجها ، وفى عهده أنشئت عدة مكاتب للبريد فى أهم العواصم ، وقد بقى فى منصبه الى أن تدخلت السياسة الانجليزية ، وأوعزت الى الخديو اسماعيل بتعيين غردون باشا مكانه ، فنقل اسماعيل باشا أيوب عضواً بالمجلس الخصوصى العالى (مجلس الوزراء) ، وهذا التعيين وان كان دليل الرضا عنه ، لكنه أدى الى اقصائه عن السودان ، ثم ترقى فى المناصب ، الى أن صار وزيرا للداخلية عقب الاحتلال الانجليزى ، واليه ينسب امتناع الحكومه عن إرسال النجدة التى طلبها عبد القادر باشا حلمى حكمدار السودان لإخماد الفتنة المهدية ، ثم استدعاؤه من السودان سنة ١٨٨٣ ، مما كان سبباً فى استفحال الثورة ، وخدمة المطامع الانجليزية ، كما سنبينه فى موضعه ، وتوفى سنة ١٨٨٤

غردون باشا

١٨٧٧ ١٨٧٩

لم ينقطع الكولونل غردون عن السودان طويلا ، فبعد أن استعفى سنة ١٨٧٦ من منصبه الأول وعاد الى انجلترا ، سعت الحكومة الانجليزية لدى الخديو كى يعينه حكمداراً عاما للسودان ، وهكذا تدرجت السياسة الانجليزية فى تدخلها فى شؤون السودان ، فبعد أن كان غردون حاكما لخط الاستواء ، صار الحاكم العام للأقاليم السودانية جميعها ، وهذه أول مرة ولى فيها هذا المنصب الخطير حاكم أجنبى ، وهو ليس حاكما أجنبيا فحسب ، بل ينتمى الى دولة لها فى مصر مآرب استعمارية لاتخفى ، إذ كانت

تتطلع الى مصر ؛ وتعمل على إنشاء أمبراطورية افريقيـة انجليزية تبنيها على أنقـاض الامبراطورية المصرية

فتعيين غردون حاكما عاما على السودان هو فوز كبير للسياسة الانجليزية ، ودليل على مبلغ ماأدركته من النفوذ السياسى فى بلاط اسماعيل ، ولا يخفى أن هذا التعيين وقع سنة ١٨٧٧ ، أى بعد أن خطت انجلترا الخطوات الأولى للتدخل فى شؤون مصر ، إذ بدأ تدخلها الفعلى بشرائها أسهم مصر فى قناة السويس سنة ١٨٧٥ ، وأعقب ذلك تدخلها والدول فى شؤون مصر المالية بإنشاء صندوق الدين ، ثم فرض الرقابة الثنائية على مالية الحكومة سنة ١٨٧٦ ، فتعيين غردون هو من آثار ارتباك مصر المالى ، ومن نتائج سياسة اسماعيل المالية ، فقد كان يظن أنه يستطيع بمثل هذا التعيين كسب عطف انجلترا ، لتعاونه فى محنته ، لكنه لم ينل أى مقابل لهذه المنحة العظيمة ، وعلى العكس ، كانت انجلترا أشد عليه وطأة من الدول الأخرى ، وكذلك شأن السياسة الانجليزية فى مصر ، تأخذ كل ماتستطيع أخذه ، دون أن تعطى شيئاً

ويستفاد من رسائل غردون أن اسماعيل كان متردداً فى إسناد هذا المنصب الخطير اليه ، ولكن غردون رفض أن يذهب إلى السودان مالم يعين حاكما عليه ، وكان يظن أن الخديو لايقبل هذا الشرط ، [1] ولكن ضغط السياسة الانجليزية ، والتماس الخديو النجدة منها فى محنته المالية ، كل ذلك مال به إلى التساهل والتسليم ، وأصدر فى ١٧ فبراير سنة ١٨٧٧ فرمانا لغردون باشا بالولاية على جميع أصقاع السودان بما فيها دارفور ، وبحر الغزال ، وخط الاستواء ، وهرر ، وسواحل البحر الأحمر ، مع مصوع ، وسواكن ، وزيلع ، وبربره [2] ، وخوله فى حكمه سلطة مطلقة ، عسكرية ومدنية ، وكان سلطان مصر فى السودان قد بلغ وقتئذ أقصى مداه ، إذ امتد من سواحل البحر الأحمر وخليج عدن والإقيانوس الهندى شرقاً ، إلى حدود واداى غرباً ، والبحيرات الاستوائية جنوباً

لم يكن غردون على كفاءة للاضطلاع بأعباء المنصب الكبير الذى تولاه ، بل كان

---

(١) رسائل غردون إلى أخته ص ١٩٥

(٢) كما وردت فى « الوقائع المصرية » بالعددين ٦٩٨ و ٦٩٩ الصادرين فى ٢٥ فبراير و ٤ مارس سنة ١٨٧٧

سريع التأثر ، سهل الانقياد لمن يثق به ، كثير التضارب فى آرائه ، ولم يقترن اسمه إلا بمحاربة الاتجار بالرقيق ، واحتكار العاج ، لكنه أسرف فى عمله ، ولم يأخذ الأمور بالحكمة وبعد النظر

قال شاي لونج بك : «إن أمر غردون باحتكار الحكومة محصول العاج قد أثار تجار السودان على الحكومة , وهؤلاء التجار كانوا سادات السودان الحقيقيين . فكان هذا العمل المنطوى على الظلم النواة الأولى للثورة المهدية ، وكانت إدارته فوضى ، وبالجملة فقد تولى حكم السودان ، والأمن واليسار يسودانه ، ولما غادره سنة ١٨٧٩ ، كان ينوء تحت أعباء الديون ، والثورة تتمخض فى أحشائه»[٢]

وقد جعل غردون اعتماده على الموظفين الأجانب فى تلك الأصقاع النائية ، فعين مسداليا بك Messedaglia مديراً للفاشر (دارفور) ، وكان ايطالياً ، وجيسى باشا Gessi pach الايطالى مديراً لبحر الغزال ، وفردريك روسى Rosse قنصل ألمانيا فى الخرطوم مديراً لدارفور ، وشارل ريجوليه Rigolei الفرنسوى مديراً لداره ، واميليانى Emiliani مديراً لكبكبيه ، والدكتور زوربخين مفتشاً للصحة ، والضابط (سلاتين) أحد ضباط الجيش النمسوى مفتشاً للمالية ، وهو الذى صار فيما بعد سلاطين باشا صاحب المواقف المشهورة أثناء الثورة المهدية ، وجيكلر باشا النمسوى ، مديراً عاماً لمنع تجارة الرقيق ، وهلم جراً

وكان الكولونل (بروت) الامريكانى يتولى الحكم فى مديرية خط الاستواء ، فعين بدله ابراهيم فوزى (باشا) ، ثم مالبث أن أقاله وعين فى مكانه الدكتور شنتزر الألمانى الذى عرف بعد ذلك بأمين باشا

وأهمل غردون شأن المقاطعات الاستوائية ، ولم يعن بتوطيد سلطة الحكومة المصرية فيها ، فكأنه كان يبغى إقصاءها عن الحكم المصرى ، تمهيداً لإدخالها فى منطقة النفوذ الانجليزى

وأقفل المدارس التى فتحها الولاة من قبل ، وتذرع إلى ذلك بقلة المال ، ومنع إرسال

---

(١) «مصر ومديرياتها المفقودة» للكولونل شاي لونج بك ص ١٨٦

الطلبة الناجحين بمدرسة الخرطوم إلى مصر ، وعزل الموظفين منهم

وشغلت الفتن والثورات معظم مدته ، وكان عهده نذيراً بشبوب الثورة المهدية ، وساعد على شبوب الفتن تشدده فى إبطال الرقيق ، ونقص قوة الجيش المصرى فى السودان ، بما أخذته الحكومة من صفوفه من الأمداد التى أرسلتها الى تركيا فى حرب البلقان (سنة ١٨٧٧)

ثار سليمان بن الزبير باشا سنة ١٨٧٧ انتقاما لأبيه . إذ كان ممنوعا من الرجوع إلى السودان، وطمع فى الاستقلال ببحر الغزال ، فأنفذ اليه غردون باشا حملة طاردته وأوقعت به

ثم عاد يقاوم الحكومة ، فأنفذ اليه غردون حملة بقيادة جيسى باشا ، انتهت بهزيمة سليمان ومقتله (يوليه سنة ١٨٧٩) ، وقد حزن عليه أبوه الزبير باشا حزناً شديداً ، لكنه بقى موالياً للحكومة المصرية

وثار قائد من قواد جيش الزبير يدعى (الصباحى) ، فطاردته الجنود المصرية حتى أدركته ، وحوكم أمام مجلس عسكرى وحكم عليه بالاعدام (مارس سنة ١٨٧٩)

وثار فى دارفور أمير من سلالة سلاطينها يدعى هارون ولقب نفسه بالرشيد ، وبايعه الأهلون سلطاناً عليهم فى أوائل سنة ١٨٧٧ ، فحاربته الجنود المصرية حربا طويلة ، انتهت بقتله فى أوائل سنة ١٨٨٠ [١] ، وسعى غردون فى الاتفاق مع يوحنا ملك الحبشة على تحديد التخوم بينه وبين مصر ، فلم يوفق الى ذلك ، وفى أواخر سنة ١٨٧٩ جاء إلى مصر ، وكان ذلك فى أوائل حكم الخديو توفيق باشا ، وقدم استعفاءه من منصبه ، فعينت الحكومة محمد رءوف باشا حكمداراً للسودان خلفاً له ، وهو آخر الولاة الذين حكموا السودان قبل الثورة المهدية ، وفى عهده ظهرت بوادر تلك الثورة المشئومة التى قضت على نفوذ مصر فى السودان ، ومهدت للحكم الانجليزى فى أرجائه

---

(١) دارفور فى عهد غردون باشا لمسداليا بك ، مجلة الجمعية الجغرافية مجموعة ٣ عدد ١ ص ٦٧ (مايو سنة ١٨٨٨)

التقسيم الإدارى

دخل على التقسيم الإدارى فى عهد اسماعيل تعديلات أفضى اليها فى الغالب التوسع فى الفتح وضم بلاد جديدة الى السودان

فصار مؤلفاً من المديريات والمحافظات الآتية [١] :

المديريات والمحافظات		العاصمة
مديرية الخرطوم		الخرطوم
« سنار وفازوغلى		سنار
« بربر		بربر
« دنقله		دنقله
« كسلا أو التاكه		كسلا
« فاشوده		فاشوده
« كردفان		الأبيض
« الفاشر		الفاشر
« داره	مديريات دارفور [٢]	داره
« كبكبيه		كبكبيه
« بحر الغزال		ديم الزبير
« خط الاستواء		الاسماعيلية (غندكرو) ثم اللادو ثم ودلاى

---

(١) انظر إحصاء شيلو بك Chelu bey كبير مفتشى الرى بالسودان فى كتابه (النيل والسودان ومصر) ص٩٧ ، ونعوم بك شقير فى كتابه السودان ج ١ ص ٦٧

(٢) كما ذكرها مسداليا بك مدير دارفور فى عهد غردون باشا فى بحثه المنشور بمجلة الجمعية الجغرافية الخديوية بمجموعه ٣ عدد ١ (مايو سنة ١٨٨٨) ص٤٦ مع تسمية مديرية كبكبية باسم كلكل ويوافق التقسيم الوارد فى خريطة مسداليا بك ذاته عن السودان الملحقة بالكتاب الازرق الانجليزى Blue BooK سنة ١٨٨٣ ج ص ٣٨

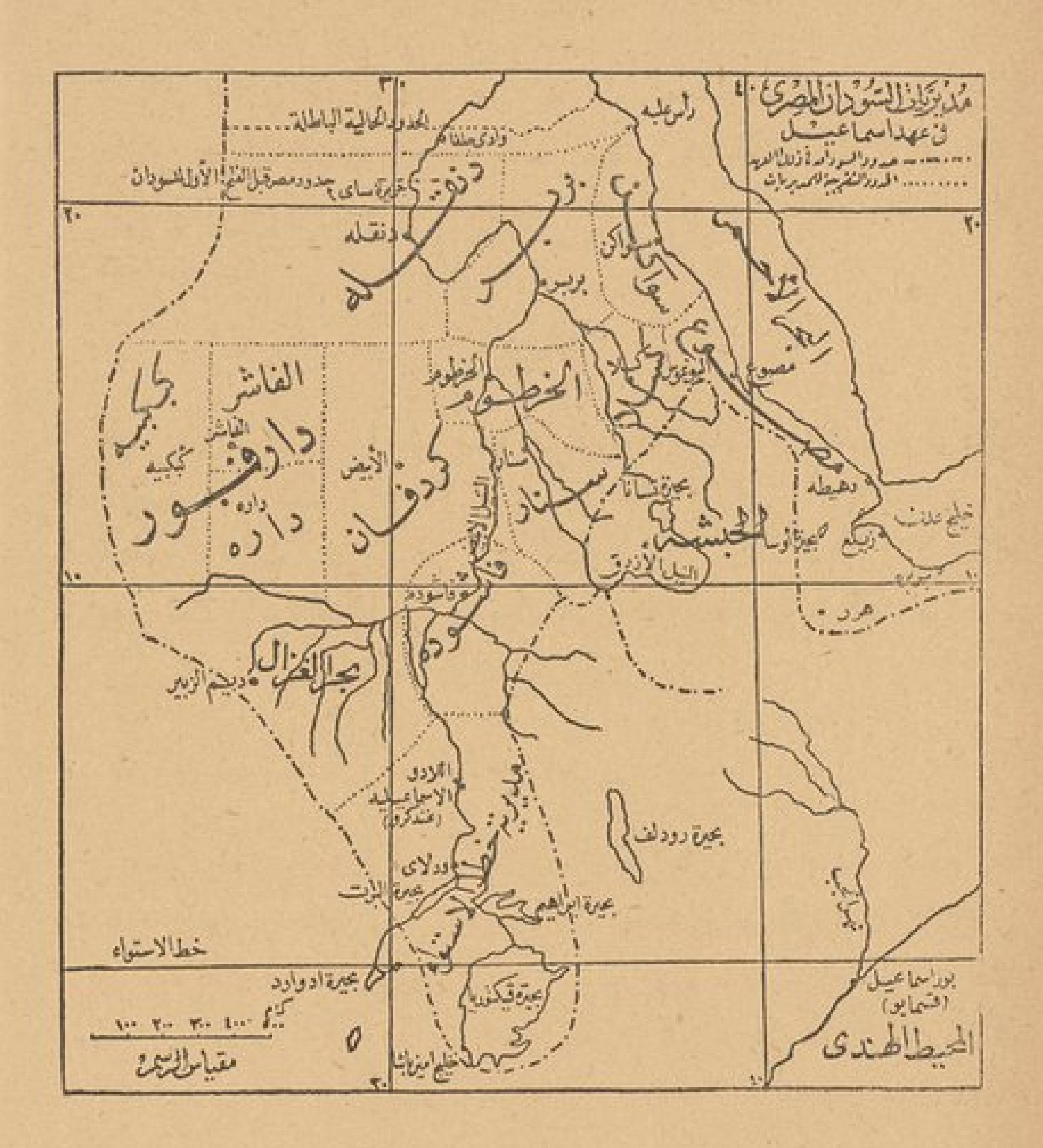
وكانت مقسمة الى مأموريات لاتوكا ،
وبور ،ومكركه، ومنبوتو وودلاى ، وفوبره

محافظة سواكن	سواكن
« مصوع	مصوع
حكمدارية هرر	هرر
محافظة زيلع	زيلع
محافظة بربره	بربره

الجيش المصرى فى السودان

بلغ الجيش المصرى فى السودان على عهد اسماعيل نحو ٣٠ الف مقاتل موزعين على المراكز الآتية :

دنقله . بربر . الخرطوم . سنار . القلابات . الجيرة . (بالقرب من حدود الحبشة) القضارف . كسلا . أميديب. سنهيت . سواكن . كردفان . دارفور . بحر الغزال خط الاستواء . مصوع . هرر . زيلع . بربره


مديريات السودان المصري
في عهد اسماعيل
رأس علبه
وادي حلفا
دنقلة
دنقله
بربر
سواكن
البحر الأحمر
مصوع
الخرطوم
كردفان
الأبيض
دارفور
الفاشر
سنار
بحيرة تانا
الحبشة
النيل الأزرق
خليج عدن
زيلع
هرر
بحر الغزال
ديم الزبير
بحيرة رودلف
بحيرة ابراهيم
بحيرة البرت
بحيرة ادوارد
بحيرة فكتوريا
خط الاستواء
بور اسماعيل
(قسمايو)
المحيط الهندى
مقياس الرسم

أعمال العمران

بَيّنا فى «عصر محمد على» (ص ١٨٠ وما بعدها طبعة اولى) عمران السودان فى عهد محمد على، ثم ذكرنا فى الفصل الثانى من كتابنا الحالى ماتم على يد سعيد باشا من الإصلاح، والآن نذكر أعمال العمران التى تمت فى عهد اسماعيل، عداماذكرناه فيما تقدم من البيان

استتباب الأمن

كان من أول ماعنى به الحكم المصرى فى السودان بسط رواق الأمن، وهو قوام العمران وأساس تقدم الزراعة والتجارة، ويكفى دليلا على فضل الحكم المصرى من هذه الناحية كلمة السير صمويل بيكر فى هذا الصدد، قال: «ان السائح الأوروبى يمكنه أن يجوب تلك الأصقاع البعيدة، دون أن يخشى على نفسه اكثر مما يخشاه من يتنزه بعد غروب الشمس فى حديقة هايدبارك بلندن»

الزراعة

وانتشرت الزراعات الحديثة فى أنحاء السودان وخاصة فى عهد اسماعيل باشا أيوب، فقد عمل على توسيع مناطق زرع القطن، واستقدم لهذا الغرض كثيراً من آلات الرى لتوفير المياه اللازمة للقطن، وأنفق فى هذا السبيل أموالا طائلة لشراء الآلات ونقلها عن طريق سواكن، وأنشأ معملين لحليج القطن فى كسلا والخرطوم [١]، وكان فى نيته انشاء معمل آخر فى (بربر) لكنه فصل عن حكمدارية السودان سنة ١٨٧٦، وعين بدله غردون باشا

وانتشرت زراعة القطن فى السودان الشرقى، وأنشئت أسواق لبيع محصوله

---

(١) ذكرت الوقائع المصرية عدد ٥٤٨ الصادر فى ١٠ مارس سنة ١٨٧٤ وابور حليج الأقطان بكسلا، وجاء ذكر وابورالخرطوم فى كتاب شيلو بك «النيل والسودان ومصر» ص ١٠٥

فى كسلا والقضارف (ابوسن) والقلابات ، وصار لكسلا أهمية تجارية كبيرة لكثرة مزارع القطن حولها ، فضلا عن موقعها الحربى

وزرع الدخان فى القضارف ، وأنتج صنفا لا يقل جودة عن دخان الأناضول ، واستعمله المدخنون فى جميع نواحى السودان [١] وأنشأ أمين بك (باشا) حقولا للتجارب الزراعية بجوار (الرجاف) [٢]

وكثر النخيل فى دنقله ، وزاد محصول التمر كل سنة ، وكان ينقل الى بربر والخرطوم ومن هناك يرسل الى أقاصى السودان حتى خط الاستواء والحبشة

طرق المواصلات

نشطت المواصلات بين مختلف بلدان السودان فى عهد الحكم المصرى ، واليك أهم الطرق التى كانت تسلكها القوافل أو السفن [٣]

١ — من الخرطوم الى الأبيض عاصمة كردفان — ١٢ مرحلة بسير القوافل

٢ — « « « الفاشر عاصمة درافور — ٣٢ مرحلة بسير القوافل

٣ — « « « غندكرو (الاسماعيلية) بطريق النيل والمسافة بينهما بالبواخر فى ثمانية عشر يوما

٤ — « « « قوز رجب على نهر عطبره — ست مراحل

٥ — « « « دنقله — ٨ مراحل

٦ — « « « ابو حراز فالقضارف وتقطع المسافة بينهما فى ثلاثة أيام بالبواخر ثم خمسة اخرى على ظهور الجمال

٧ — « « « قوز رجب فكسلا فى ثمانية أيام بالجمال

---

(١) النيل والسودان ومصر للمسيو شيلو بك ص ١٠٥

(٢) مجلة الجمعية الجغرافية عدد فبراير سنة ١٨٨١ ص ٣٢

(٣) كما ذكرها الكولونل ستوارت فى تقريره المنشور بالكتاب الأزرق الانجليزى عن مصر سنة ١٨٨٣ (ج ١١ ص ٨)

٨ — من القضارف الى القلابات فى أربعة أيام على ظهور الجمال

٩ — « « « (الجيرة) فى يوم ونصف على الجمال

١٠ — « « « كسلا فى خمسة أيام بالجمال

١١ — من قوز رجب الى سواكن فى احد عشر يوما على ظهور الجمال

١٢ — من مصوع الى سنهيت (عاصمة البوغوس) فى خمسة أيام على الجمال

١٣ — من سنهيت الى كسلا فى سبعة أيام بالجمال

١٤ — من غندكرو الى الدفلاى سيرا على الأقدام فى تسعة أيام

١٥ — « « « منبوتو فى ٣٤ يوما سيرا على الأقدام

١٦ — « « « فويره فى ١٨ يوما سيرا على الأقدام

١٧ — « « « لاتوكا فى سبعة أيام سيرا على الأقدام

١٨ — « « « مكركا فى سبعة أيام سيرا على الأقدام

١٩ — من الفاشر الى أسيوط فى أربعين يوما على ظهور الإبل

المواصلات النيلية ودار الصناعة بالخرطوم

وأصلح مجرى النيل فى شلال (عكه) جنوبى وادى حلفا ، ونسفت الصخور والعقبات التى كانت تعترض السفن فيه ، فصار صالحا للملاحة النيلية ومرور السفن الشراعية والبواخر ، فسهلت المواصلات بين مصر والسودان [١] وأزيل جزء من السدود على النيل الأعلى [٢]

وأصلحت ترسانة الخرطوم التى كان إنشاؤها فى عهد محمد على ، وكثرت بها البواخر النيلية ، وبلغ عددها ١٥ باخرة وعدة ذهبيات مصنوعة من الحديد والخشب ، وقد أرسلت هذه البواخر من مصر إلى الخرطوم بطريق النيل عدا الباخرة (الاسماعيلية) التى اتخذها الحكمدارون لركوبهم فانها نقلت قطعاً مفككة وركبت فى ترسانة الخرطوم ، وأنشئت فى هذه الترسانة أربع بواخر جديدة [٣]

---

(١) الوقائع المصرية العدد ٣٦٧

(٢) الوقائع المصرية العدد ٥٥٢ (٧ ابريل سنة ١٨٧٤)

(٣) شيلو بك ص ١٧١

الملاحة البحرية والفنارات

وأنشىء فنار فى ميناء (بربره) على خليج عدن لهداية السفن وتسهيل الملاحة ، وبنى بها أيضاً رصيف لإيواء السفن بمرفئها

وعهد الخديو اسماعيل سنة ١٨٧٨ إلى الكولونل جريفز Graives والقائمقام محمد مختار بك (باشا) ارتياد شواطىء السومال التابعة لمصر والواقعة على المحيط الهندى لاختيار موقع يقام فيه فنار يرشد السفن فى طريقها بين المحيط وخليج عدن ، وقد اضطلعا بهذه المهمة ، وخطط القائمقام مختار بك خريطة هذه الجهة ومكان الفنار ، وهو يقع على بعد ثمانية أميال جنوبى رأس جردفون (جردفوى) [1] وعلى مسافة ثمانمائة متر من مصب نهر صغير يجرى فيه الماء العذب بواد يعرف بوادى التخوم ولكن الفنار لم ينشأ ، لانتهاء حكم اسماعيل فى يونيه سنة ١٨٧٩

وتجد بالصفحة الآتية خريطة رأس جردفون وموقع الفنار الذى كان مزمعاً إنشاؤه كما خططها القائمقام محمد مختار بك

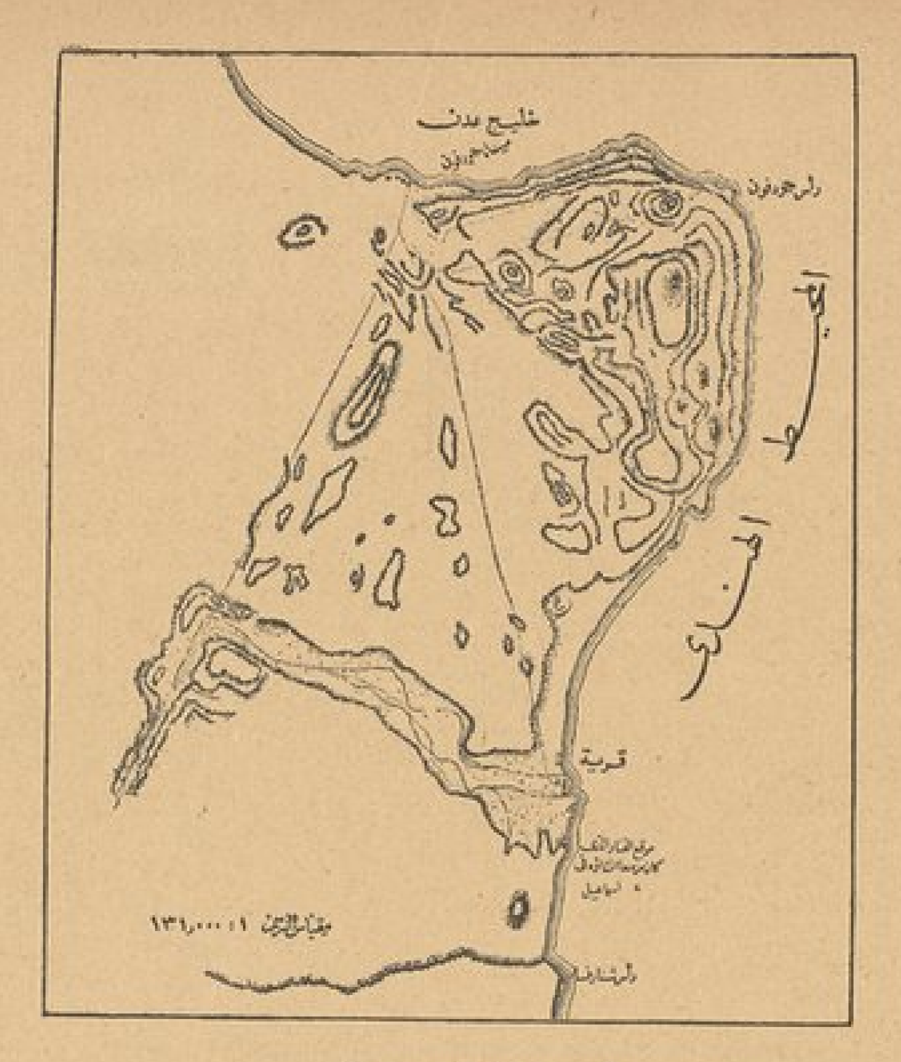
مشروع السكة الحديدية

وعهد الخديو اسماعيل إلى جماعة من المهندسين تخطيط السكة الحديدية التى تصل السودان بمصر

وشرع فى مد الخط الحديدى على طول النيل من وادى حلفا إلى (حنك) ، وأنفق فى ذلك نحو ٤٠٠ ألف جنيه ، ومدّ من الخط نحو ٥٧ كيلو متراً فقط من وادى حلفا ، ومهد الطريق على بعد ٤٧ كيلو متراً أخرى ، ثم وقف العمل سنة ١٨٧٨ بسبب ارتباك الحكومة المالى

---

(١) انظر مجلة الجمعية الجغرافية مجموعة ١ عدد ٩ (أغسطس — نوفمبر سنة ١٨٨٠ ص ٢٩)



رأس جردفون « جردفوى »

وكان من أملاك مصر على المحيط الهندي في عهد الخديو اسماعيل ، وترى موقع الفنار الذى اعتزم اسماعيل باشا إنشاءه سنة ١٨٧٧

وهذه الخريطة مصغرة عن خريطة وضعها بالفرنسية اللواء محمد مختار باشا ونشرت فى مجلة الجمعية الجغرافية سنة ١٨٨٠

المدارس

وأنشئت بعض المدارس لتهذيب الأهلين وتثقيفهم ، وعهد بالتدريس فيها إلى المتخرجين من مدرسة الخرطوم التى أنشئت فى عهد عباس الأول

وقد رأينا فى (الوقائع المصرية) [1] وصف احتفال فخم أقامته مدرسة (بربر)

---

(١) العدد ٦١١ — ٢٠ يونيه سنة ١٨٧٥

الابتدائية ، لمناسبة امتحانها النهائى ، أنشد فيه نجباء التلاميـــذ القصائد المنظومة ، وتم الاحتفال على نظام الحفلات المدرسية فى عهد اسماعيل

وأنشأ أمين بك (باشا) فى اللادو عاصمة مديرية خط الاستواء مدرسة لتعليم أبناء الأهلين ومستشفى ومسجدا (١)

التجـارة

بسط الحكم المصرى رواق الأمن فى السودان ، فنشطت حركة التجارة فى بلدانه ، واتسع نطاق المواصلات التجارية بينه وبين مصر ، وانشئت فيه بيوت تجارية كبيرة تتولى إصدار متاجر السودان إلى مصر وأوروبا وتجلب إلى السودان واردات أوروبا ومصر ، وقد أثرت هـذه البيوت ، وصار لها شأن يذكر ، وأكبرها بيت السيد احمد العقاد ، وبيت على أبى عمورى ، وفرج الله الموصلى ، والخواجه غطاس ، وجيليو ، وامبرواز وغيرهم ، وقد مد هؤلاء تجارتهم الى أقاصى السودان ، وصار لكل منهم قوة مسلحة من السودانيين ، وأماكن للتجارة فى مختلف الجهات تسمى « مشارع » ، يقيمونها على شـــكل مربع من عروق الأشجار ، ويقيم التاجر أو وكيله فيها بحراسة رجاله المسلحين ، ولهؤلاء الحراس مهمة أخرى ، وهى اقتناص الرقيق للاتجار بهم فى أسواق مصر ، وقد دَرّت عليهم تجارة الرقيق ثروات كبيرة لما فيها من الأرباح الطائلة ، ومما يدل على اتساع نفوذ هذه البيوت التجارية أن (الزبير باشا) الذى صار له شأن كبير فى السودان كان فى بداية أمره وكيلا لبيت على أبى عمورى

ولما اعتزم الخديو اسماعيل منع تجارة الرقيق عهد الى ولاة السودان الاتفاق مع أصحاب « المشارع » على أن يتخلوا عنها للحكومة مقابل تعويضات تدفع اليهم

وكانت هذه البيوت تتولى إصدار متاجر السودان ، كالعاج ، وريش النعام ، والتبر ، والصمغ ، والجلود ، والغنم ، والمواشى ، والتمر الهنـــدى ، والبن ، والكحل ، وقرن الخرتيت وما إلى ذلك

---

(١) مجلة الجمعية الجغرافية — عدد فبراير سنة ١٨٨١ ص٣٢

وظلت التجارة مزدهرة فى ظل الحكم المصرى ، وبلغ عدد البيوت التجارية المملوكة للمصريين فى السودان ثلاثة آلاف بيت ، والمملوكة للاوروبيين الف بيت ، وبلغت واردات السودان فى السنة مليونين من الجنيهات وصادراته تعادل هذا القدر (١)

البريد

عهد الخديو اسماعيل الى موتشى بك مدير مصلحة البريد المصرية إنشاء مكاتب منتظمة للبريد فى عواصم السودان ، فصدع بالأمر وأنشأ بها عدة مكاتب ، وأنشئت إدارة للبريد فى الخرطوم سنة ١٨٧٣ احتفل بافتتاحها احتفالا فخما (٢)

وأنشئت مكاتب منتظمة للبريد فى الخرطوم ، ودنقله ، وبربر ، وكسلا ، وفتحت أيضاً مكاتب أخرى فى سنار ، والمسلمية ، والقضارف ، وفازوغلى ، وكرجوع ، وفاشوده ، والأبيض ، والفاشر ، وبقيت هذه المكاتب تؤدى مهمتها ، إلى أن تعطلت بعد شبوب الثورة المهدية سنة ١٨٨٣ ، وظل مكتب الخرطوم مفتوحا إلى أن سقطت المدينة فى أيدى الثوار سنة ١٨٨٥

التلغرافات

بلغت الخطوط التلغرافية التى أنشئت فى السودان لغاية سنة ١٨٧٠ ، ٢١١٠ كيلو متر ، وبلغ عدد مكاتب التلغراف فى مدن السودان ٢١ مكتبا ، وذلك سنة ١٨٧٧

---

(١) عن بيان قدمه التجار الوطنيون والأجانب فى مصر احتجاجا على إخلاء السودان سنة ١٨٨٤ ، وضحوا فيه ان اخلاءه يؤدى الى بوار متاجرهم فيه (كوشرى — المركز الدولى لمصر والسودان ص ٢٨٦)

(٢) الوقائع المصرية العدد ٥٤٨ (١٠ مارس سنة ١٨٧٤)

وهاك بيان الخطوط التلغرافية والمدن التى وصلت بينها (١)

(١) مصر ـ دنقله ـ بربر ـ الخرطوم

(٢) الخرطوم ـ ابو قراد ـ الأبيض ـ فوجه

(٣) الخرطوم ـ ابو حراز ـ المسلمية ـ سنار ، فازوغلى

(٤) المسلمية ـ الكوه

(٥) ابو حراز ـ القضارف ـ كسله ـ سنهيت ـ مصوع

(٦) كسله ـ قوز رجب (على نهر عطبره) ـ بربر

(٧) سواكن ـ كسله

(٨) القضارف ـ دوكه ـ جنوبى القضارف ـ القلابات

(٩) القضارف ـ الجيرة (بالقرب من حدود الحبشة)

وكان مركز هذه الخطوط فى الخرطوم وقد ظلت قائمة الى أن عطلت فى عهد الثورة المهدية

ميزانية السودان

ذكر غردون باشا فى رسائله « ص ٢٨١ » أن ميزانية السودان سنة ١٨٧٨ . تتألف من الأرقام الآتية :

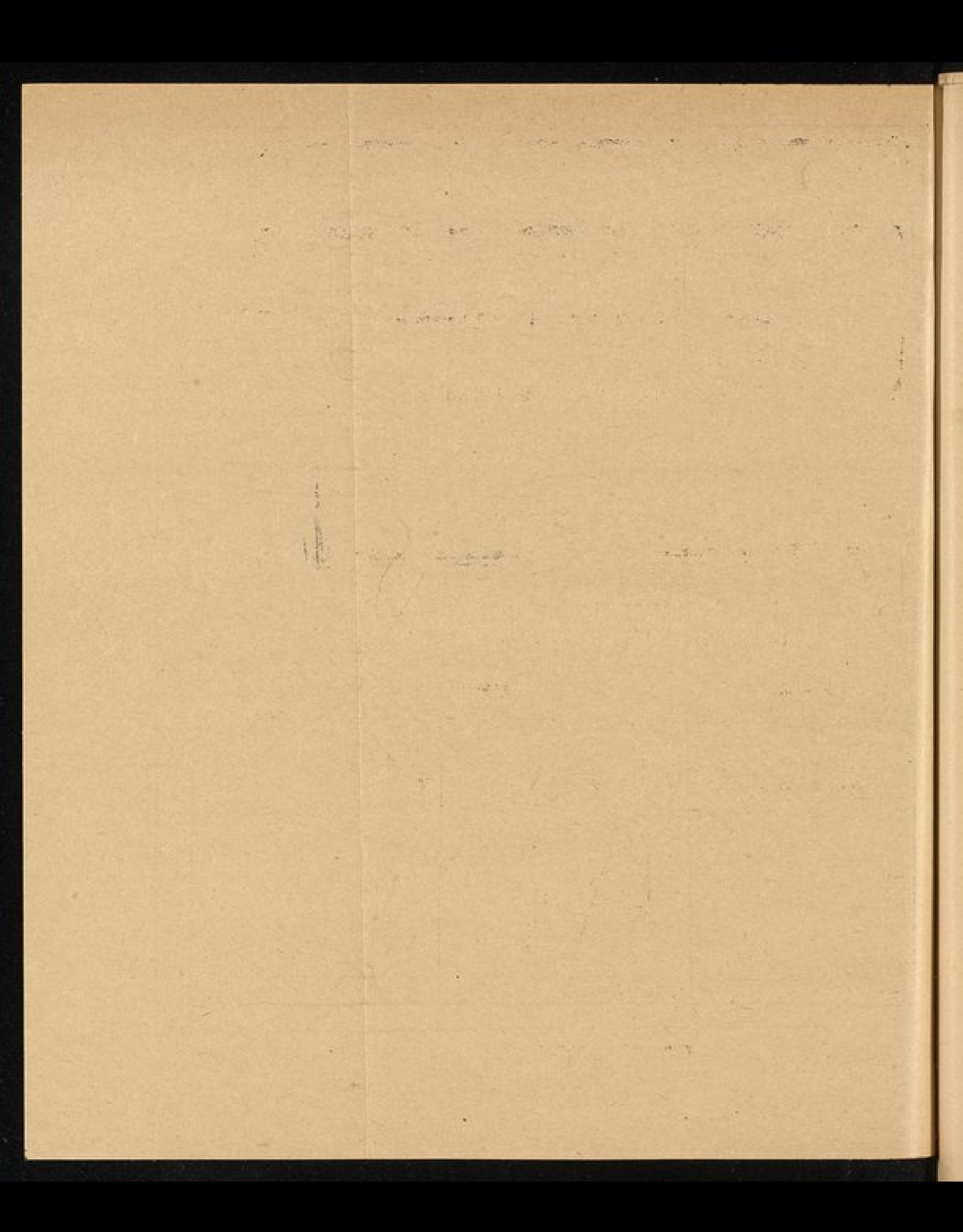
٣٢٧٫٠٠٠ جنيه دين السودان

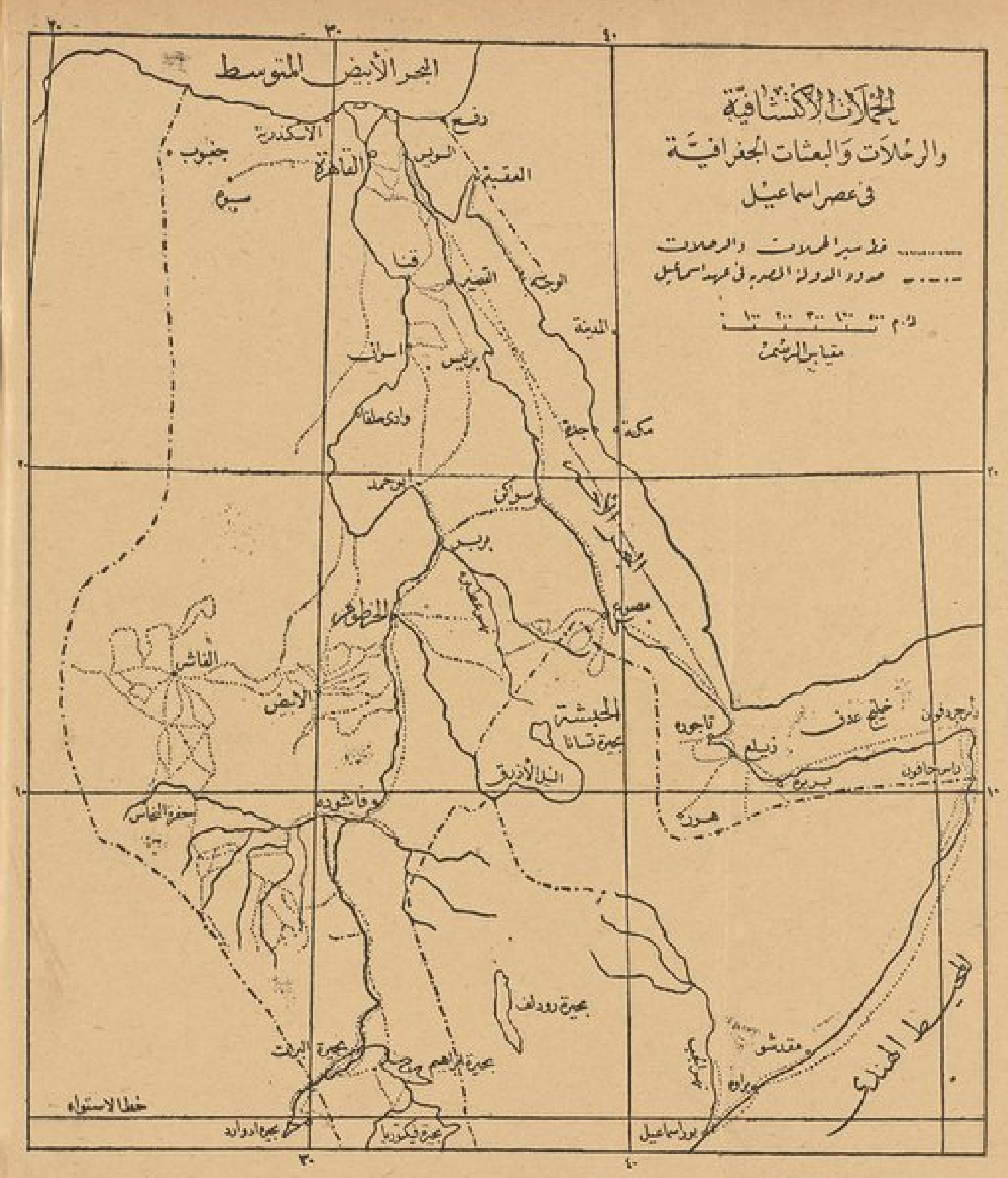
٥٧٩٫٠٠٠ « ايرادات الحكومة

٦٥١٫٠٠٠ « مصروفاتها

٠٧٢٫٠٠٠ « العجز

(١) تقرير الكولونل ستوارت عن السودان المنشور فى الكتاب الأزرق الانجليزى Blue Book عن مصر سنة ج ص١٨٨٣ ج ١١ ص ٨




الحملات الاكتشافية
والرحلات والبعثات الجغرافية
في عصر اسماعيل
خط سير الحملات والرحلات
حدود الدولة المصرية في عهد اسماعيل
مقياس الرسم
البحر الأبيض المتوسط
الاسكندرية
القاهرة
جغبوب
سيوه
السويس
العقبة
رفح
قنا
القصير
الوجه
المدينة
أسوان
بربيس
وادي حلفا
مكة
جدة
أبو حمد
سواكن
بربر
الخرطوم
مصوع
الفاشر
الأبيض
الحبشة
بحيرة تانا
النيل الأزرق
تاجوره
زيلع
خليج عدن
بربره
هرره
رأس حافون
فاشوده
بحرة الغزال
بحيرة رودلف
بحيرة البرت
بحيرة ابراهيم
مقدشو
براوه
المحيط الهندي
خط الاستواء
بحيرة ادوارد
بحيرة فكتوريا
بور اسماعيل
٢٠
٣٠
٤٠
١٠

مقابل ص ١٦٧

الرحلات والبعثات الجغرافية

ان بسط سيادة مصر وسلطانها على وادى النيل قد مهد الطريق للاكتشافات والتحقيقات الجغرافية والعلمية فى أرجاء السودان ، فحفل عصر اسماعيل بالبعثات والحملات التى أنفذها الخديو لهذا الغرض على نفقة الحكومة المصرية ، وقوامها ضباط أركان حرب الجيش المصرى ، فكان لهم الفضل الكبير فى مد رواق الحكم المصرى ، ونشر لواء الحضارة فى السودان ، ولهم فضل لاينكر فى تقدم علم الجغرافيا والاكتشافات ، بما أضافوا اليها من الحقائق الهامة ، والبيانات المبتكرة ، والخرائط والرسوم الدقيقة

وانا ذاكرون بالفخر والإعجاب موجز أعمال هذه البعثات والحملات المصرية ، وما وصلت اليه من الاكتشافات الجغرافية

فأول هذه البعثات حملة صمويل بيكر باشا الى منابع النيل وقد أسلفنا الكلام عنها

وفى سنة ١٨٧ قامت بعثة برآسة الأميرالاى (بوردى بك) Purdy أحد ضباط أركان حرب الامريكان فى الجيش المصرى ومعه طائفة من الضباط المصريين ، فجابوا الجهات الواقعة بين النيل والبحر الاحمر ، من القاهرة والسويس شمالا ، الى قنا والقصير جنوباً ، واكتشفوا طرق المواصلات ومناجم المعادن والمحاجر فى تلك الجهات

وفى سنة ١٨٧٣ سار الأميرالاى بوردى بك بحراً الى موقع برنيس (برنيقه) القديمة على البحر الأحمر (غربى رأس بناس) ولحقه بها الأميرالاى كولستن Colston أحد الضباط الامريكان فى الجيش المصرى من طريق قنا براً ، وخططا الجهات المقفرة الواقعة بين برنيس و (بربر) على النيل وقضيا فى هذه المهمة نيفا وسبعة أشهر [١]

وفى سنة ١٨٧٤ اكتشف الأميرالاى شايى لونج بك Chaille Long بحيرة ابراهيم كما بيناه فى موضعه ، واكتشف معظم مجرى النيل المعروف بنيل فيكتوريا ،

---

(١) راجع تقرير الأميرالاى بوردى عن هذه الرحلة فى مجلة الجمعية الجغرافية مجموعة نمرة ٢ عدد ٨ ص ٤٣١ ، وتقرير الأميرالاى كولستن بالمجلة المذكورة مجموعة نمرة ٢ عدد ٩ (اغسطس سنة ١٨٨٦) ص ٤٨٩ ، وبحث الأستاذ كوردا عن رحلة كولستن من قنا الى برنيس وخريطة الرحلة فى مجلة الجمعية مجموعة ٣ عدد ٧ (سبتمبر سنة ١٨٩١) ص ٥٣٣

وحقق نقطة كانت غامضة وهى أن نيل فكتوريا يصب فى بحيرة ألبرت ، ورسم الطريق بين اللادو ومكركه جنوبى بحر الغزال

وبعد أن تم فتح دارفور سنة ١٨٧٤ انفذ الخديو ثلاث بعثات كبرى مؤلفة من ضباط أركان الحرب لاكتشاف جهات كردفان ودارفور

الأولى برآسة الأميرالاى بوردى بك ، ومن أعضائها القائمقام ميزون بك Maison من الضباط الأمريكان فى الجيش المصرى ، والملازمون محمود افندى صبرى (باشا) ، ومحمد افندى سامى ، وسعيد افندى نصر (باشا) ، وخليل افندى حلمى ، والدكتور محمد افندى امين ، ومهمتها اكتشاف جهات دارفور ، فكشفت المواقع وطرق المواصلات بين النيل و (حفرة النحاس) بأقصى حدود دارفور جنوبا بغرب [١] ، وجابت أرجاء هذا الإقليم العظيم ، وكشفت من الطرق ما طوله ٦٥٠٠ ميل ، وحققت ٢٢ موقعا من المواقع الفلكية ، ورسمت خريطة دقيقة لهذه البلاد

والبعثة الثانية برآسة الأميرالاى كلستون ، ومن أعضائها الصاغ احمد افندى حمدى (باشا) والأميرالاى بروت Prout من الضباط الأمريكان فى الجيش المصرى ، والملازمون عمر افندى رشدى (باشا) ، ومحمد افندى ماهر (باشا) ، ويوسف افندى حلمى ، وخليل افندى فوزى ، والدكتور بفوند Pfund العالم الطبيعى ، وقد اكتشفت جهات كردفان ، وحققت مواقعها ومدنها وطرق المواصلات فيها ، ورسمت خريطة دقيقة عنها ، ومرض رئيس هذه البعثة خلال الرحلة فتولى الرآسة بدله الأميرالاى بروت

وقضى أعضاء البعثتين ثلاث سنوات يقطعون المراحل ويطوون الفدافد ويستهدفون لمتاعب المضنية فى سبيل الاضطلاع بمهمتهم

والبعثة الثالثة برآسة المهندس الامريكى متشل Michel [٢] يصحبه الضابط عبدالفتاح

---

(١) راجع بحث الأميرلاى (اللواء) بوردى باشا عن هذه البعثة بمجلة الجمعية الجغرافية بمجموعة ١ عدد ٨ (مايو سنة ١٨٨٠) ص ٥ والخريطة الملحقة بهذا العدد

(٢) عالم فى طبقات الارض ومهندس مناجم وكان ملحقا بقسم اركان حرب الجيش المصرى وتجد تقريره عن هذه البعثة فى مجلة الجمعية الجغرافية الخديوية بمجوعه ١ عدد ٦ (اكتوبر سنه ١٨٧٩) ص ٧ و ١٥

افندى فتحى لاكتشاف المعادن بين النيل والبحر الاحمر ، وقد كشفت هذه البعثة مناجم للذهب فى (الحمامة) شمالى قنا ، ثم عرجت بثغور البحر الاحمر وخليج عدن ، كالقصير ، ومصوع ، وتاجوره ، وزيلع ، وأوغلت فى الداخل ، ثم عادت الى مصوع وكشفت الجهات الشرقية من الحبشة

ورسم ارنست لينان دى بلفون (ابن لينان باشا) الطريق بين غندكرو ودوباجا عاصمة أوغنده ، وقد قتل وهو عائد من مهمته . ومن بياناته وضع العلامة جورج شونفرت خريطته عن تلك الجهات

ورسم البكباشى محمد افندى عزت أحد ضباط حملة منزنجر باشا خريطة الجهات الواقعة بين تاجوره وبحيرة « اوسا » بالحبشة

ورسم محمد مختار بك (باشا) وعبدالله بك فوزى (باشا) خريطة بلاد هرر ، ورسم الأول خريطة المدينة ، ووضع خريطة أخرى لرأس جردفون [١] (جردفوى) وموقع الفنار الذى أزمع اسماعيل انشاءه فى تلك الجهة كما تقدم بيانه

ورسم ضباط أركان حرب نادى باشا الجهات الواقعة بين هرر وزيلع

ووضع القائمقام عبد الرزاق بك نظمى خريطة بربره وملحقاتها

وكشفت حملة السومال التى أنفذها اسماعيل سنة ١٨٧٥ سواحل البنادر الواقعة على المحيط الهندى وجهات قسمايو (بور اسماعيل) ونهر الجوبا ، وهى الجهات التى قصدت اليها الحملة كما فصلناه فى موضعه

وفى سنة ١٨٧٧ جاب الأمير الاى ميزون بك Maison بحيرة (ألبرت) وأتم الاكتشاف الذى بدأه فيها السير صمويل بيكر ووضع لها خريطة دقيقة [٢]

وأنفذ الخديو سنة ١٨٧٧ بعثة برآسة المستر برتون لاكتشاف المعادن التى بجهات (مدين) بجزيرة العرب

وحقق ضباط أركان الحرب برآسة البكباشى عبد الله بك فوزى (باشا) حدود

---

(١) الاسم الصحيح (جردفون) كما حققه العلامة أحمد زكى باشا

(٢) مجلة الجمعية الجغرافية مجموعة ١ عدد ٥ (مايو سنة ١٨٧٧ – فبراير سنة ١٨٧٨) ص ٥

الحبشة الشمالية والطرق بين مصوع والخرطوم ورسموا خريطتها

وحقق جيسى باشا مواقع بحر الغزال

وجاب الأميرلاى محمد مختار بك (باشا) نواحى السودان الشرقى حين كان رئيسا لأركان حرب السودان سنة ١٨٨٠ يصحبه من ضباط أركان الحرب خليل بك فوزى والملازمان محمد خير الله وعلى خيرى ، وله مبحث مسهب فى تخطيط أبو حراز ، والقضارف (ابوسن) ، والقلابات ، وطومات ، واميديب وغيرها من مدن السودان الشرقى (١)

واكتشف أمين باشا مدير خط الاستواء نهر السمليكى الواصل بين بحيرة إدوارد وبحيرة ألبرت

ورسم ضباط أركان حرب الجيش المصرى سنة ١٨٧٧ خريطة مفصلة لافريقية ، وهى أدق خريطة عرفت إلى ذلك الحين ، اشترك فى رسمها كل من الأميرالاى لوكت Lochett ، والقائمقام محمد مختار بك (باشا) ، والصاغ عبدالله بك فوزى ، وعبد الرزاق بك نظمى ، والضباط محمود صبرى (باشا) ، وأحمد فائق (باشا) ، ومصطفى كامل ، وأحمد فهمى ، وحسن حارس (باشا) ، وحسن صفوت ، وابراهيم حلمى ، ومحمد جودت ، ومحمد خير الله ، ويوسف ضيا (باشا) ، وعلى حيدر (باشا) ، وأحمد رشيد

وهذه الخريطة مودعة ضمن محفوظات الجمعية الجغرافية الملكية

ذكر الجنرال استون باشا رئيس أركان حرب الجيش المصرى فى عهد اسماعيل أن الجهات التى جابها ضباط أركان الحرب وحققوها ، ورسموا مواقعها ، تبلغ فى اتساع مداها مجموع مساحة فرنسا والمانيا والنمسا والمجر (٢) بحدودها القديمة ، وهذا يدلك على عظم الاكتشافات والتحقيقات التى تمت على أيديهم

وقد ضاع كثير من مباحث هذه البعثات ، لأن الاحتلال الانجليزى تعمد أن يبدد أعمالها وخرائطها ومجاميعها النفيسة ، وذلك لكى يقطع الصلة بين جيشنا القديم المجيد

---

(١) مجلة الجمعية الجغرافية مجموعة ١ عدد ١١ (فبراير سنة ١٨٨١) ص ٥

(٢) الرحلات المصرية فى افريقية للجنرال استون باشا ــ مجلة الجمعية الجغرافية مجموعة ٢ عدد ٧ (مايو سنة ١٨٨٥) ص ٢٤٣

والجيش الذى ألفه الانجليز بعد الاحتلال ، على أن المباحث الباقية لأعضاء هذه البعثات تسجل لضباط الجيش المصرى أجلّ الخدمات للعلم والحضارة والعمران ، فإن الاكتشافات والحملات البعيدة المدى التى اضطلعوا بها جديرة بأن تعد من مفاخر تاريخنا القومى ، ومن الصفحات المشرفه فى تاريخ الجيش المصرى والضباط المصريين

الحكم المصرى فى السودان

وشهادة الثقات من الأجانب

ذكرنا فى كتاب «عصر محمد على» (ص ١٨٣ من الطبعة الأولى) أقوال الثقات من الأجانب فيما بلغه السودان من العمران على عهد محمد على

والآن نذكر ماشهدوا به عن عمران السودان على عهد خلفائه وخاصة فى عصر اسماعيل

قال السير صموبل بيكر سنة ١٨٧٣ فى كتابه (الاسماعيلية): «أن مصر وحدها هى التى تستطيع تمدين أفريقية النيلية بانشاء حكومة نظامية، وحسبها أن تمد حدودها الى خط الاستواء، وبذلك تضمن حياة السائحين فى تلك الأقطار، واليوم قد أصبح امتداد حدودها الجنوبية الى خط الاستواء أمراً واقعاً، فانفتحت أفريقية الوسطى للحضارة والعمران»[1]

وقال المسيو سوتزارا Suzzara قنصل النمسا فى مصر على عهد اسماعيل: «إذا علمنا ماكانت عليه الشعوب فى تلك الأقطار من الهمجية، وجب علينا أن نعد خضوعها لسلطة الخديو تدرجا نحو التقدم، فان هذه الشعوب أخذت تألف الإدارة المنتظمة القائمة على قواعد الاستقرار والنظام، ومن جهة أخرى فان الأقطار السودانية التى كانت مقفلة قد فتحت للتجارة والرحلات، مما مهد السبيل لدخول الحضارة اليها»[2]

وقال رودلف سلاطين (باشا) فى كتابه (النار والسيف فى السودان) الذى وضعه سنة ١٨٩٥ عقب خلاصه من أسر التعايشى[3]:

---

(١) الاسماعيليه للسير صموبل بيكر ص ٤١٢

(٢) تقرير سوتزارا المنشور فى مجلة مصر Revue d'Egypte للمسيو جاليادرو بك عدد مارس سنة ١٨٩٦ ص ٦٢٩

(٣) النار والسيف فى السودان. النسخة الفرنسية ج ٢ ص ١٨٤ وما بعدها

« ان السودان المصرى يحكمه الآن (سنة ١٨٩٥) الخليفة عبدالله التعايشى ، الرئيس المستبد لدعاة المهدى ، وقد كانت السنوات العشر من حكم المهديين كافية لنشر العبودية فى نواحيه ، ومن الحق أن نقول إن السودان ظل سبعين سنة ونيفا ، منذ عهد محمد على مستظلا بالحكم المصرى ، مفتوحا للحضارة والمدنية ، والمتاجر المصرية والأوروبية تزدهر فى عواصمه ، والدول الأجنبية توفد قناصلها الى الخرطوم ، والسائحون على اختلاف أجناسهم يجوبون خلال البلاد ، دون أن يلقوا ممانعة ، بل كانوا يلقون عطفا ورعاية من ولاة الأمور ، وانتظمت طرق المواصلات والتلغرافات وإدارة البريد ، فسهلت الاتصال بين أرجاء السودان القاصية ، وأدى الناس الشعائر الدينية بملء الحرية سواء فى المساجد أو الكنائس ، وقامت مدارس البعثات الى جانب مدارس الحكومة ، وعلى الرغم من تعدد القبائل التى تسكن السودان وما كان بينها من العداء ، وتحفزها للاقتتال ، فإن حزم الحكومة وسطوتها كانا كافيين لتوطيد دعائم الأمن والسلام فى مختلف أصقاعه »

وقال فى موضع آخر يصف تبدل الحال بعد غلبة الثورة المهدية :

« لقد شهدنا فى السودان منظراً محزناً ، إذ رأينا الحضارة الجديدة التى دخلته مع الحكم المصرى تتداعى أركانها وينْدكّ صرحها بأيدى أقوام جهلاء يكادون يكونون من الهمج ، فأسسوا على أنقاض هذه الحضارة حكومة وضعوا لها نظاما يشبه فى بعض أشكاله نظم الحكم المصرى ، ولكنهم قضوا على ماازدان به من العدل والتهذيب ، فأقاموا فى السودان صرح الظلم والانحطاط ، ولا يكاد المرء يشهد فى التاريخ الحديث بلاداً أخرى سادت فيها الحضارة الناشئة زهاء نصف قرن من الزمان ، ثم انقلبت الى حالة أقرب ماتكون إلى الهمجية ، فان الخليفة والقبائل التى تناصره ، بعد أن اغتصبو سلطة الحكم وانتزعوها من أيدى المصريين ، يحكمون الآن الأهلين التعساء حكما جائرا ، ويسوقونهم بعصا من حديد ، ويسومونهم من الخسف والنكال ماجعلهم يتوقون الى التخلص من هذه الدولة ويتطلعون الى حكومة يجدون فى ظلها الراحة والسلام ، وليس أدل على مبلغ ماعاناه السودان فى عهد المهديين أكثر من فناء مايقرب من ثلاثة أرباع أهله ، ممن اجتاحتهم الحروب والمجاعات ، والأمراض المختلفة ، والتقتيل والتنكيل »

وقال فى موضع آخر : « لقد بعد العهد بحالة السودان تحت حكم اسماعيل ، إذ كانت الحكومة المصرية تحمل فى ربوعه لواء الحضارة والمدنية ، على حين كانت البقاع الخارجة عن منطقة النفوذ المصرى فى حالة الانحطاط والتأخر ، فالسودان بعد أن دخلته الحضارة فى ظل الحكم المصرى قد تطرقت اليه الهمجية على عهد المهديين »

وقال ما يأتى عن ارتباط السودان بمصر ، مما يجدر بنا أن نذكره على الدوام ونتخذه عبرة وعظة لنا وقاعدة لاتتبدل لسياستنا فى السودان :

« أرى واجبا علىّ أن أبين وجهة نظرى فى أهمية السودان وقيمته لمصر ، وأبدى الرأى الذى ثبت فى قرارة نفسى فأقول ، ان الأسباب التى دعت محمد على منذ خمس وسبعين سنة إلى امتلاك السودان لاتزال قائمة الى اليوم ، فالسودان هو مصدر الحياة لمصر ، وكل جهودها يجب أن تتجه إلى صيانة وادى النيل من أية غارة أجنبية ، فان كل خطوة تخطوها دولة أخرى نحو النيل ينظر اليها بعين الفزع من كل من يقدر خطر السيطرة الأجنبية على ذلك النهر العظيم وما تجره من تضحية سعادة مصر وتقدمها وتعريضها لأعظم المضار »

حدود السودان المصرى

أمس واليوم

اكتمل الفتح المصرى فى السودان وبلغت الدولة المصرية حدودها الطبيعية على عهد اسماعيل ، فشملت جنوباً بحيرة ألبرت وبحيرة فيكتوريا والبلاد التى بينهما ، إذ ضمت مملكة أونيورو وبسطت حمايتها على مملكة أوغنده ، وبلغت شرقاً سواحل البحر الأحمر وخليج عدن ، ووصلت حدودها الجنوبية الشرقية إلى المحيط الهندى ، وضمت اليها فى هذه النواحى سواكن ومصوع وزيلع وبربره وهرر وسواحل السومال الشمالية ، وصارت جميع شواطىء البحر الأحمر الغربية من السويس شمالا الى بوغاز باب المندب جنوبا ملكا لمصر وامتدت سلطتها إلى شواطىء خليج عدن ، من بوغاز باب المندب الى رأس جردفون (جردفوى) ثم الى رأس حافون الواقعين على المحيط الهندى ، وبلغت حدود الدولة المصرية غربا إلى مملكة وادى الواقعة غربى درافور

واليك ماذكره الكولونل ستوارت Stewart عن حدود السودان المصرى سنة


حدود الدولة المصرية في عهد اسماعيل
وحدودها الحالية
حدودها في عهد اسماعيل والى ما قبل الاحتلال الانجليزي
حدودها الحالية (سنة ١٩٣٢)
كم ٥٠٠ ٤٠٠ ٣٠٠ ٢٠٠ ١٠٠ ٠
مقياس الرسم
البحر الأبيض المتوسط
برقه
جغبوب
سيوه
الاسكندرية
القاهرة
بورسعيد
رفح
السويس
العقبه
الوجه
قنا
القصير
اسوان
المدينة
رأس بناس
برنيس
الحدود الحالية الباطلة
حدود السودان الشمالية قبل الاحتلال الانجليزي
حدود مصر الجنوبية قبل الفتح الاول للسودان
مكة
جده
سواكن
بربر
الخرطوم
الحديده
دارفور
الفاشر
الأبيض
كردفان
النيل الأبيض
النيل الأزرق
بحيرة تسانا
خليج عدن
زيلع
الحبشة
السومال الانجليزي
هرر
اديس ابابا
فاشوده
بحر الغزال
الكونجو البلجيكية
بحيرة ألبرت
بحيرة ادوارد
بحيرة فيكتوريا
بحيرة رودلف
مقديشو
براوه
بوراسماعيل
(قسمايو)
السومال الايطالي
المحيط الهندي
خط الاستواء
الحدود الجنوبية للدولة المصرية قبل الاحتلال الانجليزي
٢٠
٣٠
٤٠
٥٠
١٠

مقابل ص ١٧٤



١٨٨٢ ؛ فى تقريره الذى قدمه إلى البرلمان البريطانى سنة ١٨٨٣ (بعد الاحتلال الانجليزى) وهو يقرب من التحديد الذى ذكرناه ، قال :

« تبدأ حدود السودان المصرى من ضواحى برنيس على البحر الأحمر (صح من رأس علبه) ، وتتبع الخط ٢٤ من خطوط العرض الشمالى الى نقطة غير معينة فى جوف الصحراء اللوبية ، بالقرب من الخط ٢٨ من خطوط الطول ، ومن هناك يتجه الحد جنوبا بغرب ، حتى يلتقى بالركن الشمالى الغربى من دارفور حيث الخط ٢٣ من خطوط الطول ، ثم يتجه جنوبا حتى يصل الى مابين الخط ١١ — ١٢ من خطوط العرض ، ثم جنوبا بشرق ماراً بمونبوتو وبحيرة ألبرت إلى أن يتصل ببحيرة فيكتوريا ، ومن هناك يصعد شمالا بشرق ويشمل اقليم هرر ، ثم يصل إلى شواطىء المحيط الهندى عند رأس جردفون (جردفوى) ، ومن ثم يعود محاذيا الشاطىء حتى يصل الى برنيس »[1]

ومعنى ذلك ان جميع سواحل البحر الاحمر الغربية وسواحل السومال الشمالية الواقعة على خليج عدن كانت من أملاك مصر ، وقد ألحق الكولونيل ستوارت بتقرير، خريطة مسداليا بك (مدير دارفور) عن السودان بهذه الحدود ، وهى منشورة فى الكتاب الأزرق المتقدم ذكره ص ٣٨

وغير خاف أن هذه الحدود قد تراجعت بعد الثورة المهدية والاحتلال الانجليزى ، إذ تواطأت انجلترا مع الدول الأخرى على انتقاص مصر من أطرافها ، فاحتلت انجلترا أوغنده وأونيورو ومنطقة البحيرات والجزء الجنوبى كله من مديرية خط الاستواء ، وصار الحد الجنوبى للسودان ينتهى الآن عند نيمولى (الابرهيمية) بعد ان كان يشمل بحيرة فيكتوريا وبحيرت ألبرت ، واغتصبت انجلترا أيضا محافظتى زيلع وبربره ، وأخذت ايطاليا مصوع والاريتريه ورأس جردفون (جردفوى) ، وفرنسا تاجوره وجيبوتى ، والحبشة بلاد هرر وبنى شنقول من أعمال فازوغلى

ولم تكتف انجلترا بالتآمر على اقتسام أسلاب الامبراطورية الافريقية العظيمة التى أسستها مصر بدمائها وأموالها وجهودها ، بل شاركت مصر فى سيادتها على السودان

---

(١) الكتاب الأزرق الانجليزى عن مصر سنة ١٨٨٣ ج ١١ ص ٦

باتفاق ١٩ يناير سنة ١٨٩٩ ، ذلك الاتفاق الباطل الذى جعل السودان شركة بين مصر وانجلترا ، واتخذته هذه سبيلا الى الانفراد بحكم السودان ، وإقصاء نفوذ مصر الشرعى عن بلاد فتحتها منذ مائة سنة ونيف ونشرت فيها لواء الأمن والحضارة والعمران ، وبذلت فيها من الجهود والارواح والضحايا والاموال

وتراجع الحد بين مصر والسودان، فصار ينتهى عند الخط ٢٢ من خطوط العرض، وأصبح حد السودان الشمالى يبدأ عند (فرص) شمالى وادى حلفا ، بعد أن كان الحد الجنوبى لمصر قبل الفتح الاول للسودان (فى عهد محمد على) يصل الى جزيرة (ساى) جنوبى وادى حلفا ، وكان ينتهى قبل الاحتلال الانجليزى عند « سرس » جنوبى وادى حلفا أيضا

وصارت سواكن ، ووادى حلفا ومايليها جنوباً ، تابعة لإدارة السودان المشتركة بمقتضى الاتفاق الباطل المبرم فى ١٩ يناير سنة ١٨٩٩

الفصل السادس

الجيش

خلاصة تاريخ الجيش فى عهد اسماعيل انه عنى بترقيته وتنظيمه ومضاعفة قوته ، والوصول به الى مستوى الجيوش الكبيرة للامم الحديثة ، وعنى أيضا بنهضة التعليم الحربى ، فأنشأ المدارس الحربية على أرقى طراز حديث ، واختار لها اكفأ المدرسين والضباط ، وأحسن المناهج الدراسية ، فكان التقدم فى نظام الجيش يسير مطرداً مع تجديد التعليم فى المدارس الحربية

ولكنه فى السنوات الأخيرة من حكمه اهمل شؤون الجيش جملة واحدة ، فاختل نظامه ، ثم أقفل معظم المدارس الحربية التى أنشأها ، وذلك لنضوب معين المال ، وارتباك أحوال الحكومة بسبب فداحة الديون التى اقترضها من غير حساب ، بحيث لم ينته عهده حتى كان الجيش المصرى قد وصل الى درجة محزنة من الضعف والارتباك

تلك كلمة اجمالية عن حالة الجيش والمدارس الحربية فى عصر اسماعيل ، فالشطر الأول من ذلك العصر هو دور التقدم ، والشطر الثانى يمثل عهد التأخر والاضمحلال

فى الشطر الأول بذل الخديو جهوداً كبرى فى تنظيم الجيش ، وأرسل الى فرنسا بعثة حربية تتألف من خمسة عشر ضابطا من خيرة ضباط الجيش [1] ليقضوا زمناً فى مشاهدة نظام الجيش الفرنسى ، واقتباس خبرة قواده وضباطه ، فأبحرت هذه البعثة على ظهر السفينة الحربية المصرية « شيرجهاد » وأقلتهم الى فرنسا ، فاستقبلتهم

---

(١) ذكرهم اسماعيل باشا سرهنك فى كتابه ج ٢ ص ٣٠٨ وهم : شاهين باشا . ابراهيم باشا السوارى . على بك رضا الطوبجى . على بك وهبى . يوسف بك صديق . محمد بك رضا . محمود بك سامى . اسماعيل بك ايوب . عبد القادر بك حلمى . مصطفى بك فهمى . عثمان بك غالب . احمد افندى حمدى ، حسن افندى مظهر . محمد افندى

الحكومة الفرنسية بالحفاوة ، ودرسوا النظم العسكرية الفرنسية والاستحكامات والمناورات العمومية ، وغير ذلك من فنون الحرب والقتال ، وجمعوا طائفة من المؤلفات الحربية المشتملة على أساليب الجيش الفرنسى ونظاماته ، وعادوا بها ليطبقوها فى مصر ، وأخذ الخديو اسماعيل فى تنظيم الجيش على نظام الجيش الفرنسى الحديث

ولم يكتف بذلك بل أحضر من فرنسا بعثة حربية مؤلفة من بعض الضباط الفرنسيين لتنظيم المدارس الحربية المصرية ، فجاءت هذه البعثة الى مصر سنة ١٨٦٤ برآسة الكولونل مرشر (بك) Mircher ومعه ثلاثة ضباط آخرون وهم رباتيل Rebatel ولارمى (باشا) Larmee ، وبولار Polard ، وألحق بهم الضباط دوبرناردى بك الذى كان يخدم الحكومة من عهد سعيد باشا ، فتولى هؤلاء الضباط نظارة بعض المدارس الحربية ونظموا شؤونها

ولما شرع اسماعيل فى تنظيم التعليم الحربى نقل المدرسة الحربية التى كانت بالقناطر الخيرية الى قصر النيل ثم الى العباسية ، وانشأ بهذه الجهة عدة مدارس حربية أخرى بدل المدارس التى انشئت فى عهد محمد على وعفا أثرها ، واختار جهة العباسية لقربها من الصحراء حيث يسهل على التلاميذ القيام بالتمرينات الحربية وضرب النار ، ولانه كان بها السراى الفخمة التى انشأها عباس باشا الاول ، وتقدم الكلام عنها ، والمبانى الملحقة بها ، وكانت تصلح مقراً للمدارس والمعاهد والثكنات

وجعل لهذه المدارس إدارة واحدة تدعى « ادارة المدارس الحربية »

وفيما يلى بيان المدارس الحربية التى أنشأها الخديو بالعباسية فى أوائل حكمه :

١ — مدرسة البيادة (المشاة) أنشأها سنة ١٨٦٤ ، وكان عدد تلاميذها حين تأسيسها ٤٩٠ تلميذ ، وتولى نظارتها محمد امين بك ، ثم دى برنارى بك ، ثم منصور افندى حسن ، ثم محمد رعنا افندى ، ثم جعل لها مديرى ادارة وهم على التعاقب : محمد كامل افندى ، ثم ابراهيم عاصم افندى ، ثم محمد صالح افندى

٢ — مدرسة السوارى (الفرسان) ، أنشئت سنة ١٨٦٥ وعدد تلاميذها ١٦١ تلميذ ، وتولى نظارتها الضابط الفرنسى بولار ثم ياور بك

٣ — مدرسة الطوبجية (المدفعية) والهندسة الحربية ، انشئت سنة ١٨٦٥ وعدد

تلاميذها ٢٨٠ تلميذ ، وتولى نظارتها الكولونل لارمى (باشا) ، وكان تلاميذها ينتخبون من بين طلبة مدرسة المهندسخانة ، وهذا يدلك على رقى المستوى العلمى لتلاميذها وخريجيها ، فلا غرو أن نبغ فيها وفى مدرسة أركان الحرب طائفة من أكفأ الضباط المصريين

٤ -- مدرسة أركان الحرب بالعباسية ، أنشئت سنة ١٨٦٥ ، وتولى نظارتها الكولونل مرشير بك ، ثم شحاته عيسى بك أحد خريجى بعثات محمد على ، ثم رباتيل بك ، ثم عاد إلى نظارتها مرشير بك ، ثم لارمى باشا ، ويختار تلاميذها من نوابغ طلبة المدارس الحربية أو المهندسخانه ، وتعد هى ومدرسة الطوبجية من أرقى المدارس العالية التى أسسها الخديو اسماعيل

٥ -- مدرسة الخطرية بالقلعة ، أنشئت سنة ١٨٧٤ ، وهى أقل شأناً من المدارس المتقدمة ، والغرض منها تخريج صف الضباط ، وتولى نظارتها القائمقام خليل عفت بك ولم تمكث هذه المدرسة طويلا

٦ -- مدرسة صف الضباط انشئت سنة ١٨٧٤

وقد خرجت هاتان المدرستان عدداً من صف الضباط الذين استخدمتهم الحكومة فى الاكتشافات الجغرافية بالسودان

٧ -- مدرسة الطب البيطرى ، أنشئت سنة ١٨٦٨ ، وتولى نظارتها المسيو ليونار ، ووكالتها اسماعيل راضى افندى ، وأحيلت نظارتها منذ سنة ١٨٧٠ على ناظر مدرسة الفرسان (السوارى)

٨ و ٩ -- مدرسة قلفاوات الشيش ، ومدرسة الجبخانجية

وقد أقفلت هذه المدارس فى أواخر عهد اسماعيل (فبراير سنة ١٨٧٩) لارتباك شؤون الحكومة المالية ، واضطراب أحوالها الادارية والسياسية ، وأنشئت بدلها المدرسة الحربية المستجدة فى ابريل سنة ١٨٧٩ ، وعين لارمى باشا ناظراً لها ، وهى المدرسة الباقية الى اليوم (١٩٣٢)

هيئة أركان حرب الجيش

عهد الخديو اسماعيل الى طائفة من الضباط الامريكيين تأسيس هيئة أركان حرب

للجيش المصرى ، فتألفت هذه الهيئة من الضباط المصريين الذين عادوا من البعثة الحربية بفرنسا ، ومن الضباط الامريكيين . وجعل على رأسهم الكولونيل (استون) Stone وهو ضابط امريكى على جانب كبير من الكفاءة والخبرة ، غادر الولايات المتحدة بعد انتهاء الحرب الاهلية ، وجاء مصر وعرض خدماته على الخديو اسماعيل فألحقه بالجيش ، وعهد اليه سنة ١٨٧٠ برآسة هيئة أركان حرب الجيش المصرى ، لما آنسه فيه من الكفاءة ، وأنعم عليه برتبة اللواء ، فصار يعرف بالجنرال استون باشا ، واضطلع بالمهمة التى اسندت اليه ، واستعان على إحياء هذه الهيئة وتنظيمها بطائفة من الضباط الوطنيين وبطائفة أخرى من الضباط الامريكان ومن الميكانيكيين والمهندسين والخبراء فى علم طبقات الارض ، وانشىء فى هذه الهيئة قسم للجغرافية مهمته وضع الخرائط الطبوغرافية الدقيقة عن أنحاء مصر والسودان ، وتولى تخطيط هذه الخرائط ضباط أركان الحرب المصريون والضباط الامريكان ممن قاموا بالرحلات الاكتشافية التى تكلمنا عنها فى موضعها ، فجاءت أعمالهم غاية فى الدقة والاحكام

وانشئت مطبعة خاصة لهذه الهيئة ، لطبع رسومها وخرائطها ، ومكتبة نفيسة تحوى كتبا قيمة فى الفنون الحربية وما اليها ، وألحق بها متحف حربى للاسلحة والتحف والتذكارات الخاصة بالجيش ، وتقدمت هيئة اركان الحرب تقدما مطردا لم يوقفه سوى ارتباك الاحوال فى أواخر عهد اسماعيل . وقيام الثورة العرابية ، ثم الاحتلال الانجليزى [١]

ولكن من الحق أن نقول أن هيئة أركان الحرب فى عهد اسماعيل كان ينقصها الاتصال المتين بالقيادة العامة للجيش ، فلم يتم التعاون بين الهيئتين ، بل دب النفور بينهما ، وأدى اليه فى الغالب صلف ضباط القيادة العامة ومعظمهم من الشراكسة الذين كان من أخص صفاتهم الزهو والخيلاء ، وقد كان هذا التنافر من أهم أسباب إخفاق الحملة المصرية فى حرب الحبشة ، كما تقدم بيانه ، وكان انفصال هيئتى أركان الحرب والقيادة العامة من العوامل التى حالت دون وحدة الجيش ، وأفضت الى ضعفه واضمحلاله

---

(١) غادر استون باشا مصر نهائيا سنة ١٨٨٢ حين اعتزم الانجليز وضع أيديهم على الجيش المصرى ، وتوفى فى نيويورك سنة ١٨٨٧

الصحافة الحربية

وأنشئت صحيفتان حربيتان لتثقيف عقول التلاميـــذ والضباط ، إحداهما تدعى (جريدة أركان حرب الجيش المصرى) ، والأخرى (الجريدة العسكرية المصرية) ، تولى تحريرهما ضباط الجيش المصرى ، وقد اطلعنا فى دار الكتب الملكية على مجموعة من جريدة أركان الحرب ، وهى مجلة شهرية ، صدر العدد الأول منها فى ١٥ جمادى الأولى سنة ١٢٩٠ (١٠ يوليه سنة ١٨٧٣) ، واستمرت تصدر بانتظام عدة سنوات ، ورأينا مجموعتها كاملة لغاية اكتوبر سنة ١٨٧٨ ، وفيها مباحث قيمة للجنرال استون باشا رئيس أركان الحرب ، ولمحمد مختار افندى (باشا) ، وحماد بك عبد العاطى المدرس بالمدارس الحربية ، وعبد الرزاق نظمى (بك) ، واحمد بك عزى ، وعبد الله بك فوزى ، من ضباط أركان الحرب وغيرهم ، وكان الشيخ حسن الطويل العالم المشهور يصحح المجلة

ورأيت فى العدد الصادر فى ١٥ شوال سنة ١٢٩١ (٢٤ نوفبر سنة ١٨٧٤) نبذة تاريخية عن الحملة الانجليزية على مصر سنة ١٨٠٧ وهزيمتها ، استخلص كاتبها وجه العبرة منها بقوله :

« وإذا قدر الله بغزو هذه الديار مرة أخرى ، فليتذكر ضباط الجيش المصرى غزوة سنة ١٨٠٧ [١] ، وليكن كل ضابط مصمما على المدافعة والذب عن وطنه ، ولا يرتكب العار فى التسليم كما ارتكبه أمين اغا ، بل يدافع بنفسه وبعساكره عن كل نقطة يتجه الهجوم اليها ، كما فعل على بك السلانيكلى الذى اكتسب الفخر والشرف ومنع العدو وصده عن الوطن فى غزو بندر رشيد رحمة الله عليه آمين» [٢] ، فهذه العبارة تدلك على الروح التى كانت تتمشى فى مباحث المجلة ، وكيف كانت تبث فى نفوس الضباط روح الواجب والقومية ، ومن المؤلم أن البلاد قد رزئت سنة ١٨٨٢ بغزوة انجليزية

---

(١) راجع وقائع هذه الغزوة فى (عصر محمد على) ص ٤٠ وما بعدها (من الطبعة الاولى)

(٢) جريدة أركان حرب الجيش المصرى العدد ٦ من المجلد الأول للسنة الثانية

أخرى كغزوة سنة ١٨٠٧ ، ولكن ضباط الجيش وجنوده لم يقوموا بالواجب الذى ذكرتهم به جريدة أركان الحرب سنة ١٨٧٤ ، فكان ما كان من الهزيمة والاحتلال

تجديد السلاح والمصانع الحربية

أوصى الخديو اسماعيل سنة ١٨٦٧ معامل الأسلحة الفرنسية بصنع عدة آلاف من البنادق الحديثة ذات الإبر المعروفة ببنادق (شاسبو) نسبة الى مخترعها ، وسلح بها الجيش المصرى

ورمم حصون الاسكندرية ، وجدّد أسلحتها ومدافعها ، وجلب المدافع الضخمة من طراز ارمسترنج ، وركبها فى طوابى الثغور ، وخاصة الاسكندرية ، وهى المدافع التى كان لها عمل ضئيل أثناء ضرب الأسطول البريطانى مدينة الاسكندرية سنة ١٨٨٢ ، ولم تؤثر فى سفن الأسطول لعدم تمرن رماتها على استعمالها بسبب سوء تدبير الحكومة والعرابيين

وعنى اسماعيل بشأن المصانع الحربية ، التى كانت منشأة من عهد محمد على ، فنظم معمل الحوض المرصود ، وأصلح من شأنه ، وصارت تصب فيه المدافع ، وتصنع فيه الأدوات والآلات الحربية للجيش

وشيد بطره معملا لصنع الأسلحة المسدسة ، وآخر لصب المدافع وآخر للبنادق ، عدا معامل الخرطوش والقنابل ، وأصلح مصانع البارود التى كانت موجودة بمصر حتى اشتهر ذكرها فى الآفاق ، وأرسل سلطان مراكش بعثة من المغاربة ليتعلموا فى مصر صناعة البارود والطباعة

وأصلح معمل الأسلحة بالاسكندرية ووسع نطاقه

إنشاء ميدان للرماية والتمرينات العسكرية

(البوليجون)

وفى عهد وزارة الأمير حسين باشا كامل (السلطان حسين كامل) للحربية وضع

لارمى بك تصميم انشاء البوليجون للتمرين على ضرب النار ، وأخذت أورطة المهندسين فى بنائه بإشراف لارمى بك وخفاجى بك أحد أساتذة مدرسة أركان الحرب ، وجعل به عدة أقسام للتمرين ، منها قسم لتمرين ضباط المدفعية على الرمى بالمدافع ، وقسم لتمرين الضباط المشاة على الرمى بالبنادق ، وقسم لصف الضباط ، وقسم لتعليم التلغرافات العسكرية وقسم للإشارة

إدخال النظام الألمانى

كان النظام الفرنسى هو المتبع فى الجيش المصرى ، ولكن الخديو اسماعيل اعتزم تدريبه على أساليب الجيش الألمانى ، لما ذاعت شهرته بعد انتصاره على الفرنسيين فى الحرب السبعينية ، فأمر بترجمة القوانين والنظامات الألمانية وتعديل الملابس وتغيير الأسلحة ، ولكن ارتباك شؤون الحكومة المالية فى أواخر عهده حال دون الانفاق على الجيش وتجديده

إحصاء الجيش

ذكر اسماعيل باشا سرهنك فى كتابه (ج ٢ ص ٣١١) إحصاء الجيش سنة ١٨٧٣ ، ومنه يتبين أن عدده بلغ نحو ٩٠٫٠٠٠ مقاتل من جند وضباط وتلاميذ المدارس الحربية كالبيان الآتى :

٨٤٫٥٣٠ جنود وصف ضباط

٢٫٦٦٨ ضباط وقواد

١٫٨٩٠ تلاميذ المدارس الحربية

٨٩٫٠٨٨

وهذا عدا الجيش المرابط فى السودان ، وقد بينا أنه بلغ ثلاثين ألفاً ، أى أن تعداد الجيش المصرى فى مصر والسودان بلغ على عهد اسماعيل نحو ١٢٠٫٠٠٠ مقاتل

افتقار الجيش إلى قائد عظيم

رأيت مما تقدم تطور حالة الجيش فى عهد اسماعيل وعلمت ما أصابه من الضعف في

السنوات الأخيرة من حكمه ، وترجع أسباب هذا الضعف إلى ارتباك شؤون الحكومة المالية الذى كان نتيجة لقروض الخديو ، وإلى عدم التعاون بين قيادة الجيش وهيئة أركان الحرب ، وثمة سبب جوهرى لهذا الضعف ، يتراءى فى عصر اسماعيل عامة ، وهو عجز القيادة العامة ، فقد كان الجيش يعوزه قائد كبير يضارع ابراهيم باشا فى كفاءته وعبقريته ، ويبعث فى نفوس الجند روح البطولة والمجد والبسالة ، ولم يكن اسماعيل على غرار أبيه فى النبوغ والعبقرية ، ولا ورث عنه صفاته الحربية ، ولم يألف خوض غمار القتال ، ولا وجد بين قواده من يسد الفراغ الذى كان يملؤه البطل ابراهيم ، وغنىّ عن البيان أن حرمان الجيش مثل القائد العظيم ، ومثل سليمان باشا الفرنساوى أو القواد الذين ازدان بهم تاريخ مصر الحربى فى معارك مصر واليونان وسوريا والاناضول ، كان العامل الأول بما أصابه من الضعف

وقد ظهر هذا الضعف فى حرب الحبشة سنة ١٨٧٥ — ١٨٧٦ ، كما بيناه فى الفصل السابق ، وتبين أن أهم أسباب الهزيمة فى تلك الحرب عجز القيادة وسوء النظام ، وكانت هذه الهزيمة موضع دهشة المصريين والأجانب على السواء ، فقد كانوا يعتقدون أن الجيش المصرى لم يزل محتفظاً بالمكانة التى نالها فى حروب محمد على أو فى حرب القرم ، ولكن حرب الحبشة زلزلت هذه المكانة وكشفت عن أعراض الضعف الذى أصاب الجيش على مر السنين فى عهد خلفاء محمد على

وقد زاد فى ضعفه ارتباك الحكومة المالى ، وتدخل الدول فى شؤونها ، فان هذا الارتباك أفضى إلى نقص مخصصات الجيش ، وكان من أعمال وزارة نوبار باشا الأولى تخفيض عدد الجيش ، توفيراً فى النفقات وسداً لعجز الميزانية ، فقررت إحالة ٢٥٠٠ ضابط على الاستيداع ، وتسريح عدد كبير من الجند ، واستمرت أسباب الضعف تزداد وتتفاقم ، إلى أن ظهرت نتائجها مرة أخرى فى وقائع الاحتلال الانجليزى سنة ١٨٨٢ ، تلك الوقائع التى تعد صفحة محزنة فى تاريخ مصر الحربى

الفصل الرابع

البحرية

تولى الخديو اسماعيل الحكم والبحرية المصرية فى حالة سيئة من التأخر والضعف ، فقد بدأ اضمحلالها كما قدمنا فى عهد عباس ، ولم يعمل سعيد باشا على إحيائها ؛ لما لقيه من العقبات من ناحية تركيا

فأخذ اسماعيل فى أوائل حكمه يعنى بتجديد الأسطول ، فبعث النشاط فى ترسانة الاسكندرية (دار الصناعة) ، وأحيا معاملها ومصانعها ، وجلب لها العمال من الاسكندرية ومن داخل البلاد ، واستحضر لها الآلات والعتاد ، فعاد اليها نشاطها الذى كان لها فى عهد محمد على

وأنشىء بها بعض السفن الحربية فى عهد ولاية عبد اللطيف باشا ، ثم شاهين باشا ، لوزارة البحرية ، وباسم الأول منهما سميت البارجة « لطيف » ، وتم فى عهد الثانى بناء البارجة (الصاعقة)

وأوصى الخديو بصنع عدة سفن حربية مدرعة فى ترسانات أوروبا

وجدّد المدرسة البحرية بالاسكندرية ، وأنشأ مدرسة بحرية أخرى بجوار الترسانة ، أحضر لها المدرسين الأكفاء من مصر وأوروبا ، وعهد بنظارتها إلى ضابط من ضباط البحرية الانجليزية ، يدعى مكيلوب (باشا) ، ووكيله ضابط مصرى كفء وهو عبد الرازق بك درويش ، ثم تولى هو نظارتها من بعده [1]. ومن كبار أساتذتها سايبن قبودان حلاوه [2] من مشاهير ضباط البحرية ، وانتخب تلاميذ هذه المدرسة من نبهاء طلبة المدارس الأميرية والابتدائية ، وكانت تدرس فيها الفنون والعلوم البحرية التى تدرس فى المدارس البحرية الأوروبية ، ومدة الدراسة فيها ثلاث سنوات ، واختارت

---

(١) الوقائع المصرية العدد ٥٩٨ — ٢١ مارس سنة ١٨٧٥

(٢) الوقائع المصرية العدد ٤٤١ — ٢٣ يناير سنة ١٨٧٢

الحكومة طائفة من خريجيها وأوفدتهم الى انجلترا لإتمام العلوم البحرية ، منهم اثنان لتعلم فن إنشاء السفن ، وهما حسن فريد افندى وحشمت افندى ، واثنان لتعلم الميكانيكا البحرية ، وهما محمد أنيس افندى ، ومحمد عارف افندى ، ولما عادوا إلى مصر التحقوا بدار الصناعة بالاسكندرية ، ومن هذه المدرسة تخرج اسماعيل باشا سرهنك ، مؤلف كتاب حقائق الأخبار عن دول البحار ، وناظر المدرسة الحربية المستجدة

بذل الخديو اسماعيل كما ترى جهوداً ممدوحة فى إحياء البحرية المصرية ، ولكن عقبات جمة اعترضته فى سبيله ، ذلك أن الحكومة التركية رأت البحرية المصرية آخذة بأسباب النشاط والقوة ، وعلمت بأن اسماعيل أوصى على ثلاث مدرعات فى فرنسا ، ومدرعتين أخريين فى النمسا ، وأن هذه المدرعات قد تم صنعها ، وأرسل الخديو سنة ١٨٦٨ طوائفها من الضباط والبحارة ليتسلموها ، فاعترضت على تسليمها ، وتذرعت بأن الفرمانات لا تبيح لمصر إنشاء السفن الحربية المدرعة ، فانتهى الخلاف بأن ابتاعتها تركيا لنفسها

وكان هذا الاعتراض بإيعاز من انجلترا التى يسوءها أن تجدد مصر قوتها البحرية ، فاستخدمت نفوذها لدى الاستانة لتحول دون هذا التجديد ، وقد وقفت انجلترا هذا الموقف ذاته فى عهد عباس ثم فى عهد سعيد . وكانت بذلك تعمل على خطة رسمتها لنفسها منذ انشأ محمد على الكبير الاسطول المصرى ، وهى إضعاف قوة مصر البحرية ، لكى تأمن على سلطانها فى البحر الابيض المتوسط والبحر الأحمر

خدمات الأسطول

ورغم ما اعترض الاسطول من العقبات ، فانه أدى خدمات لا تنكر ، فقد اشترك فى عدة حملات حربية على ظهر البحار ، كحملة كريت . وحرب البلقان ، فكانت سفنه تقل الجنود المصرية إلى الجهات التى تقصدها ، وكان صلة الاتصال بين مصر وثغورها وأملاكها المترامية على البحر الأحمر وخليج عدن والمحيط الهندى ، وقد أقلت سفنه القوات العسكرية التى أرسلتها مصر إلى تلك الثغور البعيدة ، كمصوع ، وزيلع ، وبربره ورأس جردفون (جردفوى) ، كما أقلت الحملة التى أنفذتها الى بلاد الصومال ، ووصلت الى ثغر قسمايو (بور اسماعيل) شمالى زنجبار على شاطىء المحيط الهندى

وطافت بعض سفنه حول القارة الافريقية ، متنقلة من البحر الابيض المتوسط الى البحر الاحمر عن طريق الاقيانوس الاعظم ورأس الرجاء الصالح ، قبل أن تشق قناة السويس

إحصاء الاسطول

أحصى العلامة على باشا مبارك [١] الأسطول المصرى فى عهد الخديو اسماعيل ، فذكر أن عدده ١٤ سفينة حربية ، وهى : المحروسة . مصر . الغربية . محمد على . شيرجهاد . لطيف . دنقله . الطور . سيناء . الخرطوم . أسيوط . وثلاثة مراكب أخرى صغيرة

ولاسماعيل باشا سرهنك إحصاء آخر ، فقد قال (ج ٢ ص ٥٥) إن عدد سفن الأسطول ١٨ سفينة حربية ، وذكر (ص ٢٨٧) أسماءها مع ثلاث بواخر حربية أخرى مخصصة لركوب الخديو ، وهذا بيانها :

اسم البارجة	محل انشائها	نوع معدنها	عدد مدافعها
١ ـ محمد على (فرقاطة)	أمريكا	حديد وخشب	٢٨
٢ ـ شير جهاد	تريستا	خشب	٢٨
٣ ـ لطيف (كورفت)	الاسكندرية	خشب	٦
٤ ـ الخرطوم (مدفعية)	انجلترا	خشب	٥
٥ ـ دنقله (مدرعة)	انجلترا	مدرع	٨
٦ ـ الصاعقة (كورفت)	الاسكندرية	خشب	٨
٧ ـ سنار (مدفعية)	انجلترا	خشب	٧
٨ ـ زرخ نمرة ١	فرنسا	مدرع	٢
٩ ـ » » ٢	»	»	٢
ثلاث بواخر حربية لركوب الخديو			
١٠ ـ المحروسة	لندن	حديد	٨
١١ ـ مصر	طولون (فرنسا)	»	٦

---

(١) فى الخطط التوفيقية ج ٧ ص ٨٢

اسم البارجة	محل انشائها	نوع معدتها	عدد مدافعها
١٢ ـ الغربية	طولون (فرنسا)	حديد	٤
	طرادات وسفن للنقل		
١٠ ـ الطور	انجلترا	حديد	٢
١٤ ـ اسوان	«	خشب	٤
١٥ ـ شندى	«	«	٤
١٦ ـ أسيوط	الاسكندرية	«	٢
١٧ ـ الجعفرية	انجلترا	حديد	٣
١٨ ـ سمنود	«	خشب	٢
١٩ ـ نور الهدى	«	حديد	٢
٢٠ ـ مخبر	«	«	٢
٢١ ـ عجمى	«	«	٢

فمن هذا الإحصاء ومن مقارنته بإحصاء الاسطول الضخم الذى كان لمصر فى عهد محمد على (عصر محمد على ص ٤٣٢) يتبين لك مبلغ ما أصاب البحرية المصرية من الضعف فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، ثم إذا قارنت هذين الاحصاءين بحالة أسطول مصر الآن –١٩٣٢– (أى بعد الاحتلال الانجليزى) وبحثت عبثاً أين هو الاسطول وىم يتألف ؟ وماذا يعمل ؟ يعروك الدهش والأسى والألم ، لانعدام قوة مصر البحرية فى عهد الاحتلال

الأسطول التجـارى

لما وجد اسماعيل ما يعترضه من العقبات فى سبيل تجديد الأسطول الحربى ، وجه عنايته إلى الأسطول التجارى ، فأنشأ شركة للملاحة التجارية ، سميت الشركة العزيزية ، نسبة إلى السلطان عبد العزيز ، أعد بواخرها لنقل المسافرين ونقل المتاجر إلى ثغور البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر ، بعد أن أبطل الشركة المجيدية التى أنشئت فى عهد سعيد باشا ، وجعل رأس مال الشركة الجديدة موزعا على أسهم ليشترك الأفراد فيها

فاكتتب جماعة من سراة المصريين فى رأس مالها ، وخصص لها الخديو سبع بواخر كانت موجودة من قبل ، وأوصى بإنشاء بواخر جديدة فى انجلترا ، وجعل على قيادة هذه البواخر ضباط البحرية القدماء الذين تركوا خدمة الأسطول منذ اضمحلاله ، وكذلك بحارته ، وابتاعت وزارة البحرية عدا ذلك عدة سفن شراعية كبيرة لنقل الأخشاب اللازمة لوزارتى البحرية والحربية من بلاد الأناضول ، فكان الأسطول التجارى المصرى بنوعيه من البواخر والسفن الشراعية بالغاً درجة كبرى من التقدم

وكان لبواخر (الشركة العزيزية) فضل كبير فى نشاط حركة التجارة الخارجية لمصر ، وتسهيل مواصلاتها البحرية مع الأقطار الأخرى ، وزاحمت شركات الملاحة الأجنبية فى هذا الصدد ، ونجحت فى عملها ، ونمت إيراداتها ، وربحت الأرباح الوفيرة ، ثم ابتاع الخديو اسماعيل أسهمها ، احتكاراً لأرباحها ، وحولها إلى إدارة من إدارات الحكومة عرفت بمصلحة (وابورات البوستة الخديوية) ، فاستمرت مطردة النجاح واتسع نطاق أعمالها ، وصار لها من البواخر الكبيرة ست وعشرون باخرة[١] تجوب البحار رافعة العلم المصرى ، وتنقل الناس والمتاجر والبريد بين ثغور مصر وشواطىء البحر الأبيض المتوسط فى سوريا والأناضول وبلاد اليونان ، وشواطىء الدردنيل والبوسفور ، وثغور البحر الأحمر كسواكن ومصوع وينبع وجدة والحديدة ، وتجتاز بوغاز باب المندب إلى زيلع وبربره

وقد ألحق بهذه المصلحة الحوض العائم الذى أنشىء بميناء الاسكندرية ، وخصص لبواخرها معمل (فابريقة) فى ترسانة الاسكندرية للقيام بما تحتاجه من الإصلاح

وبقيت هذه الادارة الكبيرة ببواخرها وملحقاتها كالحوض وفابريقة الترسانة ملكا للحكومة ، إلى أن باعتها فى عهد الاحتلال ، إلى شركة انجليزية ، بأبخس الأثمان ، فانتقلت تلك المنشآت البحرية العظيمة ، وهذه الثروة القومية الضخمة ، إلى أيدى

---

(١) هى : الرحمانية . التاكا . الفيوم . البحيرة ، الشرقية . الدقهلية . طنطا . شندى شبين . دسوق . كوفيت . سمنود . المنيا . الجعفرية . مسير . المنصورة . المحلة . النجيلة دمنهور . الرقازيق . الحجاز . الحديدة . ينبع . القصير . سواكن . مصوع (كتاب إحصاء مصر سنة ١٨٧٣ — ص ٤٧).

الانجليز ، وأنزل العلم المصرى عن بواخرها ، واستبدل به العلم البريطانى ، فكانت نكبة ، وكان خسران

إتمام ميناء السويس

إن إتمام أعمال الإصلاح فى ميناء السويس ، وإصلاح ميناء الاسكندرية ، وإنشاء الفنارات البحرية ، هى من أعمال العمران التى تتصل بالبحرية ، ولذلك نتكلم عنها فى سياق الحديث عن البحرية فى عهد اسماعيل

شرع سعيد باشا سنة ١٨٥٦ فى إنشاء ميناء جديد بالسويس لسهولة إيواء السفن ، فجعل من الثغر مرفأين ، أحدهما يسمى ميناء ابراهيم ، جعل للبواخر الحربية ، وجعل الثانى للسفن التجارية ، وأقيم حاجز من الأحجار لصد الأمواج عن الميناءين ، وبه البوغاز لدخول السفن وخروجها

وشرع فى إقامة حوض لعمارة السفن ، وقد استمر العمل فى إتمام هذه المشروعات إلى أن كملت فى عهد اسماعيل ، وبلغت نفقات الحوض والجسر الذى يصله بميناء السويس ٢٤٠٫٠٠٠ جنيه ، وقد تنازلت عنه الحكومة المصرية فى عهد الاحتلال إلى الشركة الانجليزية التى اشترت وابورات البوستة الخديوية

إصلاح ميناء الاسكندرية

لما اتسعت حركة العمران وازدادت المواصلات البحرية فى الاسكندرية شرع اسماعيل فى توسيع مينائها وإصلاحه ، واعتزم إنفاذ هذا الإصلاح بعدما أنشئت بورسعيد وقارب مشروع قناة السويس التمام ، فقد خشى أن تزاحم بور سعيد الاسكندرية ، وتتحول اليها حركة التجارة الخارجية ، فاعتزم توسيع ميناء الاسكندرية لتجتذب اليها السفن فى غدوها ورواحها

فأول مابدأ به إقامة حوض عائم من الحديد لإصلاح السفن ، بدل الحوض المبنى بالحجر من عهد محمد على . والذى صار مع الزمن لايفى بإصلاح السفن ، وخاصة كبيرة الحجم ، وقد جلب الحوض الجديد من فرنسا سنة ١٢٨٥ هـ (١٨٦٨م)

ثم أنشا حاجز الأمواج الضخم الذى يق الميناء طغيان الأمواج ، ويجعل السفن الراسية به فى مأمن من العواصف ، ولا يزال قائماً إلى اليوم ، وهو جسر من الدبش والأحجار الضخمة والصخور ، ممتد من طرف شبه جزيرة رأس التين إلى جهة العجمى ، وفيه البوغاز لمرور السفن منه ، وأنشأ بداخل الميناء رصيفا للشحن والتفريغ وأرصفة أخرى ممتدة فى داخل الميناء ، وكانت هذه المشروعات من أعمال العمران الضخمة التى اقتضت جهوداً كبيرة ، وكلفت الخزانة نحو ثلاثة ملايين من الجنيهات ، وقد عهد بها الخديو إلى شركة انجليزية تدعى شركة جرنفلد ، وبدىء فى العمل سنة ١٨٧١ ، ولم يتم إلا بعد تسع سنوات سنة ١٨٧٩

الفنارات

وأنشأ عدة فنارات فى ثغور البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر لإرشاد السفن ولتسهيل الملاحة البحرية

وهذا بيانها :

(فى البحر الأبيض المتوسط)

فنار البرلس ، أنشىء سنة ١٨٦٨ ، وفنار رشيد سنة ١٨٦٨ ، وفنار دمياط (تجاه رأس البر) سنة ١٨٦٩ ، وفنار بورسعيد سنة ١٨٦٩ ، وفنار العجمى سنة ١٨٧٣ ، وفنار حاجز الميناء سنة ١٨٧٦ ، وفنار القبارى سنة ١٨٧٧ ، أما فنار رأس التين الكبير فهو منشأ من عهد محمد علي

(فى البحر الأحمر)

وكان بالبحر الأحمر من الفنارات قبل عصر اسماعيل فنار زنوبيا ، وفنار الزعفران جنوبى السويس ، وفنار الأشرفى ، وفنار أبى كيزان ، فرأى الخديو اسماعيل أن هذه الفنارات لا تكفى لإرشاد السفن فى البحر الأحمر ، لكثرة صخوره ومخاطره ، فأنشأ فنارات أخرى وهى :

فنار السويس . وفنار رأس الغريب جنوبى رأس الزعفران ، وفنار صخور الأخوين

الشمالية ، وفنار جزيرة شدوان الذى تم سنة ١٨٨٩ ، وفنار (الوجه) من ثغور الحجاز [١]

وأنشأ فى خليج عدن بالأقيانوس الهندى فنار بربره السابق الكلام عنه ، وأمر بإقامة فنار فى جردفون (جردفوى) سنة ١٨٧٨ ، ولكنه لم ينشأ كما تقدم بيانه (ص ١٦٢)

(١) كانت متصرفية (الوجه) تابعة لحكومة مصر

الفصل الثامن

حروب مصر فى عهد اسماعيل

خاضت مصر فى عهد اسماعيل عدة حروب ، تختلف فى أهميتها ونتائجها ، ومعظمها مما دعته تركيا إلى خوض غمارها لنجدة جيشها ، ماخلا حروب السودان ، فقد كانت ابتكاراً من الخديو اسماعيل ، لبسط نفوذ مصر فى باطن افريقية وشرقيها ، والوصول إلى الحدود الطبيعية لوادى النيل ، وحرب الحبشة التى كانت حرباً عقيما من كل الوجوه

ولم يكن للحروب التى خاضتها مصر تلبية لطلب تركيا من نتائج عملية لمصلحة مصر سوى أن اسماعيل كان يتخذها فى الجملة ، ذريعة لاستصدار مزايا وحقوق جديدة تقرب مصر من استقلالها التام ، ومن جهة أخرى فانها كانت ميادين لمران الجيش المصرى وجنوده وضباطه على ممارسة القتال والإفادة من تجاريبه ووقائعه

(١) إخماد ثورة العسير

فى أوائل عهد اسماعيل ثار الأمير محمد بن عائض أمير العسير على الدولة العثمانية ، وقصد الاستيلاء على تهامة اليمن ، فحاربه متصرف الحديدة ، وصدّه فى بعض المواقع ، ولكن الامير استفحل أمره واستولى على بعض المدن ، فاستنجد السلطان عبد العزيز بالخديو اسماعيل ، وطلب اليه أن ينفذ جيشاً مصرياً لإخماد الثورة

فلبى اسماعيل طلبه ، وأنفذ إلى عسير قوة من ثلاث أورط من المشاة ، زودها بالمدافع وكتائب الفرسان ، وعقد لواء قيادتها للأمير الاى اسماعيل صادق بك ، فلما وصل إلى ثغر جدة ، اتفق وواليها على تجريد الحملة المصرية صحبة الجنود العثمانية على الثوار من جهة (قنفذة) ، فتمكن من إخماد الثورة ، وقدم الأمير محمد بن عائض طاعته ، ثم عادت الفرقة المصرية ظافرة مشكورة على ماأبلته فى القتال ، وأنعم الخديو على قائدها برتبة اللواء مكافأة له على ماأبدى من الشجاعة والكفاءة فى القيادة ، وأرسل السلطان إلى

الخديو كتاب شكر وثناء على مابذله من الحمية والولاء ، وتوسط اسماعيل لدى السلطان عبد العزيز فى العفو عن الأمير الثائر ، فقبل شفاعته وعفا عنه وأقره فى امارته

(٢) حرب كريت

قامت سنة ١٨٦١ ثورة فى ولاية الهرسك إحدى ولايات البلقان بتحريض أمير الجبل الأسود ، فجردت تركيا جيوشها لمقاتلة الثوار ، ولما تولى اسماعيل عرش مصر طلبت اليه الحكومة العثمانية أن يعزز جيوشها فى الروملى بجيش مصرى حتى لايقوى ساعد الثوار ولاتزداد اضطراباتهم فى تلك الجهات ، فأنفذ اسماعيل باشا فرقة تولى قيادتها اللواء على غالب باشا ، فوصلت الحملة المصرية الى الاستانة ، وعرضها السلطان ، ثم سارت عن طريق (سلانيك) الى (مناستر) ورابطت هناك

ثم نشبت ثورة عامة فى جزيرة (كريت) سنة ١٨٦٦ ، وعجزت تركيا عن إخمادها إذ كان جنودها موزعين فى ولايات البلقان ، ولم تقو الحامية التركية فى الجزيرة على مقاومة الثورة ، فاستنجدت بمصر ، وأرسل السلطان عبدالعزيز الى الخديو يطلب اليه إنفاذ بعض فرق الجيش المصرى الى الجزيرة لمقاتلة الثوار ، فلبى الطلب ، وأنفذ جيشاً مؤلفاً من خمسة آلاف مقاتل ونيف ، عقد لواءه للفريق شاهين باشا ، أحد قواد الجيش المصرى المشهورين ، يعاونه اللواء اسماعيل صادق باشا ، وكان من ضباط الجيش المصرى فى هذه الحرب راشد بك حسنى (باشا) الذى عظم شأنه فى حوادث الثورة العرابية ، وأبلى البلاء الحسن فى واقعة التل الكبير ، ومحمود سامى بك البارودى (باشا) الذى صار من كبار زعماء الحركة العرابية ، وفى هذه الحرب كانت نشأة البارودى الحربية

أقلعت الحملة الى جزيرة كريت ، تقلها عمارة من الأسطول المصرى مؤلفة من عشر سفن ، معقوداً لواؤها للأميرال قاسم باشا ، وتولت هذه العمارة نقل القوة المصرية التى كانت مرابطة فى (مناستر) ، وجاءت بها الى الجزيرة

نزلت الحملة فى كريت ، فاشتبكت والثوار فى جهة تسمى (أبو قرون) ، جرح فيها اللواء اسماعيل صادق باشا جرحاً بليغاً نقل على اثره الى مصر ، وتبدلت القيادة العامة

للجيش المصرى ، إذ استدعى شاهين باشا إلى مصر وعين بدله الفريق اسماعيل سليم باشا وزير الحربية وقتئذ كما تقدم بيانه (ص ٧٧)

والتقى الجمعان فى واقعة « ارقاذى » ، وكانت من أعظم الوقائع الحربية ، هزم فيها الثوار هزيمة كبيرة ، وخسروا خسائر عظيمة ، وأبلى فيها الجنود المصريون بلاء حسناً فى القتال ، وأبدوا من الشجاعة والإقدام ماخلد ذكرهم ، وكان راشد بك حسنى والآيه أكثرهم إقداماً ، فأنعم عليه الخديو برتبة اللواء ، وأرسل الجيش المصرى كتاباً بليغاً من إنشاء المرحوم عبد الله باشا فكرى ، يثنى فيه على حسن بلاء الجنود وضباطهم وقوادهم ، ويسجل لهم ماأبدوه من ضروب الشجاعة والكفاءة

واستمرت الحرب سجالا حتى أخمدت الثورة ، فعاد الجيش المصرى إلى مصر ، وقوبل بمظاهر الحفاوة البالغة ، وأقام الخديو لأفراده الولائم تكريماً لهم على حسن بلائهم فى القتال

(٣) حرب البلقان

١٨٧٦ — ١٨٧٧

كانت الروسيا لاتفتأ تحرض امارات البلقان على الانتقاض على تركيا ، لكى تمهد لنفسها الدخول فى حومة الوغى بعد أن توزع تركيا قواتها فى إخماد الثورات المحلية ، فمن ذلك أنها بذرت بذور الثورة فى تلك البلاد حتى شب أوارها فى الهرسك سنة ١٨٧٥ ، وامتدت إلى البوسنه ، وقامت الصرب تشد أزر الثوار

فطلبت تركيا من الخديو اسماعيل إمدادها بنجدة من الجيش المصرى ، فأعد الخديو قوة من نحو سبعة آلاف مقاتل بقيادة الفريق راشد باشا حسنى ، ومن ضباطها محمود بك فهمى (باشا) الذى صار فيما بعد من زعماء الثورة العرابية ووزرائها ، وصاحب كتاب البحر الزاخر فى تاريخ الأوائل والأواخر

أقلعت الحملة إلى الاستانة ، ثم قصدت إلى حدود الصرب ، فاشتركت والجيش العثمانى فى قتال الصربيين ، وفازت عليهم ، وأظهرت شجاعة وبسالة فى الوقائع التى خاضتها ،

مما دعا الخديو إلى الإنعام على طائفة من قوادها وضباطها بالرتب العالية

وفى غضون ذلك تولى عرش تركيا السلطان عبد الحميد الثانى (٣١ أغسطس سنة ١٨٧٦) ، بعد أن قتل السلطان عبد العزيز ، وخلع السلطان مراد ، ورجع الجنود المصريون الى الاستانة إذ وقفت الحرب بين تركيا والصرب

ثم تجدد النزاع بين تركيا والروسيا ، وأعلنت الحرب بين الدولتين ، وهى الحرب المعروفة بحرب البلقان (ابريل سنة ١٨٧٧) ، فطلبت تركيا من الخديو إنجادها فى هذه الحرب ، ولكن اسماعيل اعتذر بداءة ذى بدء بارتباك شؤون الحكومة المالية ، وعجزها عن الانفاق على المدد . فأعاد السلطان عبد الحميد الكرة ولم يقبل عذراً

وكانت المشاكل المالية قد جعلت اسماعيل هدفاً لغضب الدائنين الأجانب ، فأخذوا يرهقونه بمطالبهم الشديدة ، والدول الأوروبية من ورائهم تشد أزرهم ، وتتهدد الخديو ، فخشى عاقبة مغاضبة تركيا فى تلك الظروف العصيبة ، فاعتزم إجابة طلبها

وكانت خزانة الحكومة فى حالة سيئة ، فاستدعى مجلس شورى النواب ، وعرض عليه ربط ضريبة جديدة تدعى « ضريبة الحـــرب » قدرها عشرة فى المائة من مجموع الضرائب ، لسد نفقات الحملة ، فوافق المجلس عليها ، وأعد الخديو جيشاً مؤلفا من نحو اثنى عشر الف مقاتل بقيادة الأمير حسن باشا ثالث أنجاله ، وبعد أن تمت معدات الحملة أقلعت بهم السفن المصرية إلى الاستانة ومنها إلى (وارنه) أحد ثغور البحر الأسود

وقد أبلى الجنود المصريون فى هذه الحرب بلاء حسنا واشتركوا فى القتال إلى أن وضعت الحرب أوزارها فى مارس سنة ١٨٧٨ ، ثم عادوا إلى مصر

(٤) و (٥) حروب السودان والحبشة

كانت الحملات التى جردها الخديو اسماعيل لإتمام فتح السودان خير حروب مصر فى عهده ، وأكثرها نفعا وبركة ، وهى تعد تكملة لحروب مصر فى عهد محمد على ، وقد وفينا الكلام عنها فى الفصل الخامس ، كما بسطنا الكلام فيه عن حرب الحبشة

الفصل التاسع

التعليم والنهضة العلمية والأدبية

نال التعليم والنهضة العلمية نصيباً عظيما من جهود اسماعيل ، فقد تولى الحكم ومعظم المدارس التى أنشأها محمد على مقفلة ، ولم يكن باقيا منها سوى مدرسة الطب والصيدلة ، ومدرسة الولادة (القابلات) ، ومدرسة حربية ، ومدرسة ثانوية ، وأخرى ابتدائية ، ومدرسة البحرية بالاسكندرية ، فبعث النهضة العلمية من مرقدها ، ونفخ فيها روح الحياة والنشاط ، وأعاد تأليف ديوان المدارس (وزارة المعارف) ، وعهد برآسته الى ابراهيم أدهم باشا الذى تولاها فى عهد محمد على ، ووجه همته إلى إنشاء المدارس على اختلاف مراتبها وفنونها (١)

المدارس الحربية

فأسس المدارس الحربية التى تكلمنا عنها فى الفصل السادس

المدارس العالية

وأسس عدة مدارس عالية ، ازدان بها تاريخه ، وكان لها الفضل الكبير على النهضة العلمية والأدبية والفكرية التى ظهرت فى عصره ، وفى العصور التى تلته ، واليك بيان هذه المدارس

مدرسة المهندسخانة

هى مدرسة (الرى والعمارة) وسميت المهندسخانة ، أنشئت بالعباسية سنة ١٨٦٦

---

(١) أهم مراجع هذا الفصل عن معاهد التعليم : الوقائع المصرية . الخطط التوفيقية لعلى باشا مبارك . التعليم فى مصر لأمين سامى باشا . التعليم العام فى مصر ليعقوب أرتين باشا . التعليم العام فى مصر للمسيو دور بك

بسراى الزعفران ، ثم نقلت سنة ١٨٦٨ إلى سراى درب الجماميز ، (ثم إلى الجيزة)، وكان أول ناظر لها اسماعيل بك (باشا) مصطفى الفلكى ، ثم محمود بك (باشا) الفلكى ، ثم عاد اليها اسماعيل بك الفلكى

مدرسة الحقوق

هى أعظم المعاهد العلمية التى أسسها اسماعيل ، أنشئت سنة ١٨٦٨ ، وكان اسمها مدرسة « الإدارة والألسن » ، وقد حلت محل مدرسة الألسن التى أقفلت فى عهد عباس ، وسميت « مدرسة الحقوق » منذ سنة ١٨٨٦ ، وكان أول ناظر لها المسيو فيدال Vidal (باشا) أحد علماء فرنسا المشترعين ، وبقى يتولى نظارتها أربعا وعشرين سنة إلى عام ١٨٩١

وفى هذه المدرسة تخرج معظم رجال القانون الذين نبغوا فى عصر اسماعيل وما يليه من العصور ، ولها الفضل الكبير على نهضة القانون والتشريع والقضاء ، وعلى النهضة الأدبية والسياسية فى البلاد

مدرسة دار العلوم

أسست سنة ١٨٧٢ ، والغرض منها تخريج أساتذة اللغة العربية للمدارس الابتدائية والثانوية ، انتخب طلبتها من نجباء تلاميذ الأزهر ، وتولى نظارتها على التعاقب فى عهد اسماعيل : حامد افندى نيازى ، ثم محمود افندى فوزى ، ثم على بك فهمى رفاعه ، ثم حامد افندى نيازى ، وقد أدت المهمة التى أنشئت من أجلها ، وكان لها الفضل الكبير على نهضة اللغة والآداب العربية فى مصر ، وسنعود اليها فى ترجمة مؤسسها على مبارك باشا

مدرسة الطب والولادة

وارتقت مدرسة الطب فى عهد اسماعيل ، واتسع نطاقها ، وخرجت جماعة من أعلام الطب فى مصر ، وتولى نظارتها على التعاقب : برجيير بك Burguiere bey ، ثم حافظ افندى محمد ، ثم محمد على بك (باشا) البقلى ، ثم محمد الشافعى بك ، ثم محمد على باشا البقلى ، ثم جليار دو بك

مدارس البنات

بدأ إنشاء مدارس البنات فى مصر على عهد اسماعيل ، وهى ميزة تشهد له بالفضل فى نهضة الأمة ، فقد كان التعليم النسوى يعتبر من قبل فى حكم العدم ، إذ لم تكن فى البلاد مدرسة للبنات سوى مدرسة الولادة ، ولم يكن يتعلم فيها فى الغالب سوى البنات الحبشيات ، اما الفتيات من سائر الطبقات فلم يكن لهن مدارس لتعليمهن ، وكان الجهل مخيما عليهن ، اللهم الامن كن يتعلمن فى بيوت آبائهن واهلهن ، وقليل اولئك

فى سنة ١٨٧٣ أسست مدرسة السيوفية للبنات ، انشأتها السيدة جشم آفت هانم ثالث زوجات الخديو اسماعيل ، وكان بها حين افتتاحها نحو مائتى تلميذة [١] ، وبلغ عددهن سنة ١٨٧٤ اربعمائة تلميذة ، يتعلمن مجانا ، فضلا عن الإنفاق على ماكلهن وملبسهن ويتعلمن القراءة ، والكتابة ، وحفظ القرآن الكريم ، والحساب ، والجغرافية ، والتاريخ ، والتطريز والنسيج ، وغير ذلك من الصناعات [٢] وتولى نظارتها حسن افندى صالح ، ثم مدام روزه

وأسست مدرسة أخرى للبنات فى القربية بالقاهرة سنة ١٨٧٤ ، وألغيت سنة ١٨٧٨

المدارس الصناعية

وأسس اسماعيل من المدارس الصناعية :

مدرسة الفنون والصنائع ، وكانت تعرف بمدرسة (العمليات) ، أسست سنة ١٨٦٨ لتخريج الصناع الفنيين ، ومنهم مهندسو الوابورات البرية والبحرية وسواقوها ، والموظفين الفنيون فى مصلحة السكك الحديدية ، وتخرج منها منهدسون لصنع عربات السكك الحديدية والبواخر والآلات البخارية

وتولى نظارتها المسيو جيجون بك Guigon bey ، ثم عيسى شاهين افندى ، ثم عاد

---

(١) الخطط التوفيقية ج ٢ ، ص ٤٦ ، وجاء فى الوقائع المصرية العدد ٥١٩ (٥ أغسطس سنة ١٨٧٣) أن عددهن حين افتتاح المدرسة ١٨٠ تلميذة

(٢) الوقائع المصرية العدد ٥٧٦ - ٢٣ سبتمبر سنة ١٨٧٤

لنظارتها جيجون بك ، ومن كبار أساتذتها اسماعيل بوشناق بك كبير مهندسى العنابر بالسكك الحديدية

ويشتمل برنامجها على العلوم الصناعية والهندسية ثم التمرينات العلمية

فى السنة الاولى يدرس الحساب ، والجبر ، والهندسة الوصفية ، والرسم ، وفن العمارة ، واللغات العربية والفرنسية والانجليزية

وفى السنة الثانية تدرس أنواع الرسم ، واللغات ، والطبيعة وتطبيقها على الصناعات ، والميكانيكا ، والجغرافية ، والمحاسبة

وفى السنة الثالثة ، تدرس المواد المذكورة مع التاريخ وتطبيق الكيمياء على الصناعات ، ورسم الآلات البخارية وتركيبها

وكان الطلبة يمارسون بعد الظهر التمرينات العملية فى خمسة معامل ، أولها معمل تركيب الآلاب وتصليحها ، والثانى معمل الحدادة ، والثالث المسبك الذى كان يعرف بالدوكمخانة ، والرابع معمل الخراطين والنجارين والعينات التى يطلب عملها ، والخامس معمل قدور القزانات الحديد والنحاس ، وفى المدرسة قسم لتعليم التلوين بالالوان المختلفة [1]

(١) مدرسة التلغراف أسست سنة ١٨٦٨ ، والغيت سنة ١٨٦٩ ، ثم الحقت بمدرسة الفنون والصنائع

(٢) فرقة النقاشين أسست سنه ١٨٦٩ ، وألغيت سنة ١٨٧١

(٣) فرقة عمليات المرور أسست سنة ١٨٧٠ والغيت سنة ١٨٧٢ ، وفرقة أخرى أسست سنة ١٨٦٨ وألغيت سنة ١٨٧٢

المدارس الخصوصية

وأنشأ من المدارس الخصوصية :

---

(١) عن (الوقائع المصرية) العدد ٣٤١ (١٩ ينير سنة ١٨٧٠)

(١) مدرسة المساحة والمحاسبة ، أسست سنة ١٨٦٨ ، وتولى نظارتها نظارمدرسة المهندسخانة

(٢) مدرسة اللسان المصرى القديم (اللغة الهيروغليفية) أسست سنة ١٨٦٩ وتولى نظارتها المسيو بروكش (باشا) Brngscs العالم الألمانى فى الآثار المصرية وألغيت سنة ١٨٧٦

وأشهر من نبغ من خريجى هذه المدرسة العالم الأثرى الكبير احمد كمال باشا

(٣) فرقة الرسم بالمدارس الملكية أسست سنة ١٨٦٩ وألغيت سنة ١٨٧٩

(٤) مدرسة الزراعة أسست سنة ١٨٦٧ وألغيت سنة ١٨٧٥

(٥) مدرسة العميان والخرس ، للبنين والبنات ، أسست سنة ١٨٧٥ ، وتولى نظارتها محمد أنسى بك نجل عبد الله أبو السعود افندى

المدارس الثانوية

وانشأ من المدارس الثانوية

(١) المدرسة التجهيزية بالعباسية أسست سنة ١٨٦٣ ، ثم نقلت الى درب الجماميز سنة ١٨٦٨ ، وعرفت بالخديوية

(٢) مدرسة رأس التين بالاسكندرية ، أسست سنة ١٨٦٣

المدارس الابتدائية

قلنا إن معظم المدارس الابتدائية التى أنشأها محمد على قد ألغيت فى أواخر عهده ، ولم يجدد بدلها فى عهد عباس وسعيد ، فبذل اسماعيل جهوداً كبيرة فى إنشاء المدارس الابتدائيه فى القاهرة وفى مختلف العواصم

ويرجع الفضل فى إنشاء هذه المدارس الى شريف باشا ، ثم إلى على باشامبارك ، الذى فكر فى تحويل التعليم فى الكتاتيب إلى التعليم الابتدائى النظامى ، وكان عدد الكتاتيب وقتئذ نحو خمسة آلاف كتاب

وهاك بيان ما أنشاه اسماعيل من المدارس الابتدائية :

مدرسة المبتديان بالعباسية أنشئت سنة ١٨٦٣ ثم نقلت إلى الناصرية ثم إلى المنيرة

مدرسة رأس التين الابتدائية بالاسكندرية سنة ١٨٦٣

مدرسة طنطا (ببنها)	أسست سنة ١٨٦٨
مدرسة أسيوط	» » ١٨٦٨
» بنى سويف	» » ١٨٧٢
» المنيا	» » ١٨٧٣
» القربية	» » ١٨٧٢
» الجمالية	» » ١٨٧٣
» الحسينية	» » ١٨٧٩
» باب الشعرية	» » ١٨٧٤
» عابدين	» » ١٨٧٩
» مصر القديمة	» » ١٨٧٩
» أبو العلا ببولاق (عباس)	» » ١٨٧٢
» السيدة زينب (محمد على)	» » ١٨٧٢
» شيخون	» » ١٨٧٣
» العقادين	» » ١٨٧٢
» النحاسين	» » ١٨٧٢
» الإمام الشافعى	» » ١٨٧٩
» الحبانية	» » ١٨٧٢
» رشيد	» » ١٨٧٦
» الفشن	» » ١٨٧٩

ويضاف إلى هذه المدارس مدرسة (الصليبة) ، وقد كانت مكتباً أنشأته والدة عباس باشا الأول ، وضم إلى المدارس الابتدائية سنة ١٨٧٢ ، ومدرسة قلاوون ،

والشيخ صالح للبنين ، ومدرسة محمد بك سيد احمد ، ومدرسة حافظ باشا بالاسكندرية ، ومدرسة البوصيرى ، ومدرسة راتب باشا بالاسكندرية أيضاً

ومدرسة (خليل اغا) ، أنشأها كبير أغاوات والدة اسماعيل ، قرب المسجد الحسينى بالقاهرة ، ثم انتقلت أخيراً الى شارع الأمير فاروق

ومدرسة القبة التى أنشأها الأمير محمد توفيق باشا ولى العهد على نفقته الخاصة

الحفلات المدرسية

كان الخديو اسماعيل شديد الميل إلى إقامة الحفلات المدرسية التى تختم بها الامتحانات العامة فى المدارس على اختلاف درجاتها ، وكان لهذه الحفلات مظهر فخم فى ذلك العصر ، إذ كان يحضرها كبار رجال الدولة ، وتوزع فيها الجوائز والمكافآت على المتقدمين من الناجحين ، ويلقى فيها الأساتذة ونوابغ الطلبة الخطب والقصائد ، فكانت هذه الحفلات من عوامل النهضة العلمية ، ويدلك على مبلغ عناية الحكومة بها أن (الوقائع المصرية) وهى الجريدة الرسمية للحكومة كانت تعنى بوصف كل حفلة مدرسية وتنشر كل ما يلقى بها من الخطب والقصائد ، تسجيلا لها ، وتعظيما لقائليها ، ونجد فى (الوقائع المصرية) بيانات مستفيضة عن هـــذه الحفلات وأسماء من يحضرونها من رجال الدولة وأعلام الأدب والعلم فى ذلك العصر ، وأسماء الأساتذة والطلبة الذين يخطبون فيها

الأزهر

ظل الأزهر الجامعة الاسلامية التى تدرس فيها علوم الدين والفقه واللغة ، وكان التعليم فيه يتبع الأساليب القديمة التى درج عليها من سالف العصور

وقد بدأت روح الإصلاح والتقدم تتمشى فيه من عهد ولاية الشيخ محمد العباسى المهدى مشيخته سنة ١٨٧١

وباكورة الإصلاح فيه إنشاء نظام الامتحان لتخريج العلماء والمدرسين سنة ١٨٧٢ ، فقد كان التدريس فى الأزهر خلوا من القيود ، فوضع الشيخ العباسى نظاما لامتحان العلماء ، وألف لهذا الغرض لجنة برآسته مؤلفة من ستة من كبار العلماء ، اثنان من الشافعية وهما الشيخ خليفه الصفتى . والشيخ احمد شرف الدين المرصفى . واثنان من المالكية وهما الشيخ احمد الرفاعى والشيخ احمد الجيزاوى . واثنان من الحنفية . وهما الشيخ عبد الرحمن البحراوى . والشيخ عبد القادر الرافعى

ومهمة هذه اللجنة امتحان المرشحين للعالمية فى مختلف العلوم وإعطاء الناجحين منهم اجازة العالمية ، وكان تأليف هذه اللجنة أساس النظام الجديد فى الأزهر

وجاء السيد جمال الدين الافغانى إلى مصر سنة ١٨٧١ ، فنفخ فى الأزهر روح النهضة ، وغرس بزور التقدم الفكرى والعلمى ، وقد بدت ثمارها بظهور المدرسة الحديثة التى حمل لواءها الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده فى الأزهر وخارج الأزهر

البعثات

أعاد اسماعيل عهد البعثات التى ازدان بها عصر محمد على من قبل ، وأخذ يوفد الطلبة إلى مدارس أوروبا منذ سنة ١٨٦٣ ، وبلغ عددهم مدة حكمه ١٧٢ طالب ، وهو كما ترى أقل من عدد البعثات فى عصر محمد على

وأنشأ مدرسة لأعضاء البعثة فى باريس بدل المدرسة التى أنشأها محمد على لهذا الغرض وأقفلت فى أواخر عهده كما بيناه « عصر محمد على » ص ٤٥٢ ، لكن المدرسة التى أنشأها اسماعيل أقفلت بعد نشوب الحرب السبعينية

مدارس الأقباط الأرثوذكس

ونشط الأقباط إلى إنشاء المدارس لتعليم أبنائهم ، ويرجع معظم الفضل فى هذه النهضة الى جهود الأنبا كيرلس الرابع بطريرك الأقباط الأرثوذكس

فصار لهم فى عهد اسماعيل نحو ١٢ مدرسة بالقاهرة ، أهمها المدرسة البطريركية الكبرى ، ومدرسة مصر القديمة . وأخرى بالجيزة . ومدرستان بالاسكندرية . ومدرسة اكليركية لتعليم اللاهوت واللغة القبطية والطقوس الدينية ، ونشطوا إلى تعليم البنات فأنشأوا لذلك مدرستين . واحدة بحارة السقايين . وأخرى بالأزبكية

وقد منح اسماعيل مدارس الأقباط مساعدات جمة ، أهمها انه وهبها ١٥٠٠ فدان من أجود أطيان القطر ، ليخصص ريعها على التعليم فيها ، فكان هذا الريع يفى بمعظم ماينفق على هذه المدارس

المدارس الأوروبية

كثر عدد المدارس الأوروبية التى فتحتها البعثات الدينية للبنين والبنات ، فبلغ عددها فى عهد اسماعيل ٧٠ مدرسة(١) ، ولم تنتشر فى أى عهد بمثل ما كثرت فى عهده

وقد خرجت عدداً كبيراً من رجال الأعمال والمهن وموظفى الحكومة ، وخاصة موظفى البريد والسكك الحديدية والمحال التجارية والبنوك وتراجمة القنصليات والمحاكم المختلطة ، ونال كثير منهم الحمايات الأجنبية بواسطة القناصل ، فصاروا فى حكم الأجانب فى انتمائهم للدول الأجنبية ، وميولهم اليها ، وعدم خضوعهم للنظم الأهلية القضائية والإدارية

وزارة المعارف

قلنا إن اسماعيل أعاد ديوان المدارس (وزارة المعارف) بعد أن ألغى فى عهد سعيد

ولما تقدمت نهضة التعليم خصص لوزارة المعارف سراى الأمير فاضل بدرب الجماميز ، وهى سراى فخمة وَسِعَتْ ديوان المدارس وبعض المعاهد العلمية ، كمدرسة المهندسخانة ومدرسة الحقوق . ومدرسة المساحة والمحاسبة . والمدرسة التجهيزية . ودار الكتب ، ومعمل الطبيعة والكيمياء . ومدرج المحاضرات (الانفتياترو) ، فصارت بمنزلة الجامعة المصرية ، وكان اختيار هذه السراى إجابة لاقتراح العلامة على باشا مبارك حينما ولى وزارة المعارف

وتعاقب على وزارة المعارف فى عهد اسماعيل الوزراء الآتية أسماؤهم :

ابراهيم أدهم باشا (يناير — يوليه سنة ١٨٦٣) . شريف باشا (يوليه سنة ١٨٦٣ — ابريل سنة ١٨٦٨) . على مبارك باشا (ابريل سنة ١٨٦٨ — سبتمبر ١٨٧٠) . مصطفى بهجت باشا (سبتمبر سنة ١٨٧٠ — مايو سنة ١٨٧١) . على مبارك باشا (مايو سنة ١٨٧١ — أغسطس سنة ١٧٧٢) . الأمير حسين كامل باشا (أغسطس سنة ١٨٧٢ — أغسطس سنه ١٨٧٣) . مصطفى رياض باشا (أغسطس سنة ١٧٧٣ — مايو سنة ١٨٧٤) . محمد ثابت باشا (مايو سنة ١٨٧٤ — سبتمبر ستة ١٨٧٤) . الأمير طوسون باشا (سبتمبر

---

(١) كتاب إحصاء مصر سنة ١٨٧٣ ص ٢٥٧

سنة ١٨٧٤ — أغسطس سنة ١٨٧٥) . يحيى منصور باشا (سبتمبر سنة ١٨٧٥ — يونيه سنة ١٨٧٦) . مصطفى رياض باشا (يونيه سنة ١٨٧٦ — اكتوبر سنة ١٨٧٧) . اسماعيل باشا أيوب (اكتوبر سنة ١٨٧٧ — أغسطس سنة ١٨٧٨) . على باشا مبارك (أغسطس سنة ١٨٧٨ — ابريل سنة ١٨٧٩) . محمد ثابت باشا (ابريل سنة ١٨٧٩ — يوليه سنة ١٨٧٩)

ميزانية التعليم

كان اسماعيل ينفق بسخاء على التعليم ، فقد كانت ميزانية المعارف فى عهد سعيد لاتتجاوز ستة آلاف جنيه [١] ، فزادها اسماعيل الى أربعين ألفا ، ثم بلغت كما ذكر على باشامبارك [٢] ٧٥٫٠٠٠ جنيه ، منها ٤٨٠٠٠ من وزارة المالية (الميزانية العامة) و ٢٠٫٠٠٠ من إيراد تفتيش الوادى ، و ٧٫٠٠٠ من ديوان الأوقاف ، وكان التعليم فى معظم المدارس مجانيا

ثم نقصت ميزانية وزارة المعارف فى أواخر عهد اسماعيل بسبب الارتباكات المالية التى سببتها قروضه ، فهبطت الى ٢٠٫٠٠٠ جنيه

---

(١) إدوين دى ليون . مصر الخديو ص ١٦٢

(٢) الخطط التوفيقية ج ١ ص ٨٩



على باشا مبارك

(١٨٢٤ — ١٨٩٣)

زعيم نهضة العلم والتعليم فى عصر اسماعيل

على باشا مبارك

(١٨٢٤ – ١٨٩٣)

زعيم نهضة العلم والتعليم فى عصر اسماعيل

ان الحديث عن تقدم التعليم فى عهد اسماعيل يستتبع الكلام عن العلامة على باشا مبارك ، فان اسمه مقرون بهذه النهضة المباركة

فى تاريخنا القومى شخصيات مجيدة ، تعد أركاناً للنهضة القومية ، لما لها من الأثر البالغ فى تطورها ، وتوجيهها الى المثل العليا فى شتى مظاهرها ، من الناحية الأخلاقية والوطنية ، أو العلمية والأدبية ، أو الاقتصادية والاجتماعية

ومن واجب الوفاء لهذه الشخصيات أن نذكرها دائماً بالخير ، ونخصص لها ماهى جديرة به من البحث والدرس ، ولاغرو فالشخصيات المجيدة فى تاريخ مصر هى كالكواكب النيّرة فى سماء النهضة القومية

وقد بذلنا مااستطعنا من جهد لدارسة تلك الشخصيات فى الأجزاء الثلاثة السابقة من تاريخ الحركة القومية ، كلما عرضت المناسبة للكلام عنها ، وهنا ، لمناسبة التعليم والنهضة العلمية فى عصر اسماعيل ، نرى حقاً علينا أن نفى ببعض هذا الواجب نحو العلامة على باشا مبارك ، فهو عماد هذه النهضة ، وقلبها النابض ، ورأسها المدّبر ، وهو من الشخصيات الفذة التى سطعت سطوعاً قوياً فى عهد اسماعيل ، ويعد تاريخه قطعة من هذا العصر ، والعصور التى تلته ، الى عصرنا الحاضر ، وإلى ماشاء الله

نشأته الأولى (١)

ولد المترجم فى برنبال الجديدة ، من أعمال مركز دكرنس بمديرية الدقهلية سنة ١٨٢٤م

---

(١) اعتمدنا فى بيان معظم « الوقائع » على ما استخلصناه من ترجمة على باشا مبارك لنفسه فى الخطط التوفيقية ج ٩ ص ٣٩

(١٣٣٩هـ) ، وأبوه الشيخ مبارك بن مبارك بن سليمان بن ابراهيم الروجى من أهالى هذه الناحية ، وجده الأعلى من ناحية كوم بنى مراس والخليج على بحر طناح ، من أعمال مركز المنصورة ، ولفشل كبير حصل فى هذا البلد تشتتت عائلته ، فأقام جده الأكبر ابراهيم الروجى فى برنبال الجديدة ، ونال فيها مكانة عالية ، فكان إمامها وخطيبها وقاضيها ، وبقيت هذه المكانة فى نسله ، حتى عرفت عائلتهم بعائلة المشايخ

ولاضطهاد وقع باهل برنبال وإرهاقهم بالضرائب الثقيلة هاجرت عائلة مبارك ، وتفرقت فى البلاد ، فنزل والد المترجم بعزبة الحماديين من بلاد الشرقية (بمركز فاقوس الآن) ، وكان ابنه لم يبلغ بعد السادسة من عمره ، ولم تطب لهم الإقامة فى هذه البلدة ، اذ لم يلقوا فيها إكراما ، فارتحلوا منها إلى عرب السماعنة بالشرقية ، فأحسنوا وفادة والد المترجم ، وأكرموا مثواه ، ولم يكن فى بلدتهم فقهاء ، فجعلوه مرجعهم فى الأحكام الدينية ، وبنوا مسجدا جعلوه إمامه ، ولما بدأ يستريح من الشدائد التى عاناها قبل أن يهبط هذا البلد ، أخذ يعنى بتهذيب ابنه وتعليمه ، وكان المترجم قبل رحيله من برنبال ، قد بدأ يتعلم القراءة والكتابة على رجل ضرير من أهلها ، فلما استقر بأبيه المقام بين عرب السماعنه ، أخذ يعلمه بنفسه ، ثم أسلمه إلى فقيه اسمه الشيخ احمد أبو خضر ، أصله من ناحية الكردى (وهى بلدة قريبة من برنبال) ، ثم ارتحل إلى قرية صغيرة على مقربة من مساكن أولئك العرب ، وهناك حفظ المترجم على يده القرآن فى سنتين

وكان الشيخ يقسو فى معاملته ويضربه ، كما هى عادة الفقهاء والمعلمين مع تلاميذهم فى ذلك العصر ، فامتنع عن متابعة القراءة عليه ، وأبى أن يذهب اليه ، وجعل يقرأ عند أبيه ، لكن أباه كان لايستطيع التفرغ لتعليمه ، لكثرة مشاغله ، فتراخى المترجم فى الحفظ والدرس ، وكاد ينسى ما حفظه ، فهمّ أبوه أن يجبره على الرجوع إلى الفقيه ، لكنه أبى أن يعود اليه ، وحدثته نفسه بالهرب ، لما كان يجده من سوء المعاملة ، فتدخل اخوته فى الأمر ، فأبدى لهم نفوره من الحفظ ، وأعرض عن أن يكون « فقيها » ورغب أن يكون « كاتبا » ، لما كان يراه على الكتاب من حسن الهيئة والقرب من الحكام

وكان لأبيه صديق كاتب بناحية (الاخيوة) ، فأسلمه اليه ليتعلم الكتابة على يديه ، فلازمه فى داره يتعلم عنه ، ولكنه رأى منه قسوة وغلظة ، وناله منه أذى شديد ، إذ

سأله يوماً عن الواحد فى الواحد فأجابه باثنين ، فضربه بمقلاة بن ، فشج رأسه ، وكان ذلك على ملأ من الناس ، فشكاه الى أبيه ، فلم يحفل بشكايته ، فهرب ، وانتهى به المطاف الى العودة وحيدا الى برنبال ، وهناك وافاه أخوه الذى كان يبحث عنه ، فأعاده الى أبيه ، وقد حار فى معالجته وتعليمه ، وأبدى المترجم نفورا من الرجوع الى الكاتب أو الفقيه ، لما رأى منهما من الايذاء والضرب

فارتأى أبوه أن يعهد به الى صديق له من كتبة المساحين ، فرضى بذلك ، ولازمه ثلاثة أشهر ، ثم انفصل عنه ، وبقى فى بيت أبيه يقرأ عليه ، وبعد سنة جعله مساعداً لكاتب فى مأمورية أبى كبير . بمرتب قدره خمسون قرشاً . ولكن الكاتب لم ينقده أجره ، الى أن تسلم يوماً حاصل الجباية من أبى كبير ، فأخذ منه راتبه المتأخر ، فنقم منه الكاتب وأغرى به مأمور أبى كبير ، واتفق وإياه على تجنيده ، فاستدعاه المأمور واعتقله ، ووضع الغل فى عنقه ولبث فى السجن بضعة وعشرون يوما ، قاسى فيها مر الشدائد والآلام ، ولما علم أبوه بسجنه رفع ظلامته الى محمد على باشا عزيز مصر ، وكان إذ ذاك فى منيا القمح ، فكتب باخلاء سبيله ، وإطلاق سراحه ، وعاد أبوه بالأمر ليطلب من المأمور تنفيذه ، وقبل أن يحضر جاء السجن صديق للسجان ، وأفضى اليه أن مأمور زراعة القطن بناحية أبى كبير فى حاجة الى كاتب ، فدله السجان على المترجم ووصفه له بالنجابة ، وحسن الخط ، وبعد قليل جاء أمر الافراج ، وذهب الى مأمور الزراعة ، وكان أسود حبشياً يدعى (عنبر افندى) ، فاتخذه كاتباً عنده مقابل جراية يومية من الخبز ، وخمسة وسبعين قرشاً فى الشهر ، فارتضى هذا العمل ، وكانت سماحة أخلاق عنبر افندى وطيبته مما رغب اليه البقاء فى هذه الوظيفة

مايؤخذ من نشأته الأولى

إلى هنا ليس فى نشأة المترجم الأولى شىء مما يلفت النظر ، لكنها تصلح أن تكون صورة مصغرة للحياة الاجتماعية فى ذلك العصر

فانتقال عائلة المترجم من بلد الى بلد ، من كوم بنى مراس على بحر طناح ، الى برنبال بأقصى الدقهلية شمالا ، ثم الى السماعنه بالشرقية ، كان نتيجة سوء معاملة الحكام للاهلين

فى ذلك العصر ، وإرهاقهم بالضرائب الجائرة ، مما اضطر تلك العائلة ، وكثيراً أمثلها ، الى الرحيل فراراً من المطالب التى لم يستطيعوا أداءها ، بعدأن تجردوا من ماشيتهم ومتاعهم ، وتشدد الحكام فى استخلاصها بالسجن والضرب ، فلم يجدوا مخلصاً من هذه المظالم سوى الهجرة من موطنهم ، وهذا يعطينا صورة من مظالم الحكام فى ذلك العهد ، إذ لم يكن ثمة قانون يمنع ظلم القوى عن الضعيف ، ويحول دون اعتداء الحاكم على المحكوم ، ولا ضرائب منتظمة معلومة المقدار ، يعرف كل إنسان حدود ما عليه منها ، بل كانت متروكة لأهواء الحكام والرؤساء ، فلا جرم أن استهدف آل المترجم للتجرد من متاعهم وماشيتهم ، ثم إلى السجن والضرب ، ثم الى الهجرة والتنقل من بلد إلى بلد ، فراراً من المظالم

وهذه النشأة تعطينا من جهة أخرى صورة لما كانت عليه حالة التعليم قبل أن يألف الناس المدارس الحديثة ، فان فكرة تعليم الأبناء كانت موجودة عند الآباء الذين نالوا حظا من العلم ، يدلك على ذلك ميل والد المترجم الى تعليم ابنه قدر ما يستطيع ، لكن طريقة التعليم كانت رديئة ، لا تثمر فى تنمية الفكر وتهذيب النفس ، ففقيه القرية ، وكاتب الإخيوه ، وأمثالها من الفماء والعرفاء ، كانوا من الجهل والقسوة بحيث لاينتج التعليم على أيديهم سوى الجهالة ، وبث روح الخوف والجبن فى أخلاق الشباب ، لأن القسوة والضرب يقتلان فى نفس التلميذ روح الشجاعة والأخلاق الفاضلة

وليس فى نشأة المترجم الأولى حالة غير عادية تجعل منه رجلا يختلف عن معاصريه ، ولكن أمراً واحداً يلفت النظر ، ذلك هو نفوره من الذل ، ومجافاته قسوة المعلم ، فقيها كان أو كاتبا ، أفلا تراه يؤثر الهجرة على احتمال القهر والضرب ؟ ثم ألا تراه كأنما يتقدم عصره ويبذ معاصريه ، فيتطلع إلى أسلوب فى التعليم أرقى من الأسلوب العتيق الذى كان مألوفا فى عصره ؟

إن هذه ظاهرة تدل على أن نفس الفتى الصغير تأبى الذل ولا تقيم على الضيم ، وذلك ينبىء عن سمو الخلق ، لأن إباء الذل يدل على نفس عزيزة ، وعزة النفس تجمع حولها سمطا من الأخلاق الكريمة ، ولا مراء فى أن تلك النفس العزيزة كانت من أسباب نبوغ المترجم ، فلو هو رضى بالذل والهوان ، لاستمر فى طريقه ، ولم يتجاوز أن يصير

كاتبا صغيرا ، مرءوسا لمثل عنبر افندى ، ولـكن انظر إلى ما حدثته به نفسه - وهو يشغل هذه الوظيفة - تجد نفسا متوثبة كانت تختلج بين جوانح المترجم

فقد روى عن نفسه انه لما اشتغل كاتبا لعنبر افندى رأى منه رأفة وشفقة وحسن معاملة ، تختلف عما لقيه من كاتب ابى كبير ، لـكنه شعر بأن لو كان عنبر افندى على غرار ذلك الكاتب ، لما وجد من ينقذه من قسوته وسوء معاملته ، ومن ثم اتجهت نفسه إلى أن يـكون « بحالة لاذل فيها ولا تخشى غوائلها » كما يقول المترجم

فهذا الشعور ، هو فيض النفس العزيزة التى تأبى الهوان ، وتطمح إلى المعالى ، وهو شعور كريم ، كان له أثره فى حياة على مبارك

وإن سمو هذا الشعور ليدعونا فى إعجاب ، أن نتساءل من أين اقتبسه ؟ وكيف اختص به دون أقرانه فى القرية ؟ إن هذا هو سر نبوغ العظماء ، لانجد له تعليلا دقيقا ، فاذا عللته بتأثير البيئة أو الوراثة ، اعترضك فى هذا أن النابغـــة قد ينشأ وغيره من الناس فى بيئة واحدة ، ومن أب واحد ، وأم واحدة ، ومع ذلك يتفرد بالنبوغ دون أقرانه واخوته

قد يـكون السر فى النبوغ هو الاستعداد الفطرى للنبوغ ، يولد مع صاحبه ، أو هو الإلهام الذى يودعه الله نفس النابغة ، أو هو التوفيق والعنـاية الإلهية ، لك أن تفسره بمعنى من هذه المعانى ، أو بها كلها مجتمعة ، ولـكن علينـا أن نحسب حسابا لتأثير الوسط والوراثة ، فلا شك أن على مبارك قد اقتبس شيئاً من أخلاق أبيه ، فقد كان جده الأكبر رجلا « معظما مـكرما » ، نزل بلدة برنبال ، ولم يـكن من أهلها ، فصار أمامها وخطيبها وقاضيهـا ، وبعد وفاته بقيت هذه الوظيفة فى نسله ، طبقة بعد طبقة ، فلو لم يـكونوا على أخلاق فاضلة ، ونفوس طيبة ، لما احتفظوا بهـذه المنزلة ، حتى صارت عائلتهم تعرف بعائلة « المشايخ »

وكذلك لما هجر أبو المترجم ناحيـة برنبال ، وورد قرية السماعنة ، احتفظ بعزة النفس ، ونال من أهل تلك القرية مكانة ممتازة ، أدركها بعدله وفضله ، وإنك لتلمح عزة نفسه من كونه لم يطق صبراً على اعتقال ابنه ، وذهب إلى منيا القمح ، حيث كان عزيز مصر « محمد على باشا » ، ورفع اليه ظلامتـــه ، وشكا اليه ماحاق بابنه من السجن ،

فالشكوى من الظلم ، واستصراخ ولىّ الأمر ، من الأمور التى تحتاج (فى ذلك العصر) الى شىء من الجرأة والشجاعة ، فكم من المظالم كانت ترتكب . ويستسلم لها المظلومون ، وإذا حدثتهم أنفسهم بالشكوى منها ، فقلما تحفزهم الشجاعة إلى إبلاغها لأكبر رأس فى الحكومة

فأغلب الظن أن المترجم اقتبس عن أبيه تلك النفس العزيزة ، وهذا فضل يجب أن نسجله لوالد المترجم ، الشيخ مبارك بن مبارك بن سليمان بن ابراهيم الروجى

نشأته الثانية فى المدارس النظامية

إن طموح نفس على مبارك الى المعالى هو الذى سلك به سبيل المدارس النظامية ، ذلك أنه حينما اشتغل كاتبا عند عنبر افندى ، أخذ يسأل فراش المأمور عن أخبار سيده وأسباب بلوغه هذا المركز الممتاز فى الحكومة ، وكان يدهشه أن عنبر افندى ، وهو أسود حبشى ، يصل إلى هذا المنصب ، حين كان يعتقد « أن الحكام لايكونون إلا من الأتراك على حسب ماجرت به العادة فى تلك الأزمان » ، فعلم من الفراش عن سبب ارتقائه ، انه كان مشترى سيدة من ذوات المكانة والجاه ، فأدخلته مدرسة « قصر العينى » إحدى المدارس النظامية التى أنشأها محمد على باشا ، فتعلم فيها وتخرج منها ، وصار أهلا للمركز الذى يشغله ، وعلم أن الحكام يؤخذون من خريجى هذه المدارس

فلما استمع المترجم لهذا الحديث ، مالت نفسه الى دخول تلك المدارس ، ليصل إلى ماوصل اليه عنبر افندى ، وأخذ من تلقاء نفسه يسأل عن السبيل إلى دخول المدارس النظامية ، وسأل الفراش : هل يدخلها أحد من « الفلاحين » ؟ فقال يدخلها « صاحب الواسطة » ، فتعلقت نفسه بالسعى لدخولها ، واعتزم ترك العمل الذى كان يشتغل به ، والذهاب إلى مصر ليلتحق بمدرسة قصر العينى

دخوله مدرسة ميت العز

وما خالجه هذا العزم حتى أصر على إنفاذه ، دون أن يكاشف أحداً ، فطلب الإذن من رئيسه باجازة يقضيها فى زيارة أهله ، فأذن له بخمسةعشر يوما ، وسافر الى وجهته

وفيما هو يسير فى طريقه مر بقرية بنى عياض (١) ، والتقى بجماعة من الأطفال ، يتبعون رجلا خياطا ، وكل منهم يحمل دواة وقلما ، فاجتمع بهم تحت شجرة ، وتعرف حالتهم ، فاذا هم تلاميذ مكتب ميت العز ، أحد المكاتب التى أسسها محمد على باشا ، وكان ذلك فألا حسناً للمترجم ، كما يقول عن نفسه ، إذ أنه حين اجتمع بالأطفال ورأى الخياط خطه أجود من خطوطهم ، رغب اليه أن يدخل مكتب ميت العز ، وأفهمه أن نجباء المكاتب ينتقلون إلى المدارس دون واسطة ، فابتهج المترجم لهذه الفكرة ، إذ وجد فيها بغيته التى ينشدها ، ولم يكن أحب الى نفسه من أن يسلك سبيل الدخول إلى المدارس ، ويجتاز تلك العقبة التى أشار اليها فراش المأمور فى حديثه له ، وهى الواسطة لدخول المدارس ، ورأى أن الاجتهاد فى المكتب سيغنيه عن تلك الواسطة التى قد لا يجدها

دخل المترجم مكتب ميت العز ، وناظره من معارف أبيه ، وكان يعلم أن دخول ابنه المكتب لا يرضيه ، فأراد أن يصرفه عن دخوله ، ولكنه رأى منه إصرارا على عزمه ، فبقى بالمكتب خمسة عشر يوما ، وأرسل الناظر إلى أبيه ، فجاء يسعى لإرجاعه عن عزمه ، فأبى ، فلجأ إلى حيلة ينتزعه بها من المدرسة ، فاتفق مع الناظر على أن ينتهز الفرصة فى خروج ابنه إلى الفسحة وقت الظهر ، فاختطفه وعاد به قسرا إلى بلده ، وحبسه فى البيت عشرة أيام ، وأخذت أمه تبكى وتستعطفه ليرجع عن عزمه ، كى يبقى بينهم ولا يفارقهم ، فوعدها بالبقاء ، ولكنه أسر فى نفسه أن يغتنم أقرب فرصة لفراق أهله وذويه ، والرحيل فى طلب العلم ، وانتظر حتى اطمأنوا إلى عدوله عن فكرته ، ولما كانت إحدى الليالى تربص حتى ناموا جميعاً ، وأخذ دواته وأدواته ، وخرج من البيت خائفاً يترقب ، وتوجه تلقاء ميت العز ، وكان ذلك — كما يقول المترجم — آخر عهده بسكناه بين أبويه . وكانت ليلة مقمرة ، فمشى حتى بلغ ميت العز ضحى الغد ، ولم يشعر الناظر إلا وهو داخل المكتب مع زملائه التلاميذ ، وكأنما خشى أن يجىء أبوه ويحتال عليه لاختطافه ثانية ، فلزم المكتب ، لا يخرج منه ليلا ولا نهاراً ، وجاء أبوه غير مرة ليقنعه

---

(١) بمركز ههيا الآن : قبلى أبى كبير بشرق

بالعدول عن عزمه ، ويأخذه بالحسنى ، فلم ينجح فى مسعاه ، واستمر الغلام ملازما المكتب . مكباً على الدرس والتحصيل

انتقاله إلى مدرسة (قصر العينى)

بقى المترجم فى مكتب ميت العز إلى أن جاء ناظر مدرسة الخانكة (عصمت افندى) لاختيار نجباء التلاميذ من المكتب المذكور ليلتحقوا بمدرسة قصر العينى ، فكان التلميذ على مبارك ممن وقع عليهم الاختيار ، فجاء أبوه يحاول من جديد صرفه عن الذهاب إلى المدرسة ، وشكا أمره إلى عصمت افندى ، فأحاله على ابنه ، وقال إن الخيار له ، فخيروه بين العودة مع أبيه أو الالتحاق بالمدارس ، فاختار المدارس ، فبكى والده بكاء كثيراً ، وأغرى به جماعة من المعلمين ليستميلوه ، فلم يصغ لهم ، ودخل مدرسة قصر العينى سنة ١٨٣٦ ، وكان لايتجاوز يومئذ الثانية عشرة من عمره

وهنا تبدو ظاهرة جديدة فى شخصية المترجم ، إلى جانب ماذكرناه عن عزة نفسه ، وطموحه إلى المعالى ، وهى ميله الفطرى إلى العلم ، وشغفه بالارتواء من منهله العذب ، وما فطر عليه من قوة الإرادة ، ومضاء العزيمة

فانظر إلى مبلغ حبه للعلم ، والتعلم ، تجده يسعى جهده للالتحاق بالمدارس ، رغم إرادة والديه ، وليس من المألوف بين الأطفال والشبان أن يقبلوا على العلم بوازع من أنفسهم ، بل آباؤهم هم الذين يدفعونهم إلى دخول المدارس ويرغبونهم بمختلف الوسائل فى متابعة الدرس ، وكثيراً مايتعب الآباء فى إيلاف أبنائهم المدرسة والإقبال عليها

فالغلام الذى يتعلق بدخول المدارس رغم إرادة أبويه ، ويستهدف لغضبهما فى هذا السبيل ، لابد أن يكون قد رسخ فى نفسه شغف شديد بالعلم والتعلم

وتتجلى أيضاً قوة عزيمة المترجم ، فى إصراره على دخول المدارس ، رغم تلك العقبات التى اعترضته ، فمن إغضاب والديه ، الى بُعد الشقة ، ووعورة الطريق ، إلى قلة ذات يده ، إلى صغر سنه ، إلى المغامرة بنفسه فى حياة يجهلها ولا يعرف مصيرها ، كل ذلك يدل على حظ عظيم من صدق العزيمة وقوة الإرادة

فعزة النفس ، والطموح إلى المعالى ، وحب العلم ، وقوة الإرادة ، هذه هى الصفات التى تطالعنا بها شخصية على مبارك وهو بعد فى سن الطفولة والمراهقة

وسنرى كيف لازمته هذه الصفات فى كل أدوار حياته ، فكان لها ذلك الأثر العظيم فى أعماله

التعليم فى مدرسة قصر العينى

لم تكن مدرسة الطب قد نُقلت بعدُ إلى قصر العينى ، حينما جاء مصر على مبارك ، بل كانت لم تزل بأبى زعبل ، أما المدرسة التى كانت بقصر العينى وقتئذ (سنة١٨٣٦) فهى مدرسة إعدادية للمدارس الحربية والعالية

وصف المترجم التعليم فى تلك المدرسة ، ويؤخذ من وصفه انه لم يكن على درجة حسنة من التقدم ، لا من جهة مستوى التعليم فى ذاته ، ولا من جهة معاملة التلاميذ ، فقد ذكر أنه وجد المدارس على خلاف ماكان يظن ، وأن مدرسيها ورؤساءها كانوا لايحسنون فهم وظائفهم ، ولا يعنون بالتلاميذ ، وكان التعليم العسكرى موضع العناية فيها ، فيتمرن الطلبة على الحركات الحربية فى معظم الأوقات ، فى الصباح ، والظهر ، وبعد الأكل ، وفى أماكن النوم ، وكان الضرب وأنواع الإيذاء من الأمور المألوفة فى التعليم ، وكذلك قلة العناية بمأكل التلاميذ ومسكنهم ، فكانت مفروشاتهم حصر الحلفاء ، وأحرمة الصوف الغليظ من صنع معمل بولاق ، ولم يكن الأكل الجارى للتلاميذ سائغاً ، فاستعاض عنه على مبارك بالجبن والزيتون

وقد اعتراه فى المدرسة مرض ، لما اجتمع عليه من الأفكار والهموم وتغيير الطقس ، فنقل إلى مستشفى المدرسة ، ولقى فى مرضه الشدائد والآلام ، ولحقه الجوع بالمستشفى ، وفيما كان على فراش المرض ، جاء أبوه الى قصر العينى ، واتصل به بواسطة أحد الممرضين ، ورغب اليه أن يعود معه إلى بلده ، فمالت نفسه لإجابته ، وهمّ بترك المدارس ، لما لقيه فيها من التعب والنصب ، ولعدم وجدانه التعليم الذى ينشده ، ولكنه خشى عواقب الهرب من المدرسة ، إذ كانت الحكومة تتعقب الهاربين من التلاميذ ، وتعتقل أهليهم ، وتسيء معاملتهم ، فخشى أن ينال أباه من عنت الحكومة مالا يرضاه له ، فامتنع

عن الحرب ، فعاود أبوه الكرة يستميله ويهوّن عليه الأمر ، فأبى واعتزم ه الصبر على قضاء الله ، ولما شفى انتقل من المستشفى الى المدرسة ، واستأنف الدرس ولم يصب بمرض بعد ذلك أثناء دراسته

انتقاله الى مدرسة أبى زعبل

ولما نقلت مدرسة الطب الى قصر العينى سنة ١٨٣٧ تحول تلاميذ القصر الى أبى زعبل فانتقل اليها المترجم كسائر تلاميذ المدرسة

وقد شعر بتقدم مستوى التعليم فى مدرسة أبى زعبل ، وينسب المترجم هذا التقدم إلى كفاءة ناظر المدرسة ، وهو المرحوم ابراهيم بك رأفت ، وحسن عنايته بتعليم النشء ، ومما ذكره فى هذا الصدد ، أنه كان فى بداءة عهده يجد صعوبة كبيرة فى تفهم فنون الهندسة والحساب والنحو ، ويراها كالطلاسم ، وكلام المدرسين فيها كالسحر ، ولكن ابراهيم بك رأفت أوضح للتلاميذ معانى الهندسة وقواعدها بأسلوب تقبله عقولهم ، فانفتح لحسن بيانه ذهن المترجم ، وبدأ يعى مايسمع من الدروس

ولفت نجاح التلميذ على مبارك نظر رأفت بك ، فصار يضرب به المثل ، ويجعل نجاحه على يديه دليلا على تأثير أسلوب المدرس فى تثقيف أذهان التلاميذ

وفى سنة ١٨٣٩ اختار ولاة الأمور نجباء مدرسة أبى زعبل لإلحاقهم بمدرسة المهندسخانة ببولاق ، فكان على مبارك ضمن هؤلاء

دخوله مدرسة المهندسخانة

دخل مدرسة المهندسخانة ، وكان حينئذ يافعا ، إذ بلغ السادسة عشرة من عمره ، فأخذ نضوجه العلمى يزداد وينمو ، ومكث خمس سنوات يتابع الدرس ، حتى استكمل جميع علوم المدرسة ، وظهرت عليه مخايل الذكاء والتقدم منذ دخلها ، فكان دائما أول فرقته ، وأساتذته فيها طائفة من علماء الرياضيات ، ممن علا ذكرهم فى فجر النهضة العلمية ، أمثال : محمود باشا الفلكى . وطائل افندى . ومحمود بك أبو سن . ودقله افندى . وابراهيم بك رمضان . واحمد بك فايد . وسلامه باشا ابراهيم . وناظر المدرسة المسيو لامبير بك

أحد علماء الفرنسيس . ولهؤلاء الأساتذة فضل كبير على المترجم ، إذ تلقى على أيديهم العلوم الهندسية والرياضية ، ولم تكن ثمة كتب مؤلفة فى الفنون التى تولوا تدريسها ، بل كان المعلمون يملون ، والتلاميذ يكتبون مايسمعونه فى كراريس . كل قدر اجتهاده ، وكان المعلمون كما شهد لهم بذلك المترجم « يبذلون غاية جهدهم فى التعليم » ، وفى آخر عهده بمدرسة المهندسخانة أخذوا يطبعون الكتب فى مطبعة الحجر ، فاستعان بها التلاميذ ، الى أن تكاثر طبع الكتب المطولة فى العلوم والفنون الرياضية

انتظامه فى سلك البعثات سنة ١٨٤٤

تعددت البعثات العلمية المدرسية فى عهد محمد على باشا ، وقد تكلمنا عنها تفصيلا فى كتاب « عصر محمد على » (ص ٤٥١ طبعة اولى)

وتخرج من البعثات طائفة من النوابغ فى عصر محمد على ، واسماعيل ، ومن حسن توفيق المترجم وحسن استعداده أن انتظم فى سلك البعثة الخامسة ، وهى أكبر البعثات شأناً ، وفيها بعض أنجال محمد على وأحفاده ، ولذلك يسميها على باشا مبارك (بعثة الأنجال)

تولى القائد سليمان باشا الفرنساوى اختيار أعضاء هذه البعثة من نوابغ طلبة المدارس العالية ، فكان التلميذ على مبارك ضمن من اختيروا لها من متقدمى مدرسة المهندسخانة ، وبلغ عددهم فى مبدئها ٧٠ تلميذاً ، منهم الأمير عبد الحليم ، والأمير حسين من أنجال محمد على ، والأمير أحمد رفعت ، والأمير اسماعيل (الخديو) من أنجال ابراهيم باشا ، وضمت طائفة ممن شغلوا المراكز الكبيرة فى الحكومة بعد عودتهم ، أمثال شريف باشا ، وعلى باشا مبارك ، وعلى ابراهيم باشا ، وحماد عبد العاطى باشا ، وسليمان نجاتى بك وغيرهم [١]

وقد بدا من المترجم لمناسبة التحاقه بهذه البعثة ، مافطر عليه من الميل الشديد إلى

---

(١) ذكرنا أسماءهم وترجمنا لنوابغهم فى كتاب « عصر محمد على » ص ٤٦٥ ومابعدها

العلم ، فان المسيو لامبير بك ناظر مدرسة المهندسخانة رغب اليه البقاء ليجعله مدرساً بها ، وأفهمه أن بقاءه يعجل بترتيب وظيفة له ، على حين أن التحاقه بالبعثة يجعله باقياً فى سلك التلاميذ ، ويفوت عليه تلك المزية ، لكنه آثر الالتحاق بالبعثة ، ليزداد اكتساباً للعلوم ، « ولأن سفره مع الأنجال يزيده شرفاً ورفعة »

سافرت البعثة الى فرنسا سنة ١٨٤٤ ، ووجهتها تعلم الفنون الحربية ، وأقام أعضاؤها سنتين بباريس ، ولأجلهم أنشئت بها المدرسة المصرية لتعليم الطلبة اللغة الفرنسية ، وإعدادهم لدخول المدارس العليا بفرنسا ، وخصص لهم بها المعلمون والضباط الفرنسيون ، وكان تلاميذ البعثة يتعلمون التعليمات العسكرية كل يوم ، ولقى المترجم فى دراسة اللغة الفرنسية مصاعب جمة ، ذللها بقوة العزيمة ، فقد كان الى عهد انتظامه فى البعثة غير عارف بتلك اللغة ، شأنه فى ذلك كشأن العلامة رفاعة بك رافع الطهطاوى حينما انتظم فى البعثة الاولى ، واقتضى نظام التعليم فى البعثة أن يجعل من المتقدمين فى الرياضيات (ومنهم المترجم) والعارفين باللغة الفرنسية فرقة واحدة ، وكلف المعلمون أن يلقوا الدروس بالفرنسية للجميع ، لافرق بين من يفهم تلك اللغة ومن لايفهمها ، ففعلوا ، وأحالوا غير العارفين بها على العارفين ليتعلموا منهم بعد انتهاء الدروس ، ولكن العارفين بالفرنسية كانوا يبخلون على مثل على مبارك بالتعليم ، لينفردوا بالتقدم

فمكث المترجم مدة لايفهم الدروس التى يسمعها ، وخشى العاقبة ، فعالج هذه الصعوبة بالصبر والمثابرة ، وقوة العزيمة ، ذلك أنه أخذ يدرس الفرنسية بنفسه ، واشترى لهذا الغرض الكتب الأولية فى الهجاء واللغة ، وأكب على مطالعتها وتفهمها وحفظها ، وبذل فى هذا السبيل جهداً لاينقطع ثلاثة أشهر متوالية ، مع متابعة الدروس التى تلقى بالفرنسية ، فأثمر الحفظ والجهد ثمرة كبيرة ، وصار أول البعثة كلها ، وكان يتبادل الأولية مع زميليه على ابراهيم وحماد عبد العاطى

ولما جاء ابراهيم باشا قائد الجيوش المصرية المظفرة الى باريس ، أقيم له احتفال حافل ، وحضر امتحان أعضاء البعثة ، فسمع ثناء مستطاباً على حسن اجتهادهم ، ووزع الجوائز بنفسه على الناجحين منهم ، وناول على مبارك الجائزة الثانية بيده ، وكانت نسخة من كتاب فى الجغرافية ، لمؤلفه المسيو مالطبرون ، مع مجموعة خرائطه ، ودعا الطلبة

الى تناول الطعام على مائدته ، فكان ذلك تكريماً لهم وتشجيعاً ، وحثا لهم على متابعة الدرس والتحصيل

يتجلى لك فى هذه الصفحة من حياة المترجم بباريس ، مبلغ قوة ارادته ، ومثابرته على الدرس والتعلم ، وثمة ظاهرة أخرى ، تزين هذه الصفحة ، وهى بره بوالديه ، وحنوه عليهما ، فقد أجرت عليه الحكومة مرتبا شهريا قيمته خمسون ومائتا قرش ، فجعل نصفها لأهله ، يصرف لهم من مصر كل شهر ، ويكتفى هو بالنصف الآخر ، وكانت هذه سنته معهم منذ دخل المدارس

وهذا البرّ بالأبوين يدلك على ماتجملت به نفس على مبارك من الوفاء ، ومكارم الأخلاق ، وإنكار الذات ، ولاشك أن هذه المزايا مما تزين شخصية المترجم وتزيدها سطوعا وبهاء

التحاقه بمدرسة متز الحربية

ولما انقضى عامان على إقامة البعثة بباريس ألحق الثلاثة الأول من أعضائها ، وهم على مبارك ، وحماد عبد العاطى ، وعلى ابراهيم ، بمدرسة المدفعية والهندسة الحربية الشهيرة بمتز Metz ، ونالوا رتبة الملازم الثانى فى الجيش الفرنسى ، فأقاموا سنتين أخريين يتعلمون الفنون الحربية

وبعد أن أدوا الامتحان النهائى ألحقوا بالجيش الفرنسى ، فكان على مبارك فى الألاى الثالث من فرقة المهندسين الحربية ، وقضى به أقل من سنة ، وبديهى انه اكتسب بانتظامه فى هذه الفرقة خبرة كبيرة ، فى الفنون الحربية والهندسية ، فزادت معارفه التى نالها فى مدرسة المهندسخانة ببولاق ، ومدرسة باريس ، ومدرسة متز الحربية والهندسية ، فلاغرو أن صار من نوابغ المهندسين المصريين ، وظهر نبوغه فى إدارته مصلحة السكك الحديدية ، وولايته وزارة الأشغال فى عصر اسماعيل

وكان ابراهيم باشا يرغب فى أن يزداد أعضاء البعثة خبرة وعلما ، وأن يطيلوا مكثهم فى الخدمة العسكرية بفرنسا ، حتى يستوفوا تجاربها ، ثم يتنقلون فى الديار الأوروبية الأخرى ليطبقوا العلم على العمل ، ويشاهدوا ما فيها من المنشآت الهندسية والحربية ، ولكن

المنية حالت دون إنفاذ هذا البرنامج ، إذ توفى ابراهيم وخلفه عباس الأول ، فطلب الى نوابغ البعثة العودة فوراً الى مصر ، فرجعوا اليها سنة ١٨٥٠ ، وانتقل المترجم بذلك من حياة التحصيل والدراسة ، الى دور العمل والإنتاج

عمل المترجم فى عهد عباس

عاد المترجم كامل النضوج ، واسع الاطلاع ، صادق العزم ، مقبلا على العمل بكل مافيه من نشاط وهمة ، ولو وجد من ولاة الأمور من يستثمر مواهبه وكفاءته فى النهوض باعمال التقدم والعمران ، لظهرت نتائج هذه المواهب حين عودته الى مصر ، لكنه لم يجد من يقدر قيمته ، ويستثمر كفاءته ، فانقضى نحو أربعة عشر عاما ، والبلاد تكاد تحرم من أعماله المنتجة ، وخاصة فى عهد سعيد الذى كان يبخسه حقه ، ولا يعرف قدره
ولم يبدأ عهد إنتاجه الكبير إلا فى عصر اسماعيل الذى عرف كيف يوجه هذه القوة الى إحياء النهضة العلمية فى البلاد

تعيينه مدرساً بمدرسة طره الحربية

كان أول مركز شغله على مبارك بعد عودته لمصر أن عين مدرساً بمدرسة طره الحربية ، ولكن التعليم فى عهد عباس باشا الاول كان مصابا بالجمود والإهمال ، فتناقص عدد التلاميذ فى هذه المدرسة ، وخاصة حينما أنشأ عباس مدرسة المفروزة ، واختارلها الطلبة من جميع المدارس ، بعد إلغاء معظمها ، فلم يبق بمدرسة طره الا عدد قليل من الطلبة المتقدمين فى السن ، وأمعنت المدرسة فى التأخر حتى لم يبق فى الفرقة التى يلقى فيها على مبارك دروسه سوى تلميذ واحد
صار المترجم إذن بلا عمل ، وليس هذا مما تميل اليه نفسه ، لانه اعتاد الجدّ والدأب على العمل ، ولقد حدثته نفسه ان يتخلف عن المدرسة فى اجازة ليزور أهله بعد غيبته الطويلة عنهم ، فرغب اليه ناظر المدرسة فى البقاء حتى لا يقطع نصف راتبه اذا هو غاب عنها

مصاحبته سليمان باشا الفرنساوى

وسعى له الناظر عند الجنرال سليمان باشا الفرنساوى القائد العام للجيش المصري ،

ليصطحبه فى مهمة حربية وهى اكتشاف بحيرة المنزلة وسواحل مصر الشمالية ، فتم له ماأراد ، وصحب المترجم سليمان باشا الى دمياط ، وأدى ما كان مطلوباً منه ، وهو ارتياد بحيرة المنزلة ، وخطط رسما مفصلا لمواقعها ، وكتب تقريراً عنها ثم ذهب الى بلدته رنبال ، وكان أهله قد رجعوا اليها منذ مدة واستقروا بها

زيارته لأهله

فدخل البلدة ليلا على حين غفلة من أهلها ، وذهب من فوره الى منزل أبويه ، وطرق الباب ، وكان أبوه غائباً بمصر ، ولم يكن بالدار سوى والدته وبعض إخوته ، وكان قد فارق أمه منذ أربع عشر سنة ، ولم تكن تتوقع حضوره تلك الليلة ، فلما طرق الباب ، قيل من أنت؟ فقال : ابنكم على مبارك ، فقامت مدهوشة ، وقصدت الى ماوراء الباب ، وجعلت تنظر وتمعن النظر ، لتتحقق الخبر ، وكان هو بردائه العسكرى ، متقلداً سيفه وحاملا شعار الضباط ، فلم تصدق انه هو ، حتى أعادت سؤاله ، وتحققت انه هو ، ففتحت الباب ، وما أن رأته حتى ارتمت عليه تعانقه ، ووقعت مغشيا عليها من الدهشة والفرح والتأثر ، ثم أفاقت ، وجعلت تبكى ، وتضحك ، وتزغرد ، فأقبل أهل البيت ، وجاء الأقارب والجيران يهرعون ، وامتلأت بهم الدار ، وانقضى الليل حتى الصباح ، والناس بين رائح وغاد ، يجيئون لتهنئته ، وأقامت أمه الأفراح ابتهاجاً بعودة ابنها العزيز ، وبلوغه هذه الرتبة العالية ، وبعد يومين قضاهما بين أهله وعشيرته ، عاد الى دمياط ، وعرض على القائد سليمان باشا الفرنساوى نتيجة تجواله فى بحيرة المنزلة ، فوقعت عنده موقع الاستحسان ، وأثنى عليه الثناء المستطاب

التحاقه بمعية عباس باشا

وفى أثناء صحبته سليمان باشا الفرنساوى سعى له فى منصب آخر بدلا من التدريس فى مدرسة طره ، فنجح فى إلحاقه بمعية جاليس بك قومندان الاستحكامات ، وكان مقره الاسكندرية

فذهب اليها المترجم ليتسلم منصبه الجديد ، ولكن عباس باشا قرر أن يلحقه بمعيته هو وحماد بك ، وعلى بك ابراهيم ، وكلفهم امتحان مهندسى الأقاليم ومعلمى المدارس ، وأنعم عليهم برتبة الصاغ ، فأدى المترجم هذه المهمة ، واستبدل بالمهندسين القدماء مهندسين

اكفاء من خريجى مدرسة المهندسخانة ، وأتم فى خلال ذلك مهمات أخرى هندسية ، إذ أحيل عليه الكشف على شلال اسوان لدرس مشروع تسهيل الملاحة فيه ، فقدم تقريراً وافياً بهذا المشروع

ولما عاد الى القاهرة عهد اليه عباس بالاشتراك مع المسيو موجيل بك Mouge) كبير مهندسى القناطر الخيرية وضع نظام لمرور السفن من القناطر التى كان بناؤها قد قارب التمام ، فأدى هذه المهمة ، وأحيلت عليه وعلى زميليه على ابراهيم وحماد عبدالعاطى كل الأعمال الهندسية التى تطلبها دواوين الحكومة

مشروع تنظيم المدارس

وشرع عباس فى وضع نظام جديد للمدارس ، بعد أن الغى معظمها ، ففى أواخر سنة ١٨٥١ عرض عليه المسيو لامبير بك ناظر مدرسة المهندسخانة ميزانية للمدارس الملكية والرصدخانة تبلغ ٢٠٫٠٠٠ كيس (١٠٠٫٠٠٠ جنيه) ، فاستكثر عباس هذا المبلغ ، وأحال المشروع على المترجم ، فوضع للمدارس الملكية ميزانية تبلغ خمسة آلاف جنيه ، على أن تكون فى مكان واحد، وبإدارة ناظر واحد ، واستبعد الرصدخانة من المشروع ، لعدم وجود من يقوم عليها حق القيام ولكثرة نفقاتها

نظارته لمدرسة المهندسخانة

ولما عرض المشروع على عباس حاز إعجابه ، وأحاله على مجلس مؤلف من رؤساء الدواوين ، فبحثوه وأقروه ، وأنعم على المترجم لهذه المناسبة برتبة اميرالاى ، وعهد اليه بتنفيذه ، وجعله ناظراً لمدرسة المهندسخانة وما يلحق بها من المدارس الملكية ، وكلفه اختيار مدرسى مدرسة المفروزة ، ووضع نظام للتعليم فيها ، واختيار مايلزم لها من الكتب ، فاضطلع بهذه المهمة ، وعظمت منزلته عند عباس باشا

وبذل جهداً عظيماً فى ترقية شأن المدارس التى تولى إدارتها ، فكان يرشد المعلمين الى خير الطرق للتدريس ، ويتفقد فصول الدراسة وأحوالها ، ويقوم بتأليف الكتب المدرسية بنفسه ، يعاونه بعض المعلمين ، وأنشأ مطبعة حروف ومطبعة حجر طبع فيها للمدارس الحربية وألايات الجيش نحو ستين الف نسخة ، من كتب متنوعة ، غير ماطبع

فى كل فن بمطبعة الحجر للمهندسخانة ، من الكتب ذات الأطالس والرسوم ، وكان فوق ذلك يلقى بعض الدروس ، كالطبيعة والعمارة ، ويعنى شديد العناية بتوفير حاجات الطلبة فى مآكلهم ، ومشربهم ، وملبسهم ، ويسهر على حسن معاملتهم ، فارتقت حالتهم الفكرية والمعنوية ، وكاد يمتنع الضرب والسجن من المدارس

فى عهد سعيد باشا

اشتراكه فى حرب القرم

يؤخذ مما كتبه المترجم عن نفسه أنه لم يكن مَرْضياً عنه من سعيد باشا ، فقد ذكر عنه أنه لما تولى الحكم وشى له بعض الكاشحين بمدرسة المهندسخانة ووصفوها بما ليس له نصيب من الصحة ، واختلقوا عليها معايب كثيرة ، حتى أوغروا صدر سعيد على المترجم فأمره بالاشتراك فى حرب القرم سنة ١٨٥٤ ، صحبة الحملة المصرية التى كان يقودها احمد باشا المنكلى

وليس من ضير على الحكومة اذا عهدت إلى مثل على بك مبارك أن يشترك فى حرب القرم ، فقد نال حظاً كبيراً من التعليم الحربى ، وتخرج فى أرقى المدارس الحربية الفرنسية ، ولكن ملابسات هذا العمل تدل على أن الغرض منه لم يكن الاستفادة من خبرة المترجم ، إذ لم يعهد اليه فى حرب القرم بعمل حربى ذى شأن ، تحرم من أجله مدرسة المهندسخانة كفاءة ناظرها القدير ، ومن جهة أخرى فقد اقترن تكليفه مرافقة الحملة بإلغاء مدرسة المهندسخانة ، فالغرض الحقيقى كان إذن ابعاد المترجم ، وإقفال هذا المعهد العلمى العظيم الذى أخذ على عاتقه ترقيته وإنهاضه ، فالعمل كما ترى ضرره أكثر من نفعه ، وشره أكثر من خيره ، ولكن أهواء سعيد باشا (وقد كان دائماً كثير التقلب فى الآراء) جعلته يصغى لوشاية الدساسين ، ويوصد أبواب تلك المدرسة ، ثم يحرم البلاد خدمات على بك مبارك العلمية ، ذلك أن على مبارك ، وإن كانت دراسته العليا عسكرية ، لكن نفسه اتجهت الى ناحية أخرى غير الحياة الحربية ، وهى ناحية التعليم وتنظيمه والنهوض بأعبائه ، فكان واجباً على سعيد باشا أن يستخدم مواهب المترجم فى هذا الميدان ، وأن يعمل على الأقل للمحافظة على نهضة العلم والتعليم التى ازدهرت فى عهد أبيه ، ولكن المعروف

أن هذه النهضة قد اضمحلت وتراجعت فى عهد عباس وسعيد ، ولم يعاودها النشاط والحياة الا فى عصر اسماعيل

ويستفاد مما ذكره المترجم انه شعر بأن تكليفه مهمة السفر الى بلاد القرم كان مقصوداً به إبعاده ، والنكاية به ، وهذا مفهوم من قوله : « أقمت بهذه السفرة قريباً من سنتين ونصفاً ، وقد لطف الله بى وأحسن الىّ ، ورد كيد الحاسدين فى نحورهم ، فانى وإن قاسيت فيها مشاق الأسفار ، وما يلحق المجاهدين من الإرجاف والاضطرابات ، والحرمان من المألوفات ، لكنى رأيت بلاداً وعوائد كنت أجهلها ، وعرفت أناساً كنت لا أعرفهم ، واكتسبت فيها معرفة اللغة التركية » ، فيؤخذ من ذلك ان ثمة حاسدين كانوا يكيدون له ، ومن مكايدهم أنهم دبروا أمر إبعاده الى بلاد القرم ، وإرساله الى ميادين الحروب المحفوفة بالمكاره والأخطار ، ولكن الله لطف به إذ رد كيدهم ، وعاد من الحرب سالماً وقد نال مزايا جمة

والواقع أنه أفاد كثيراً من هذه الحملة ، فان الاشتراك فى الحروب من شأنه أن يقوى فى النفس روح الشجاعة والإقدام ، ولو اشترك المترجم فى اقتحام المخاطر ، والبقاء فى خط النار ، لكان أثر هذه الحملة فى نفسه أقوى وأعظم ، ولزاد حظه من الشجاعة والجرأة ، ولوقف من الحكومات المتعاقبة التى تولت الحكم فى مصر مواقف أعظم شأناً من خطة اللين والمسالمة التى اختطها لنفسه ، ومهما يكن من الأمر ، فلانزاع فى أن مداركه قد اتسعت وخبرته قد اكتملت فى تلك الحرب

أقام المترجم عشرة أشهر فى بلاد القرم ، وكان يعهد اليه أمر المفاوضات والمخابرات بين الروس والترك ، وأقام ثمانية أشهر أخرى فى بلاد الأناضول ، أغلبها فى مدينة (كومشخانه) ، وكان منوطاً به تسهيل نقل الجند من مدينة طرابزون الواقعة على البحر الأسود ، الى مدينة أرض روم بأرمينيا ، وعلى أن هذه المهمة ليست من ضروب القتال الفعلية ، فقد لاقى فيها الشدائد والأهوال ، لشدة البرد ، وكثرة الثلج فى تلك الجهات ووعورة طرقها ، وصعوبة اجتياز مافيها من العقبات ، بين جبال شاهقة وأودية سحيقة

وقد مرض كثير من الجند لما أصابهم من البرد القارس ، وأنشأ لهم المترجم

مستشفى بكومشخانة ، نظمه تنظيما حسناً ، ونال ثناء أعيان المدينة وأكابرها ورؤساء الجيش

عودته الى مصر والوظائف التى تولاها

ولما عاد المترجم الى مصر اعترضته فى الحياة عقبات ومتاعب جمة ، ذلك أن سعيد باشا أمر باخلاء سبيل الجنود وإرجاعهم الى بلادهم ، ورفت كثيراً من ضباط الحملة ، ومنهم على بك مبارك ، فسكن فى بيت صغير ، وعانى غضاضة العسر والضيق ، وصارت حالته بعد سبع سنوات من عودته من فرنسا ، كحالته عند ما عاد منها ، وفقد ما كان يناله ويؤمله من المناصب ، وفقد ماله ، وشعر بمرارة اليأس تنغص عليه حياته ، وداخله الهم والكدر ، وحدثته نفسه أن يرغب عن خدمة الحكومة والتطلع لمناصبها ، إذ لم يجد من ولاة الأمور إنصافا ولا تقديراً ، واعتزم الرجوع الى بلده والاشتغال بالزراعة وقال لنفسه : « عوضنا الله خيراً فى نتائج الفكر وثمرات المعارف ، ولنفرض أننا مافارقنا البلد ، ولاخرجنا منها »

وبينما كان يتأهب للرجوع الى بلده صدر الأمر للضباط المرفوتين بالحضور إلى القلعة ، فكان هو ممن أعيدوا للخدمة ، فعدل عن عزمه الأول

وبعد قليل عين معاونا بوزارة الحربية ، وأحيل عليه النظر فى التحقيقات الخاصة بالمصانع الحربية والجبخانات (مخازن البارود) ، ولم يكن هذا العمل مما تألفه نفسه ، لتفاهته وعقمه ، ولكنه راض نفسه على الصبر ، عسى الله أن يأتى بالفرج القريب ، وحدث أثناء قيامه بهذه الوظيفة أن شرع وزير الحربية وقتئذ (اسماعيل باشا الفريق) فى وضع رسم لبعض المناورات الحربية ، فعجز عن عمله ، وحار فى إتمامه ، فاستدعى على بك مبارك لما كان يعهده فيه من الكفاءة والخبرة ، فوضع الرسم المطلوب ، فأثنى عليه الفريق ، ووعده بأن يذكره بالخير عند سعيد باشا

وقد وفى اسماعيل باشا بما وعد ، وكان من نتيجة مسعاه أن أمر سعيد باشا بإلحاق المترجم بمستودعى الداخلية ، وكان يحال عليه النظر فى بعض القضايا ، ثم عهدت اليه وكالة المحكمة التجارية ، فاضطلع باعبائها بأمانة ونزاهة ، ولكن سلفه فيها وشى به لدى

سعيد باشا ، فرفت منها ، وعاد كما بدا ، عاطلا من المنصب ، واعتكف فى بيته ثلاثة أشهر ، ثم عين مفتشاً لهندسه نصف الوجه القبلى ، ثم استدعاه سعيد باشا ، وعهد اليه بوضع مشروع استحكامات الحماد ، وهو مشروع جليل الشأن ، كان الغرض منه تحصين موقع الحماد (جنوبى رشيد) ، بين فرع رشيد وبحيرة أدكو ، لمنع العدو من مهاجمة القطر المصرى من هذه الناحية ، فوضع المترجم الرسم المطلوب لهذه الاستحكامات وأدى المهمة على خير مايرام ، ولكنه عند ما أراد أن يعرض الرسم على سعيد باشا لم يستطع تقديمه اليه ، وتردد عليه آنا فى طره ، وآونة فى قصر النيل ، فلم يتيسر له مقابلته واضطر لملازمة معيته فى السفر من بلد الى بلد ، مدة ثلاثة أشهر ، بلا راتب ، ولا عمل ، دون أن يظفر بتقديم الرسم المطلوب ، الى أن رآه سعيد يوما فى الجيزة ، فذكر الرسم الذى كلفه به ، وسأله عنه ، فقدمه اليه ، فنظر فيه قليلا ولم يزد عن قوله : « أبقه حتى نجد وقتا لإمعان النظر فيه » ، وكانت هذه الاجابة نتيجة الانتظار مدة ثلاثة أشهر ، ثم لم يلتفت اليه بعد ذلك ، ولكنه أمر بربط مرتب للمترجم ، وبقى فى معيته زمنا طويلا بلا عمل إلى أن أصدر سعيد أمره باختيار بعض المعلمين لتعليم الضباط وصف الضباط الخارجين من تحت السلاح القراءة والكتابة والحساب ، فتقدم على بك مبارك للقيام بهذه المهمة ، ليشغل نفسه بعمل ما ، مهما كان ضئيلا ، لأن نفسه كانت تعاف الكسل والبطالة ، فصار يدرس لهم حروف الهجاء ، والخط والمبادىء الأولية فى الرياضيات والقواعد الهندسية ، وعاونه فى التدريس اثنان من المدرسين ، ووضع فى ذلك كتابا مختصرا فى الحساب والهندسة وطرق الاكتشافات العسكرية سماه (تقريب الهندسة)

وكان يشغل أوقات فراغه بالمطالعة وتدوين بعض الملاحظات على مايقرؤه ، جمعها بعد ذلك فى كتاب سماه (تذكرة المهندسين) ، يحتوى على فنون شتى مما يحتاج اليها المشتغلون بالهندسة ، ولما اعتزم سعيد باشا السفر إلى أوروبا أمر برفت أغلب من كان بمعيته ، فكان المترجم ضمن المرفوتين ...

وأمر قبل ذلك ببيع مهمات مدرسة المهندسخانة وأدواتها وكتبها ضمن كثير من تعلقات الحكومة التى اعتبرت « زائدة عن الحاجة » ، فدهش المترجم ، إذ رأى هذه النفائس تباع بالمزاد بأبخس الأثمان ، وفى جملتها الكتب التى طبعها أثناء نظارته لهذه المدرسة ، فدخل المزاد واشترى من هذه الأشياء ماأمكنه ابتياعه

ولما اشتد الضيق بالمترجم فكر فى الاشتغال بالتجارة ، فاتجر فيما اشتراه ، وعامل التجار ، وكثر منه البيع والشراء ، فربح واستعان بالربح على الإنفاق وأداء بعض الحقوق ، واستمر يتجر مدة شهرين ، ثم فكر فى التفرغ للتجارة والإعراض عن مناصب الحكومة . لما رآه من اضطراب الأحوال وتقلب الأمور ، مما كاد يفقده ثمرات العلوم ، وشعر بأنه كلما تقدم به العمر وكثر بنوه . نفد ماجمعه من الكد والتعب ، فآثر الاحتراف بالتجارة وجال بخاطره أن يعقد وبعض زملائه المهندسين المتقاعدين شركة يجعل الغرض منها بناء البيوت للبيع والتجارة . فيربحون منها ويستثمرون فيها معارفهم الهندسية وخبرتهم الفنية . فلم يجد من يوافقه على مشروعه . ففكر فى القيام به بنفسه ، وفيما كان يفكر فى مخرج من الضيق الذى اشتد به طرق سعيد باشا طارق المنون فى أوائل سنة ١٨٦٣ . فكان لوفاته أثر كبير فى حياة المترجم . ذلك أن اسماعيل لم يكد يعتلى العرش حتى فكر فى استخدام مواهب زميله القديم فى البعثة ، فانفتح باب الأمل والتوفيق أمام على بك مبارك

أعماله فى عهد اسماعيل

لما تولى اسماعيل الحكم ألحق المترجم بمعينه ، ثم جعله ناظراً على القناطر الخيرية ، وكانت الى ذلك الحين لم تستخدم أبوابها الحديدية المعدة لإقفال عيونها ، والمانع من اقفالها ما قرره المهندسون من أن القناطر لاتتحمل ضغط المياه قبل تقويتها ، وترتب على ذلك أن معظم المياه تحولت الى فرع رشيد ، وحرم فرع دمياط مرور المياه فيه ، فلما عرض على المترجم ارتأى إقفال قناطر فرع رشيد ، لتغذية فرع دمياط ، فعمل الخديو برأيه وأمر باقفالها . فانحدرت المياه الى فرع دمياط ، ونالت البلاد التى تروى منه منافع الرى وخيراته ، وأما الخلل الذى كان متوقعا حصوله فى بعض العيون بقناطر فرع رشيد فقد تلافاه المترجم ، إذ أقام حاجزاً من الخشب أحاط بالقناطر ، فنشأت خلفها جزيرة من الرمل حفظتها من ضغط المياه ، وهكذا تبين صواب الرأى الذى ارتآه على بك مبارك

ولما حفر رياح المنوفية (١) أحيل على المترجم إنشاء قناطره ومبانيه ، فأقامها على

---

(١) حفر رياح المنوفية لأول مرة فى عهد سعيد باشا وأعيد حفره وتعقيمه فى عهد اسماعيل

أحسن نظام ، وفى سنة ١٨٦٥ ندبته الحكومة المصرية عضوا عنها فى اللجنة التى ألفت لتقدير الأراضى التى صارت حقا لشركة القناة طبقا لحكم الامبراطور نابليون الثالث ، فأدى هذه المهمة خير الأداء

وكالة وزارة المعارف

وفى سنة ١٨٦٧ جعل وكيلا لوزارة المعارف العمومية (ديوان المدارس) . وكان يتولى هذه الوزارة شريف باشا الوزير المشهور ، فتقلد المترجم منصبه الجديد مع بقاء نظارة القناطر الخيرية فى عهدته ، ويبدأ من ذلك الحين عهد جديد للمترجم ، إذ صار له بحكم منصبه النفوذ الكبير الذى يسمح له بإنفاذ إصلاحاته فى دائرة التعليم العام

كان من مزايا المترجم أنه يتقن كل عمل يتولاه ، ويبذل كل مافى وسعه ليقوم به على الوجه الأكمل، فانتهز ندب الخديو اسماعيل اياه لرحلة مالية الى باريس عقيب تعيينه وكيلا لوزارة المعارف ، وأخذ يستكمل معلوماته عن حالة التعليم ونظام المدارس فى فرنسا ، ليقتبس ماراه صالحا لمصر ، ومع أن رحلته هذه لم تتجاوز خمسة وأربعين يوما بما فيها الذهاب والإياب . فقد اطلع على مناهج التعليم فى المدارس الفرنسية ، والكتب المقررة فيها ، ودرس أيضاً نظام المجارى العامة المبنية تحت الأرض فى باريس

توليته وزارة المعارف والأشغال

وبعد عودته الى مصر أنعم عليه الخديو اسماعيل سنة ١٨٦٨ برتبة الميرميران ،فصار يعرف من ذلك العهد بعلى باشا مبارك ، وأسند اليه ادارة مصلحة السكك الحديدية ، ووزارة المعارف والأشغال ، وبعد قليل ضمت اليه نظارة ديوان الاوقاف ، فجمع بين هذه المناصب الرفيعة ، مع بقائه ناظرا للقناطر الخيرية والتحافه بالمعية

العصر الذهبى فى حياة المترجم

وهنا يبدأ العصر الذهبى فى حياة المترجم ، وهو العصر الذى حفل بالأعمال العظيمة، التى خلدت اسمه فى تاريخ مصر الحديث ، وخاصة فى نهضتها العلمية

وأول ما يلفت النظر فى هذا الدور من حياته ، كفاءته الممتازة فى اضطلاعه بأعباء الوزارات المختلفة ، فقد كان فى وقت واحد وزيرا المعارف ، والأشغال . والأوقاف ، ومديرا عاما للسكك الحديدية ، وناظرا للقناطر الخيرية ، وهى مهام جسام ، تنوء بالعصبة من الرجال ، ولكن على باشا مبارك قام بها جميعا ، وأظهر من الكفاءة وقوة الإرادة والجلد على العمل مايدعو حقا للإعجاب ، وصدقت كلمته المتواضعة التى قالها فى هذا الصدد عن نفسه : « فبذلت جهدى ، وشمرت عن ساعدجدى ، فى مباشرة تلك المصالح فقمت بواجبها »

وهنا تتجلى ميزة كبيرة للمترجم ، تطالعنا بناحية من نواحى شخصيته ، وهى مقدرته على الاضطلاع بالمهام العظام ، فقد يكون لعلى باشا مبارك أنداد فى العلم والذكاء بين زملائه الذين تولوا مختلف الوزارات والمناصب العالية ، ولكنا نعتقد أنه بذ أقرانه فى الجمع بين مزايا متعددة ، وهى الكفاءة والجلد على العمل ، والإخلاص ، والنزاهة فى أداء واجبه ، وإتقان الأعمال الكبيرة التى تعهد اليه ، على ماتقتضيه من جهود ومتاعب ، فالرأس الذى يسع وزارات المعارف ، والأشغال والاوقاف ، مع ادارة مصلحة متشعبة الاعمال كالسكك الحديدية ، والكفاءة التى تضطلع بكل هاتيك المصالح ، والهمة التى تصرف شؤونها المختلفة ، وتبتكر لها المشاريع الجمة ، كل ذلك لايصدر الاعن نبوغ فذ ، وهذا وحده يعطينا فكرة صادقة عن شخصية المترجم

وزع على باشا مبارك اوقاته بين هذه الوزارات المختلفة ، فخصص نصف النهار من الصباح إلى الظهر للمعارف والاشغال والاوقاف ، ومن بعد الظهر الى الغروب لادارة السكك الحديدية

فى وزارة المعارف

كانت معظم جهوده موجهة الى ترقية شؤون التعليم فى البلاد

نقله المدارس الى درب الجماميز

وأول أعماله نقل المدارس من العباسية الى درب الجماميز ، ذلك انه رأى مايتكبده

التلاميذ وأهلوهم والاساتذة من المتاعب والمشاق والنفقات ، فى ذهابهم الى العباسية، وإيابهم منها ، فاستصدر من الخديو اسماعيل إذنا بنقل المدارس الى درب الجماميز ، وخصص لها سراى الأمير مصطفى فاضل ، فأصلحها على باشا مبارك وجعلها على استعداد لإيواء المدارس والمعاهد وخصص سلاملك السراى لوزارة المعارف ، وجعل كل مدرسة فى ناحية من السراى ، فصارت أشبه ما تكون بالجامعة وجعل بها أيضا وزارة الاشغال ، وديوان الاوقاف ، فسهل عليه القيام باعباء الوزارات المختلفة

ومع اضطلاعه بأعباء هذه الوزارات ، كان لاينفك يعنى بتفقد أحوال التلاميذ والمعلمين فى المدارس ، ويدخلها كل يوم ليشهد بنفسه سير التعليم فيها . وليطمئن على حسن نظامها وقيام المدرسين بواجباتهم

لائحة التعليم وإنشاء المدارس الابتدائية

وقد وجه عنايته منذ تولى وكالة الوزارة الى إصلاح التعليم فى المكاتب ، وتحويل ما يمكن تحويله من الكتاتيب الى مدارس ابتدائية نظامية ، فوضع لذلك لائحته المشهورة بلائحة ١٠ رجب سنة ١٢٨٤ التى نظمت المدارس ، ودعا طائفة من المشتغلين بالتعليم ليراجعوا المشروع ويبحثوه ، ويبدوا آراءهم فيه ، فدرسوا اللائحة وأقروها ، وصدر أمر الخديو بإجراء العمل بمقتضاها فى مايو سنة ١٨٦٨

وانشىء فى عهده كثير من المدارس الابتدائية النظامية فى القاهرة وعواصم المديريات

وكان لاجتماع وزارة المعارف ونظارة ديوان الاوقاف فى يده أثر كبير فى نهضة التعليم ، لأنه بما له من سلطة النظر على الاوقاف الخيرية استطاع إعداد كثير من الامكنة الموقوفة لجعلها معاهد للتعليم بعد اصلاحها ، ولو لم تكن له هذه السلطة لبقيت هذه المبانى معطلة لاينتفع بها ، ولعجزت الحكومة عن النفقات التى يقتضيها إنشاء معاهد جديدة ، وكذلك أمكنه بما له من حق الإشراف على معاهد العلم الموقوفة ان ينظمها ويحولها الى مدارس نظامية ، فأحيا هذه المعاهد بعد ما درست فى أيدى نظار الوقف الخاملين ، وكذلك أحسن ادارة أموال الاوقاف الخيرية ، واستخدم جانبا منها فى الإنفاق على التعليم بعد ان كانت تبدد وتضيع هباء

وجعل على أهالى التلاميذ المقتدرين مصروفات قليلة تؤخذ منهم برغبتهم على حسب اقتدارهم ، مع ترك الباقين مجانا ، واستوفى باقى نفقات المدارس من إيراد الأوقاف الخيرية الموقوفة على المكاتب وغيرها من وجوه الخيرات ، وخصص لها الخديو اسماعيل إيراد أطيان تفتيش الوادى بالشرقية ، كما منحها بعض الأملاك التى آلت إلى بيت المال من بعض التركات ، فكانت هذه الموارد هى التى ينفق منها على تلك المدارس عدا ماخصص لها فى الميزانية السنوية والمصروفات الضئيلة التى يدفعها أهالى التلاميذ ذوى الاقتدار واليسار

معلمو المدارس

إن وضع نظام صالح للتعليم يقتضى توفير العدد الكافى من الأساتذة الأكفاء ، وقد حل على باشا مبارك هذه المعضلة بما أوتى من خبرة ، ونظر صادق ، وعزيمة ماضية ، فأنشأ « دار العلوم » كما سيجىء بيانه ، لتخريج أساتذة اللغة العربية ، واختار لتدريس بقية العلوم ، كالرياضيات والتاريخ والجغرافية واللغات الأجنبية نجباء التلاميذ المتقدمين ممن أتموا دروسهم فى المدارس العالية ، كالمهندسخانة ومدرسة المحاسبة ، ومدرسة الادارة (الحقوق) ، بأن يجعلوا أولا معيدين لدروس المعلمين زمنا ، ثم يصيرون معلمين استقلالا ، ولم تكن مدرسة المعلمين العليا قد أنشئت بعد

دار العلوم

هى من أجل منشآت على باشا مبارك ، أسسها سنة ١٨٧٢ ، والغرض الأصلى منها تخريج أساتذة اللغة الغربية والآداب للمدارس الابتدائية ، ثم للمدارس كافة

ومرجع الفكرة فى تأسيسها ، انه لما أنشئت المدارس الابتدائية ، واتجه العزم الى الإكثار منها ، مست الحاجة إلى طائفة من الأساتذة لتدريس اللغة وآدابها فى المدارس الحديثة ، فارتأى المترجم إنشاء مدرسة عالية دعاها « دار العلوم » لتخريج أولئك الأساتذة ، واختار تلاميذها من طلبة الأزهر ، ممن حفظوا القرآن الشريف وتلقوا دروس اللغة والفقه ، واختيروا لهذه المدرسة بالامتحان ، واشتمل برنامج التعليم فيها

على العلوم التى لاتدرس فى الأزهر ، كالحساب والهندسة والطبيعة والجغرافية والتاريخ والخط ، مع إتقان علوم الأزهر من لغة ونحو وتفسير وحديث وفقه

واختار المترجم للتدريس فى دار العلوم جماعة من جلّة العلماء الاكفاء فى العلوم الأزهرية والعلوم العصرية ، وجعل التعليم فيها مجانياً ، مع دفع مرتب شهرى للتلاميذ

وقد أثمرت المدرسة ، وتخرج منها أساتذة اللغةوالآداب العربية للمدارس الابتدائية فى القاهرة والأقاليم ، ثم للمدارس الثانوية والعالية ، ويعد إنشاء دار العلوم أعظم خدمة أسداها المترجم لإحياء اللغة العربية وآدابها فى مصر

دار الكتب

أسست سنة ١٨٧٠

أنشئت دار الكتب سنة ١٨٧٠ ، ولتأسيسها مقدمات ترجع إلى عهد محمد على ، فقد أنشأ مستودعا لبيع مطبوعات الحكومة فى بيت المال القديم ، خلف المسجد الحسينى ، ولما ولى اسماعيل الحكم أضاف اليها نحو الفى مجلد من المحفوظات العربية والفارسية ، ابتاعها من تركة حسن باشا المناسترلى ، ثم تطورت الفكرة الى إنشاء دار عامة للكتب

ويستفاد مما ذكره على باشا مبارك فى الجزء التاسع من الخطط (ص ٥١) أن فكرة تأسيس دار الكتب ترجع الى الخديو اسماعيل ، فانه رغب فى إنشاء مكتبة عامة تجمع الكتب المتفرقة فى مخازن الحكومة ، ومكاتب الأوقاف وفى المساجد ونحوها ، وأمر المترجم بالنظر فى ذلك ، فحقق الفكرة ، وأنشأ دار الكتب فى سراى درب الجماميز بجوار المدارس

ولكن يؤخذ مما جاء فى الجزء الثالث من الخطط (ص ١٤) ان صاحب الفكرة فى هذا المشروع الجليل هو على باشا مبارك ذاته ، فقد قال فى هذا الصدد :

«ثم ظهر لى أن أجعل كتبخانة خديوية ، داخل الديار المصرية ، أضاهى بها كتبخانة باريس ، فأستأذنت الخديوى اسماعيل باشا فى ذلك ، فاذن لى ، فشرعت فى بناء الكتبخانة الخديوية هناك أيضا (بدرب الجماميز) ، وبعد فراغها جمعت فيها ماتشتت من

من الكتب التى كانت بجهات الأوقاف ، زيادة على ماصار مشتراه من الكتب العربية والفرنجية وغيرها ، وجعلت لها ناظراً ورتبت لها خدمة ومعاونين ، وعملت لها قانوناً لضبطها ، وعدم ضياع كتبها ، فجاءت بعون الله من أنفع التجديدات التى حدثت فى عهد الخديوى اسماعيل باشا ، وحصل بها النفع العام ، للخاص والعام ،

وقد ابتاع اسماعيل باشا مجموعة الكتب القيمة التى تركها أخوه الأمير مصطفى فاضل بعد وفاته ، وأهداها إلى دار الكتب

وأنفق على الدار من ميزانية المدارس ، وفتحت أبوابها لطلاب العلوم والمعارف ، وسهلت لهم الاطلاع على كتب ومؤلفات ومخطوطات ما كان يمكنهم الوصول اليها لولا إنشاء هذه الدار ، فأدت ولا تزال تؤدى خدمات جليلة للنهضة العلمية والأدبية

مجلة (روضة المدارس)

ومن أجلّ منشآته العلمية إنشاء مجلة « روضة المدارس » على نفقة وزارة المعارف وبإشرافها ، وسنتكلم عنها فيما يلى :

مدرج المحاضرات (الانفتياتر)

ورتب دروساً عامة أو محاضرات دوزية بالانفتياتر (المدرج) بسراى درب الجماميز سنة ١٨٧١ ، فعهد إلى النابهين من أساتذة المدارس إلقاء هذه المحاضرات لتثقيف أذهان الطلبة

وكان يشجع هذه الحركة فيحضر المحاضرات بنفسه ، وحذا حذوه كبار الموظفين فى مختلف الوزارات ، وخاصة وزارة المعارف . وكان يحضرها أيضاً عدا طلبة المدارس العالية . فريق من طلبة الأزهر ، وهم الذين صاروا نواة دار العلوم التى أنشئت سنة ١٨٧٢

وتولى إلقاء المحاضرات طائفة من العلماء المشار اليهم بالبنان ، فكان الشيخ حسين المرصفى يدرس الآداب العربية ، واسماعيل بك (باشا) مصطفى الفلكى ناظر المهندسخانة يدرس علوم الفلك باللغة العربية ، ومنصور افندى أحمد أحد أساتذة المهندسخانة ، يلقى محاضرات فى الطبيعيات ، وفرانس بك (باشا) كبير مهندسى الأوقاف فى المبانى ،

وجيجيون بك ناظر مدرسة الفنون والصنائع فى الميكانيكا ، وبروكش باشا ناظر مدرسة اللسان المصرى القديم فى التاريخ العام ، والشيخ عبد الرحمن البحراوى فى فقه الإمام أبى حنيفه ، والشيخ أحمد المرصفى فى التفسير والحديث ، والمسيو بكتيت فى الطبيعيات ، وأحمد بك ندا فى علم النبات وغيرهم الخ الخ [١]

معمل الكيمياء والطبيعة

وأنشأ بدرب الجماميز أيضا معملا للكيمياء والطبيعة لتوسيع مدارك التلاميذ فى العلوم الطبيعية واطلاعهم على تجاريبها ومشاهداتها والمران على استعمال الآلات الرياضية والطبيعية

أعماله الهندسية

ان شهرة على باشا مبارك تقوم فى الغالب على خدماته الجليلة للتعليم ، على أن له مآثر أخرى فى أعمال العمران التى تمت فى عهد اسماعيل ، منها مايختص بالرى ، ومنها مايتعلق بتنظيم القاهرة والمدن الأخرى

فليس يخفى أنه بولايته وزارة الاشغال سنة ١٨٦٨ ، قد عهد اليه الخديو بمعظم الأعمال الهندسية التى استحدثت فى ذلك العهد

فاشترك فى تنظيم القاهرة ، وتوسيع شوارعها وحاراتها ، وإنشاء أحيائها الجديدة ، ومعظم الأعمال التى تمت من هذا القبيل نفذت فى عهده ، مثل شارع محمد على ، وميدانه ، وشوارع الازبكية ، وميدانها ، والشوارع المنشأة بعابدين ، وباب اللوق وغيرها مما هو بداخل المدينة وخارجها

قال فى هذا الصدد : « وجرى العمل على ذلك ، فظهرت كل هذه المبانى الحسنة ، والشوارع المستقيمة المتسعة المحفوفة بالأشجار الخضرة النضرة ، المستوجبة للقادمين على المدينة انشراح الصدور ، والفرح والسرور ، وأزيل ماكان بجهتها البحرية من التلال التى كانت تمتد من جهة الفجالة إلى قرب باب الفتوح ، ثم تبرع الخديو اسماعيل

---

(١) من كتاب (التعليم العام فى مصر) لأمين سامى باشا ص ٢٤

للراغبين بمواضع كثيرة ، فأنشأوا بها المبانى المشيدة ، والبساتين العديدة ، وناهيك بقصور الاسماعيلية ودورها وبساتينها وشوارعها ، التى يكل الوصف عن محاسن بهجتها »

واشترك فى استحداث الإنارة بغاز الاستصباح ، واقامة وابور المياه لتغدية القاهرة بماء الشرب الصالح بواسطة شركتى النور والمياه ، وإقامة (كوبرى) قصر النيل البديع ، وغير ذلك من الأعمال النافعة

وساهم أيضا فى أعمال العمران بمدينة الاسكندرية والسويس ، وما أقيم فى المديريات من الدواوين ، والجسور ، والقناطر ، والترع ، قال فى هذا الصدد : « وهذه الأعمال جميعها أو أكثرها كنت أباشر أمورها من رسومات وشروط مع المقاولين ونحو ذلك ، لتعلقها بديوان الأشغال ، فكنت فى مدة إحالة هذه الدواوين علىّ مشغولا بالمصالح الاميرية ، وتنفيذ الأغراض الخديوية ، ليلا ونهاراً ، حتى لا أرى وقتاً التفت فيه لاحوالى الخاصة بى ، ولا أدخل بيتى إلا ليلا ، بل كنت أفكر فى الليل فيما يفعل بالنهار »

وكان متوليا وزارة الاشغال عند افتتاح قناة السويس ، فعهد اليه الخديو اسماعيل إعداد معدات حفلاته الفخمة

ومن أعماله فى ديوان الأوقاف أنه حكّر كثيراً من أراضى القاهرة للراغبين فى بنائها ، مقابل حكر ضئيل يدفعونه كل سنة ، فعمرت جهات كانت من قبل خرابا بلقعاً ، وأقيمت المبانى والعمائر فى أخطاط عديدة من المدينة

وبإدارته مصلحة السكك الحديدية اشترك فى مدّ كثير من الخطوط الحديدية وإنشاء محطاتها

انفصاله عن الوزارة ثم عودته

انفصل المترجم عن إدارة السكك الحديدية ، ثم عن وزارة المعارف (فى سبتمبر سنة ١٨٧٠) ، وعن الاشغال ثم عن الاوقاف ، لخلاف وقع بينه وبين اسماعيل صديق باشا (المفتش) وزير المالية المشهور بحظوته عند الخديو اسماعيل ، ذلك أن المفتش رغب فى أن يضم إيراد السكك الحديدية الى ورارة المالية ، فلم يقبل على باشا مبارك هذا الضم إلا اذا تعهدت المالية بجميع نفقات المصلحة ، فوقع الخلاف بين الرجلين ، ووشى

اسماعيل صديق بالمترجم عند الخديو ، فأدى ذلك إلى انفصاله عن الوزارات التى كان يقوم بأعبائها ، ولزم بيته ، على أن انفصاله لم يدم طويلا ، ولعل الخديو شعر بالفراغ الذى ترتب على انفصاله عن العمل ، ولم يجد من بين وزرائه من يسد هذا الفراغ ، فعهد اليه ثانيا بوزارة المعارف (١٣ مايو سنة ١٨٧١) ثم بالنظر على ديوان الاوقاف ، وبعد قليل أعيد إلى ديوان الاشغال ، وبقى يتولى وزارة المعارف الى أغسطس سنة ١٨٧٢

ثم عَنّ للخديو أن يعين ابنه الامير حسين كامل باشا (السلطان حسين كامل) ناظراً لهذه الدواوين فى أغسطس سنة ١٨٧٢ ، وبقى المترجم يتولى شؤونها ، وصار منصبه « مستشاراً » لها ، وبعد قليل انفصل ديوان الأشغال برآسة الامير حسين كامل وجعل المترجم وكيلا له

وفى أغسطس سنة ١٨٧٣ عين المترجم عضواً بالمجلس الخصوصى الذى كان بمنزلة مجلس الوزراء ، وبعد قليل انفصل عنه لما ألقاه فى حقه الواشون كاسماعيل باشا صديق وأضرابه وما أرجفوا به من أن كتابه (نخبة الفكر) الذى كلفه الخديو تأليفه عن النيل مشتمل على نقد الحكومة الخديوية وتقبيح سياستها ، فلزم بيته ثانيا

وفى مارس سنة ١٨٧٤ جعل رئيسا لقسم الهندسة بديوان الاشغال ، ولما ألحق هذا الديوان بوزارة الداخلية التى تولاها الامير محمد توفيق ولى عهد الأريكة الخديوية وقتئذ جعل المترجم مستشاراً له ، ثم استقل ديوان الاشغال ، فبقى المترجم مستشاراً للديوان (ديسمبر سنة ١٨٧٥)

ولاشك ان تعيين على باشا مبارك فى هذه المناصب الثانوية كان نتيجة الوشاية التى ألقاها اسماعيل صديق فى حقه عند الخديو

فى وزارة نوبار باشا

ولما وقعت بمصر الاحداث المالية ، وحدث التدخل الاجنبي ،وعينت لجنة التحقيق الدولية ، كان من مطالب اللجنة تنازل الخديو عن سلطته المطلقة لمجلس النظار ، فتألفت وزارة نوبار باشا الاولى فى اغسطس سنة ١٨٧٨ ، وهى الوزارة التى دخلها الوزيران الأوربيان كما تراه مفصلا فيما يلى ، واشترك فيها المترجم إذ تولى وزارة المعارف وديوان

الاوقاف ، فاستأنف عمله فى إحياء نهضة التعليم ، فشرع فى بناء بعض المدارس الابتدائية وظل قائماً بعمله فى جو مملوء بالاضطرابات والارتباكات ، الى ان استهدفت وزارة نوبار باشا لسخط الأمة ، وثار عليها الضباط ثورتهم الاولى فاستقالت فى فبراير سنة ١٨٧٩ ، وخلفتها وزارة توفيق باشا القصيرة المدى ، وكان المترجم ضمن أعضائها متوليا المعارف والاوقاف

ثم دُعى شريف باشا الوزير المشهور الى تأليف الوزارة الجديدة استجابة لمطالب الأحرار فألف وزارته المعروفة بالوزارة الوطنية

وكان طبيعياً ألا يكون المترجم من أعضائها ، لان الوزاره النوبارية سقطت مغضوبا عليها من الشعب ، إذ كانت متهمة بممالأة الدول الاجنبية ، ووزارة توفيق باشا لم تكن مرضياً عنها من الرأى العام

وفى عهد وزارة شريف باشا اشتدت الأزمة السياسية ، بين الخديو اسماعيل والدول الأوربية ، وانتهت بخلعه نزولا على إرادة الدول

فى عهد الخديو توفيق

ولما تولى توفيق باشا مسند الخديوية وعهد الى مصطفى رياض باشا تأليف الوزارة ، كان على باشا مبارك عضواً فيها ، متقلداً وزارة الأشغال ، فبذل جهداً ممدوحاً فى تنظيم هذه الوزارة والقيام بكثير من أعمال الرى والعمران

الثورة العرابية

وفى عهد هذه الوزارة هبت عواصف الثورة العرابية ، ولم يكن على باشا مبارك من أنصار الثورة ، بل كان يميل الى الاعتدال وأخذ الأمور بالحكمة والهوادة ، ونصح العرابيين بالروية فلم يسمعوا له نصحاً ، وقد تبين أنه كان أبعد نظراً منهم ، لأنه لايخفى أن التطرف والشطط فى مسلك الثورة العرابية ، كانا من الأسباب التى أدت الى كارثة الاحتلال

لم يكن المترجم إذن من أنصار الثورة ، بل كان عضواً فى وزارة رياض باشا التى تحركت الثورة لمناوأتها وإسقاطها ، وقد سقطت فعلا فى سبتمبر سنة ١٨٨١ نزولا على إرادة الثوار ، وألف شريف الوزارة الجديدة

ومع أن شريف باشا كان يقدر كفاءة على باشا مبارك واستقامته وإخلاصه ، إلا إنه لم يشركه فى الوزارة ، لأنه كان عضواً فى وزارة رياض المغضوب عليها من الشعب ، وهكذا قدر على المترجم أن يكون عضواً فى الوزارتين اللتين هبت عليهما عواصف الثورة واستقالتا نزولا على إرادة الثوار

فالأولى وزارة نوبار ، التى سقطت بتأثير ثورة الضباط فى عهد اسماعيل ، والثانية وزارة رياض ، التى سقطت نزولا على إرادة العرابيين

ولما استقالت وزارة شريف وأعقبتها وزارة محمود سامى باشا البارودى ، ظل على مبارك بعيداً عن الوزارة ، وفى عهد وزارة البارودى جاء الاسطول البريطانى الى ثغر الاسكندرية ، ثم تلاحقت الأحداث الى أن رزئت البلاد بالاحتلال الانجليزى

ولما قامت الحرب بين العرابيين والانجليز ، وانحاز الخديو توفيق باشا الى الاحتلال ، انعقدت جمعية عمومية فى القاهرة تضم أعيان البلاد وذوى المكانة فيها ، وحضر على باشا مبارك هذه الجمعية ، وكان ضمن الوفد الذى انتدبته الجمعية للسفر الى الاسكندرية ، ومقابلة الخديو توفيق باشا ، لإبلاغه قرارات الجمعية ، فلما وصل الى الاسكندرية سعى فى طريقه لتهدئة الحالة ، فلم ينجح ، فانحاز الى الخديو

فى وزارة شريف باشا الرابعة

ولما ألف شريف باشا وزارته الرابعة سنة ١٨٨٢ عقب الاحتلال كان المترجم ضمن أعضائها ، وتقلد وزارة الاشغال ، فعنى بأعمال الرى والعمران ، كما كان شأنه كلما تولى هذه الوزارة

ووزارة شريف باشا هى التى استقالت احتجاجا على إخلاء السودان ، فالمترجم له نصيب فى الموقف المشرف الذى وقفه شريف باشا بتقديم استقالته التاريخية فى يناير سنة ١٨٨٤

فى وزارة رياض باشا

ظهور الخطط التوفيقية

وبعد إقالة وزارة نوبار الثانية تولى رياض باشا الوزارة فى يونيه سنة ١٨٨٨ ،

فكان على باشا مبارك ضمن أعضائها ، وزيراً للمعارف العمومية ، وهى الفترة التى ظهر فيها كتابه الخالد (الخطط التوفيقية لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة الشهيرة)

وهو دائرة معارف لخطط مصر وآثارها وجغرافيتها وتاريخها فى عصورها القديمة والحديثة ، ويعد تكملة وتجديداً لخطط المقريزى ، ولكتاب تخطيط مصر الذى وضعه علماء الحملة الفرنسية ، وفيه وصف شامل لمدن مصر ، وقراها ، ونيلها ، وترعها ، وبحيراتها وسواحلها ، وتخطيط كامل لأحياء القاهرة وشوارعها ، ودروبها ، وميادينها ، وما احتوت عليه من المبانى ، والمساجد ، والزوايا ، والأضرحة ، والربط ، والتكايا ، والأسبلة ، والقصور ، والوكائل ، والحمامات ، والكنائس والأديرة ، والمدارس ، والمكاتب مع تراجم علماء مصر وشعرائها وأدبائها وحكامها وأمرائها ، وكان مرجع المترجم فى هذه الموسوعة الكبرى ، كتب التاريخ والخطط ، قديمها وحديثها ، وحجج الاوقاف والاملاك ، ومباحثه ومشاهداته ، وما وجده مسطورا على الاحجار والجدران ، ولئن قيل إن العلامة على باشا مبارك استعان فى وضع الخطط بطائفة من المهندسين من تلاميذه ومرءوسيه فى وزارة الأشغال والمعارف ، فذلك لا ينقص من فضله ، ولا يقلل من عظم العمل الذى اضطلع به ، وحسبه أن إرادته وجهت مساعديه الى معاونته فى البحث والتنقيب ، وروحه تمشى فى جميع أبواب الكتاب ومباحثه

وتقع الخطط التوفيقية فى عشرين مجلداً ، ظهرت سنتى ١٣٠٥ و ١٣٠٦ (١٨٨٧ — ١٨٨٩) . أفرد المؤلف الأجزاء الستة الأولى للقاهرة ، والجزء السابع للاسكندرية والأجزاء الأخرى لبقية مدن القطر المصرى وقراه ، وخصص الجزء الثامن عشر لمقياس النيل ، والتاسع عشر لترع مصر ورياحاتها ومنشآت الرى فيها ، والعشرين لنقودها القديمة والحديثة ، وبالجملة فهذا الكتاب غرة فى تاريخ مصر العلمى ، ومأثرة خالدة للمترجم ، وهو مرجع لكل باحث فى شؤون مصر العلمية والهندسية والتاريخية ، وله أيضاً فى عالم التأليف كتاب (علم الدين) وهو قصة عمرانية قيمة ، وكتاب (تنوير الافهام فى تغذى الأجسام) طبع سنة ١٢٨٩ هـ (١٨٧٢ م) و (نخبة الفكر فى تدبير نيل مصر)

ويقول الدكتور محمد درى باشا فى ترجمته لعلى باشا مبارك (ص ٦١) انه وضع

كتابا سماه (آثار الإسلام فى المدنية والعمران) فكان هذا الكتاب آخر مؤلفاته شرح فيه ما أدخله الاسلام من العمران فى الممالك ، وماترتب عليه من المدنية والنظام ، قال : « والذى نعرفه من أمره أنه لما أكمله تأليفا وتبييضا أعطاه لأحد أفاضل العلماء الأزهريين ليعيد نظره فيه ويدقق فى مراجعته ، وهو باق فيما نعلم فى خزانة مؤلفه رحمه الله »

وقد استأنف المترجم جهوده فى عهد وزارة رياض باشا لنشر التعليم وإنشاء المدارس ، ومن أجلّ أعماله فى هذا العهد تقريره طبع كتاب (مرشد الحيران الى معرفة أحوال الانسان) تأليف العلامة (محمد قدرى باشا)

كان هذا الكتاب الجليل مخطوطا ، فرأى العلامة على باشا مبارك أن يخرجه للناس منشوراً ، لتعم فائدته ، فاشتراه من ورثة المرحوم قدرى باشا ، وطبعه سنة ١٨٩٠ على نفقة الوزارة ، وقررت تدريسه فى مدرسة الحقوق ، ودار العلوم ، فأسدى بذلك خدمة عظمى للعلوم الشرعية ، والقانونية ، وللنهضة العلمية ، والتشريعية

ولما استقالت وزارة رياض باشا سنة ١٨٩١ ، لزم المترجم بيته ثم سافر إلى بلده لتفقد أملاكه وإصلاحها ، بعد أن تركها وأهمل شأنها طوال السنين ، لاشتغاله بالمصالح العامة ، وهناك مرض بداء المثانة ، فعاد إلى مصر

وفاته

وألحّ عليه المرض ، الى أن وافته المنية بمصر فى منزله بالحلمية الجديدة ، فى ١٤ نوفمبر سنة ١٨٩٣ ، فانطفأ المصباح الذى أضاء البلاد بأنوار العلم والعرفان ، أربعين سنة ونيفا ، وأقفلت المدارس حداداً على أبيها ، وارتجت البلاد حزناً على فقيدها ، وانتقل المترجم إلى عالم الخلود ، تاركا ذكرى مجيدة ، حافلة بما أسداه لمصر من جلائل الأعمال

الجمعيات العلمية

الجمعيات العلمية هى من الوسائل الفعالة الى نشر العلوم والمعارف ، ومن مظاهر قدم الأفكار والثقافة فى المجتمع ، وقد ازدان عصر اسماعيل بظهور الجمعيات العلمية ذات الأغراض السامية والمقاصد الجليلة

المجمع العلمى

المجمع العلمى هو الهيئة العلمية التى أنشأها نابليون فى مصر سنة ١٧٩٨ وسبق لنا الكلام عنها (تاريخ الحركة القومية ج ١ ص ١١٨ - طبعة أولى -) ، وقد ألغى هذا المجمع عند جلاء الفرنسيين ، ثم أعيد إنشاؤه سنة ١٨٥٩ بالاسكندرية فى عهد سعيد باشا ، واستمر قائماً فى عهد اسماعيل يؤدى مهمته فى نشر المباحث العلمية ، وهو قائم الى اليوم واسمه (مجلس المعارف المصرى) ، ومقره بوزارة الأشغال العمومية ، وله مجلة تنشر مباحثه

جمعية المعارف (أسست سنة ١٨٦٨)

هى أول جمعية علمية ظهرت فى مصر لنشر الثقافة بواسطة التأليف والطباعة والنشر ، أسسها سنة ١٨٦٨ محمد عارف باشا ، أحد أفاضل العلماء فى ذلك العصر والعضو بمجلس الأحكام ، والغرض من هذه الجمعية نشر العلوم والمعارف بطبع الكتب العلمية وتأليفها وتهذيبها وتلخيصها ، وقد جعلت تحت رعاية الأمير محمد توفيق باشا ولى عهد الأريكة الخديوية وقتئذ ، وتولى وكالتها ورآستها الفعلية محمد عارف باشا . وتألفت برأس مال موزع على أسهم طرحت للاكتتاب العام ، قيمة السهم ثلاثون قرشاً [1] ، واقتنت مطبعة لطبع الكتب التى تولت نشرها ، عدا ما كانت تطبعه فى دار الطباعة الأميرية ، والمطبعة الوهبية . وتولت الجمعية طبع طائفة من أمهات الكتب فى التاريخ والفقه والأدب . منها أسد الغابة فى معرفة الصحابة لابن الأثير فى خمسة مجلدات . وتاج العروس من شرح جواهر

---

[1] عن لائحة الجمعية المنشورة فى الوقائع المصرية العدد ٣٠١ - ٧ يونيه سنة ١٨٦٩

القاموس . والفتح الوهبي فى شرح العتبي فى مجلدين . وتاريخ ابن الوردى . وشرح التنوير على سقط الزند (ديوان أبى العلاء المعرى) . وديوان ابن خفاجه . والبيان والتبيين للجاحظ . وديوان ابن المعتز . وشرح الشيخ خالد على البردة . وعنوان المرقصات والمطربات لنور الدين أبى الحسن . والمختصر فى أخبار البشر . ومحاضرات الراغب الأصفهانى ، ورسائل بديع الزمان الهمذانى . وغير ذلك من الكتب القيمة

ولقيت الجمعية إقبالا عظيما وتعضيداً كبيراً من الطبقات الممتازة فى المجتمع ، إذ بلغ عدد أعضائها سنة ١٢٨٦ هـ (١٨٦٩ — ٧٠ م) ٦٦٠ ونيفا ، وردت أسماؤهم فى ذيل كتاب «الفتح الوهبي» ، نذكر هنا طائفة منهم ، نموذجا للطبقات التى اشتركت فى الجمعية ، ولكى تتبين مبلغ تعضيد المجتمع فى ذلك العصر للمشروعات العلمية :

ابراهيم بك حليم من قضاة محكمة الاستئناف . ابراهيم أدهم بك وكيل محافظة الاسكندرية . السيد ابراهيم جميعى من أعيان الاسكندرية . السيد ابراهيم بك المويلحى من أعضاء المجلس الابتدائى . أبو زيد افندى ابراهيم باشمهندس القليوبية . اترنى بك ابو العز من أعضاء مجلس شورى النواب . احمد طلعت باشا كاتب الديوان الخديوى . الشيخ احمد شرف الدين المرصفى من علماء الأزهر . احمد رشيد باشا من أعضاء المجلس الخصوصى (مجلس الوزراء) . احمد خيرى بك مهردار الخديو . احمد بك عبيد ناظر قلم ترجمة الكتب الحربية . الشيخ احمد البتنونى قاضى طنطا . الشيخ احمد الانصارى قاضى طهطا الشيخ احمد فارس الشدياق صاحب الجوائب ووكيل الجمعية بالاستانة . احمد بك فتحى ناظر مدرسة الاسكندرية . أمين بك فكرى . جعفر مظهر باشا حكمدار السودان . جعفر صادق باشا رئيس مجلس استئناف قبلى . حسن بك الشريعى . الشيخ حسونه النواوى . حسين فخرى بك (باشا) . حسين شرين باشا . خليل باشا يكن . الفريق راشد باشا حسنى . الدكتور سالم بك سالم . الشيخ عبد الرحمن الابيارى . الشيخ عبد الرحمن الرافعى . عبد اللطيف باشا من أعضاء المجلس الخصوصى . محرم افندى على عمدة السنبلاوين ومن أعضاء مجلس شورى النواب . محسن بك . محمد عرفان باشا . السيد محمد بيومى مكرم . السيد محمد المويلحى . الدكتور محمد شافعى بك . مصطفى رياض باشا . يوسف صالح عمدة كفر بهيده . احمد رستم العلايلى من أعيان الاسكندرية . الشيخ بدراوى عاشور عمدة بهوت . الدكتور حسين بك عوف . الشيخ حسنين حمزه من أعضاء مجلس شورى

(١٦)

النواب . حماد بك عبد العاطى . على ذو الفقار باشا وزير الخارجية . محمد مظهر باشا وكيل مجلس الأحكام . ابراهيم افندى هلال مأمور ضبطية ميت غمر . احمد صادق باشا ناظر الدائرة السنية . احمد فريد بك ناظر قلم المحاسبة . السيد احمد مشرفه . احمد ذهنى بك ناظر الجبخانات . الشيخ احمد باشا من علماء الاسكندرية ، اسماعيل افندى عبد الخالق وكيل ديوان الرزنامجة . اسماعيل بك زهدى ناظر مدرسة المبتديان . أمين بك سيد احمد . السيد حسن موسى العقاد . السيد حسن المرقبى ، شفيق بك منصور . الخ الخ

وقد ظلت الجمعية قائمة تؤدى مهمتها الى أن اشتد النزاع السياسى بين الخديو اسماعيل والأمير عبد الحليم باشا ، لتنافسهما على عرش الخديوية ، وكان عارف باشا من أنصار حليم باشا ، فهاجر الى الاستانة خوفا من بطش اسماعيل ، وانحلت الجمعية

الجمعية الجغرافية الخديوية

أسست سنة ١٨٧٥

هى من أهم المنشآت العلمية فى مصر ، أسسها اسماعيل باشا سنة ١٨٧٥ ، والغرض منها العناية بالأبحاث الجغرافية والعلمية وتدوينها ونشرها ، وأول رئيس لها هو العالم الألمانى الدكتور جورج شونفرت Schweinfurth ، ووكيلاه العلامة محمود باشا الفلكى ، والجنرال استون باشا رئيس أركان حرب الجيش المصرى ، ولها مجلة دورية تنشر المباحث والاكتشافات . وتؤدى خدمات جليلة للعلم والجغرافية ، وقد رجعنا فى كثير من المواطن الى المباحث القيمة والخرائط الدقيقة المنشورة فى مجلتها

الجمعية الخيرية الإسلامية

أنشئت بالاسكندرية سنة ١٨٧٨ (١٢٩٦ هـ) بمسعى السيد عبد الله نديم ومساعدة سعد الله بك حلابه من سراة الثغر ، والباعث على إنشائها شعور الخاصة بطغيان النفوذ الاجنبى فى البلاد ، وتدخل الأجانب فى شؤونها ، واستئثارهم بمرافقها

فأسست هذه الجمعية لفتح المدارس الحرة لتعليم البنين والبنات ، وتهذيب الأخلاق وإعانة الفقراء ، وقد انشأت مدرسة بالاسكندرية لتعليم البنين والبنات ، وعقد فيها

محفل للخطابة ، كانت تلق فيه الخطب والمحاضرات مرة فى الأسبوع ، ووضع لها قانون ، وأجرت عليها الحكومة راتبا سنويا على سبيل الإعانة ، فاتسع نطاقها ، وذكرت جريدة «التجارة» (١) لأديب اسحق نبأ إنشاء هذه الجمعية بالاسكندرية ، وجمعية أخرى بالقاهرة وأخرى بدمياط

وهى غير الجمعية الخيرية الإسلامية الحالية التى أسست سنة ١٨٩٢

الصحافة

لم تظهر فى مصر على عهد عباس وسعيد من الصحف المصرية سوى «الوقائع المصرية» التى أنشأها محمد على باشا ، وكانت الحكومة تتولى إصدارها ، ولم يظهر غيرها من الصحف العربية ، وهذا من مظاهر الجمود الذى أصاب النهضة العلمية فى ذلك العهد

ثم نشطت الحياة العلمية والأدبية فى عصر اسماعيل ، فكان من مظاهرها تأسيس الصحف العلمية والأدبية ثم السياسية ، وقد نهض بالصحافة فى ذلك العصر طائفة من العلماء والأدباء المصريين ، وطائفة أخرى من الأدباء السوريين ، وثمة عامل آخر كان له الأثر البالغ فى نهضة الصحافة ، والنهضة العلمية والأدبية عامة ، وهو تعضيد الخديو اسماعيل لها ، ومساعداته الأدبية والمالية للقائمين عليها

وإنا ذاكرون هنا الصحف والمجلات التى ظهرت فى عصره :

(١) يجب أولا أن نذكر «الوقائع المصرية» ، فقد استمرت تصدر بانتظام فى عهد اسماعيل ، وارتقى أسلوبها الإنشائى ، وخدمت النهضة الصحفية خدمة تذكر ، بما كانت تنشره من الفصول العلمية والأدبية ، وكانت تعنى بذكر أخبار الحكومة والأخبار الخارجية ، وتنشر مضابط مجلس شورى النواب . وتسهب فى وصف الحفلات العامة ، وخاصة الحفلات العلمية والمدرسية ، ثم حفلات سباق الخيل ، التى كان لها شأن كبير فى ذلك العصر ، وتعد «الوقائع» سجلا يصور لنا ناحية من حياة مصر السياسية والاجتماعية فى عصر اسماعيل ، وهى من أهم المراجع الرسمية التى لا يستغنى عنها من يكتب عن تاريخ مصر الحديث

---

(١) بالعدد ٢٢ من السنة الأولى - ابريل سنه ١٨٧٨

ونشأ الى جانب الوقائع صحف أخرى علمية ثم سياسية

الصحف العلمية والأدبية والحربية

(٢) أسبقها مجلة (اليعسوب) ظهرت سنة ١٨٦٥ ، وهى مجلة شهرية طبية ، أنشأها الدكتور محمد على باشا البقلى وابراهيم الدسوقى ، ولم تعمر طويلا

(٣) مجلة (روضة المدارس) أنشأها العلامة على مبارك باشا سنة ١٨٧٠ حين كان وزيراً للمعارف العمومية ، وهى من أجلّ أعماله ، وكانت الوزارة تتولى إصدارها والإنفاق عليها ، والغرض منها إحياء الآداب العربية ونشر المعارف الحديثة ، أسندت رآستها الى العلامة رفاعه بك رافع الطهطاوى ، وتولى تحريرها ابنه على بك فهمى رفاعه (باشا) ، مدرس الانشاء بمدرسة الإدارة والألسن (الحقوق) وقتئذ ، وكان يحرر فيها طائفة من أعلام الأدب والعلوم فى ذلك العصر ، أمثال على مبارك باشا ، وعبد الله بك فكرى (باشا) ، والشيخ حسين المرصفى ، ورفاعة بك رافع ، وابنه على بك فهمى رفاعة ، والميسو بروكش باشا ناظر مدرسة اللسان المصرى القديم ، ومحمود باشا الفلكى ، واسماعيل بك مصطفى الفلكى (باشا) ، ومحمد قدرى بك (باشا) والدكتور محمد بك بدر ، واحمد بك ندا العالم النباتى الشهير ، والشيخ عبد الهادى نجا الابيارى ، والسيد بك صالح مجدى ، وعبد الله أبو السعود افندى ، محرر صحيفة وادى النيل ، والشيخ عثمان مدوخ أحد أساتذة اللغة العربية بالمدارس التجهيزية ، والشيخ حسونه النواوى ، والشيخ حمزه فتح الله ، فكانت المجلة ميداناً يتبارى فيه فطاحل الكتاب فى ذلك العصر ، وفيها المباحث الطريفة فى العلم والأدب والاجتماع والتاريخ والفلك والرياضيات ، وكانت تصدر مرتين فى الشهر ، وقد صدر العدد الأول منها فى ١٥ المحرم سنة ١٢٨٧ (سنة ١٨٧٠) ، واستمرت تصدر ثمانى سنوات ، فأفادت الثقافة فائدة كبرى ، قال عنها المسيو دور بك مفتش التعليم العام على عهد اسماعيل فى كتابه [1] : «وهذه المجلة كانت توزع مجاناً على التلاميذ ، وقد ساعدت على نشر العلوم والمعارف . لأنها عودت الطلبة ملكة المطالعة والبحث ، وفتحت صحائفها للنابهين منهم لنشر ابحاثهم القيمة ، فكان ذلك مما يشجعهم ويستحث هممهم على المباحث والجهود المستقلة عن دروسهم»

---

(١) التعليم العام فى مصر ص ٢٥٣ للمسيو دور بك

وقد أصاب المسيو دور فى قوله ، فان المجلة كانت تنشر مباحث طريفة لبعض نبهاء التلاميذ ، وقد رأيتُ فيها قصائد رقيقة من نظم المرحوم اسماعيل باشا صبري ، تتجلى فيها روح الشعر الحديث ، وكان وقتئذ « الشاب النجيب اسماعيل افندى صبرى أحد تلامذة مدرسة الإدارة »

فمنها قصيدة فى مدح الخديو اسماعيل بالعدد ٢٠ من السنة الأولى [١] قال فى مطلعها :

سَفَرَتْ فلاح لنا هلال سعود　　　　ونمى الغرام بقلبي المعمود

وقصيدة أخرى بالعدد ٥ من السنة الثانية قال فى مطلعها [٢] :

أغرّتك الغراء أم طلعة البدر　　　　وقامتك الهيفاء أم عادل السمر
وشعرك أم ليل تراخى سدوله　　　　وثغرك أم عقد تنظم من در

وأخرى بالعدد ٢٣ من السنة الثانية [٣] استهلها بقوله :

لا والهوى العذرى والوجد　　　　عذل عذولى فيك لايجدى
إنى مع الصدّ وطول الجفا　　　　باق على الميثاق والعهد

ويتبين من ذلك أن مدرسة الشعر الحديثة قد بدأت باكورتها تظهر فى مجلة روضة المدارس [٤]

(٤و٥) جريدة (أركان حرب الجيش المصرى) و (الجريدة العسكرية المصرية ، وقد سبق الكلام عنهما ص (١٨١)

الصحف السياسية

وظهر من الصحف السياسية :

(٦) صحيفة (وادى النيل) ، أنشأها الشاعر الناثر عبدالله أبو السعود افندى سنة ١٨٦٧

---

(١) غاية شوال سنة ١٢٨٧　　　　(٢) ١٥ ربيع الاول سنة ١٢٨٨

(٣) ١٥ ذى الحجه سنة ١٢٨٨

(٤) عن « عصر محمد على » ص ٤٩٧

وهى أقدم صحيفة سياسية ظهرت فى مصر ، وكانت تصدر مرتين فى الأسبوع فى شكل المجلات ، وظلت تصدر الى ان الغيت بأمر الحكومة سنة ١٢٨٩ هـ (١٨٧٢م)

(٧) جريدة (نزهة الأفكار) سنة ١٨٦٩ لمنشئيها ابراهيم بك المويلحى ومحمد بك عثمان جلال ، وكانت أسبوعية ، ولم يصدر منها إلا عددان ، ثم عطلها اسماعيل بنصيحة شاهين باشا وزير الحربية ، إذ حذره عواقب لهجتها وما تؤدى اليه من إثارة الخواطر

(٨) وأنشأ ميخائيل افندى عبد السيد سنة ١٨٧٧ جريدة (الوطن) ، وكانت سياستها وطنية ، ولهجتها حرة ، وقد استمرت تصدر الى مابعد الاحتلال ، ووقفت حيناً ثم عادت الى الظهور سنة ١٩٠٠

(٩و١٠) وظهرت سنة ١٨٧٧ جريدة (مصر) وهى جريدة اسبوعية ، لمحررها أديب اسحق ، ومديرها سليم النقاش ، وأنشأ أيضاً سنة ١٨٧٨ صحيفة يومية بالاسكندرية باسم جريدة (التجارة) ، وسياسة الصحيفتين وطنية حماسية ، تجلت فيها تعاليم جمال الدين الأفغانى وروحه ، وكانت له فى الجريدتين بعض الرسائل ، يكتبها هو أو يمليها على تلاميذه وقد ألغاهما رياض باشا سنة ١٨٨٠

(١١) جريدة روضة (الأخبار) لصاحبها محمد بك أنسى نجل عبدالله أبو السعود افندى ، أنشأها بدل صحيفة (وادى النيل) التى عطلتها الحكومة كما أسلفنا ، وكان عبد الله أبو السعود افندى يحرر قسمها السياسى الى آخر أيامه

وقد ذكرها على باشا مبارك فى الخطط التوفيقية ج١١ص ٦٩ ، وذكرها أيضاً أديب اسحق فى جريدة (التجارة) بالعدد الصادر فى ٢٩ مايو سنة ١٨٧٨ ، لمناسبة اعتزام صاحبها تغيير اسمها باسم (النيل) ، وصدرت بهذا الاسم سنة ١٨٧٨

(١٢) جريدة (الكوكب الشرق) لصاحبها سليم (باشا) الحموى ، صدرت بالاسكندرية سنة ١٨٧٣ ، ولم تعمر طويلا ، وذكرت «الوقائع المصرية» بالعدد ٤٢٩ الصادر فى ٢٤ اكتوبر سنة ١٨٧١ أن سليم حموى أنشأ مكتبة بالاسكندرية وقاعة للمطالعة بها

(١٣) جريدة (الأهرام) لسليم (بك) وبشاره (باشا) تقلا ، صدرت سنة ١٨٧٥ بالاسكندرية ، (والآن بالقاهرة) ، وقد لاقت فى مبدأ صدورها عقبات جمة ، ثم نالت حظا كبيراً من الرواج ، وكانت فى مبدأ ظهورها اسبوعية ، ثم صدرت بجانبها جريدة (صدى الأهرام) يومية حتى عطلت ، ثم انفردت (الأهرام) بالظهور وصارت يومية ،

واستمرت تصدر الى اليوم ، فهى أقدم الصحف المصرية السياسية

(١٤) جريدة (الاسكندرية) جاء ذكرها فى جريدة (التجارة) بالعدد ٥ يونيه سنة١٨٧٨ إذ قالت إن سليم افندى حموى عزم على إصدار جريدة اسبوعية تسمى (الاسكندرية)، وقد صدرت فعلا فى يوليه سنة ١٨٧٨

(١٥) جريدة (الكوكب المصرى) للشيخ محمد وفاء ، ذكرتها جريدة التجارة بالعدد٢ من السنة الثانية (١٩ مايو سنة ١٨٧٩)

(١٦) (مرآة الشرق)، وهى جريدة سياسية أنشأها سليم عنحورى ، ثم تنحى عنها فى ابريل سنة١٨٧٩، وتولاها ابراهيم افندى اللقانى (بك) بايعاز من السيد جمال الدين الأفغانى

(١٧و١٨) وأنشأ الشيخ يعقوب صنوع صحيفتين سياسيتين ، وهما (مرآة الأحوال) صدرت فى لندن سنة ١٨٧٦ ، و (أبو نضارة) صدرت سنة ١٨٧٧ بالقاهرة ، وهى صحيفة معارضة لاسماعيل ، وكان الشيخ يعقوب صنوع مصريا إسرائيليا ، متعلقاً بالصحافة ، يميل الى الدعابة فى كتابته ، واتصل بالسيد جمال الدين الأفغانى ، وقيل إنه هو الذى أوعز اليه إصدار جريدته لانتقاد سياسة اسماعيل [1] فأصدرها ، وكانت أول جريدة هزلية سياسية صدرت فى مصر ، وقد نفاه اسماعيل من مصر ، فرحل الى باريس واستأنف إصدار جريدته بأسماء مختلفة معارضاً الخديو منتقداً أعماله ، ولم يكن يخلو عدد منها من صور هزلية تنطوى على التعريض الشديد بالخديو اسماعيل ، فلقيت رواجاً عظيما ، واستمر الشيخ ابو نضارة يصدر جرائده الى ما بعد الاحتلال ، وكان معادياً لسياسة الانجليز ، وتوفى سنة ١٩١٢

وأغلب الصحف السياسية التى كانت تصدر فى مصر ظهر كما ترى فى أواخر عصر اسماعيل ، وقد أطلق لها حرية الكتابة ، وكان يميل الى هذه الحرية فى أواخر عهده ، حين اصطدم بالمطامع الأوروبية ، وشعر بوطأة التدخل الأجنبى ، فكانت الصحافة تحمل بحق على هذا التدخل حملات صادقة ، وراقت هذه الخطة لاسماعيل ، فلا غرو أن أطلق للصحف حرية الكتابة ، لكنه لم يكن يرضى منها أن تتعرض لشخصه أو تنتقد أعماله

---

(١) عن ترجمة يعقوب صنوع المسمى بالشيخ (أبى نضارة) فى تاريخ الصحافة للفيكونت فيليب دى طرزاى ج ٢ ص ٢٨٢

وكان لهذه الصحف عامة فضل كبير فى إنارة البصائر والأفكار ، وتوجيه الأنظار إلى العناية بشؤون البلاد العامة ، وانتقاد الأعمال الضارة التى تصدر عن الحكومة ، فكانت أداة لظهور حرية الآراء السياسية ، ولها الفضل أيضا فى نشر العلوم والمعارف ، وتهذيب لغة الكتابة ، وترقية أساليب الإنشاء ، فكانت من هذه الناحية من عوامل نهضة الأدب فى العصر الحديث

الصحف الافرنجية

وظهر فى هذا العصر عدة صحف أوروبية ، منها جريدة (الفارد السكندرى) أنشئت بالاسكندرية سنة ١٨٧٤ ، وجريدة البروجريه اجبسيان LeProgres Egyptien وهى صحيفة معارضة لاسماعيل، وجريدة (الريفوردم) La Reforme

الطباعة

تقدمت الطباعة وأدركت شأوا كبيرا فى عهد اسماعيل ، فقد وجه عنايته الى مطبعة بولاق ، ونهض بها حتى ضارعت المطابع الكبرى ، وكان يتولى نظارتها حسين بك حسنى (باشا) ، الذى كان له الفضل الكبير فى نهضتها ، وظل يتولى نظارتها الى ما بعد الاحتلال ، وأسس اسماعيل مصنعا للورق ، تولى إدارته كذلك حسين بك حسنى مدير دار الطباعة ، وأخذ هذا المصنع منذ سنة ١٨٧١ يورد الاوراق اللازمة لمصالح الحكومة ولطبع المؤلفات العلمية ، وكذلك الاوراق والدفاتر اللازمة للتجار[١]

حسين حسنى باشا

ويعد حسين حسنى باشا هذا من أركان النهضة العلمية والأدبية ، إذ كان له فضل كبير فى إحياء العلوم بواسطة الطباعة والنشر

وهو من خريجى مدرسة المهندسخلانة ، أتم دراسته فيها ثم تولى تدريس العلوم الرياضية بها ، وانتقل الى مطبعة بولاق سنة ١٢٦٨ ﻫ بوظيفة كاتب ومصحح بالوقائع

---

(١) الوقائع المصرية العدد ٤١٠ (أول يونيه سنة ١٨٧١)

المصرية ، وارتقى حتى صار ناظراً لها ، وهو من نوابغ علماء الرياضيات والميكانيكا فى عصره . وقد زار كثيرا من دور الطباعة ومصانع الورق فى أوروبا ، باحثا منقبا ، وجلب منها عدة ماكينات مستحدثة ، ركبها فى مطبعة بولاق ، وفى سنة ١٢٨٤ جلب من لندن الماكنات اللازمة لتأسيس مصنع الورق ، فانشأه بجوار مطبعة بولاق ، وجاء من أحسن معامل الورق إتقانا وإحكاما ، وأنتج من الورق ما كاد يعطل ما يرد من أوروبا ، وكانت جميع تكاليفه وثمن آلاته تستوفى من ربح المطبعة والمصنع ، وذلك بفضل مهارة حسين بك حسنى ونزاهته ، ذكر عنه العلامة على باشا مبارك «أنه أحيا روح المطبعة الاميرية ونشر صيتها فى جميع الأقطار[1]» ، وتوفى سنة ١٣٠٣هـ (١٨٨٥م)

وأنشئت عدة مطابع أخرى لطبع الصحف والمؤلفات كان لها الفضل الكبير فى إحياء نفائس الكتب القيمة فى الأدب والعلم ، وتولت طبعها وطبع المؤلفات الحديثة

فمن هذه المطابع مطبعة جمعية المعارف المتقدم ذكرها

والمطبعة الأهلية القبطية التى جلبها من أوروبا الأنبا كرلس الرابع سنة ١٨٦٠ فى عهد سعيد باشا ، وهى أول مطبعة أنشئت فى مصر بعد مطبعة بولاق

ومطبعة (وادى النيل) أنشأها عبد الله أبو السعود افندى ، وكان يطبع فيها صحيفة (وادى النيل) ، ومجلة روضة المدارس ، وجريدة (أركان حرب الجيش المصرى)

و (المطبعة الوطنية) بالاسكندرية

والمطبعة الوهبية ، انشئت سنة ١٢٨٠هـ لمؤسسها مصطفى افندى وهبي (بك) ، ومطبعة أركان حرب الجيش المصرى التى سبق الكلام عنها

ومن أمهات الكتب التى طبعت فى ذلك العصر وكان لها الفضل الكبير فى النهضة العلمية والأدبية : كتاب المثل السائر ، لأبى الفتح الموصلى ، والأغانى لأبى الفرج الاصفهانى . وتاريخ ابن خلدون ومقدمته ، والعقد الفريد لابن عبد ربه ، وفقه اللغة للثعالبى . ووفيات الاعيان لابن خلكان . وفوات الوفيات ، وإحياء العلوم للغزالى ، وتفسير الفخر الرازى ، والبخارى (شرح القسطلانى) ، وسفينة الراغب ، وحياة الحيوان ، ونفح الطيب من

---

(١) عن ترجمته فى الخطط التوفيقية ج ٢ ص ١٢١

غصن الاندلس الرطيب ، وقانون ابن سينا فى الطب ، وتذكرة داود ، وغير ذلك من نفائس الكتب

مظاهر النهضة العلمية والأدبية

اقترن عصر اسماعيل بالنهضة العلمية والأدبية التى ظهرت فى إبان النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، ولهذه النهضة عوامل شتى ، أولها انتشار التعليم فى المدارس والمعاهد ، وظهور طائفة من العلماء والأدباء ممن تخرجوا فى مدارس والبعثات أو فى الازهر على عهد محمد على وخلفائه ، وقد ظهرت ثمار قرائحهم على توالى السنين ، وخاصة فى عهد اسماعيل ، إذ كان يشجع اكثرهم ويعضدهم ، ويسند اليهم المراكز الممتازة فى الحكومة ويمدهم بالمنح السخية ، فكانت هبات اسماعيل اكبر عضد للنهضة العلمية والادبية ، وكان لانتشار التعليم فى المدارس عامة أثر كبير فى نموها وتقدمها ، اذ تألفت بيئة صالحة من المتعلمين تؤيدها وتناصرها بالإقبال على ما تنتجه قرائح العلماء والأدباء ، ولولا هذا الإقبال لخمدت القرائح ، وكسدت سوق العلم والأدب ، وثمة عامل آخر ، وهو مجىء السيد جمال الدين الافغانى سنة ١٨٧١ الى مصر وإقامته بها ، فقد نفخ فى الحياة العلمية والأدبية ثم السياسية روحا من اليقظة خطت بها خطوات واسعة الى الامام

ومن عوامل هذه النهضة ظهور الجمعيات العلمية ، وتقدم الطباعة ، وظهور الصحافة ، ونشاط حركة التأليف والترجمة والنشر ، ففى عصر اسماعيل ازدهرت الحركة العلمية والأدبية التى هى أساس النهضة الحاضرة ، ونشط الأدب والشعر ، وظهرت طبقة من الشعراء بدا على شعرهم أسلوب العصر الحديث ، من حسن الديباجة ، وصفاء القريحة ، وبلاغة العبارة ، وتهذب أسلوب الكتابة والإنشاء ، وأخذ يتخلص من شوائب التعقيد والركاكة ، والسجع المتكلف ، وهبّت عليه نسمة الترسل البليغ والمعانى الطريفة

وظهرت طائفة من العلماء المؤلفين والمعربين توفروا على إخراج الكتب القيمة فى الطب والرياضيات والتاريخ والفقه والتشريع وما إلى ذلك

وارتقى مستوى المناصب الحكومية ، إذ تولاها المتخرجون من المدارس والمعاهد والبعثات ، فظهرت ثمار النهضة فى فروع الحكومة ، كالتعليم والرى والهندسة والإدارة والقضاء والصحة والجيش والاسطول

وكان للنهضة العلمية والأدبية أثرها فى تقدم الحياة الاجتماعية ، ثم الحياة الوطنية والسياسية ، مما سنعود اليه فى موضعه

والآن يسوقنا الحديث إلى الكلام عن أعلام هذه النهضة ، وسنقصر القول على خلاصة وجيزة لتراجم اولئك الأعلام الذين اكتملت شخصياتهم فى هذا العصر ؛ فمن هذه الخلاصة تجتمع لنا صورة عامة للحياة الأدبية والعلمية فى عصر اسماعيل

أعلام الأدب فى عصر اسماعيل

رفاعة بك رافع الطهطاوى ، وعلى باشا مبارك

أدرك رفاعة بك عصر اسماعيل ، وله الفضل الكبير على العلم والأدب كما أسلفنا فى ترجمته (عصر محمد على ص ٤٧٠ من الطبعة الأولى و ٣٨٢ من الطبعة الثانية)

وعلى باشا مبارك ، هو صاحب الأيادى البيضاء على الأدب والعلم والتعليم فى مصر كما بينا ذلك فى ترجمته

السيد جمال الدين الأفغانى

هو باعث روح الحياة فى النهضة العلمية والأدبية والسياسية ، فواجب أن نعده فى مقدمة أعلام الأدب فى عصر اسماعيل ، وسنترجم له فى الفصل الثانى عشر

الشيخ حسين المرصفى

توفى سنة ١٨٨٩

شيخ الأدباء فى ذلك العصر ، وأستاذ الطبقة الأولى من دار العلوم ، نشأ فى (مرصفى) بالقليوبية ، وهى بلدة أنجبت طائفة من أعلام الأدب والفقه واللغة ، كان والده الشيخ احمد حسين المرصفى من أئمة العلم فى عصره ، وانقطع للتدريس بالازهر ، ونشأ المترجم ميالا للعلم والأدب ، ذكر عنه العلامة على باشا مبارك فى الخطط التوفيقية (ج ١٥ ص ٤٠) انه « من أجلاء العلماء وأفاضلهم ، له اليد الطولى فى كل فن ، وقل أن يسمع شيئا الا ويحفظه ، مع رقة المزاج ،وحدة الذهن ، وشدة الحذق » ، وتصدر للتدريس

فقرأ بالأزهر كبار الكتب ، ثم تولى تدريس اللغة والآداب فى دار العلوم ، وتعلم اللغة الفرنسية ، وله مؤلفات قيمة منها :

(١) الوسيلة الأدبية الى العلوم العربية طبع بمصر سنة ١٢٨٩ ﻫ فى جزأين

(٢) وله كتاب فى الأدب والاجتماع سماه (الكلم الثمان) فى الأمة والوطن والحكومة والعدل والظلم والسياسة والحرية والتربية

محمود باشا سامى البارودى

(١٨٤٠ — ١٩٠٤)

باكورة الأعلام فى دولة الشعر الحديث ، وأول من نهض به وجارى فى نظمه فحول الشعراء المتقدمين ، كانت نشأته الأدبية والحربية فى عصر اسماعيل ، وسطع نجمه فى سماء الأدب على ذلك العهد ، ثم اقترن اسمه بعصر الثورة العرابية ، وكان له فيها الدور الكبير ، وسنترجم له فى موضعه من كتاب (الثورة العرابية والاحتلال الانجليزى)

عبد الله أبو السعود افندى

(١٨٢٠ — ١٨٧٨)

أول صحفى سياسى ظهر فى تاريخ مصر الحديث ، ولد فى دهشور قرب الجيزة ، وأصله من برقه ، تلقى العلم فى مدرسة البدرشين ثم انتقل الى مدرسة الألسن ، وتخرج منها على يد رفاعة بك ، فهو من تلاميذه الأفذاذ ، وكان يحضر دروس الأزهر ، وأتقن اللغات العربية والفرنسية والايطالية . ونبغ فى فنون الأدب والشعر . وارتقى فى المناصب حتى صار فى عهد اسماعيل ناظر قلم الترجمة المستجد وأستاذ التاريخ بدار العلوم ، وأنشأ سنة ١٢٨٤ ﻫ (١٨٦٧ م) صحيفة (وادى النيل) كما تقدم بيانه

ونظم حوادث مصر فى كتاب سماه (منحة أهل العصر بمنتقى تاريخ مصر) ، ووضع كتاب (الدرس العام فى التاريخ العام) طبع قسم منه سنة ١٢٨٩ ، وعرب كتاب (تاريخ مصر القديمة) لمرييت باشا ، الخ ، وله ديوان شعر مطبوع ، وله أرجوزة نظم فيها سيرة

محمد على . وشارك رفاعة بك وتلاميذه فى ترجمة الكود (قانون نابليون) ، وتولى هو وحسن أفندى فهمى المصرى تعريب قانون المرافعات

وجُعل سنة ١٨٧٦ قاضياً بمحكمة الاستئناف ، وتوفى فى فبراير سنة ١٨٧٨ ، وهو من نوابغ الأدباء والعلماء فى عصر اسماعيل

الشيخ محمد عبده

توفى سنة ١٩٠٥

الاستاذ الإمام ، وفيلسوف الإسلام ، «أكتب العلماء وأعلم الكتاب [١]» ، كانت نشأته العلمية والأدبية فى عصر اسماعيل ، وانضوى الى لواء السيد جمال الدين الأفغانى ، وصار من خاصة تلاميذه منذ قدم السيد الى مصر سنة ١٨٧١ ، فكان لهذه الفترة من الزمن الأثر الأكبر فى اتجاهه العلمى والروحى ، وكتب بعض الرسائل فى صحيفتى (التجارة) و (مصر) لأديب اسحق ، ثم عظمت شخصيته فى عصر الثورة العرابية كما سيجىء بيانه فى كتاب (الثورة العرابية والاحتلال الانجليزى)

ابراهيم بك المويلحى

(١٨٤٦ - ١٩٠٦)

زعيم الكتاب فى عصره ، وأستاذ المدرسة الحديثة فى الأدب والإنشاء ، من أسرة المويلحى الشهيرة ، وهى أسرة عربية ، أصلها من «المويلح» من ثغور الحجاز التى كانت تابعة لمصر ، وكان جده السيد ابراهيم المويلحى من كبار موظفى الحكومة فى عهد محمد على ، يميل للأدب والأدباء ، فورث عنه المترجم هذا الميل ، وكان أبوه من سراة مصر ، وله بيت تجارى كبير اشتهر بصناعة الحرير وتجارته

ولد المترجم فى أوائل سنة ١٢٦٢ هـ ، (١٨٤٦ م) وترعرع فى حجر والده ، فى مهاد العز والنعمة ، الى أن توفى أبوه سنة ١٢٨٢ هـ (١٨٦٥) وهو لا يتجاوز العشرين بكثير ، فتولى تجارة أبيه مشاركا أخاه عبدالسلام المويلحى (باشا) ، ولكنهما لم يوفقا فى التجارة

---

(١) تعبير « المنفلوطى » فى « مختاراته »

وآل بيت المويلحي من الناحية المالية الى الخسران ،لولا مروءة الخديو اسماعيل ، فقد نظر الى هذا البيت نظرة عطف وسخاء ، فوهب المترجم وأخاه من المال ماوفى ديونهما ثم انعم على ابراهيم بالرتبة الثانية ، وجعله قاضياً بمحكمةالاستئناف ، وهو فى الثامنة والعشرين من عمره وانعم على عبد السلام بهذه الرتبة أيضاً ، وابقاه يزاول التجارة استبقاء لهذا البيت التجارى القديم

وظهر ميل المترجم الى الأدب من مشاركته محمد عارف باشا فى تأسيس جمعية المعارف التىعنيت بإحياء الكتب العربية ، وقد سبق الكلام عنها ، ثم اشترك مع محمد بك عثمان جلال فى إصدار جريدة سياسية اسمها (نزهة الأفكار) ولكن لم يصدر منها الا عددان وصدر أمر اسماعيل بالغائها

وكان المترجم من تلاميذ السيد جمال الدين الأفغانى ، وقد اتصل من طريقه بالحركة السياسية التى ظهرت فى عصر اسماعيل ، والتى انتهت بوضع اللائحة الوطنية وتأليف وزارة شريف باشا الأولى كما سيجىء بيانه فى موضعه ،وعين سكرتيراً لاسماعيل راغب باشا وزير المالية فى الوزارة الوطنية ، وكان المترجم من رجال اسماعيل المخلصين لشخصه ، المغمورين بكرمه ، ولازمه فى منفاه عدة سنوات ، اشتغل خلالها بالصحافة حيناً . ثم ذهب الى الاستانة سنة ١٨٨٥ ، فأكرم السلطان عبد الحميد وفادته ، وعينه عضواً فى مجلس المعارف . وظل فى هذا المنصب نحو تسع سنوات ، ثم عاد الى مصر ، وكتب فى الصحف مقالات جامعة فى الأدب والسياسة والاجتماع ، جمع بعضها فى كتاب سماه (ماهنا لك) ، ثم أنشأ صحيفة (مصباح الشرق)وهى صحيفة أسبوعية نالت فى عالم الادب والكتابة مكانة لم تبلغها صحيفة أخرى ، وله فيها المقالات الرائعة التى كادت تبلغ عليا مراتب البلاغة والإنشاء لولا ماشابها من الإقذاع فى الهجو ، والتقلب مع الاهواء ، وتوفى فى ٢٩ يناير سنة ١٩٠٦

محمد بك عثمان جلال

(١٨٢٨ — ١٨٩٨)

واضع أساس القصة الحديثة فى الأدب المصرى ، ولد فى (ونا القس) بمديرية بنى سويف

وتلقى العلم فى مدرسة قصر العينى (وكانت لم تزل مدرسة اعدادية)، ثم فى مدرسة أبى زعبل. ثم فى مدرسة الألسن، فهو من تلاميذ رفاعة بك رافع الطهطاوى ونبغ فى العلوم وبدا عليه الميل الى الشعر والأدب والتعريب. وكان ميالا الى الفن الروائى يجيد التعريب فيه مع تمصير مايعربه أحياناً. وله كتاب (العيون اليواقظ) وهو تعريب شعرى لروايات لافونتين ومواعظه. ويعد هذا الكتاب أعظم آثاره الادبية وأشهرها، وعرب رواية (بول وفرجينى) عن الفرنسية. ووضع كتاب (التحفة السنية فى لغتى العرب والفرنسوية) منظومة، وعرب بعض الروايات التمثيلية، منها (ترتوف) لموليير. عربها بتصرف وأسماها (الشيخ متلوف) بعد أن أسبغ عليها مسحة مصرية، وقد مثلت هذه الرواية على المسارح فى مصر، وله أرجوزة فى رحلة الخديو سنة ١٨٨٠.

أدرك المترجم عصر محمد على وخلفائه إلى أوائل عهد عباس الثانى، وشغل مناصب عدة فى الحكومة، وآخر ماتولاه منها منصب القضاء فى المحاكم المختلطة سنة ١٨٨١، وأحيل الى المعاش سنة ١٨٩٣، وتوفى سنة ١٨٩٨ عن سبعين سنة

عائشة عصمت تيمور

(١٨٤٠ – ١٩٠٢)

«طليعة اليقظة النسوية[١]» فى تاريخ مصر الحديث، وأول من نبغ من المصريات فى الشعر والأدب، نشأت من بيت كريم، إذ كان أبوها اسماعيل باشا تيمور، أحد كبار الحكام فى عصر عباس الأول وسعيد واسماعيل، وشقيقها العلامة أحمد باشا تيمور، بدت عليها ملكة الأدب والشعر وهى بين السابعة والثالثة عشرة، ورأى أبوها منها هــذا الميل، فعنى بتثقيفها، وأحضر لها أستاذين لتأخذ عنهما الأدب والعلوم، وقالت الشعر وهى فى الثالثة عشرة، فأعجب بها والدها وحبب اليها إجادته، فأكبت على نظم الشعر بلغات ثلاث، الفارسية والعربية والتركية، وتزوجت وهى فى الرابعة عشرة بمحمد بك توفيق بن محمود بك الاسلامبولى، فشغلتها الحياة الزوجية عن الأدب

---

(١) تعبير الكاتبة الادبية (الآنسة مى) فى ترجمتها لعائشة عصمت تيمور

حينا ، فلما شبت ابنتها (توحيدة) عهدت اليها شؤون المنزل ، وبعد وفاة والدها سنة ١٨٨٢ وزوجها سنة ١٨٨٥ تفرغت للشعر والأدب ، وأتقنت النحو والعروض على يد معلمتين من أهل العلم فى هذا العصر ، هما فاطمة الأزهرية ، وستيتة الطبلاوية ، وعادت الى نظم الشعر ، ثم توفيت ابنتها توحيدة فاشتد حزنها عليها ، وشغلت بالذكرى والبكاء سبع سنين عددا ، ثم عادت الى الكتابة والشعر ، وكانت وفاتها سنة ١٩٠٢

ولها من الآثار الأدبية « حلية الطراز » وهو ديوان شعرها العربى ؛ و « شكوفه » وهو ديوانها التركى والفارسى ، و « نتائج الأحوال فى الأقوال والأفعال » وهى قصة أدبية كتبتها بأسلوب المقامات

عبد الله باشا فكرى

(١٨٣٤ — ١٨٨٩)

من أعلام الأدب فى عصر اسماعيل ، ولد بمكة المشرفة ، وكان أبوه محمد افندى بليغ قد تخرج فى المدارس الملكية التى أنشأها محمد على . ومهر فى العلوم الرياضية ، الى أن صار من المهندسين . والتحق بخدمة الحكومة وحضر مواقع حربية ، أهمها فى حرب الموره . فعقد فى الموره على والدة المترجم ، وعاد بها إلى الحجاز ، فوضعت بمكة غلاما هو صاحب الترجمة ، وسمى باسم جده الشيخ عبد الله أحد علماء الأزهر ، ثم عاد بليغ افندى الى مصر ، وما زال فى خدمة الحكومة ، حتى تقلد منصب باشمهندس الشرقية ، ثم مفتش هندسة الجيزة والبحيرة ، وتوفى سنة ١٢٦١ هـ . والمترجم لم يتجاوز الحادية عشرة ، فأخذ يطلب العلم بالأزهر وأتقن اللغة العربية وعلومها ، والحديث والتفسير والمنطق . وتعلم اللغة التركية أيضا ، والتحق بالمناصب مع استمراره حينا على تلقى العلوم بالأزهر ؛ وانتظم فى عهد سعيد باشا بالمعية السنية ؛ وتولى كتابة الانشاءات الديوانية بالعربية والتركية ، واستمر بالمعية الى عهد اسماعيل ؛ ورافقه فى رحلته إلى الاستانة ، وظل متصلا به ، مشمولا برعايته ، وعهد اليه سنة ١٢٨٤ ملاحظة تعليم أنجاله الأمراء فاضطلع بهذه المهمة وكان يلاحظ الدروس التى تلقى اليهم وأحيانا يدرس لهم بنفسه

وكان يتولى كتابة رسائل الخديو اسماعيل فى مهام الدولة . فنهض بأسلوب الكتابة

الرسمية ، ومعظم هذه الرسائل منشور فى (الفوائد الفكرية) ، وتدرج فى المناصب على عهد اسماعيل وتوفيق ، ولما أنشئت إدارة المكاتب الأهلية بوزارة المعارف جُعل وكيلا لها سنة ١٨٧١ ، وصار وكيلا لوزارة المعارف فى يوليه سنة ١٨٧٩ ، واستمر يشغل هذا المنصب إلى ديسمبر سنة ١٨٨١ ، إذ تألف مجلس النواب على عهد الثورة العرابية ، فجعل كبير كتاب المجلس ، ولما استقالت وزارة شريف باشا وألف محمود باشا سامى البارودى الوزارة فى فبراير سنة ١٨٨٢ ، اشترك المترجم فيها متولياً وزارة المعارف العمومية ، فكان عضواً فى « وزارة الثورة » التى عارضت الخديو توفيق باشا واستقالت احتجاجا على مسلكه فى مايو سنة ١٨٨٢ ، ومن هنا سخط الخديو على المترجم ، فلما أخفقت الثورة كان من المقبوض عليهم بتهمة الاشتراك فى الفتنة ، ثم أطلق سراحه بعد أن أثبت براءته منها ، ولكن معاشه كان موقوفاً من يوم اعتقاله ، فالتمس من توفيق باشا العفو عنه فى قصيدة طويلة أبان فيها عن إخلاصه وولائه لسدته ، فأمر بإعادة معاشه ، وفى سنة ١٣٠٦ ﻫ ندبته الحكومة لرآسة الوفد المصرى فى المؤتمر الذى انعقد بمدينة استوكهلم عاصمة السويد والنرويج ، وعرج على بعض بلاد أوروبا ، يصحبه نجله أمين باشا فكرى ، ولما عاد اشتد به مرض أصابه أثناء رحلته ، حتى وافاه الأجل يوم ١٠ المحرم سنة ١٣٠٧ ، وكان كاتباً أديباً ، وشاعراً بليغاً

الشيخ عبد الهادى نجا الابيارى (١٨٢١ - ١٨٨٨)

من كبار الأدباء والكتاب فى ذلك العصر ، وصفه على باشا مبارك فى الخطط التوفيقية (ج ٨ ص ٢٩) بالحبر الهمام وفخر العلماء الأعلام ، الإمام الأريب ، واللوذعى الأديب ، الشاعر الناثر ، الحافظ الماهر ، العلامة الشيخ عبد الهادى نجا ابن العلامة الشيخ رضوان الابيارى ، ولد فى ابيار غربية ، وتلقى العلم فى الأزهر على يد شيوخه ، ونبغ فى علوم اللغة والفقه والأدب ، فذاعت شهرته ، وعهد إليه الخديو اسماعيل تثقيف أبنائه وتعليمهم ، ومنهم الأمير توفيق باشا ، وكان وهو يتولى هذا المنصب يتصدر للتدريس فى الأزهر وفى بيته ، وأخذ عنه كثيرون من جلة العلماء ، كالشيخ حسن الطويل ، والشيخ محمد البسيونى ، ولما تولى توفيق باشا الأريكة الخديوية قربه اليه وجعله إماماً للمعية ومفتيها ، وشغل هذا المنصب حتى وفاته ، وكان كاتباً أديباً ، راسل أعلام الأدب فى سائر

الاقطار كأحمد فارس الشدياق والشيخ ناصف اليازجى والشيخ ابراهيم الأحدب ، وله مؤلفات قيمة فى الأدب واللغة بلغت أربعين كتابا

السيد عبد الله نديم (١٨٤٣ - ١٨٩٦)

الكاتب الشاعر الأديب ، والخطيب الوطنى المفوّه ، أحد تلاميذ السيد جمال الدين الأفغانى ، ومن الذين استمسكوا بتعاليمه ومبادئه طول حياته ، ولد بالاسكندرية ، ونشأ محبا للأدب ، ميالا للخطابة والشعر ، جريئا مقداما ، مولعا بالحرية ، بدأت شخصيته الأدبية والسياسية تظهر فى أواخر عهد اسماعيل ، وبدأ ينشر رسائله فى جريدتى (مصر) و (التجارة) ، وأسس سنة ١٨٧٩ الجمعية الخيرية الإسلامية بالاسكندرية ، التى ضمت أعيان الثغر ووجهاءه ، وكانت باكورة أعمالها إنشاء مدرسة أهلية لتعليم البنين والبنات ، وهو أكبر خطباء الثورة ، وله فيها دور كبير سنفصله فى موضعه من كتاب (الثورة العرابية والاحتلال الانجليزى)

أديب اسحق (١٨٥٦ - ١٨٨٥)

الشاعر الناثر ، والصحفى السياسى الحر ، ولد فى دمشق ، وبدا منه منذ صباه الميل إلى الشعر والأدب ، والتعلق بالحرية ، فما أن جاء مصر حتى اتصل بجمال الدين وصار من أخلص تلاميذه ، وأصدر جريدة (مصر) ثم جريدة (التجارة) وامتازتا بالأسلوب البليغ والروح الوطنية ، وكان السيد جمال الدين يكتب فيهما أحيانا ، وكذلك الشيخ محمد عبده ، ولقيت الصحيفتان إقبالا عظيما ، ثم ألغيتا بأمر رياض باشا ، وهجر أديب اسحق مصر سنة ١٨٨٠ ، ورحل إلى باريس حيث أصدر فيها جريدته باسم (القاهرة) ، وهناك أصيب بعلة الصدر ، وعاد إلى بيروت ، ثم رجع إلى مصر فى عهد الثورة العرابية ، وأعاد إصدار جريدة (مصر) ، وعين رئيسا لقلم الترجمة بوزارة المعارف ، ثم كاتبا ثانيا لمجلس النواب ، ولما أخفقت الثورة هاجر من مصر ضمن من هاجروا إلى سوريا ، واشتدت به علة الصدر ، فجاء مصر للاستشفاء ، فلم تتقدم صحته ، فعاد إلى بيروت ، ولم يمض عليه ثلاثون يوما حتى عاجلته المنية سنة ١٨٨٥ وهو فى ريعان الشباب ، وقد جمعت أقواله وأشعاره فى كتاب سمه « الدرر »

الشيخ على الليثى — توفى سنة ١٨٩٦

شاعر الخديو اسماعيل ، وشيخ الندماء فى عصره ، كان أديبا ذكى الفؤاد ، حاضر البديهة ، لطيف العشرة ، حلو الحديث ، خفيف الروح ، محبا للخير ، محبوبا من معاصريه ، قربه اليه الخديو ، وجعله «منشئا بالمعية» ، وكان يستصحبه فى غدواته وروحاته ، ويحترمه ويأنس لسمره وأحاديثه ، وله ديوان شعر لم يطبع

على أبو النصر المنفلوطى — توفى سنة ١٨٨٠

من شعراء ذلك العصر المجيدين ، ولد فى منفلوط ، وتعلق منذ صباه بالشعر والإنشاء ، فقربه اسماعيل إليه وجعله «منشئا بالمعية» ، ونال جوائزه وهباته ، ورافقه فى سفره الى الاستانة على عهد السلطان عبد العزيز ، وله ديوان شعر طبع ببولاق سنة ١٣٠٠ ﻫ

الشيخ حسن الطويل — توفى سنة ١٨٩٩

هو أنبغ من درس المنطق فى مصر قبل حضور السيد جمال الدين الافغانى ، ومن كبار علماء الأزهر وأساتذة دار العلوم ، وجهابذة المنطق والعلوم الرياضية ، أخذ عنه العلوم الشرعية والرياضية والفلسفية نخبة من علماء مصر وأدبائها ، توفى فى ٤ يوليه سنة ١٨٩٩

السيد صالح مجدى بك (١٨٢٧ — ١٨٨١)

كاتب شاعر ، ومعرب ومؤلف ، ولد بقرية أبى رجوان القبلية سنة ١٢٤٣ ﻫ وتلقى العلم فى مكتب حلوان من المكاتب النظامية التى أنشأها محمد على باشا ، ثم فى مدرسة الألسن ، فأتقن علوم اللغة العربية ، ودرس الفرنسية ، ومهر فى التعريب على يد أستاذه رفاعه بك رافع الطهطاوى ، وبعد أن تخرج فى مدرسة الألسن التحق بقلم الترجمة ، وتخصص فى تعريب كتب الرياضيات ، ثم انتقل إلى مدرسة المهندسخانة ، وتولى بها تدريس العربية والفرنسية والترجمة ، وعرب كثيراً من الكتب الرياضية وكانت كلها تدرس فى المدارس ، «وله غير ذلك من الكتب التى تجل عن الحصر» كما يقول عنه العلامة

على باشا مبارك (الخطط ج ٨ ص ٢٢) ، وبعد أن قضى عشر سنوات يتولى التدريس فى مدرسة المهندسخانة انتقل الى ألاى المهندسين والسكبورجية ، وتولى ترجمة وتصحيح مايعرب من الفنون الحربية ، وانتقل فى عهد اسماعيل إلى قلم الترجمة المستجد ، واشترك فى ترجمة (السكود) قانون نابليون ، وتولى هو تعريب قانون تحقيق الجنايات ، واستمر يرقى فى المناصب حتى جعل سنة ١٢٨٧ هـ مأموراً لإدارة المدارس ، ولما أنشئت المحاكم المختلطة عين قاضياً بمحكمة مصر المختلطة ، وشغل هذا المنصب حتى توفى سنة ١٨٨١ ، وكان شاعراً أديباً ، وله ديوان شعر كبير طبع سنة ١٣١٢ هـ ، وله مقالات أدبية فى مجلة (روضة المدارس) ، ووضع كتابا لم يطبع فى ترجمة حياة رفاعة بك رافع اسمه (حلية الزمن بمناقب خادم الوطن) ، وقد أحصى العلامه على باشا مبارك مؤلفاته وتراجمه فبلغت خمسة وستين كتابا ورسالة ، وكتب بيده من الكراريس مالا يدخل تحت حصر

ابراهيم بك مرزوق ١٨١٧ — ١٨٦٦

شاعر أديب ، أدرك أوائل عهد اسماعيل ، وهو من تلاميذ رفاعه بك ، توفى بالخرطوم سنة ١٨٦٦ ، وله ديوان شعر جمعه محمد بك سعيد ابن جعفر مظهر باشا حكمدار السودان وسماه « الدر البهى المنسوق ، بديوان ابراهيم بك مرزوق » طبع ببولاق سنة ١٢٩٤ هـ

أبو الوفاء نصر الهورينى - توفى سنة ١٨٧٤

من خريجى بعثات محمد على ، وكان يجيد الفرنسية ، وله كتاب « المطالع النصرية للمطابع المصرية فى الأصول الخطية » وكتاب « تسلية المصاب على فراق الأحباب »

محمود صفوت الساعاتى — توفى سنة ١٨٨٠

شاعر أديب ، توجه إلى الحجاز ، فأكرم أمير مكة مثواه ، وأبقاه عنده مدة ثم عاد إلى مصر والتحق بالمعية ، وعرف بالساعاتى لبراعته فى فن الساعات ، وان لم يحترفه ، وله ديوان مطبوع سنة ١٩١٢

محمد عارف باشا

من أفاضل علماء ذلك العصر وأدبائه فى اللغتين العربية والتركية ، وقد تجلى ميله إلى العلم والأدب فى إنشائه جمعية المعارف التى سبق الكلام عنها

احمد بك عبيد — توفى سنة ١٨٨٠

من نوابغ خريجى مدرسة الألسن ، ورئيس قلم الترجمة بوزارة الحربية ، وله تراجم فى الفنون الحربية والرياضية ، وترجم عن الفرنسية تاريخ بطرس الأكبر ، وكان وكيلا للمحكمة التجارية بالقاهرة ، ثم قاضياً بمحكمة الاسكندرية المختلطة سنة ١٨٧٥

خليفة افندى محمود

من خريجى مدرسة الألسن ، ومن أنبغ تلاميذ رفاعة بك ، التحق بقلم الترجمة وصار رئيس القسم الخاص بترجمة التواريخ والأدبيات فى هذا القلم ، وله تراجم كثيرة فى التواريخ،منها (إتحاف الملوك الألبا بتقدم الجمعيات فى بلاد أوروبا) وهو مقدمة لتاريخ الأمبراطور شارلكان الذى عربه بعنوان (إتحاف ملوك الزمان بتاريخ الأمبراطور شارلكان) ، لروبرتستون وليم المؤرخ الانجليزى فى ثلاثة أجزاء طبعت سنة ١٢٦٦ ﻫ وأدرك أوائل عصر اسماعيل وتوفى سنة ١٢٨١ ﻫ [١] (١٨٦٤)

بقية أعلام الأدب

وثمة أدباء آخرون . مثل الشيخ محمد قطه العدوى أحد كبار الأساتذة فى مدرسة الألسن ، وقد أدرك أوائل عصر اسماعيل ، والشيخ احمد عبد الرحيم الأستاذ بمدرسة الألسن ، والشيخ مصطفى سلامة ، وكلاهما من محررى الوقائع المصرية ، والشيخ ابراهيم عبد الغفار الدسوقى كبير مصححى الكتب العلمية وأستاذ المستشرق (لين) والمتوفى سنة ١٨٨٣ ، وابراهيم بك اللقانى أحد تلاميذ السيد جمال الدين الافغانى ، وكان يكتب

---

(١) كما جاء فى الخطط التوفيقية ج ٨ ص ٢٣

فى جريدتى (مصر) و(التجارة) ثم فى (مرآة الشرق) وغيرها من الصحف . والزرقانى الشاعر الأديب . ومحمد افندى عبد الرازق المتوفى سنة ١٨٧٣ (١٢٩٠ هـ) معرب كتاب (غاية الأرب فى خلاصة تاريخ العرب) للمسيو سديليو طبع سنة ١٢٨٩ هـ . والشيخ حمزة فتح الله وقد بدأت كفايته اللغوية تظهر فى ذلك العهد ، وأمين بك فكرى نجل عبد الله باشا فكرى ، وعلى بك فهمى رفاعة نجل رفاعة بك ، واحمد بك فتحى ناظر مدرسة رأس التين . وتادرس افندى وهبى (بك) . ومحمد افندى فنى . وعبد السلام افندى سلمى . والشيخ عثمان مدوخ ، وهؤلاء ظهرت باكورة آثارهم الأدبية فى مجلة (روضة المدارس) .. الخ . الخ

علماء الهندسة والرياضيات

على باشا مبارك . مصطفى بهجت باشا . محمد مظهر باشا . احمد فايد باشا . حسين باشا فهمى المعمار . احمد بك السبكى . حسن بك نور الدين . وهؤلاء قد ترجمنا لهم فى « عصر محمد على » ص ٥١٥ وما بعدها (من الطبعة الأولى)

حسين حسنى باشا وقد ترجمنا له فى الكتاب الحالى ص ٢٥٠

محمود باشا الفلكى

(١٨١٥ – ١٨٨٥)

هو محمود باشا حمدى الفلكى ، أنبغ من أنجبتهم مصر الحديثة فى الفلك والرياضيات ، ولد سنة ١٢٣٠ هـ – ١٨١٥ م ببلدة الحصة بمديرية الغربية ، وعنى أخوه بتربيته وأدخله مدرسة الاسكندرية التى أنشئت سنة ١٨٢٤ فى عهد محمد على ، فارتقى إلى رتبة بلوك أمين ، وكان أخوه قد سبقه إلى دخول هذه المدرسة وتخرج منها ضابطاً فى الأسطول ، ثم انتقل المترجم الى مدرسة المهندسخانة بمصر ، فبذ أقرانه من التلاميذ فى العلم والذكاء وحسن الاستعداد ، وتخرج من المدرسة سنة ١٢٥٥ هـ وكان من أوائل الناجحين ، فعين أستاذاً مساعداً للعلوم الرياضية بها ، ونال رتبة ملازم ثان ، وكان من تلاميذه وقتئذ على مبارك (باشا) ، وبقى يتولى التدريس بالمهندسخانة ، وتعلم اللغة الفرنسية واستطاع أن يعرب بعض الكتب الفرنسية فى الرياضيات ، وأخذ يتقن من ذلك الحين دراسة العلوم الفلكية فى

المؤلفات التى وضعها كبار علماء الفلك بفرنسا ، ويدرس هذه العلوم لتلاميذ المهندسخانة ومن تلاميذه فيها اسماعيل (باشا) الفلكى ، وابتكر وضع التقاويم السنوية ، فوضع تقويما لسنة ١٢٦٤ ﻫ قارن فيه بين التواريخ الهجرية والميلادية والقبطية ، وبيّن مواقع الشمس والقمر لتلك السنة ، وعُرف بين الناس من ذلك الحين بلقب (الفلكى) ، الذى لازمه طول حياته

وفى سنة ١٢٦٦ ﻫ (منتصف سنة ١٨٥٠) اعتزم عباس باشا الأول إعادة تنظيم رصدخانة بولاق (دار الرصد) المنشأة فى عهد محمد على ، فأنفذ ثلاثة من نوابغ المهندسين إلى باريس للتخصص فى الفلك ، وهم المترجم وكان مدرسا بالمهندسخانة وحسين افندى ابراهيم ، واسماعيل مصطفى الفلكى ، وكانا قد أتما دراستهما بالمدرسة ، فسافروا إلى أوروبا سنة ١٨٥١ ، ومكث المترجم نحو تسع سنوات مكبا على استكمال العلوم حتى نبغ فى الرياضيات والفلك

وكان يواصل الحضور بدار الرصد فى باريس ، وزار دور الرصد فى مختلف النواحى باوروبا ، وظهر نبوغه هناك بادخاله بعض إصلاحات فى الآلة المسماة بالتيودوليد ، ونشر بعض مباحث فلكية فى المجلات الأوروبية ، ووضع أثناء دراسته بباريس الرسائل الآتية :

(١) رسالة عن التقاويم الإسلامية والاسرائيلية طبعت سنة ١٨٥٥ ببروكسل
(٢) رسالة عن التقاويم العربية قبل الإسلام حقق فيها مولد النبى عليه الصلاة والسلام ونشرت فى المجلة الاسيوية ثم عربها الأستاذ احمد زكى (باشا) بعنوان (نتائج الافهام فى تقويم العرب قبل الاسلام) ـ (٣) رسالة عن فعل « كان » ـ (٤) رسالة عن المواد المغناطيسية الأرضية قدمها سنة ١٨٥٦ إلى المجمع العلمى بفرنسا

ونال المترجم أعظم الشهادات العلمية ، ثم عاد إلى مصر فى عهد سعيد باشا سنة ١٨٥٩ ، فأنعم عليه برتبة أميرالاى ، وعهد اليه وضع خريطة مفصلة للقطر المصرى ، فاضطلع بهذه المهمة وشرع فى تخطيط تلك الخريطة بمعاونة بعض المهندسين ، « ورتب

الرسوم وأبرز من جليــل صنعه وجميل وضعه لما انبهرت منه العقول ووقفت على مقدار براعته »[١]

فأنجز خريطة جامعة للوجه البحرى لم يسبقه اليها أحد من العلماء والمهندسين ، ووضع خريطة أخرى للوجه القبلى ، وأخرى عن مدينة الاسكندرية

وفى سنة ١٢٧٦ ﻫ عهد اليه سعيد باشا بالرحلة إلى دنقله لملاحظة كسوف الشمس الكلى ، فأدى هذه المهمة ، وانتهز هذه الفرصة لحقق المواقع الفلكية على النيل ، ووضع رسالة مسهبة عن هذا الكسوف قدمها الى سعيد باشا وإلى أكاديمية العلوم بباريس فنالت استحسان العلماء

وخطط معالم الاسكندرية القديمة ، ونقب فى حفائرها ، وهو أول عالم عصرى كشف عن آثار الاسكندرية وموقع سورها القديم ، وله فى ذلك رسالة بديعة باللغة الفرنسية عن الاسكندرية القديمة طبعها سنة ١٨٦٦ ، وهى رسالة تتضمن نتائج مكتشفاته وما قام به من النقب والحفر ، وما وصل اليه من كشف معالمها القديمة ، كأسوارها ، وشوارعها ، وأقنيتها ، ومراسيها ، ومتحفها ، ومكتبتها الشهيرة ، وقصورها ، ومبانيها ، وضواحيها ، ولم يسبقه إلى هذه المكتشفات المؤسسة على عمليات الحفر عالم عصرى من الافرنج ، لأن مهندسى الحملة الفرنسية لم يكن لديهم الوقت ولا الوسائل الكافية للحفر والتنقيب[٢] ، وقد بحث اثنان منهم فى مواقع الاسكندرية ، أولهما المسيو سان جنيس Seinl Genis أحد مهندسى الحملة ، وله فى الاسكندرية القديمة بحث مستفيض منشور فى الجزء الخامس من كتاب (تخطيط مصر) Descriprion de l'EgyPte ، ولكن المسيو سان جنيس لم ينقب ولم يحفر الأرض كما فعل محمود باشا الفلكى ، بل اكتفى بذكر نتائج مشاهداته وآرائه التاريخية ، وكذلك كتب المسيو جراتيان لوبير Gratien Lepere بحثا فى وصف الاسكندرية نشر فى الجزء الثامن عشر ، اقتصر فيه على تدوين مشاهداته وما

---

(١) عن ترجمة حياته بقلم اسماعيل بك (باشا) الفلكى والأميرالاى محمد مختاربك (باشا) فى محاضرة القياها بالجمعيه الجغرافية بجلسة ٨ ينايرسنة ١٨٨٦ و نشرت فى مجلة الجمعية بمجموعة ٢ عدد ١٢

(٢) عن تاريخ الحركة القومية ج ١ ص ١٦٦ (طبعة اولى)

نقله عن مؤرخي الافرنج والعرب ، وللمسيو نوري Notry وللمسيو مارتان Martin وكلاهما من مهندسي الحملة الفرنسية بحثان أقل أهمية من أبحاث سان جنيس وجراتيان لوبير ، منشوران فى الجزء الخامس عشر من كتاب (تخطيط مصر) ، وكل هذه المباحث لم تكن مقرونة بأعمال الحفر والتنقيب

فحمود باشا الفلكى هو أول عالم عصرى خطط معالم الاسكندرية القديمة ، على ما كشفت له أعمال الحفر تحت الأرض ، وقد بذل فى مكتشفاته جهوداً كبيرة ، وكان تحت إمرته جماعة من المهندسين المصريين ، ونحو مائتى عامل يشتغلون فى النقب والحفريات ، ومما أفرد عمله وميّزه أنه استثار الأرض فى عهد الخديو اسماعيل باشا ، أى قبل أن تغطى بالمبانى الحديثة ، وتضيع معالم الآثار ، فهو أول من خطط سور البطالسة القديم تخطيطاً مبنياً على الاكتشاف والفحص الدقيق

ورسالة محمود باشا الفلكى مقرونة بخريطة هى أبدع ما رسمه العلماء والمهندسون عن الاسكندرية القديمة ، وإليها يرجع علماء أوروبا فى أبحاثهم

وقد خالف علماء الحملة الفرنسية فى بعض آرائهم ، فعين لمدينة (كانوب) مكانا غير الذى عينوه ، وكشف أطلال مدينة تابوزيريس (بوصير - غربى الاسكندرية) التى يسمى الفرنسيون برجها برج العرب

وله رسالة ممتعة فى التوضيح عن عمر الأهرام والغرض الأصلى من تشييدها ، وتناسبها مع كوكب الشعرى ، وأخذ بنفسه مقاييس الأهرام وموقعها من التناسب الفلكى

قال الأميرالاى محمد مختار بك (باشا) فى هذا الصدد : « وكنت موجوداً معه عند شروعه فى أخذ مقاييس الأهرام وموقعها من التناسب الفلكى ، وأعلم علم اليقين أنه وصل إلى معرفة الغرض من تشييدها ، إذ وجدها محكمة البناء فى رسم يقابل كوكب الشعرى عند طلوعه ، فكأن الذى بناها قصد أن يجعلها مزولة ليعرف منها يوم شم نسيم العلماء ، وكذلك لأجل تعريض جثث المدفونين فيها لموافاة صعود الكوكب المذكور ، فيسبغ عليهم من آياته رحمة وغفرانا ، لأن كوكب الشعرى كان من معبودات المصريين القدماء »

وله رسالة فى التنبؤ بارتفاع النيل قبل وقوعه ، وأخرى عن ضرورة إنشاء دار

الرصد بمصر ، وأخرى فى توحيد موازين العملة فى الديار المصرية ، ورسالة فى المقاييس والمكاييل فى مصر ، وترجم كتاب (حساب التفاضل والتكامل)

وعين سنة ١٨٧١ ناظراً لمدرسة المهندسخانة ، وتولى نظارة الرصدخانة ، وإذ كان وكيلا للجمعية الجغرافية ، فقد ناب عن الحكومة المصرية فى المؤتمر الجغرافى الذى عقد بباريس سنة ١٨٧٥ ، والمؤتمر الجغرافى الآخر الذى عقد بمدينة البندقية سنة ١٨٨١

ومن أعماله إنشاء مدفع الظهر بالقلعة ، وأنشأ على سطح منزله (بميدان الفلكى) مزولة تبين ساعات النهار ، ورفعت من مكانها بعد وفاته

وقد تولى وزارة الأشغال سنة ١٨٨٢ فى عهد وزارة اسماعيل راغب باشا ، وعين وكيلا لوزارة المعارف فى وزارة شريف باشا سنة ١٨٨٢ - ١٨٨٤

ثم عهد اليه بوزارة المعارف فى عهد وزارة نوبار باشا الثانية سنة ١٨٨٤ ، وتولى رآسة الجمعية الجغرافية الخديوية ، وبقى يتولاها مع الوزارة إلى أن توفى فى ١٩ يوليه سنة ١٨٨٥

وقد أبنته الجمعية الجغرافية الخديوية فى اجتماعها يوم ٨ يناير سنة ١٨٨٦ ، وألقى كل من اسماعيل بك مصطفى الفلكى والأميرالاى محمد مختار بك محاضرة فى ترجمة حياته ومآثره ، واقترح الأميرالاى محمد مختار بك اقتناء مكتبة المترجم ، وما فيها من نفائس الكتب ، وما خطه وما دونه من ملاحظاته ومعلوماته ، ونتائج اختباراته العلمية ، وكان المترجم يفكر فى إعداد قاعة عامة للمطالعة بداره يعرض فيها لمن يرغب من محبي الاطلاع كل ماوصل اليه من نفائس الكتب والخرائط والمخطوطات ، وقد تحققت هذه الفكرة سنة ١٩٢٩ ، إذ وهبت كريمته مكتبة الفقيد إلى الحكومة

اسماعيل باشا الفلكى — توفى سنة ١٩٠١

هو اسماعيل باشا مصطفى الفلكى ، من تلاميذ محمود باشا الفلكى ، ومن نوابغ علماء الرياضيات والفلك ، أتم دراسته فى مدرسة المهندسخانة ببولاق والتحق سنة ١٨٤٥ على عهد محمد على بالرصدخانة القديمة التى كانت ببولاق ، ثم أوفده عباس الأول سنة ١٨٥٠

ضمن البعثة التى خصصها لدراسة الفلك ، وكانت مؤلفة من محمود حمدى (باشا) الفلكى ، ومن المترجم وحسين افندى ابراهيم ، ومكث اسماعيل أربعة عشر عاما فى فرنسايدرس علوم الفلك ، ويتفقه فيها ، ويمارسها فى دور الرصد ، فحاز بحق هو ومحمود باشا لقب (الفلكى) ، ومارس أيضا صناعة الآلات الفلكية ، وأتقنها فى باريس ، وعاد إلى مصر فى أوائل عهد اسماعيل ، فقدر كفاءته وأنعم عليه بالرتبة الثانية ، ولما أنشأ الرصدخانة بالعباسية عهد اليه بنظارتها ، وقد عهد اليه دراسة مشروع سكة حديد سواكن - بربر بالسودان . فبحثه ووضع تصميما له ، ولكنه لم ينفذ ، وناب عن الحكومة سنة ١٨٧٣ فى مؤتمر الإحصاء الدولى بموسكو ، فأعجب العلماء بكفاءته وسعة اطلاعه ، وتولى نظارة الرصدخانة ونظارة مدرسة المهندسخانة

ومن أعماله أنه أصلح مقياس النيل فى أسوان سنة ١٨٧٠ ، وله مؤلفات فى الفلك والرياضيات أهمها (١) الآيات الباهرة فى النجوم الزاهرة ، طبع ذيلا لمجلة روضة المدارس و (٢) الدرر التوفيقية و (٣) تقاويم فلكية كان ينشرها كل عام بالعربية والفرنسية (٤) والتحفة المرضية فى المقاييس والموازين المترية معربة عن الفرنسية شاركه فى تعريبها صادق بك شنن

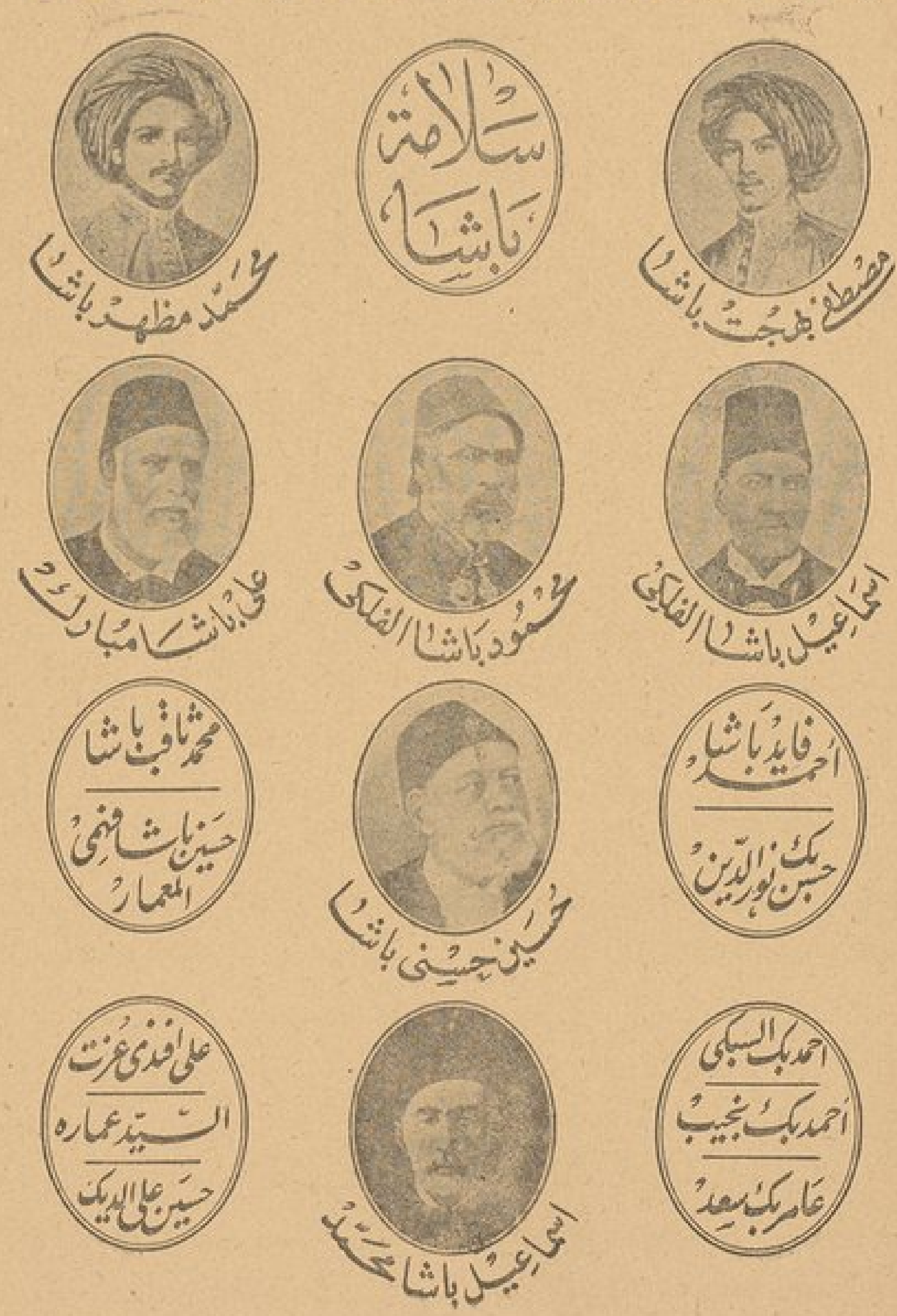
سلامة باشا

هو سلامة باشا ابراهيم ، مفتش هندسة الوجه البحرى ، ثم مفتش هندسة الوجه القبلى ، ثم مفتش عموم ديوان (وزارة) الأشغال ، وهو من كبار المهندسين فى ذلك العصر ، وأصله من الاسكندرية ، وأبوه السيد ابراهيم شرابيه بن صالح شرابيه من أهالى الثغر [١] ، وله آثار تشهد له بالكفاءة فى الأعمال الهندسية ، منها أنه أنشأ ترعة الساحل ، وكان وقتئذ وكيلا لمظهر باشا مفتش بحر الشرق (فرع دمياط) على عهد سعيد باشا ، واشترك مع مصطفى بهجت باشا فى إنشاء الترعة الابراهيمية ، وهى من أجل أعمال

---

(١) عن حجة شرعية حررها سلامة باشا فى يوم الأحد ١٥ المحرم سنة ١٣٠٠ مسجلة بمحكمة مصر الشرعية

علماء الهندسة والرياضيات في عصر إسماعيل



العمران التى أنشئت فى ذلك العصر ، وفى إقامة قناطر التقسيم على الترعة المذكورة ، وهى من أعظم قناطر الرى فى العالم

محمد ثاقب باشا

من أهالى القرشية بمديرية الغربية ، ومن مشاهير المهندسين فى عصر محمد على واسماعيل ، حضر بعض المواقع الحربية على عهد محمد على ، وعاون مصطفى بهجت باشا فى بناء القناطر الخيرية ، وصار مفتش هندسة الوجه القبلى ، توفى سنة ١٨٧٤

اسماعيل باشا محمد

ناظر قلم الهندسة ورئيس إدارة دروس المدارس الملكية ، ثم مفتش هندسة الوجه القبلى ، واشترك فى إتمام ترعة الابراهيمية وقناطرها ، وهو الذى صار رئيس مجلس شورى القوانين سنة ١٨٩٩

أحمد بك نجيب

أستاذ الرياضة بمدرستى أركان حرب والطوبجية ، وله كتاب (التحفة البهية فى الهندسة الوصفية) ، طبع سنة ١٢٩٠ هـ

حسين افندى على الديك

مدرس الحساب بمدرسة المحاسبة ، وله كتاب قيّم فى مسك الدفاتر اسمه (عدة الحاسب وعمدة الكاتب) طبع سنة ١٢٨٦ هـ (١٨٦٩) وله كتاب (عمل الدواوين المتواتر فى بيان رسوم الدفاتر) طبع سنة ١٢٩١

على افندى عزت

أستاذ العلوم الرياضية بالمهندسخانة ، توفى سنة ١٨٧٢ وله كتاب (حسن الصنيعة فى علم الطبيعة) طبع سنة ١٢٧٠ هـ ، و (النخبة العزية فى تهذيب الأصول الهندسية) طبع سنة ١٢٧٤ و (الخلاصة العزية فى تهذيب الأصول الحسابية) طبع سنة ١٢٨٥

عامر بك سعد

أستاذ الرياضيات بالمدارس الحربية ، وله (المنحة الزهرية فى الأعمال الجبرية) طبع سنة ١٢٦٩ ﻫ ، و (أحسن الوسائل لتصريف السوائل) طبع سنة ١٢٩١ ، وهو ملخص القواعد النظرية فى تصريف المياه من البحيرات والجداول

السيد عمارة

من تلاميذ رفاعة بك ، وله كتاب (تهذيب العبارات فى فن أخذ المساحات) عربه عن الفرنسية بإرشاد رفاعة بك

علماء الطب والجراحة

محمد على البقلى باشا . احمد حسن الرشيدى بك . محمد الشافعى بك . حسين عوف باشا . وهؤلاء قد ترجمنا لهم فى « عصر محمد على » ص ٥٢١ وما بعدها (طبعة أولى)

محمد درى باشا

(١٨٤١ — ١٩٠٠)

كبير الجراحين فى عصره ، ولد بالقاهرة سنة ١٢٥٧ ﻫ ، وأبوه السيد عبد الرحمن احمد من محلة أبى على القنطرة (غربية) ، تلقى التعليم الابتدائى والثانوى ، ثم التحق بمدرسة المهندسخانة فى عهد نظارة على باشا مبارك ، لكنه كان ميالا إلى الطب ، فما زال يسعى فى الانتقال إلى مدرسة قصر العينى حتى وفق إلى غرضه سنة ١٢٦٩ ﻫ ، والتحق بها ، وأكب على الدراسة ، ونجح فى الامتحان السنوى ، ولكن سعيد باشا أمر بإلغاء مدرسة الطب وأخرج منها تلاميذها ، فكان المترجم ضمن من ألحقوا باحدى الأورط العسكرية فى الجيش ، فلم يتسرب اليأس إلى نفسه ، وأخذ يعنى بالاطلاع على المعلومات الطبية ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، واشتغل ممرضا فى الجيش ، وظل كذلك إلى أن أعاد سعيد باشا فتح مدرسة الطب ، فعاد اليها المترجم ، وأتم دراسته بها ، وظهرت عليه علائم الذكاء والنبوغ ، فعين مساعداً ومعيداً للجراحة بالمدرسة

وفى سنة ١٢٧٩ هـ أوفد سعيد باشا بعثة من الأطباء لإتمام دراستهم فى باريس مؤلفة من الأطباء محمد بك فوزى ، ومحمد بك عامر ، وقاسم بك فتحى ، ومحمد بك القطاوى ، وعلى بك رياض ، ومحمد بك زهران ، وعقباوى افندى ، والمترجم ، وكان أصغرهم سنا ، وقد استدعت الحكومة هؤلاء الأطباء فى أوائل عهد اسماعيل ، قبل إتمام دراستهم ، لاحتياج الحكومة اليهم ، فرجعوا إلى مصر ، عدا المترجم فقد استثنى منهم لصغر سنه ، فأكمل معارفه الطبية وأتم دروسه على أشهر جراحى العالم وقتئذ ، وبقى يوالى الدرس والتخصص فى باريس نحو سبع سنوات ، ونبغ فى الجراحة نبوغا عظيما ، شهد له به أساتذته ، وفى خلال هذه المدة قابل الخديو اسماعيل فى باريس ، فشمله بعطفه ورعايته ، إذ سمع من أساتذته الثناء المستطاب على كفاءته واجتهاده

وعاد المترجم إلى مصر ، فتقلد المناصب الطبية ، وأهم ماتقلده منصب كبير الجراحين بمستشفى قصر العينى ، والأستاذ الأول للجراحة بمدرسة الطب ، وأنعم عليه بالرتب إلى أن نال الباشوية سنة ١٣١٥ هـ ، وسطع نجمه فى الجراحة ، وذاعت شهرته فيها حتى عمت أرجاء البلاد ، وبلغ ذروة الشهرة بما عرف عنه من النبوغ فى فنه ، والمهارة فى إجراء العمليات الجراحية الخطيرة ، والدقة فى تشخيص الداء والدواء ، والتفانى فى الإخلاص لعمله وفنه ، وحب الانسانية ، والبر بالفقراء والمعوزين ، هذا إلى تعلقه بالعلم والتأليف ، فقد اقتنى مكتبة علمية من أنفس المكاتب ، وألف مجموعة تشريحية من أعظم ماجمعه الأطباء ، وأنشأ لنفسه مطبعة لطبع مؤلفاته ورسائله ، سميت المطبعة الدرية ، كان يطبع فيها المؤلفات الطبية التى ظهرت فى عصره ، وقد ظل مخلصاً لفنه وللعلم حتى وافته المنية ليلة ٣٠ يونيه سنة ١٩٠٠ ، وأهم مؤلفاته الطبية « بلوغ المرام فى جراحة الأجسام » طبع بالمطبعة الدرية فى أربعة مجلدات ، وله « الإسعافات الصحية فى الأمراض الوبائية » طبع سنة ١٣٠٠ هـ

حسن بك عبد الرحمن

توفى سنة ١٨٧٥

تخرج من مدرسة الطب بقصر العينى ثم تولى تدريس التشريح فيها ونبغ فى هذا الفن ،

وترجم كتاب (القول الصحيح فى علم التشريح) طبع سنة ١٢٨٣ هـ بإرشاد محمد على باشا البقلى إذ كان ناظراً لمدرسة الطب

محمد بك حافظ

توفى سنة ١٨٨٧

تخرج فى مدرسة قصر العينى ، وأتقن فن الرمد بأوروبا ، ثم تولى تدريسه بقصر العينى ، وله كتاب (مطمح الأنظار فى تشخيص أمراض العين بالبحث بالمنظار) طبع سنة ١٢٩٩ هـ

سالم باشا سالم

توفى سنة ١٨٩٣

من القنايات بمديرية الشرقية ، تعلم فى مدرسة الألسن ، ثم فى مدرسة الطب ، وأوفدته الحكومة فى عهد عباس باشا الأول لإتمام دراسة الطب فى مونيخ بألمانيا ، فأكمل دراسته علماً وعملا ، وعاد إلى مصر ، وارتقى فى المناصب الطبية وجعله الخديو توفيق باشا طبيبه الخاص ، وله من المؤلفات (١) وسائل الابتهاج إلى الطب الباطنى والعلاج طبع سنة ١٢٩٨ هـ فى أربعة مجلدات و (٢) دليل المحتاج فى الطب والعلاج و (٣) الينابيع الشفائية والمياه المعدنية

جليلة تمرهان

توفيت سنة ١٨٩٩

من خريجات مدرسة القابلات (الولادة) ، ثم تولت التدريس فيها ، ولها فى فن الولادة كتاب (محكم الدلالة فى أعمال القبالة) طبع سنة ١٢٨٦ هـ

محمد بك بدر

توفى سنة ١٩٠٢

من زاوية البقلى بمديرية المنوفية ، ومن خريجى مدرسة الطب بقصر العينى ، وأحد تلاميذ محمد على باشا البقلى ، أتم دراسته فى انجلترا وعاد منها فى عهد سعيد ، فتولى مناصب عدة حتى صار أستاذاً فى مدرسة الطب ، ونال منزلة رفيعة لدى اسماعيل ، وله من المؤلفات (١) الفرائد الدرية فى علم الشفاء والمادة الطبية طبع سنة ١٣٠٧ ﻫ و (٢) الدرر البدرية النضيدة فى شرح الأدوية الجديدة طبع سنة ١٣١٠ و (٣) الصحة التامة والمنحة العامة طبع سنة ١٢٩٦ ﻫ

أحمد حمدى باشا

توفى سنة ١٩٠٣

هو نجل الدكتور محمد على باشا البقلى ، ومن خريجى مدرسة قصر العينى ، ثم أتم دراسته فى باريس وبعد عودته إلى مصر سنة ١٨٦٩ عين أستاذاً للعمليات الجراحية فى حياة أبيه ، وحذا حذوه فى التأليف

حسن باشا محمود

(١٨٤٧ - ١٩٠٦)

ولد بقرية الطالبية فى طريق الأهرام ، وتلقى علومه بالمدرسة الحربية ، أوفدته الحكومة سنة ١٨٦٢ ضمن بعثة مدرسية إلى ألمانيا لدراسة الطب ، وعاد سنة ١٨٧٠ ، فعين أستاذاً للتشريح فى مدرسة قصر العينى ، وتقلد مناصب عدة ، إلى أن صار ناظراً لمدرسة الطب ، وله مؤلفات قيمة ومباحث طبيه كان ينشرها فى المجلات العلمية كروضة المدارس ثم المقتطف

ابراهيم باشا حسن وعيسى باشا حمدى

كلاهما من نوابغ الأطباء . وللأول كتاب (روضة الآسى فى الطب السياسى) ، طبع سنة ١٢٩٣ هـ (١٨٧٦) ، وتولى الثانى نظارة مدرسة الطب سنة ١٨٨٣ ، وله عدة مؤلفات طبية

عبد الرحمن بك الهراوى

توفى سنة ١٩٠٦

من خريجى مدرسة قصر العينى ، أتم دراسته بأوروبا ، وعين بعد عودته أستاذاً للفسيولوجيا وأمراض الجلد ، ثم صار وكيلا للمدرسة سنة ١٨٨٠ ، وله كتاب فى الفسيولوجيا لم يطبع

علماء الطبيعيات

أحمد بك ندا ، عبدالهادى اسماعيل ، وقد ترجمنا لهما فى (عصر محمد على) ص٥٣٤

على بك رياض ، توفى سنه ١٨٨٩

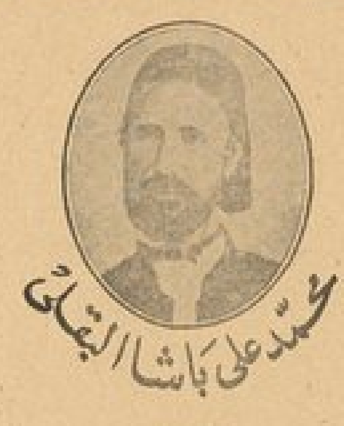
تلقى علم الصيدلة بمصر ، وأتم دراسته فى أوربا ، وتولى تدريس الأقرباذين والكيمياء فى مدرسة الطب ، وجعل كبير صيادلة مستشفى القصر العينى ، وله من المؤلفات : (١) النفحة الرياضية فى الأعمال الأقرباذينية طبع سنة ١٢٨٩ هـ (٢) الأزهار الرياضية فى المادة الطبية طبع سنة ١٢٩٨ هـ (٣) التوفيقات الإلهية فى التاريخ الطبيعى ، طبع سنة ١٢٩٨ هـ

منصور افندى أحمد

أستاذ الكيمياء بمدرسة المهندسخانة ومؤلف كتاب (عمدة المتطببين فى فن الصيدلة المعروف بالأقرباذين) طبع سنه ١٢٨٣ هـ (١٨٦٦)

علماء الطب والجراحة في عصر اسماعيل

أحمد حسن الرشيدي بك



محمد علي باشا البقلي





محمد الشافعي بك



محمد دري باشا



حسن باشا محمود







محمد بدر بك

أحمد حمدي باشا





علماء الفقه والقانون



محمد قدرى باشا

(١٨٢١ — ١٨٨٦)

العالم المشترع الكبير ، ولد بملوى حوالى سنة ١٨٢١ ، من أب أناضولى وأم مصرية ، وتلقى التعليم الأولى بمكتب ملوى ، ثم التحق بمدرسة الألسن على عهد رفاعة بك رافع الطهطاوى ، فظهر نبوغه وميله إلى العلم والترجمة ، وبعد أن تخرج فيها جُعل مترجما مساعداً بها ، واتجه ميله إلى دراسة علوم الفقه ومقارنة الشريعة الإسلامية بالقوانين الأوروبية ، فحضر بعض دروس الفقه بالأزهر ، وأقبل على كتب الشرع يدرسها ويتفهمها ، وظل يشغل مناصب الترجمة فى الحكومة إلى أن قربه الخديو اسماعيل واختاره مربيا لولى عهده الأمير محمد توفيق ، ثم عين بالمعية ، فالمحكمة التجارية بالاسكندرية ، فرئيسا لقلم الترجمة بوزارة الخارجية ، ومشارك رفاعة بك فى تعريب الكود (قانون نابليون) ، واختص هو بتعريب قوانين المحاكم المختلطة تمهيداً لوضع قوانين المحاكم الأهلية الجديدة ، وجعل مستشاراً بمحكمة الاستئناف المختلطة ، وله آثار علمية عدة ، أهمها كتبه الثلاثة الخالدة التى جمع فيها أحكام الشريعة الاسلامية ، وصاغها فى مواد محكمة الوضع على أسلوب القوانين الأوروبية ، وهذه الكتب هى : (مرشد الحيران إلى معرفة أحوال الانسان) على مذهب الإمام الأعظم أبى حنيفة النعمان

فى المعاملات المدنية الشرعية ، وكتاب (الأحكام الشرعية فى الأحوال الشخصية) ، وكتاب (قانون العدل والإنصاف فى القضاء على مشكلات الأوقاف) ، وهذه الكتب هى مرجع رجال القضاء والقانون فى المحاكم الأهلية والشرعية والمختلطة ، وعمدة كل مشتغل بالعلوم الفقهية والقانونية

وله أيضا كتاب لم يطبع فى (تطبيق ماوجد فى القانون المدنى موافقا لمذهب أبى حنيفة)

وتولى وزارة الحقانية فى وزارة شريف باشا الدستورية سنة ١٨٨١ على عهد الخديو توفيق باشا ، ووضع فى هذا العهد مشروع النظام القضائى للمحاكم الأهلية الجديدة ،وفى سنة ١٨٨٣ افتتحت هذه المحاكم ، وصدرت قوانينها ، وهى القانون المدنى وقوانين التجارة والمرافعات والعقوبات ، وكان المترجم وقتئذ وزيرا للمعارف فى عهد وزارة شريف باشا الرابعة ، وهى الوزارة التى استقالت احتجاجا على إخلاء السودان

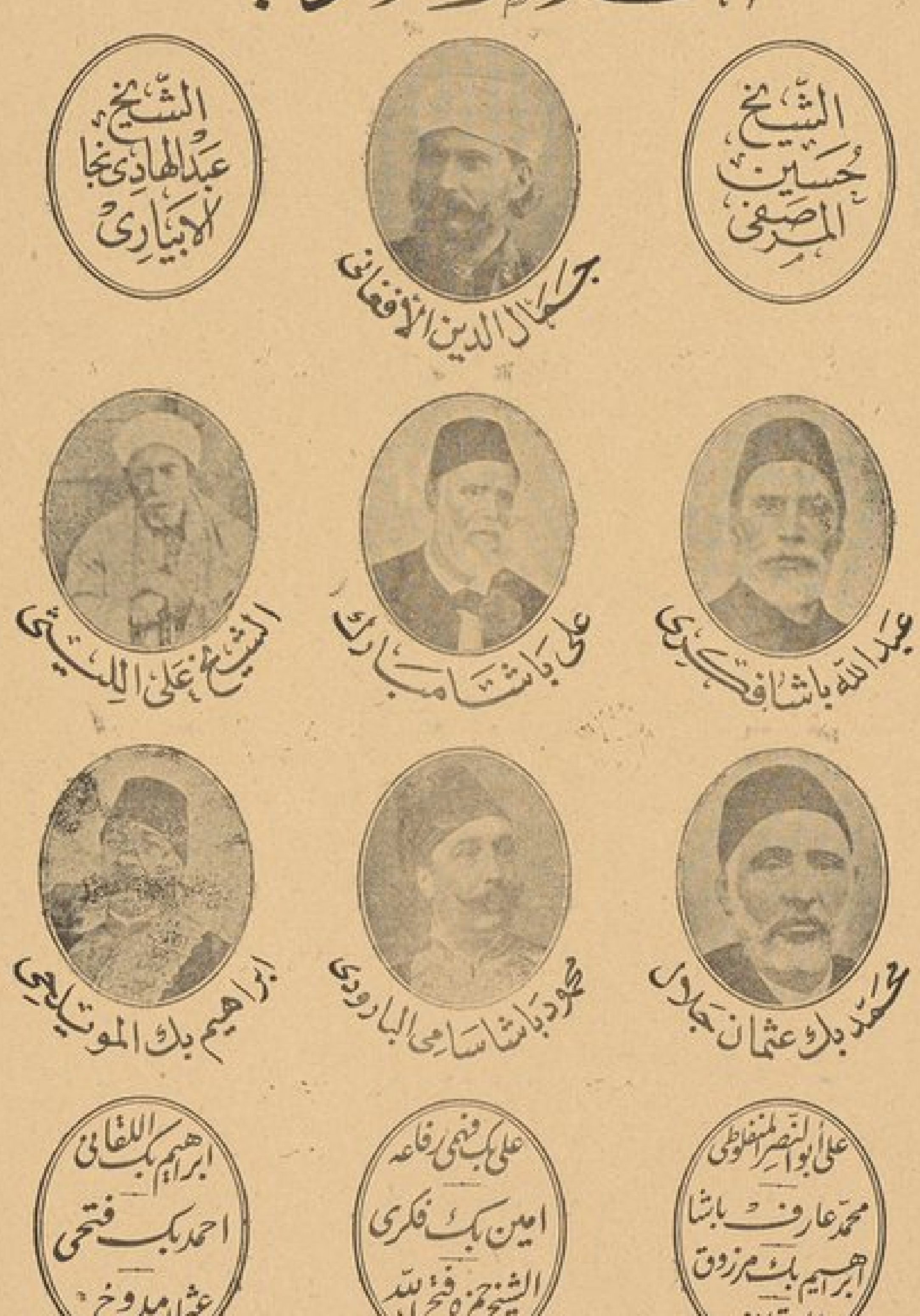
الشيخ محمد العباسى المهدى

(١٨٢٧ — ١٨٩٧)

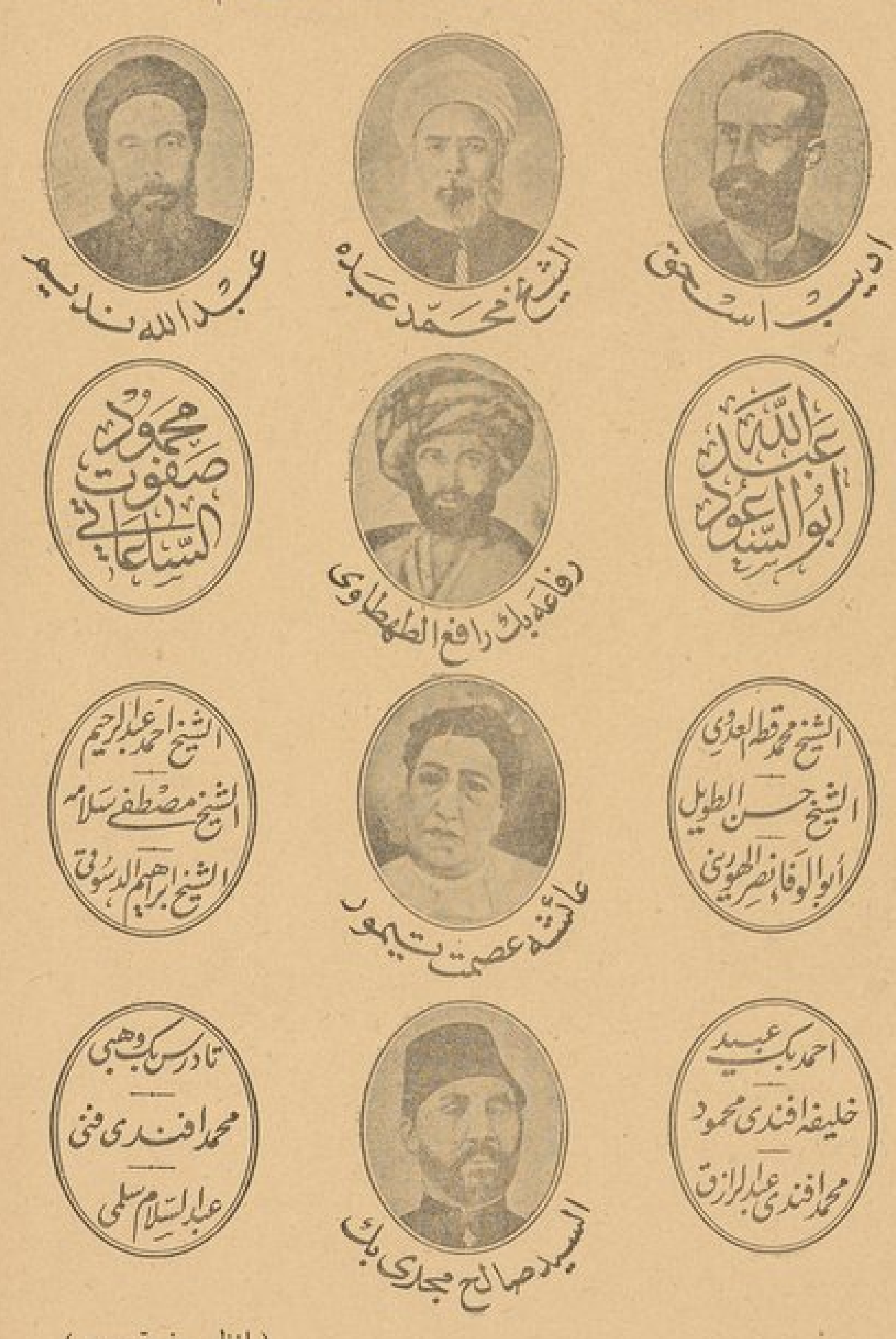
شيخ الإسلام ، ومفتى الديار المصرية ، وصاحب الفتاوى المهدية التى تعد مرجع العلماء فى الفقه الاسلامى ، وهو ابن الشيخ محمد أمين المهدى مفتى الديار المصرية الأسبق ابن الشيخ محمد المهدى أحد كبار علماء مصر فى عهد الحملة الفرنسية وأوائل عهد محمد على (ترجمنا له فى الجزء الثانى من تاريخ الحركة القومية ص ٢٩٩)

تلقى العلم بالأزهر ، ونبغ فى علوم الفقه ، وتولى منصب الفتيا وهو بعد فى الحادية والعشرين من عمره ، على عهد ابراهيم باشا ، وظهرت مزاياه التى رفعت مكانته ، وأهمها الذكاء ، وسعة العلم ، وقوة الحجة ، وقد وقف من الحكومات المتعاقبة موقف الكرامة والاستمساك بالحق ، حتى استهدف فى بعض المواطن لغضب ولاة الأمور ، فلم يكن يبالى غضبهم ، ولم يتحول عن الحق ، وتلك كبرى مزاياه وفضائله ، وقد زاد مقامه علوا فى عهد اسماعيل ، إذ جمع بين الافتاء ومشيخة الأزهر سنة ١٨٧١ ، ونال احترام الخديو وثقته ، وكان يرجع إلى رأيه فى كل ماله مساس بالشريعة الاسلامية ، وبدأ على يده

اعلام الأدب


الشيخ
حسين
المرصفي
جمال الدين الأفغاني
الشيخ
عبد الهادي نجا
الابياري
عبد الله باشا فكري
على باشا مبارك
الشيخ على الليثي
محمد بك عثمان جلال
محمود باشا سامي البارودي
ابراهيم بك المويلحي
على ابو النصر المنفلوطي
محمد عارف باشا
ابراهيم بك مرزوق
الزرقاني
على بك فهمي رفاعه
امين بك فكري
الشيخ حمزه فتح الله
ابراهيم بك اللقاني
احمد بك فتحي
عثمان مدوخ

في عصر إسماعيل



(انظر صفحة ٢٥٣)

إصلاح نظام التعليم فى الأزهر كما تقدم بيانه ص ٢٠٣ ، واستمر محتفظا بمكانته فى عهد الخديو توفيق ، ولما قامت الثورة العرابية لم يكن من أنصارها ، فاستهدف لغضب العرابيين ، وعزل من مشيخة الأزهر ، ولما انتهت الثورة أعيد إلى مشيخة الأزهر واستمر متقلداً الافتاء والمشيخة حتى عزل عنهما لمعارضته الحكومه على عهد توفيق باشا فيما يخالف الشريعة ، ثم عاد اليه الافتاء وتقلده ، إلى أن وافته منيته ليلة ١٦ رجب سنه ١٣١٥ هـ

* * *

ومن علماء الفقه المعدودين فى هذا العصر : الشيخ محمد عليش ، والشيخ ابراهيم السقا ، والشيخ عبد الرحمن البحراوى ، والشيخ حسونه النواوى الخ

علماء الفنون الحربية والبحرية

على باشا ابراهيم ، حماد عبد العاطى باشا ، وقد ترجمنا لهما فى (عصر محمد على) ص ٥٣٠

محمود باشا فهمى

توفى سنة ١٨٩٤

أحد زعماء الثورة العرابية ، ولد سنه ١٢٥٥ هـ فى الشنطوز بمركز ببا من مديرية بنى سويف ، وتخرج فى مدرسة المهندسخانة ببولاق ، ومهر فى الفنون الهندسية والحربية وانتظم فى سلك الجيش ، ثم جعل أستاذاً لعلم الاستحكامات والفنون العسكرية فى المدارس الحربية ، على عهد سعيد واسماعيل ، وعهد اليه الخديو اسماعيل تحصين شواطىء مصر الشمالية من أبو قير إلى البرلس ، فاضطلع بهذه المهمة ، وجدد الحصون القديمة ، وأقام حصونا جديدة ، وارتقى فى الرتب العسكرية ، واشترك فى حرب البلقان سنة ١٨٧٦-٧٧ ، وكان رئيس أركان حرب الفرقة المصرية بها



محمود باشا فهمى

توفى سنة ١٨٩٤

ولما شبت الثورة العرابية كان من زعمائها كما سيجىء بيانه فى موضعه من كتاب (الثورة العرابية) ، وتولى وزارة الأشغال فى وزارة محمود باشا سامى البارودى سنة ١٨٨٢ ، وأسر قبل واقعة التل الكبير ، فكان أسره من أسباب هزيمة الجيش المصرى ، وحوكم ضمن زعماء الثورة ، ونفى إلى سيلان ، وهناك وضع كتابه (البحر الزاخر فى تاريخ العالم وأخبار الأوائل والأواخر) ، وتوفى فى منفاه سنة ١٣١١ هـ (١٨٩٤) ، وبعد وفاته طبع كتابه سنة ١٣١٢ هـ فى أربعة مجلدات



محمد مختار باشا

(١٨٣٥ — ١٨٩٧)

من رجال السيف والقلم ، ولد فى بولاق سنة ١٨٣٥ ، وتلقى التعليم الابتدائى ، ثم تلق الفنون الحربية ، وانتظم فى خدمة الجيش وهو فى الثانية والعشرين من عمره ، وارتقى فى المناصب العسكرية حتى نال رتبة لواء فى سنة ١٨٨٦ ، واشترك فى حملة هرر كما تقدم بيانه ص١٣٣ ، ثم جعل رئيس أركان حرب الجيش المصرى بالسودان ، وعين مأموراً للخاصة الخديوية فى عهد الخديو عباس حلمى الثانى ، وبقى يتولى هذا المنصب إلى أن توفى فى ٢٠ نوفمبر سنة ١٨٩٧

وقد أسبغت عليه حياته العلمية منزلة ممتازة ، ويحسب من المؤلفين والعلماء أكثر مما يعد من رجال الحرب ، وحسبك أنه صاحب الكتاب القيم (التوفيقات الإلهامية فى مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الإفرنجية والقبطية) من السنة الأولى للهجرة إلى عام ١٥٠٠ هـ طبع سنة ١٣١١ هـ

وقد ذكر إزاء كل شهر أهم الحوادث التاريخية التى وقعت فى مصر والعالم ، وله كتاب (المجموعة الشافية فى علم الجغرافيا) ورسائل أخرى فى الرياضيات والفلك ، ومقالات ممتعة فى مجلة الجمعية الجغرافية

شحاته عيسى بك

ناظر مدرسة أركان الحرب فى عهد الخديو اسماعيل

محمد صادق باشا

توفى سنة ١٩٠٢

من تلاميذ مدرسة الخانكة الحربية المنشأة فى عهد محمد على ، ومن أعضاء البعثة الخامسة ، عاد من البعثة مهندساً وانتظم ضابطا فى سلك الجيش ، وهو الذى رافق سعيد باشا فى رحلته بالحجاز ، وعين مفتشا بمصلحة المساحة برآسة استون باشا ، وله مباحث قيمة فى مجلة الجمعية الجغرافية

سليمان قبودان حلاوه

توفى سنة ١٨٨٥

من المنوفية ، ولد سنة ١٢٣٥ ه وتخرج فى مدرسة الطوبجية على عهد محمد على ، وحذق الفنون الحربية والرياضية ، وجعل أستاذا للهندسة والحساب بالمدرسة البحرية القديمة ، ومهر فى الفنون البحريه وأتقنها ، وصار رُبّانا للباخرة سمنود ، فأظهر براعة فى قيادتها ، وطاف بها حول القارة الافريقية ، وجعل فى عهد اسماعيل سنه ١٨٧٠ مدرسا للفنون البحرية والفلكية ، فأفاد التلاميذ فوائد جمة ، وألف فى الملاحة كتابا اسمه (الكوكب الزاهر فى فن البحر الزاخر) وتوفى سنة ١٣٠٣ ه ١٨٨٥ م

النهضة الفنية

ان النهضة الفنية تشتمل على الظواهر المعروفة بالفنون الجميلة ، وهى الفنون التى تستثير فى النفس إحساس الجمال ، وتنمى فيها ملكته ، ولامراء فى أنها من عوامل نهضة الأمة ، لما تنتجه من تهذيب النفوس ، ونشاط العقول ، وترقية العواطف ، وتوسيع المدارك ، وتفتح الأذهان إلى دقة الملاحظة ، وصواب النظر

والـكلام عن الفنون الجميلة يتناول الموسيقى أو الغناء ، والتمثيل ، والرسم ، والتصوير ، والنقش والزخرفة والعمارة

أما الرسم فقد بدأت المدارس الهندسية والصناعية والبعثات تعنى به من عهد محمد على ، فتخرج فيها طائفة من الرسامين تولوا تدريس الرسم فى المدارس العالية والثانوية ، والابتدائية ، ولـكن نهضة الرسم والتصوير لم تنل حظا من الازدهار فى ذلك العهد

وتخرج فى مدرسة المهندسخانة والبعثات مهرة المهندسين فى النقش والبناء ، وتقدم فن العمارة بما أقامه أولئك المهندسون من القصور والمساجد والدواوين والعمائر الجميلة التى تشهد لهم بحسن الذوق والحذق فى هندسة البناء ، وظهر أيضا حذقهم فيما شيدوه من القناطر على النيل والرياحات والترع الكبرى ، فإن بعض هـذه المنشآت تعد قطعة من الفن

التمثيل والغناء

كان المجتمع فى عصر اسماعيل ميالا إلى المرح والحبور ، وكان اسماعيل ذاته طروبا ، محبا للتمتع بالملاهى والمسرات ، وهذه الميول هى غذاء للنهضة الفنية وخاصة الغناء [١] (الموسيقى) ، والتمثيل

أما التمثيل فقد ساعد اسماعيل الناحية الأوروبية منه ، ثم بدت منه التفاتة قليلة الجدوى إلى التمثيل العربى ، فأنشأ أول ما أنشأ بالقاهرة مسرح (الـكوميدى) بالأزبكية ، وكان الشروع فى بنائه فى نوفمبر سنة ١٨٦٧ واحتفل بافتتاحه فى ٤ يناير سنة ١٨٦٨ [٢] ثم بنى دار الأوبرا سنة ١٨٦٩ لمناسـبة الاحتفال بافتتاح قناة السويس ، وتم بناؤها فى خمسة أشهر ، وبلغت تكاليفها ١٦٠ الف جنيه ، ومثلت فيها مساء ٢٩ نوفمبر سنة ١٨٦٩ أول أوبرا واسمها (ريجوليتو) ، وكانت الأمبراطورة أوجينى عقيلة نابليون الثالث فى مقدمة من شهدوا التمثيل فى تلك الليلة ، وعهد اسماعيل إلى الموسيقى الإيطالى الشهير

---

(١) الغناء والموسيقى بمعنى

(٢) كتاب (باريسى فى القاهرة) للمسيو بريير ص١١٧
un parisien au Caire.par Perrieres

(فردى) أن يضع أول أوبرا مصرية تمثل بدار الأوبرا ، فقام بهذه المهمة ووضع العلامة الفرنسى ماريبت باشا موضوع الرواية ، وهى رواية (عايدة) ، ومثلت بالقاهرة لأول مرة فى ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٧١ ، فنالت نجاحا عظيما ، وجلبت الحكومة من ذلك الحين الجوقات الافرنجية وأغدقت عليها الأموال والهبات ، فبلغ ماصرف على أفراد إحدى الجوقات فى شتاء سنة من سنى اسماعيل ١٢٠ الف جنيه ، ولا غرابة فى ذلك فان الممثلة الواحدة كانت تأخذ أحيانا الف ومائة جنيه فى الشهر !

وأنشىء فى الاسكندرية مسرح (زيزنيا) ، ومسرح آخر اسمه ألفيرى Alfieri بشارع انسطاسى

وقد وفد على مصر حوالى سنة ١٨٧٦ جماعة من الأدباء والممثلين السوريين ، منهم يوسف خياط ، فمثلوا على مسرح زيزنيا بعض الروايات ، ثم انتقل يوسف خياط بجوقه إلى القاهرة سنة ١٨٧٨ ، فلقى تعضيداً من الخديو اسماعيل ، وأذن له أن يمثل رواياته فى دار الاوبرا ، فمثل رواية « الظلوم » ، وحضرها الخديو ، فلم يرقه أسلوبها ، وغضب مما تخللها من ذكر الظلم والتعريض بالظالمين ، إذ ظن أنه المقصود بهذا التعريض ، فأمر بإخراج الخياط وجوقه من مصر فعادوا إلى سوريا ، ووقفت النهضة التمثيلية فى عهد اسماعيل عند هذا الحد

الموسيقى (الغناء)

سرت روح النهضة والتجديد إلى الموسيقى والغناء ، فقد كان المغنون يتبعون إلى ذلك العهد الأساليب والتواشيح القديمة ، حتى ظهر (عبده الحمولى) ، المغنى الشهير ، فألهمته عبقريته الموسيقية إصلاح هذه الأساليب وإدخال روح العصر والتجديد فيها



عبده الحمولى

مجدد الغناء فى عصر اسماعيل

ولد عبده الحمولى فى طنطا حوالى سنة ١٨٤٥ ، أى أنه استقبل النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، عصر التجديد الاجتماعى ، لحمل فيه لواء النهضة الغنائية ، وهو ابن تاجرين فى طنطا ، وكان له أخ أكبر منه سنا ، وكان أبوهما يقسو فى معاملتهما ويسىء اليهما بالضرب والاضطهاد ، فلم يطيقا صبرا على هذه الغلظة ، ففرا من عنده وسارا هائمين فى الأرياف ، فساقتهما المصادفة الى رجل يشتغل بالغناء ويعزف على القانون ، فسمع صوت عبده ، فأطربه وأعجب به إعجابا كبيرا ، وعاد به الى طنطا ، وهناك أخذ يغنى معه ، ثم جاء به الى مصر ، فما أن سمعه محبو الطرب حتى اجتذبهم بصوته الجميل ، وظهرت عليه علائم النبوغ الموسيقى ، فترك صاحبه وأستاذه القديم ، وانتقل الى مغن مشهور اسمه (الشيخ المقدم) فاشتغل على تخته ، وأخذت شهرته تذيع فى الأوساط الاجتماعية ، وبدأ يبتكر أساليب جديدة فى الغناء نالت إعجاب أهل الفن وعشاق الطرب ، وبلغت شهرته الخديو اسماعيل فاجتذبه وألحقه بمعيته ، وكان ذلك فاتحة مجده ، إذ أحب فيه الخديو صوته الجميل ، فاتخذه نديمه فى حفلاته وسهراته ، وأغدق عليه الهبات والعطايا ، واصطحبه فى رحلاته الى الاستانة وهناك التقى عبده بالموسيقيين الترك وسمع ألحانهم ، فاقتبس منها مايلائم

الروح المصرية ، وابتكر فى الغناء ألحاناً جديدة هى مزيج من الموسيقى العربية والتركية ، وصار زعيم المجددين فى الموسيقى المصرية ، واستمر يمارس الغناء وينهض بالفن ويطرب الناس طول حياته ، ولا غرو فهو البلبل الصداح الذى كان يحرك أوتار القلوب بصوته العذب ، وألحانه البديعة ، وأنغامه الجميلة ، وقد ظل ثلاثين سنة ونيفا مصدر السرور والطرب ، للأفراد والجماعات ، وكان رقيق المزاج ،دمث الأخلاق، كريم الطباع ، عزيز النفس ، مخلصا لفنه ،ولعا به ، وهذا هو سر نبوغه وعبقريته ،وكانت وفاته سنة ١٩٠١

واشتهر فى عصره بعض السيدات فى الغناء، منهم (ألماس) المغنية المشهورة ،وقد تزوج بها عبده ، ومنعها عن الغناء فى مجالس الناس ، وكانت له من أجل ذلك حادثة استهدف فيها لغضب اسماعيل ، إذ طلب يوماأن تحضر (الماس) إلى قصره وتغنى فيه ، فرفض عبده أن تذهب ، فغضب الخديو ، وأمر بإحضارها قوة واقتداراً ، فاستعصم عبده ، وأصر على الإباء ، ووسط الشيخ على الليثى شاعر الخديو فى الامر ، وانتهت الحادثة بعدول الخديو عن طلبه

وفى هذا العهد نشأ محمد العقاد ، الموسيقى المشهور ، أقدر من ضرب على « القانون » فى العصر الحديث ، وقد أدرك عصر اسماعيل ، وإن كانت شهرته لم تكتمل إلا من بعد ، وصحب عبده الحمولى ، وحاكاه فى توقيعه وأنغامه

وصفوة القول أن عصر اسماعيل كان للنهضة الغنائية عصر الإحياء والتجديد ، وظهر فيه عباقرة الفن ، الذين رفعوا شأنه ، وأحلوه من النفوس مكاناً علياً .

تم الجزء الاول

ويليه الجزء الثانى

(وفيه ختام الكلام عن عصر اسماعيل)

فهرست الجـــزء الأول

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الفصل الخامس

الفصل السادس

الفصل السابع

الفصل الثامن

الفصل التاسع

فهرست الخرائط والصور

فصول الجزء الثانى من الكتاب

تصحيح خطأ

صفحة	سطر	خطأ	صواب
١٠	١٦	مواقبها	عواقبها
٣٠	١	وكان اسعيد باشا ميلا	وكان سعيد باشا ميالا
٣٢	٦	أن	من
٣٢	٧	من	أن
٣٣	١	سفينة	سفنه
٣٧	١٦	سنان بك	شنان بك
٤٠	٢٣	١٨٥٩	١٨٥٨
٤٦	١٠	فكان	فكانا
٤٩	٢١	هذا	هذه
٤٩	٢٥	الفارق	والفارق
٥٦	هامش ١	عند	عن
٥٧	٤	بملىء	بملء
٦٥	١٨	كان	كانت
٨٦	١٦	١٤ أغسطس	٤ أغسطس
٩٩	٤	Inauguisation	Inauguration
١٠٠	١١	ومن هذا	ومن هذه
١٠٠	هامش ٢	١٦٧٧	١٨٧٧
١٠٥	٣	حفون	حافون
١٠٨	٧	١٨٤٠	١٨٤١
١١٢	١٢	١٢٥	١٢١
١١٧	هامش ١	١٢٥	١٢١
١١٩	١٩	١٢٥	١٢١
١٢٢	١١	الدفلاوى	الدفلاي

صفحة	سطر	خطأ	صواب
١٢٦	١٤	فرادلاى	ودلاى
١٣٢	١٢	بولها	بولهار
١٣٨	١١	حفون	حافون
١٣٩	١٩	حفون	حافون
١٤٦	١٦	Lounog	Loring
١٦٦	هامش ١	سنة ج ص ١٨٨٣	سنة ١٨٨٣
١٦٧	١١	١٨٧	١٨٧١
١٧٦	٤	فيها من	فيها مابذلت من
٢١١	١٤	الفهاء	الفقهاء
٢١٨	٣	كل قدر	كل على قدر
٢٢٨	هامش ١	وتعقيمه	وتعميقه
٢٣٤	٢٢	احمد أساتذة	احد أساتذة
٢٥٤	١٣	٨٢٠	١٨٢٠
٢٦٠	١	ناصف	ناصيف
٢٦٢	٨	حلبة	حلية
٢٦٧	١	Nofry	Norry
٢٨٨	٥	تاجرين	تاجر بن

للمؤلف :

حقوق الشعب

يتضمن شرح المبادىء والنظريات والقواعد الدستورية وحقوق الانسان ، طبع سنة ١٩١٢

نقابات التعاون الزراعية

يتضمن تاريخ التعاون الزراعى ومنشآته فى أوروبا ، ونشأة التعاون فى مصر وتاريخه ونظامه وعلاقته بالنهضة الاقتصادية والاجتماعية ، طبع سنة ١٩١٤

الجمعيات الوطنية

صحيفة من تاريخ النهضة القومية ، يتضمن تاريخ الانقلابات السياسية والنهضات القومية فى طائفة من البلدان مع شرح أصول الدساتير ، والنظم البرلمانية فيها ، والمقارنة بينها طبع سنة ١٩٢٢

تاريخ الحركة القومية

الجزء الأول : يتضمن ظهور الحركة القومية فى تاريخ مصر الحديث ، وبيان الدور الأول من أدوارها ، وهو عصر المقاومة الأهلية التى اعترضت الحملة الفرنسية فى مصر ، وتاريخ مصر القومى فى هذا العهد

الجزء الثانى : من اعادة الديوان فى عهد نابليون الى ولاية محمد على الكبير

عصر محمد على

يتناول تاريخ مصر القومى فى عهد محمد على

عصر اسماعيل

الجزء الأول : يشتمل على عهد عباس وسعيد وأوائل عهد إسماعيل

الجزء الثانى : وفيه ختام الكلام عن عهد اسماعيل

الثورة العرابية

والاحتلال الانجليزى

مصر والسودان

فى أوائل عهد الاحتلال

تاريخ مصر القومى من سنة ١٨٨٢ الى سنة ١٨٩٢

مصطفى كامل

باعث الحركة الوطنية

تاريخ مصر القومى من سنة ١٨٩٢ الى سنة ١٩٠٨

محمد فريد

رمز الإخلاص والتضحية

تاريخ مصر القومى من سنة ١٩٠٨ إلى سنة ١٩١٩

ثورة سنة ١٩١٩

تاريخ مصر القومى من سنة ١٩١٤ إلى سنة ١٩٢١

الجزء الأول : يشتمل على شرح حالة مصر وحوادثها التاريخية أثناء الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) ، وبيان الأسباب السياسية والاقتصادية والاجتماعية للثورة ، وتطور الحوادث من بعد انتهاء الحرب إلى شبوب الثورة فى مارس سنة ١٩١٩ ، ثم وقائع الثورة فى القاهرة والأقاليم

الجزء الثانى : وفيه الكلام عن مهادنة الثورة ، واستمرارها ومحاكمات الثورة . ولجنة ملنر والحوادث التى لابستها . ومفاوضات ملنر . واستشارة الامة فى مشروع ملنر ، والتبليغ البريطانى بأن الحماية علاقة غير مرضية ، ونتائج الثورة فى حياة مصر القومية

فى أعقاب الثورة المصرية

الجزء الأول : تاريخ مصر القومى من ابريل سنة ١٩٢١ إلى وفاة المغفور له « سعد زغلول » فى ٢٣ أغسطس سنة ١٩٢٧

